تراجم إسلامية
شرقية وأندلسية

تأليف

محمد عبد الله عنان

الطبعة الثانيـــة
نقحت وضمت إليها تراجم جديدة

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

الطبعة الثانية
١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م
الحقوق كلها محفوظة للمؤلف

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

تناولت فى الأعوام الأخيرة ، وفى فرص ومناسبات مختلفة ، بالترجمة طائفة من أعلام التاريخ الإسلامى ، فى مختلف العصور والدول ، واجتمعت لدى منها طائفة مختارة ، رأيتها جديرة بأن تنشر مجتمعة فى مجلد خاص .

وتشغل تراجم العظماء فى آداب الأمم والحضارات العظيمة أسمى مكانة ، فأقطاب القادة والمفكرين ، والأمراء والساسة ، وأقطاب العلم والأدب والفن من كل ضرب ، هؤلاء جميعاً يأخذون مقامهم فى التاريخ القومى العام ، ثم يأخذون مكانهم فى تراجم خاصة ، تذهب أحياناً إلى البحوث النقدية المستفيضة التى تشغل مجلدات بأسرها ، وتخصص للمراجعة العامية والدراسة العليا ، وتقتصر أحياناً على صور موجزة ، ولكن قوية شاملة تخصص لدرس الشباب والقراءة العامة ؛ ويخص هؤلاء العظماء بالدرس فى كل وقت وعصر ، وقد يصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، وكل منها تمتاز بمميزاتها الخاصة ، ولها مقامها العلمى والأدبى الخاص .

ولدينا من التراجم الخاصة فى الأدب العربى القديم تراث حافل ، وقد بدأت العناية بها فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثانى للهجرة يعنى الرواة والمؤرخون المسلمون بالسير والتراجم المفردة ، وفى مقدمتها سيرة النبى العربى وصحابته ، وسير أقطاب الخلفاء والقادة فى عصور الإسلام الأولى . وقد لبثت تراجم العظماء الخاصة مدى قرون ، تملأ فراغاً كبيراً فى الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة عند نوع معين من العظماء ، بل شملت سير الخلفاء والقادة والأئمة ، ورجال السيف ، والقلم ، والملوك والوزراء ، والعلماء والكتاب والشعراء من كل ضرب ؛ ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة ، التى تعنى بسير طوائف معينة أو أعلام عصر معين ، ومنها التراجم والسير الفياضة . وفى الآداب العربية من هذه وتلك تراث

شاسع قد لا تحظى به أية آداب أخرى ، إذ استثنينا العصر الحديث الذى ركدت فيه الآداب العربية ؛ بيد أن هذا التراث يقف مع الأسف عند بدء تاريخ الأمم الإسلامية الحديث ، وينقطع سيره فلا نكاد نظفر فى ذلك بآثار قيمة فى التراجم العامة أو الخاصة ، وهذه ثغرة فى آدابنا التاريخية لم نوفق إلى تداركها حتى اليوم .

وقد بلغ فن الترجمة العربية أوج ازدهاره منذ القرن السابع الهجرى ؛ وإذا لم يكن يتسع المقام للإفاضة فى استعراض آثار السير والتراجم العربية الخاصة ، فإنا نرى أن نخص بالذكر منها موسوعة العلامة القاضى شمس الدين بن خلكان « وفيات الأعيان » التى اشتملت على تراجم العظماء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعا ، فهو موسوعة شاسعة تحتوى على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الإسلامية شرقاً وغربا ؛ ومنها تراجم فياضة ؛ ومنها تراجم موجزة ؛ ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصوير . ونستطيع أن نقول إن ابن خلكان هو أول مؤرخ عربى جعل من الترجمة الخاصة فناً حقيقياً .

على أن الترجمة العربية القديمة لم تعرف الأسلوب النقدى ، ومنهج التحقيق العلمى دائماً ، بل لم تعرفه إلا فى فترات قليلة ، وفى أمثلة نادرة معينة ، مثل تراجم العلامة شمس الدين السخاوى المصرى فى معجمه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، فهى بالرغم مما يقترن بها فى بعض الأحيان من حملات قاسية ، أسطع مثل للترجمة العربية النقدية ؛ ويرجع هذا النقص الفنى فى الترجمة العربية إلى أنها ازدهرت فى عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية . ومع ذلك فإنها تمتاز بغزارة المادة وبكثير من عناصر التحقيق التاريخى ، وفى وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها مادة نفيسة تصلح للبحث العلمى النقدى .

* * *

وقد ترجمت فى هذا الكتاب لثمانى عشرة من أعلام التاريخ الإسلامى[١] ، دون تقيد بالعصور أو الدول . بيد أنى عنيت أن تكون هذه التراجم نماذج متباينة لشخصيات لها مميزاتها الخاصة . ولا ريب أن شخصيات مثل هرون الرشيد ، وست الملك الفاطمية ، وشجرة الدر ، والحسن الصباح ، وتيمورلنك ،

---

(١) هم فى هذه الطبعة الجديدة ثمانية وعشرون .

وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، والمهدى ابن تومرت ، تبدو بمميزاتها الخاصة نماذج فريدة فى التاريخ الإسلامى ، تستحق قبل غيرها أن تعرض فى أثواب حية محدثة ، وهو ما حاولته فى التراجم التى يضمها هذا السفر . وقد خُص البعض منها بالإضافة كتراجم هرون الرشيد وشجرة الدر وعبد الرحمن الناصر ، واقتصرت بالنسبة للبعض الآخر على تقديم صور موجزة ولكن مركزة شاملة ، واتبعت فيها جميعاً منهج التحقيق التاريخى المدعم بأسانيده ، وقصدت فيها جميعاً إلى تبيان الخصائص البارزة للشخصيات التى تناولها .

ونظمت هذه المجموعة من التراجم الإسلامية فى كتابين : الأول يضم تراجم شخصيات الشرق الإسلامى ، والثانى يضم تراجم شخصيات المغرب والأندلس ، واتبعت الترتيب التاريخى فى تبويب الكتابين .

وأرجو أن يجد الشباب فى استعراض سير هذه الشخصيات الإسلامية المنوعة ، فى أثوابها المحدثة ، حافزاً له على أن يخص التاريخ الإسلامى وشخصياته البارزة بمزيد من إقباله وعنايته ؛ فسير العظماء الذاهبين زينة التاريخ القومى ، والتاريخ القومى غذاء الشعور الوطنى ، ومن الماضى المجيد ومن سير الأبطال الذاهبين . تستمد الشعوب الفتية كثيراً من عناصر القوة الأدبية والقدوة المثلى .

القاهرة فى صفر سنة ١٣٦٦
يناير سنة ١٩٤٧

محمد عبد الله عنان

تصـــــدير

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، وشغلت عن النظر فى إعادتها وتنقيحها ، بالعمل المتواصل فى إخراج موسوعة تاريخ الأندلس مشتملة على سبعة مجلدات كبيرة ، وقد استغرقت من حياتى خمسة وعشرين عاماً .

والآن ، وبعد أن تم بعون الله ظهور تاريخ الأندلس بسائر عصوره ، فقد انتهزت الفرصة لمراجعة هذه المجموعة من التراجم ، وتزويدها بطائفة من التراجم الجديدة . فأما عن المراجعة ، فقد تناولت بالتنقيح والزيادة عدة تراجم ، هى صقر قريش ، ويحيى الغزال ، وعبد الرحمن الناصر ، والمعتمد بن عباد ، ويوسف ابن تاشفين ، ومحمد بن الأحمر الكبير ، والمقرى ، وكتبت ترجمة جديدة وافية للمهدى ابن تومرت ، وقمت بحذف ترجمتين هما ترجمة ، سنان شيخ الجبل ، وأبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس . وأما عن الإضافة ، فقد زودت هذه المجموعة بثلاث عشرة ترجمة جديدة ، منها اثنتان فى الكتاب الأول ، وهما ترجمة الملك الناصر صلاح الدين ووزيره بهاء الدين قراقوش ، وأحد عشر ترجمة ، كلها من أعلام التفكير فى الغرب الإسلامى ، وهم عباس بن فرناس ، وابن حيان ، وأبو بكر بن عمار ، وأبو بكر الطرطوشى ، وابن بسام ، والشريف الإدريسى ، وابن طفيل ، وابن جبير ، وأبو العباس بن الرومية ، وابن الأبار القضاعى ، والحسن بن الوزان الفاسى ، وقد أدرجت كلها فى الكتاب الثالث .

وقد قسمت هذه المجموعة إلى ثلاثة كتب : الأول يضم تراجم شخصيات الشرق الإسلامى ، والثانى يضم تراجم شخصيات المغرب والأندلس ، والثالث يضم أعلام التفكير فى الغرب الإسلامى .

وأود أن أشير هنا إلى أنى لم أحاول تذييل هذه الفصول بسائر المراجع التى رجعت إليها ، اللهم إلا فى مواطن قليلة ، كتراجم الحسن بن الصباح ، وشجرة الدر ، وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، والمهدى ابن تومرت ،

والمقرى ، ذلك لأنى أردت أن يكون معظم هذه التراجم نماذج مفرغة فى قالب من التلخيص والبساطة يسهل تناوله والانتفاع به ، وقد قمت مع ذلك بذكر أهم المراجع فى ثبت خاص فى آخر الكتاب ليرجع إليه من شاء المزيد .

وإلى جانب هذه التراجم الإسلامية الموجزة ، أود أن أذكر هنا أنى قمت بوضع ثلاث تراجم مستقلة مستفيضة ، أولها للحاكم بأمر الله ، والثانية لابن خلدون ، والثالثة للوزير ابن الخطيب ؛ وقد ظهرت الترجمتان الأولى والثانية منذ مدة طويلة[1] . وظهرت ترجمة ابن الخطيب فى أوائل سنة ١٩٦٨ .

وأرجو فى الختام ، كما سبق أن رجوت فى مقدمة الطبعة الأولى ، أن يجد الشباب فى استعراض سير هذه الشخصيات الإسلامية المنوعة ، حافزاً له على أن يخص التاريخ الإسلامى وشخصياته البارزة بمزيد من إقباله وعنايته .

القاهرة فى رجب سنة ١٣٩٠
الموافق سبتمبر سنة ١٩٧٠

محمد عبد الله عنان

---

(١) ظهرت الطبعة الثانية من كتاب « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية» فى سنة ١٩٥٩ ، وظهرت الطبعة الثالثة من « ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى » فى سنة ١٩٦٥ .

الكتاب الأول

تراجم شرقية

١

هرون الرشيد

(١٤٨ – ١٩٣ هـ) ، (٧٦٥ – ٧٠٩ م)

يثير اسم هرون الرشيد وتثير ذكريات عصره ، فى النفس أيما إجلال وروعة ؛ وليس مرجع ذلك فقط إلى أن الرشيد كان من أعظم خلفاء الإسلام ، وأعظم أمراء العصور الوسطى ، وأن الدولة العباسية بلغت فى عصره ذروة القوة والبهاء ؛ ولكنه يرجع بالأخص إلى شخصية الرشيد ذاته ، وإلى ما كان يتمتع به من مواهب وخلال باهرة ، تجمع بين الفروسة المثلى ، والبراعة فى شئون الحرب والسياسة ، وصفات الحاكم الأمثل ؛ وبين التقى والورع ، والفخامة الرائعة والبذخ الطائل ؛ وبين الحزم والصرامة ، والعواطف الإنسانية المؤثرة ؛ فهذا المزيج المدهش من الصفات والخلال البارعة ، هو الذى يضفى على الرشيد لوناً زاهياً من العبقرية ، ويفسح لشخصيته مكانتها الحقة فى التاريخ بين أعظم شخصيات العصور الوسطى .

تولى الرشيد الخلافة بعد أن استقرت شئون الدولة العباسية وتوطدت دعائمها ، وأخذت تشق طريقها قدماً إلى المجد ، وتولاها فتى فى عنفوانه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره . وكان مولده «بالرّىّ»[1] فى آخر ذى الحجة سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م)[2] وأبوه الخليفة المهدى (محمد بن أبى جعفر المنصور) ثالث خلفاء بنى العباس ، وأمه « أم ولد »[3] هى الخيزران الشهيرة فى سير العصر ، وقد أنجبت من قبله شقيقه الأكبر موسى الهادى الذى تولى الخلافة عقب وفاة أبيه المهدى سنة ١٦٩ هـ ، ولم يطل أمد خلافته سوى عام وبضعة أشهر ، ثم توفى شاباً فى ظروف غامضة . وقيل إن أمه الخيزران دست عليه جواريها أثناء مرضه فأجهزن عليه خنقاً ؛ وكان الهادى حينما رأى تدخل أمه فى شئون الدولة ، جرياً على ما كانت عليه أيام أبيه المهدى ، يعمل على الحد من نفوذها وتدخلها ، وإرغامها على التزام العزلة ، فوجدت عليه ؛ وزاد فى سخطها وتوجسها ما كان

---

(١) هى عاصمة فارس أيام الدولة الإسلامية ، وكان موقعها على مقربة من طهران الحديثة .

(٢) وتضع بعض الروايات مولده فى سنة ١٤٩ هـ أو فى ذى الحجة سنة ١٥٠ هـ . وهى رواية الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥) .

(٣) « أم الولد » هى الجارية متى أنجبت من سيدها ، وعندئذ لا يجوز التصرف فيها .

يعتزمه المهدى من خلع أخيه هرون من ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر ، وهى تحب ولدها هرون وتؤثره ، فقيل عندئذ إنها دبرت أمر اغتياله[1] .

وأخذت البيعة للرشيد عقب وفاة أخيه فى منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) فكان خامس الخلفاء من بنى العباس ، ومما هو جدير بالذكر أن المأمون ولد الرشيد ولد فى تلك الليلة من منتصف ربيع الأول ، فاجتمعت له البشارة بالخلافة والولد . وكان يقال فى هذه الليلة ولد خليفة وولى خليفة ، وتوفى خليفة . واستوزر الرشيد مربيه ومؤدبه يحيى بن خالد البرمكى ، وفوض إليه تدبير الأمور ، فكان ذلك فاتحة العهد الذى تألق فيه نجم الأسرة الشهيرة ، التى سيطرت فيما بعد على سائر مناحى السلطان والنفوذ . وأبدى الرشيد منذ البداية مقدرة فائقة فى تسيير شئون الدولة ، والسهر على سلامتها ورخائها ؛ وسرعان ما ظهرت عبقرية الخليفة الفتىّ متعددة النواحى ، وأخذت خلاله القوية تسطع فى ميادين السلم والحرب معاً : فى الحكم والإدارة ، وفى الجود والبذخ والبهاء ، وفى حماية العلوم والآداب ؛ وتنوه الرواية فوق ذلك كله بما كان عليه الرشيد من التقى والورع ، فتقول لنا إنه كان يصلى كل يوم مائة ركعة ، ويتصدق من ماله بألف درهم ، وإنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، فإذا سار إلى الحج اصطحب للحج معه رهطاً كبيراً من العلماء ، وإذا لم يسر إليه أرسل للحج على نفقته ثلاثمائة رجل . ومهما كان يطبع هذه الرواية من مبالغة ، فإنها تدل بلا ريب على ما كان يحرص عليه الرشيد فى هذه الناحية من صفات تتفق مع مكانته كزعيم الإسلام الروحى .

— ١ —

ولنبدأ بحوادث عصر الرشيد فى ميدان الحرب والجهاد ، وهى حوادث اشترك الرشيد فيها بنفسه فى عدة مواطن . وقد عرف الرشيد ميدان الحرب وقيادة الجيوش والغزوات فتى حدثاً ، فسار مع أبيه المهدى سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩م) حينما سار لغزو بلاد الروم (الدولة البيزنطية) . وقاد الرشيد الجيش بنفسه إلى هضاب الأناضول ، واستولى على عدة من الحصون وعاد ظافراً ، ولم يكن يجاوز الخامسة عشرة من عمره .

---

(١) ابن الأثير (مصر) ج ٦ ص ٣٣ و ٣٤ . والفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٢٨ و ٢٣٦ .

ولم يمض عامان على ذلك حتى سير المهدى ولده الرشيد إلى أراضى الدولة البيزنطية مرة أخرى على رأس جيش ضخم ، وذلك فى صيف سنة ١٦٥ هـ (٧٨٢ م) ؛ وكانت الصوائف الإسلامية أو الغزوات الصيفية لأراضى الروم ، ما تزال تحتفظ يومئذ بكل قوتها وحماستها ، فتوغل الرشيد فى هضاب الأناضول حتى اقترب من شواطئ البوسفور . وكان على عرش قسطنطينية يومئذ قيصر طفل هو قسطنطين السادس ، ومقاليد الحكم بيد والدته والوصية عليه الإمبراطورة إيرينى التى تسميها الرواية الإسلامية « رينى » وتلقبها « أغسطه » وهو تحريف لكلمة « أوجستا » أى القيصرة ، فهزم المسلمون الجيش البيزنطى هزيمة شديدة ، وأشرفوا على أسوار قسطنطينية ، واضطرت الإمبراطورة إيرينى أن تعقد مع المسلمين الصلح لمدة ثلاثة أعوام ، وأن تتعهد بأن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار ، وأن تقيم للرشيد الأدلاء والأسواق ، تسهيلا لعودته فى شعب الأناضول الوعرة ؛ وعاد الرشيد إلى بغداد ظافراً مثقلا بالغنائم والسبى .

ولما تولى الرشيد الخلافة استمرت الصوائف على حالها ، وكان الرشيد يحرص على تسييرها ما استطاع ؛ وليس فيما تردده بعض الروايات الإسلامية من أن الرشيد كان يغزو عاماً ويحج عاماً كبير مبالغة فيما يظهر ؛ فنى وسعنا أن نحصى من الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية فى عهد الرشيد الذى استمر ثلاثة وعشرين عاماً أكثر من اثنتى عشرة غزوة ، وقد قاد الرشيد منها بنفسه عدة غزوات ، وسير الباقى تحت إمرة بعض أبنائه أو أكابر قادته .

وهكذا سيرت الصوائف أو الغزوات الصيفية تباعاً إلى أراضى الدولة البيزنطية فى أعوام ١٧٠ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٧ هـ ؛ ولم تكن هذه الغزوات المتوالية تقصد إلى فتوحات كبيرة ثابتة الأثر ، بل كانت ترمى فى الغالب إلى إنهاك قوى الدولة البيزنطية ، وذلك بالعيث فى أراضيها وانتساف حصونها ومروجها ، وتحصيل ما يمكن تحصيله من السبى والغنائم .

وفى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) خرج الرشيد إلى مقاتلة الروم (البيزنطيين) بنفسه ، وكان الروم قد نقضوا المعاهدة التى عقدوها أيام المهدى ، وتعهدوا فيها بدفع الجزية ؛ وسار الرشيد إلى الأناضول وافتتح حصن الصفصاف ، وسير عبد الملك بن صالح فى جيش ضخم ، فتوغل فى آسيا الصغرى وهزم الروم هزيمة

فادحة ، وبلغ فى زحفه أنقرة واستولى على مطمورة ، فاضطر الروم إلى عقد الصلح وتعهدوا بأداء الجزية المقررة ، وعقد بين الفريقين أيضاً أول اتفاق لتبادل الأسرى ، ونظم الفداء الأول فى ثغر طرسوس ، وتولاه القاسم ولد الرشيد ، وفيه افتدى من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة ، فى حفل عظيم شهده العلماء والأعيان وخلق عظيم من الجند وأهل الثغور .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٨٢ هـ غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح أرض الروم وأثخن فيها ، ووصل فى سيره المظفر حتى مدينة أفسوس . وفى سنة ١٨٣ هـ سير الرشيد جيشاً إلى أرمينية لحمايتها من الخزر ، الذين أغاروا عليها وأوقعوا هنالك بالمسلمين .

* * *

وفى ذلك الحين وقعت فى الدولة البيزنطية حوادث داخلية ذات شأن . ذلك أن إيرينى حينما كبر ولدها قسطنطين وحاول أن يستأثر بالسلطة ، سخطت عليه ثم دبرت بمعاونة رجال الخاص مؤامرة لخلعه ، فقبض عليه وسجن بالقصر حيناً ، وبلغت القسوة بأمه الغادرة أن أمرت به فسملت عيناه ، ثم اعتلت العرش ونادت بنفسها قيصرة (أوجستا) وذلك سنة ٧٩٧ م (١٨٢ هـ) .

وحكمت إيرينى بضعة أعوام بمعاونة أصدقائها وفى مقدمتهم الوزير نيسفوروس (نقفور فى الرواية العربية) كبير الخزائن . ثم بدا لنيسفوروس أن ينتزع العرش لنفسه فاستمال إليه بطانة القيصرة ، وفوجئت إيرينى ذات ليلة فقبض عليها وسجنت ، واعتلى نيسفوروس عرش القياصرة وذلك فى سنة ٨٠٢ م (١٨٦ هـ) .

وكان الرشيد قد شغل أثناء ذلك ببعض الفتن والحوادث الداخلية فى خراسان وطوس ونيسابور ، ففتر أمر الصوائف مدى ثلاثة أعوام أو أربعة . وفى صيف سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) بعث الرشيد ولده القاسم فغزا أرض الروم وحاصر بعض الحصون الهامة ، فطلب الروم الصلح ، وبعثوا إلى القاسم عدداً كبيراً من الأسرى المسلمين ، فأجابهم إلى الصلح وعاد أدراجه .

وما كاد الإمبراطور نيسفوروس (نقفور) يعتلى العرش حتى وجه اهتمامه إلى قمع الغزوات الإسلامية التى خربت أراضى الدولة وأنهكت قواها ، وبادر بفسخ المعاهدة التى عقدتها الإمبراطورة إيرينى ، وقطع الجزية التى تعهدت

بأدائها ؛ ولنقفور والرشيد فى ذلك قصة شهيرة ترددها الرواية الإسلامية ، وهى أن نقفور كتب إلى الرشيد كتاباً هذا نصه :

« من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها . لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

ويروى أن الرشيد لما قرأ هذا الكتاب ، اشتد غضبه وكتب على ظهره ما يأتى رداً على نقفور :

« من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة . والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » .

ومع أن الرواية البيزنطية لا تذكر شيئاً عن هذه المكاتبة بين نقفور والرشيد ، فإنها تتفق مع الرواية الإسلامية فى أن تخلف نقفور عن أداء الجزية ، كان سبباً فى استئناف الحرب بين المسلمين والروم . وتقول الرواية الإسلامية إن الرشيد سار تواً فى قواته إلى آسيا الصغرى واخترقها حتى هرقلة الواقعة على جبال طوروس ، وأثخن فى تلك الأنحاء وغنم غنائم عظيمة ، ولم يقو نقفور على المقاومة ، فاضطر إلى طلب الصلح والتعهد بأداء الجزية . ولكن الواقع أن الرشيد لم يسر إلى فتح هرقلة إلا بعد ذلك بعامين حسبما نفصل . بيد أنه أوفد عندئذ إلى قتال نقفور جيشاً ضخماً بقيادة إبراهيم بن جبريل ، والتقى الفريقان فى « كراسوس » من أعمال فريجيا ، فهزم الروم هزيمة شنيعة وقتلت منهم جموع عظيمة (١٨٨ هـ — ٨٠٣ م) . وشغل الرشيد فى العام التالى بحوادث « الرى » ثم تأهب فى العام الذى يليه لقتال الروم .

وفى سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) خرج الرشيد إلى قتال نقفور فى جيش ضخم تقدره الرواية الإسلامية بمائة وخمسة وثلاثين ألفاً سوى الأتباع والمتطوعة ، ونزل فى طوانه واتخذها مركزه وابتنى بها مسجداً ، وبعث جيشاً بقيادة داود بن عيسى ابن موسى ، فسار إلى أنقرة وخربها واستولى عليها ؛ وسار الرشيد بنفسه إلى هرقلة فافتتحها وسبى من أهلها جموعاً عظيمة . ولما رأى نقفور نفسه عاجزاً عن مقاومة هذا السيل الجارف أذعن لطلب الصلح ، وبعث إلى الرشيد سفارة على

رأسها أسقف « سينادا » ، فعقد السفراء مع الرشيد معاهدة تعهد بها نقفور ألا يعيد بناء حصون الحدود التى هدمها المسلمون ، وأن يدفع جزية سنوية قدرها الاثون ألف قطعة من الذهب ، يضاف إليها أربع قطع عن نفسه وقطعتان عن ولده ، وذلك رمزاً لخضوع قيصر الرومان وولى عهده لأمير المؤمنين .

ولكن الرشيد ما كاد يعود بجيشه عند دخول الشتاء إلى الرّقة وكانت يومئذ منزله ، حتى نكث نقفور عهده معتقداً أن الرشيد لن يستطيع العود إلى قتاله خلال الشتاء ، ولكنه أخطأ الظن ، فإن الرشيد ما كاد يقف على غدر نقفور حتى ارتد أدراجه إلى أرض الروم ، واخترق جبال طوروس وقد غطتها الثلوج ، وهزم نقفور فى معركة دموية قتل فيها من الروم أربعون ألفاً . وفر نقفور جريحاً واضطر إلى طلب الصلح ، فأجابه الرشيد إلى طلبه وعاد ظافراً[1] .

وفى ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليـــه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإلـه كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا بالنصر فيه لواؤك المنصور

ولم يمض سوى قليل حتى عاد نقفور إلى نكثه ، وزاد على ذلك أن أغار على الأراضى الإسلامية . وكان الرشيد يومئذ بالرّقة التى اتخذها مقامه فى أواخر عهده ، فاستخلف عليها ولده المأمون ، وسار إلى قتال الروم فى جيش ضخم ، واقتحم آسيا الصغرى من الجنوب إلى الشمال ، واستولى المسلمون على قونية وأفسوس وماسية ونيقية وغيرها ، ووصلوا فى زحفهم حتى ثغر هرقلة الواقع على البحر الأسود واستولوا عليه ، وهزم الروم فى جميع المواقع ، وبعث الرشيد حملة بحرية إلى مياه الدولة البيزنطية الجنوبية ، فغزت قبرس وأرغمت حاكمها الأسقف على افتداء نفسه ودفع الجزية ، ثم غزت رودس وعاثت فيها . ونقض أهل قبرس العهد ، فوجه إليهم الرشيد حملة ثانية أخضعتهم وحملت منهم عدداً كبيراً من الأسرى .

ولما رأى نقفور عبث المقاومة وما انتهت إليه حال جيوشه ومملكته ، عاد إلى

(١) يضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة فى سنة ١٨٨ هـ باعتبار أنها هى الغزوة التى قادها ابراهيم بن جبريل . ولـكن المرجح ما ذكرناه ؛ وهذا ما تؤيده الرواية البيزنطية .

طلب الصلح وتأكيد عهده فى دفع الجزية وعاد الرشيد إلى مهادنته .

وقام الرشيد خلال حكمه بقمع عدة ثورات وفتن داخلية وقعت فى مختلف أطراف مملكته الشاسعة ، فى خراسان وأرمينية والشام ومصر وإفريقية . وكان منها عدة فتن حاول الشيعة إضرامها . وكانت الدولة العباسية تتوجس بالأخص من تحرك الشيعة وظهورهم فى ميدان الحوادث . ففى سنة ١٧٦ هـ خرج ببلاد الديلم يحيى بن عبد الله بن الحسن من ولد على بن أبى طالب وقوى أمره ، فسير إليه الرشيد حملة انتهت بإخضاعه وأسره ؛ وقبض الرشيد أيضاً على موسى الكاظم ابن جعفر الصادق واعتقله حتى توفى . وفى سنة ١٩٢ هـ سير الرشيد حملة إلى أذربيجان لقمع ثورة من نوع خاص هى ثورة الخرمية أو أتباع بابك الخرمى . وكانت ثورة شيوعية إباحية خطيرة ، فأوقعت بهم ، وافتتحت معاقلهم ، وسبت منهم جموعاً كثيرة ، وقضت على هذا الخطر الاجتماعى الخطير فى مهده .

وهكذا يحفل عصر الرشيد بصنوف المعارك والغزوات المستمرة ؛ بيد أنه يمكن أن نلاحظ أن غزوات الرشيد لم تكن تقصد إلى فتوحات ثابتة والاستيلاء على أراض جديدة ؛ وإنما كانت تقصد بالأخص إلى إنهاك قوى الدولة البيزنطية جارة الدولة العباسية وخصيمتها القوية ، وإلى المحافظة على حدود الدولة العباسية وأطرافها المترامية ؛ وقد وفق الرشيد فى ذلك كل التوفيق . فقضى مدى حين على قوى الدولة البيزنطية ، وغدت الدولة العباسية فى عصره أوفر ما يكون قوة وأمناً وسلاماً .

— ٢ —

هذا ويجدر بنا أن نستعرض أحوال مصر فى عهد الرشيد بنوع خاص لما كان لها بين ولايات الخلافة من مكانة خاصة .

كانت مصر منذ سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ولاية عباسية ، تلقتها الدولة العباسية فيما تلقت من تراث الدولة الأموية الشاسع ، بيد أنها كانت تحتفظ دائماً بين الولايات الخلافية بمركزها الممتاز الذى كانت تحتفظ به منذ الفتح الإسلامى . وكانت أيام الدولة الأموية قاعدة الفتوحات والغزوات الإسلامية فى شمال إفريقية ، ولكن الدولة العباسية لم تتلق من تراث بنى أمية غرب مصر سوى طرابلس وإفريقية (تونس) وحتى فى هذه المنطقة المضطربة ، لم تكن تتمتع بأية سلطة حقيقية .

ولم يلبث أن قامت بإفريقية فى عصر الرشيد وبموافقته ، دولة جديدة مستقلة هى دولة الأغالبة ، تنضوى تحت لواء الخلافة الإسمى ، وتشرف على شئون طرابلس ، وبذا غدت مصر حد الدولة العباسية ومعقلها من جهة الغرب ، فكان ذلك يسبغ عليها فى نظر الخلافة أهمية خاصة من الناحيتين السياسية والعسكرية .

وتعاقب على مصر فى عهد الرشيد عدد كبير من الولاة يبلغ زهاء العشرين . وكانت مدينة « العسكر » التى أنشأها العباسيون شمالى الفسطاط هى عاصمة مصر الإسلامية يومئذ ، واستمرت كذلك حتى قيام الدولة الطولونية وقيام مدينة القطائع عاصمتها الجديدة فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) . والواقع أن ولاة مصر أيام الدولة العباسية لم يكن مكثهم فى مناصبهم يتعدى أشهراً أو عاماً إذا استثنينا القليل منهم . وقد كان هذا شأنهم أيام الرشيد . والظاهر أنها كانت سياسة مرسومة ، ترمى بها الخلافة إلى اتقاء ما قد يجيش به الولاة الأقوياء من أطماع خطرة . ومما يلاحظ أيضاً أن ولاة مصر أيام الرشيد كان معظمهم من الأسرة العباسية ذاتها . ومنذ سنة ١٧٥ هـ نرى ثبت ولاة مصر طوال أيام الرشيد مع استثناء ثلاثة أو أربعة كله عباسياً ، ومنهم عدد من خاصة بنى العباس وأقرب الناس إلى الخليفة مثل موسى ابن عيسى وقد ولى مصر ثلاث مرات ، وإبراهيم بن صالح وقد وليها مرتين ، وعبد الله بن المهدى أخى الرشيد وقد وليها ثلاث مرات ، وغيرهم من خاصة الأسرة وأبناء عمومة الخليفة . ونستطيع أن نحمل هذا الاختيار على بواعث العصبية والثقة الخاصة ، أكثر مما نحمله على بواعث الاصطفاء المجرد ، وقد كانت الدولة العباسية تعتمد على عصبية الأسرة فى توطيد سلطانها ، وفى السيطرة على الجيش ، فكان كثير من القادة وعمال النواحى الهامة من أقطاب الأسرة ذاتها .

وكانت مصر أيام الرشيد وطوال أيام الدولة العباسية من أخصب ولايات الخلافة فى الموارد والخراج . وقد انتهت إلينا بعض الأرقام عن خراج مصر فى تلك الفترة ، فقيل إن موسى بن عيسى حمل معه أثناء ولايته إلى الرشيد أكثر من ألفى ألف (مليونى) دينار بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف . وكان خراج مصر يبلغ يومئذ أكثر من أربعة آلاف ألف دينار . والظاهر أن تشدد الولاة فى أمر الخراج وتوفيره ، كان يصل أحياناً إلى حدود لا تطاق ، فقد وقع فى مصر فى تلك الفترة أكثر من ثورة من جراء التعسف فى فرض الخراج وتحصيله .

وليس فى حوادث مصر الداخلية أو العامة فى ذلك الحين ما يستحق الذكر سوى القليل ؛ فلم تشترك مصر يومئذ فى مشاريع الخلافة أو حملاتها العسكرية ، وقد كانت تنحصر يومئذ فى ولاياتها الشرقية والشمالية ، ولاسيما هضاب آسيا الصغرى ، حيث كانت الحرب تضطرم بلا انقطاع بين جيوش الخلافة والدولة البيزنطية . بيد أن مصر ساهمت بالجند والمال فى إخماد الثورة فى إفريقية سنة ١٧٨ هـ ؛ وفى العام التالى سار عبد الله بن المهدى والى مصر فى الجيش إلى الإسكندرية لرد الفرنج (الروم) عنها وقد حاولوا النزول فيها . وفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) وقع بمصر زلزال عظيم أحدث بها كثيراً من الذعر والتخريب ، وأصاب منارة الإسكندرية الشهيرة فسقطت قمتها .

وكانت مصر على العموم تجوز فى عهد الرشيد فترة من السكينة والرخاء ، ولم تكن بمعزل عن تلك النهضة القوية التى شملت أنحاء الخلافة كلها فى هذا العصر الزاهر ، وقد كانت فوق ذلك تجيش بنهضتها الخاصة الفكرية والاجتماعية . بيد أنها كانت بالرغم من اندماجها فى الوحدة الخلافية الكبرى ، تحتفظ بكثير من روحها المستقل وشخصيتها الممتازة ، وقد استطاعت أن تحتفظ بهما دائماً فى جميع العصور والدول الإسلامية .

— ٣ —

لبث الرشيد سبعة عشرة عاماً يعمل على توطيد أركان الدولة وهيبتها فى الداخل والخارج . وبالرغم من أنه كان يهتدى فى حكمه بروح مستنير خير ، يرجع إلى طبيعة نفسه وخلاله ، فإنه كان يسير على نفس الأساليب المطلقة التى سار عليها دائماً أمراء العصور الوسطى. وكان يقتفى فى ذلك بنوع خاص آثار جده المنصور ، من الصرامة والحزم والقسوة فى معاملة الخارجين على الدولة وعلى سلطان أمير المؤمنين .

وقد كانت نكبة الرشيد للبرامكة فى سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) من أشهر حوادث ذلك العصر ، الذى بلغت فيه الدولة العباسية ذروة القوة والفتوة . وكانت فى الوقت نفسه صفحة مظلمة فى ذلك العصر المتألق . بيد أنا نستطيع أن نجد الصلة وثيقة بين هذه المأساة المروعة وبين بواعث الحكم المطلق . ومع أن نكبة البرامكة تنسب إلى أسباب عديدة منوعة ، فإنه ليس من شك فى أنها تعتبر بالأخص فصلا من فصول ذلك الصراع الخالد الذى يضطرم حول السلطان والملك ؛

والبرامكة أسرة فارسية نابهة ، ظهرت فى ميدان الحوادث منذ قيام الدولة العباسية ، وكان عميدها ومؤسس سؤددها خالد بن برمك من أكابر الشيعة . ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان ، وولى ابنه يحى على أرمينية ، ثم عهد إليه المهدى بتربية ولده الرشيد ؛ فلما ولى الرشيد الخلافة استوزر يحيى وفوض إليه شئون الحكم كما قدمنا . وكان أبناء يحيى وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى جميعاً من أولى العزم والنباهة ، فظهروا جميعاً بين رجالات الدولة ، وشغلوا أعظم مناصبها ، فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان ، واستوزر الفضل أخاه من الرضاع ، ثم استوزر جعفر ، وبذلك اجتمعت السلطة كلها فى يد يحيى وولديه وآلت إليهم مصاير الشئون ، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ فى الدولة .

وكان البرامكة علم الفضل والجود والذكاء والعزم ، فلبثوا يدبرون شئون الدولة زهاء سبعة عشر عاماً أحسن تدبير وأكمله ، ونجمهم دائم التألق ، ونفوذهم دائم التمكن ، والدولة تتمتع فى ظلهم بعوامل السكينة والاستقرار ، والشعب فى يسر ورغد ، وكانت لهم الكلمة العليا فى كل مجال وموطن . ولكن ارتفاع البرامكة إلى ذروة السلطان والمجد على هذا النحو ، وتفوقهم على كل بيوتات الدولة فى الخلال والرفعة والغنى والبذخ ، وتمكنهم من قلوب العامة بفيض الجود والفضل ، واستئثارهم بجميع السلطات العامة ، وإنهاء مصاير الشئون كلها إليهم ، لم تلبث أن أثارت جزع الرشيد وتوجسه ، وغيرة خصومهم من رجال البطانة والقصر . وكان الفضل بن الربيع حاجب الرشيد ألد عدو للبرامكة ، وكان لا يدخر وسعاً فى الوشاية بهم وإحفاظ الرشيد عليهم ، وكان خصومهم الآخرون لا ينقطعون فى الوقت نفسه عن الكيد لهم والسعاية فى حقهم ، وكان الرشيد يرى فى الواقع بهاء البرامكة يكاد يغشى بهاء الخلافة ، وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه .

فى مهد هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وسحق دولتهم ، وهى فى رأينا أهم البواعث التى يمكن أن نرجع إليها تلك المأساة الشهيرة . ولكن الرواية الإسلامية تقدم إلينا أسباباً عديدة أخرى لنكبة البرامكة منها ما يذهب مذهب القصة ؛ وأشهرها بلا ريب قصة العباسة أخت الرشيد ، فيقال إن الرشيد كان يحبها حباً جماً ولا يطيق بعداً عنها ، وكان يدعوها إلى مجالس أنسه ولهوه ، وكان من جهة أخرى كلفاً بصحبة وزيره جعفر شغوفاً بسمره ، فكان لا يصبر عنه ،

فرأى الرشيد أن يزوج جعفر من أخته العباسة حتى يحل له الاجتماع بها فى مجلسه ، على أن يكون هذا الزواج اسمياً فقط . ولكن العباسة هامت بحب جعفر وهام بها فتلاقيا سراً وحملت منه . وكانت زبيدة زوج الرشيد تحقد على العباسة لفرط جمالها ونفوذها على الرشيد ، فلما وقفت على علاقتها بجعفر وظفرت بالأدلة عليها ، فضحت أمرها للرشيد ، فقرر إهلاك البرامكة وإهلاك أخته(١). ويعامل ابن خلدون هذه القصة بازدراء وسخرية ، وينكرها بشدة ، ويستند فى إنكاره إلى منزلة العباسة من بيت الخلافة وبيت الرسول ، وإلى حسبها النبوى والعربى العريق ، ويتساءل كيف تدنس سليلة الصون والطهر شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم ؟ وهو بلا ريب منطق ظاهر الضعف ، وتدليل لا يتفق فى نظرنا مع دقة الفيلسوف وعقليته المستنيرة .

وثمة سبب آخر تورده الرواية الإسلامية لنكبة البرامكة ، وهو أن الرشيد حينما ظفر باعتقال يحيى بن عبدالله بن الحسن الزعيم العلوى على إثر انهيار ثورته فى بلاد الديلم ، عهد به إلى جعفر البرمكى ليسهر على اعتقاله ، فأطلق جعفر سراحه خفية ، وعلم الرشيد بذلك وراجع وزيره ، فأنكر أولا ثم اعترف واعتذر بأنه رأى ألا خطر فى إطلاقه . فتوجس الرشيد من ذلك التصرف شراً ، وكان بنو العباس يرون فى قيام الدعوة الشيعية وخروج أئمتها خطراً يهدد سلطانهم ؛ وكان البرامكة ، كما رأينا ، أول أمرهم من أقطاب الشيعة ، وإذاً فقد كانت حمايتهم لزعماء الشيعة الخوارج مما يثير الريب بحق ، ويحمل على الشك فى إخلاصهم ونياتهم نحو الخلافة.

وهناك روايات أخرى عن أسباب تغير الرشيد على البرامكة ؛ فمنها أن الرشيد سخط على كبير الأسرة يحيى البرمكى لتهجمه على مقامه ، ودخوله عليه بغير استئذان ، وأن بطانة الرشيد كانوا يسعون إلى تحريك حفيظته على البرامكة فى مجالس أنسه بأشعار ذات مغزى يدسونها للندماء والمغنين ، وغير ذلك مما تعنى به كتب الأدب بنوع خاص .

---

(١) تختلف الرواية فى مصير العباسة . فيقول البعض إن الرشيد طردها من قصره فعاشت مع ولدها فى أنحاء مجهولة عيشة شقية . ويقول البعض الآخر إنهما قتلا سراً بأمر الخليفة ولم يعلم بمصيرهما أحد . وكانت قصة غرام العباسة وجعفر مستقى لبعض كتاب الخيال الغربيين فنشرت عنها عدة قصص معروفة ، من ذلك ما نشره « لاهارب **Laharpe** » بالفرنسية ، وفون هامار **Von Hammer** بالألمانية .

على أنه مهما تنوعت الأسباب التى توردها الرواية الإسلامية لنكبة البرامكة ، فلا ريب أن بواعثها الجوهرية تدور حول استئثار البرامكة بكل سلطان فى الدولة ، وتضاؤل سلطة الرشيد أمام سلطانهم وعظيم نفوذهم ، وهو ما يشير إليه ابن خلدون فى مقدمته بدقة ووضوح إذ يقول : « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم . . . فأورث ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة ، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبد الله » .

ولم تأت فاتحة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) حتى كان الرشيد قد قرر أمره فى شأن البرامكة ؛ ففى المحرم من ذلك العام عاد الرشيد من الحج ونزل بالأنبار . وفى أوائل صفر أصدر الرشيد أمره ذات ليلة فجأة بإعدام وزيره جعفر بن يحيى البرمكى ، والقبض على أبيه وإخوته . وقام بتنفيذ هذه المهمة المحزنة مسرور جلاد الرشيد المشهور فى جماعة كبيرة من الجند . ففاجأ جعفر فى داره يلهو ويطرب مع نفر من الأصدقاء . فتضرع إليه جعفر وطلب مراجعة الرشيد مراراً ، ولكن أمر الرشيد كان قاطعاً ، فقتل الوزير المنكود أمام خيمة الرشيد ، وسقطت رأسه عند أقدام الجند الذين طالما أحنوا رؤوسهم إجلالا له ، ومثل بجثته فى اليوم التالى فى شوارع بغداد . وفى الحال قُبض على يحيى بن خالد وأولاده الآخرين الفضل ومحمد وموسى ، وألقوا فى غيابة السجن وصودرت أموالهم كلها . وكان اعتقالهم يسيراً فى البداية فلم يُضيَّق عليهم ، وسمح لهم باستبقاء الخدم وما يشتهون من متاع وغيره ؛ ولكن حدث بعد ذلك بعام أن اتهم عبد الملك بن صالح ، وهو من عمومة الرشيد ، بالتآمر على الرشيد والتطلع إلى الخلافة فقبض عليه ، وثبتت إدانته ، ونسب فى الوقت نفسه أن للبرامكة يداً فى المؤامرة ، فانتهزها الرشيد فرصة للتضييق على يحيى وأولاده ، فجردوا من جميع أسباب الراحة والرفاهة ، وعرضوا لأنواع الإرهاق والمهانة . فمات الوزير الشيخ يحيى فى سجنه فى سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ولحق به ابنه الفضل إلى القبر بعد ذلك بثلاثة أعوام . أما محمد

وموسى فقد أطلق الرشيد سراحهما على ما يظهر لعدم خطورة مركزهما ، وبعد أن هوت الأسرة إلى حضيض الفاقة والعدم .

تلك تفاصيل المأساة الشهيرة التى وصمت عهد الرشيد ، وأسبلت على خلاله اللامعة سحابة قاتمة . ويقال إنها عكرت صفو الرشيد فى أعوامه الأخيرة ، وأن الندم كان يساوره ويقض مضجعه . على أنه يمكن أن يقال إن خطورة البواعث قد تبرر مسلك الرشيد وتخفف من تبعته . ذلك أن سلطان البرامكة غدا خطراً حقيقيا على سلطان الخلافة العباسية . وكان البرامكة فوق ذلك علم القومية الفارسية ، التى عملت على إخضاع الدولة العربية لنفوذها المعنوى ، تحطيماً لاستعباد العرب السياسى للأمة الفارسية . وكان سلطانهم أخطر وسيلة يمكن استخدامها لتحريك القومية الفارسية إلى النهوض والثورة ، وكان لا بد من تحطيمهم والقضاء على سلطانهم صوناً لسلطان الدولة العباسية وسلطان الأمة العربية .

وقد كان عهد البرامكة أزهر وأبهى عصور الدولة العباسية بلا مراء . وكانوا على قول ابن خلدون : « من محاسن العالم ودولتهم من أعظم الدول وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » . ولما تولى المأمون الخلافة رد إلى البرامكة أملاكهم وحقوقهم ، ولكن ضربة الرشيد كانت قاضية ، فلم تعد الأسرة النابهة قط إلى سابق مكانتها ونفوذها .

— ٤ —

ولا بد لنا أن نعرض هنا إلى قصة السفارات الشهيرة التى تبادلها الرشيد مع شارلمان إمبراطور الفرنج . ولا تذكر الرواية الإسلامية شيئاً عن هذه الصلات الدبلوماسية بين عاهلى الشرق والغرب . ولكن الرواية الغربية تفيض فى تفاصيلها ، فتذكر لنا أنه كانت ثمة بين الرشيد وشارلمان مكاتبات وسفارات ، وأن شارلمان سعياً إلى توثيق الصداقة بينه وبين زعيم الإسلام ، أوفد إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى إسحاق ، ووصل إسحاق إلى بلاط بغداد ، وقدم إلى الرشيد كتب ملك الفرنج وهديته ؛ فأكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج ، وأوفد إليه سفراءه بهدية فخمة ، منها خيمة عربية وساعة مائية وأقمشة حريرية وتحف من الذهب وقردة وفيل ، ومفاتيح قبر المسيح فى بيت المقدس ، مع تأكيداته الودية فى حماية البقاع المقدسة . ثم تقول الرواية إن شارلمان سر بهذه النتيجة وأوفد

إلى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحاق أيضاً . وإذا كانت الروايات الفرنجية والكنسية المعاصرة تؤكد لنا وقوع هذه الصلات والسفارات بين زعيمى الشرق والغرب وتفيض فى تفاصيلها ، فإن صمت الرواية الإسلامية فى شأنها يحملنا على اعتقاد أحد أمرين : فإما أنها لم تكن من الخطورة فى شيء ولم تتعد المجاملات الملوكية العادية ، وإما أنها إذا صحت خطورتها كانت سراً من أسرار الدولة لا تجوز إذاعته وتناقله . ولسنا نعتقد على أى حال أن صمت الرواية الإسلامية يمكن أن ينهض وحده دليلا على عدم صحتها .

ولم تحدثنا الرواية الفرنجية عن الغاية الحقيقية التى حدت بزعيم النصرانية فى الغرب أن يسعى إلى مصادقة زعيم الإسلام فى الشرق ، ولم تحدد لنا تاريخ هذه العلاقات الدبلوماسية بين العاهلين . ولكنا نرجح أنها وقعت فى أوائل عهد الرشيد بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ م (١٧١—١٧٦ هـ) . ولنا فى حوادث الأندلس فى هذا الوقت ما يلقى ضياء على طبيعة هذا التفاهم ومداه . ذلك أن عبد الرحمن الداخل الأموى استطاع بعد خطوب جمة أن يؤسس بالأندلس دولة أموية جديدة تنافس فى الغرب الإسلامى دولة بنى العباس ؛ وكانت الخلافة العباسية تنظر إلى قيام هذه الدولة الأموية الفتية بعين التوجس ، وتخشى أن تغدو فى المستقبل خطراً على سيادتها فى الأقطار الغربية . وقد بذل الخليفة المنصور بالفعل جهداً لسحقها فى المهد ، فبعث عامله على إفريقية لغزو الأندلس ، ولكن المحاولة أخفقت ومزق جيش الخليفة العباسى وقتل عامله ، ولم تزد الدولة الأموية الناشئة إلا قوة ورسوخا ، واستمرت الدولة العباسية مدى حين على توجسها . ومن جهة أخرى فقد كانت مملكة الفرنج ترى فى قيام هذه المملكة الإسلامية الجديدة فيما وراء جبال البرنيه خطراً داهماً عليها . وكانت سياسة شارلمان عاهل الفرنج ترمى إلى انتهاز كل فرصة للعمل على إثارة الاضطراب فى اسبانيا المسلمة وإنهاك قواها ، ولم يدخر وسعاً فى تشجيع الخوارج عليها وإرسال جيوشه لغزوها كلما سنحت الفرص . أليس فى طبيعة هذه الظروف والحوادث ما يمكن أن يحمل الخليفة العباسى والعاهل الفرنجى على التفاهم لتنظيم الجهود المشتركة لمناوأة الخصم المشترك ؟ هذا ما نرجح أنه هو الهدف المعقول لتلك العلائق الدبلوماسية الشهيرة ، بين زعيمى الشرق والغرب ، فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كانت للرشيد أيضاً أثناء فترات السلم والمهادنة ، علائق دبلوماسية منظمة مع الدولة البيزنطية ، وتبادل بلاط بغداد وبلاط قسطنطينية أيام الإمبراطورة إيريني والإمبراطور نقفور سفارات ومراسلات عديدة .

— ٥ —

كان الرشيد فى أواخر عهده يؤثر المقام «بالرّقة» وهى مدينة طيبة المناخ ذات بساتين يانعة تقع على ضفة الفرات الشرقية فى شمال غربى الجزيرة ، وذلك ليكون أقرب للسهر على سير الحوادث فى بلاد الروم والولايات الغربية .

وفى سنة ١٩٠ هـ عادت الفتنة الى الاضطرام فى خراسان ، وخرج رافع بن الليث فى سمرقند وهزم جند الخلافة غير مرة ، واستفحل أمره تباعاً ، فاعتزم الرشيد أن يسير إلى قتاله بنفسه ، فسار من الرّقة فى شعبان سنة ١٩٢ هـ إلى بغداد ليسير منها إلى خراسان ، واستخلف على الرقة ولده القاسم ، وعلى بغداد ولده الأمين ، وسار فى جيشه إلى خراسان ومعه ولده المأمون . وكان الرشيد يعانى منذ أعوام مرضاً عضالا يتفاقم على الأيام ، والظاهر مما تشير إليه الرواية أنه كان يعانى من سرطان فى البطن(١) . ووصل إلى جرجان فى صفر سنة ١٩٢ هـ وهو فى حالة سيئة من الإعياء . ولما لم يستطع متابعة السير ، نزل بطوس ومعه طبيبه جبرئيل ابن بختيشوع ووزيره الفضل بن الربيع ، وهنالك اشتد به المرض وتوفى فى الثالث من جمادى الثانية سنة ١٩٣ هـ (ابريل سنة ٨٠٩ م) ودفن فى نفس الدار التى توفى فيها ، وكان فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وكانت خلافته زهاء ثلاثة وعشرين عاماً .

وترك الرشيد من البنين اثنى عشر ومن البنات خمس عشرة ، وكان مزواجاً تزوج سبعاً ، وتوفى عن أربع فى مقدمتهن زبيدة ابنة عمه وأم ولده الأمين ، وكانت أحب نسائه إليه وتوفيت سنة ٢٢٦ هـ . والأمين هو ولده الوحيد الذى ولد من زوجة شرعية . أما ولده المأمون فهو من أم ولد تدعى مراجل ، وكذلك سائر أبنائه وبناته ولدوا جميعاً من أمهات ولد ؛ وكان الرشيد كلفاً باقتناء السرارى ، يبذل من أجلهن الأموال الوفيرة ، وكان يقتنى منهن عدداً كبيراً من النساء البارعات فى الحسن والخلال .

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٨ .

وتصف لنا الرواية الرشيد بأنه كان مديد القامة ، يميل إلى البدانة ، أبيض وسيم الطلعة ، وقد وخطه الشيب .

وقد وصف الرشيد وبيئته وبلاطه عمرو بن بحر فى قوله : « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل ، وزراوه البرامكة ، لم ير مثلهم سخاء وسروا ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبى حفصة ، كان فى عصره كجرير فى عصره . ونديمه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية . وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس ، وأشدها تعاظماً . ومغنيه إبراهيم الموصلى ، واحد عصره فى فى صناعته . وضاربه زلزل . وزامره برصوماً ، وزوجته أم جعفر أرغب الناس فى خير ، وأسرعهم إلى كل بر ، وهى أسرع الناس فى معروف »[1] .

— ٦ —

نستطيع أن ندرك من هذه الصور الموجزة كيف كان عصر الرشيد من أحفل عصور الخلافة الإسلامية ، وأزخرها بمختلف الحوادث والشئون .

على أن هذا النشاط المتصل فى ميدان الغزو والجهاد ، وفى معالجة شئون السلطان والحكم ، وهو الذى يقدم إلينا الرشيد فى صورة العاهل القوى ، والقائد العظيم ، والحاكم الأمثل ، لم يكن ليحجب بهاء حياة السلم والفخامة والبذخ التى امتاز بها بلاط بغداد فى عهد الرشيد ، والتى بسطت ظلالها على مجتمعات بغداد الرفيعة فى تلك الفترة المتألقة من حياة الدولة العباسية .

كان عصر الرشيد عصراً ذهبياً اجتمعت فيه للأمة الإسلامية أسباب القوة والعظمة والنعماء ، وسادت فيه الدعة والرخاء معظم طوائف المجتمع ، وغدت بغداد من أعظم مراكز التجارة العالمية ، وتدفقت عليها صنوف الأرزاق والنعم ، وغلب الترف على مجتمع الخاصة . وكان بلاط بغداد يومئذ مضرب الأمثال فى نظمه ورسومه ، وفى بذخه وروعته . وكان مما اجتمع فيه من أسباب الفخامة والرونق يقدم للناس صوراً من الحياة الناعمة الرفيعة لم يألفها المجتمع الإسلامى من قبل . وكان الرشيد بالرغم مما أثر عنه من التحفظ ومن ضروب التقى والورع ، يعشق حياة البذخ الطائل ، ويبدو فى مظاهر عاهل الشرق القوى المطلق . بيد أن الرشيد كان فى الوقت نفسه ، ذهناً مستنيراً يعشق العلوم والآداب والفنون ،

(١) اوردها الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (ج ١٤ ص ١١) .

ويرعاها بفائق تشجيعه وحمايته ، وكان يؤثر العلماء والفقهاء بعطفه ، ويحب الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء . ولكنه كان يكره الجدل فى الدين ويقول إنه لخليق أن لا ينتج خيراً . وفى عصره بدأت تلك الحركة العلمية الزاخرة التى توفرت على استخراج كنوز الماضى العقلية ، وترجمة تراث القدماء من يونانيين وغيرهم فى الحكمة والطب والفلك والنبات وغيرها ، والتى بلغت ذروتها فى عهد ولده المأمون ، وكانت من أعظم دعائم النهضة العلمية الإسلامية بوجه عام .

وكان يجتمع فى عصر الرشيد ، ويحتشد حول بلاطه الفخم ، عدة من أقطاب الشعر والأدب ، مثل أبى العتاهية وأبى نواس وعباس بن الأحنف ومروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك والأصمعى ، وغيرهم من فحول الأدباء والشعراء الغزليين والغنائيين ، وكان الرشيد شاعرىّ الحس ، يعالج النظم أحياناً ، ويهوى المديح ويطرب للشعر الجيد ، ويجزل الصلات للشعراء والأدباء . وله فى ذلك أنباء كثير مأثورة . ومن نظمه أبياته المشهورة فى ثلاث جوار له :

ملك الثلاث الغانيـيات عنـانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البـرية كلهـا ... وأطيعهن وهن فى عصيـان
ما ذاك إلا أن سـلطان الهـوى ... وبه قوين أعز من سـلطانى

وكان يحتشد إلى جانب هذه الصفوة من أعلام الشعر والأدب عدة من أكابر الفن ، مثل إبراهيم الموصلى وولده إسحق قطبى العصر فى الغناء والموسيقى . وكان الرشيد يشغف بالموسيقى والغناء ، وما يستتبع ذلك من مجالس الشراب والجوارى . وكانت الموسيقى والغناء الرفيع يومئذ من مباهج المجتمع البغدادى . وكان إسحق الموصلى مغنى الرشيد يتربع يومئذ على عرش الفن ، وتحف به صفوة الفنانين والقيان ، وله فى البلاط منزلة رفيعة ، وكان الشعراء الغنائيون مثل أبى نواس ومسلم ، يمدون الفن بأجمل وأرق مقطوعاتهم الغنائية ، وكان للمغنين والقيان منزلة ملحوظة فى هذا المجتمع الأنيق الزاهر .

ولنذكر قبل كل شىء أن هذا العصر هو العصر الذى ازدهر فيه مجتمع الجوارى الساحر ، ثم لنذكر أن كثيراً من الخلفاء العباسيين وفى مقدمتهم الرشيد نفسه وكذلك المأمون والمعتصم والواثق والمستعين ، كانوا من أبناء الجوارى . وكان

هؤلاء الحوارى فى الواقع عنصراً من أهم وأسطع عناصر المجتمع الرفيع يومئذ ، وكانت الخيزران أم الرشيد التى توفيت سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠ م) نموذجاً بارزاً لهذا الرهط النسوى الذى تغلغل نفوذه فى البلاط وفى المجتمع . وكان اقتناء الحوارى البارعات فى الحسن أو الغناء أو الأدب عنوان النعماء والبذخ ، تغص بهن قصور الخلفاء والوزراء والسادة ، ويؤتى بهن من مختلف الأمم ، ويلقن مختلف الثقافات الأدبية والفنية . وقد راج سوق الحوارى فى عصر الرشيد بنوع خاص لما ترتب على تتابع الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية وغيرها من كثرة السبايا . وكان هذا المزيج المتباين الذى تكونه جنسيات وخلال وثقافات مختلفة ، قوة اجتماعية خطيرة لها أثرها القوى فى تكييف الحياة الاجتماعية ، وفى تطور أحوال المجتمع الرفيع وتطور خلاله وأذواقه .

وكان لمجتمع الحوارى أيضاً أثره الواضح فى تطور التفكير والأدب والفن فى هذا العصر . وقد كان الأدب العباسى يومئذ فى عنفوانه . وكان أكابر الشعراء يلازمون هذا المجتمع الساحر البهيج ، يستوحونه فيوحى إليهم بروائع المعانى والفكر ، وهكذا كان لهذا المجتمع أثره فى إذكاء الروح الشعرى وصقل مُثل الحمال والظرف ، ورفع مستوى الإناقة والتأدب ، وبث الخلال والشمائل الرفيعة ؛ بل لقد كان لهؤلاء الحوارى البارعات أدب خاص نشأ على أيديهن وفى بيئتهن ، وكان هذا اللون الأدبى الذى يزينه الحمال والفن والسحر النسوى ، تذكيه وتصقله خواص المجتمع الأنيق الباهر الذى يسطع فيه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن أدب الحوارى فى هذا العصر قد اتخذ لوناً خاصاً ، فهو أدب مرح طروب يميل إلى المحون والدعابة ؛ ولا غرو فقد نشأ فى مجالى السرور والأنس ، تغذيه أكواب الراح ، وتذكيه الأهواء والعواطف المثيرة . ويقدم إلينا صاحب العقد الفريد نماذج ممتعة من هذا الأدب الطروب ، الذى برعت فيه الحوارى والقيان فى هذا العصر نكتفى بالإحالة عليها .

بيد أنه يجب أن نذكر ما كان لهذا المجتمع الطروب الساحر الذى سطع فى عصر الرشيد فى الوقت نفسه من الآثار السيئة . فقد كان هذا المجتمع بالرغم من خلاله وألوانه البراقة ، يحمل فى ثنياته كثيراً من عناصر الرذيلة والانحلال . ذلك أن غلبة الترف ، واحتشاد الحوارى فى البيئات الرفيعة ، وما ترتب على ذلك من

إسراف فى اللهو والقصف والملاذ الجنسية ، أدت إلى ضعف المستوى الخلقى ، وعمت المجتمع يومئذ موجة من الفساد والفجور . وقد نشط الرشيد إلى قمع هذه الظاهرة الأخلاقية السيئة بكل ما أوتى من قوة وحزم .

تلك هى الصورة الزاهية التى انتهت إلينا عن شخصية الرشيد وعصره . بيد أن الرشيد كان إلى جانب هذه المظاهر الدنيوية الفخمة ، يحرص كل الحرص على جلال صفته الدينية كزعيم الإسلام الروحى . وقد أشرنا إلى ما تنوه به الرواية من ورعه وشغفه بالحج إذ كان يغزو عاماً ويحج عاماً . وقد كان من آثار شغفه بالحج أن عمل على تعبيد الطريق إلى مكة ، وزوده بمراكز الحراسة وخزانات الماء ، وعنيت زوجه السيدة زبيدة أم جعفر بإدخال الماء إلى الحرم ، وما تزال آثار هذه العناية القديمة ماثلة إلى اليوم ، إذ ما تزال عين زبيدة تحمل الماء خلال التلال إلى مكة .

* * *

على أن سيرة الرشيد لم تكن فقط مستقى للتاريخ الحق ، بل كانت فى الوقت نفسه مستقى للقصة ، تجد فى صحفها الممتعة وألوانها الزاهية مادة خصبة يستطيع الخيال الرائق أن يجول فى نواحيها . وقد أدمج من هذا القصص الشائق الذى نسجه خيال الرواة المتأخرين حول سيرة الرشيد ، مجموعة كبيرة فى قصص « ألف ليلة وليلة » . ومع أن هذه المجموعة المتباينة تختلف من حيث السبك والأسلوب قوة وضعفاً ، فإنها تشترك جميعاً فى المقصد والغاية ، وهى تصوير شخصية الرشيد فى ألوان طلية زاهية ، وإبراز ما فيها من النواحى الإنسانية الجذابة ، والإشادة برائع خلالها من فروسة ونبل وشهامة وبذخ وتواضع وبر وجود .

والواقع أنه لم تحظ شخصية من شخصيات التاريخ من عناية صحف ألف ليلة وليلة قدر ما حظيت شخصية الرشيد . فقد اتخذ الرشيد نفسه بطلا لعدة قصص وجُعل صديقاً لأبطال قصص أخرى؛ هذا فضلا عما نسب حدوثه من القصص إلى عصره . وفى معظم هذه القصص يقدم إلينا الرشيد فى صورة الأمير الضجر الذى يطلب السلوى فيأتيه وزيره الشهير جعفر البرمكى ببعض رواة العصر وسماره ، وهم من خاصة صحبه وندمائه مثل الأصمعى وأبى دلف وأبى نواس وإسحق الموصلى وغيرهم ، فيروون له أغرب ما سمعوا أو شهدوا من القصص والأخبار . أو يدفعه

الأرق إلى التماس السلوى بالطواف ليلا فى أنحاء العاصمة العباسية ، وتفقد أحوال الرعية ، وعندئذ يقدم إلينا الرشيد وقد تنكر فى زى التجار ، وتنكر معه بعض رفاق سمره وضجره الذين يلازمونه ، مثل وزيره جعفر ووصيفه مسرور ،ومغنيه إسحق وغيرهم ، وعندئذ يطوف الجميع معاً أحياء بغداد فتسوقهم المقادير إلى بقعة أو منزل يقعون فيه على أغرب المشاهد ويسمعون أغرب القصص والروايات(١).

وهكذا نجد الرشيد فى « ألف ليلة وليلة » بطلاً من أبطال القصة أسبغت عليه فى هذه القصص كلها ، نفس الألوان الزاهية التى أسبغت على أبطال ألف ليلة وليلة الخياليين . ومع ذلك فإن الاعتبارات التاريخية لم تهمل كلها ، فنى معظم هذه القصص نرى شخصية الرشيد تحتفظ بكثير من صفاتها التاريخية المعروفة ، من الجود والتواضع والنبل والفروسة وشغف البذخ ، والتقى والورع ، وحب العلماء والعلم وغيرها ، مما تؤيده المصادر التاريخية الحقة ، بل نجد بعض هذه المناظر والأخبار منقولا بنصه عن كتب التاريخ والأدب . بيد أننا نجد أنفسنا من جهة أخرى أمام طائفة من الوقائع والصفات الخيالية المحضة التى لا تجمل أحيانآ ، والتى نسبت إلى الرشيد لكى يستكمل صورة بطل القصة الحقيقى ، وهى مع ذلك وقائع وصفات يسهل تمييزها والإغضاء عنها .

وقد أسبغ قصص ألف ليلة وليلة على الرشيد وعصره روعة وشهرة وبهاء لم تزدد على كر القرون إلا قوة ورسوخاً ؛ وفى وسعنا أن نقول إن كتب التاريخ والأدب على ما تخص به الرشيد وعصره من الفصول الضافية ، وما تحويه من آيات المديح والثناء ، لم تسبغ على شخصية الرشيد من الروعة والبهاء والعطف قدر

(١) من القصص التى نسبت إلى عصر الرشيد قصة السندباد البحرى الشهيرة وسفراته السبع . أما القصص التى اتخذ لها الرشيد نفسه بطلا فهى عديدة ،منها قصة قوت القلوب وهى الجارية الحسناء التى شغف بها الرشيد . ومنها قصة الرشيد مع خليفة الصياد . وقصته مع البنت العربية التى أنشدته أبياتاً أعجب بها ثم طلب منها تغيير القافية و استبقاء المعنى فغيرتها مراراً فى مقطوعات بديعة فأعجب بها وتزوجها . وثمة طائفة أخرى من القصص لا يبدو فيها الرشيد بطل القصة الأصلى ، ولكنه يكتشف هذا البطل أثناء طوافه متنكراً فى أحياء بغداد ، ومن هذه القصص قصة الشاب العمانى الذى أضاع ثروته على الغوانى ، وقصة محمد بن على الجوهرى . وفى مناسبات أخرى يستمع الرشيد حين يصيبه الأرق إلى سماره وندمائه مثل الأصمعى وإسحاق . وقد تضمنت ألف ليلة وليلة عدة من هذه القصص الأدبية الممتعة ، ومعظمها منقول عن كتب الأدب مثل العقد الفريد وغيره .

ما أسبغت عليها قصص ألف ليلة وليلة . ويبدو هذا الأثر بنوع خاص فى الآداب الغربية حيث يعتبر الرشيد بلا مراء أعظم وأشهر أمراء الإسلام والشرق . ويرجع ذلك إلى ذيوع قصص ألف ليلة وليلة فى المجتمعات الغربية ، ذيوعاً لم يظفر به أى أثر عربى أو شرقى آخر ، وإلى أن الغرب قد عرف الرشيد وعصره بالأخص من قصص ألف ليلة وليلة ، وانطبعت فى ذهنه عن الرشيد وعصره تلك الصور الرائعة التى تقدمها إلينا ، بل لم تخل معظم التواريخ الغربية الرصينة من التأثر بهذه الصور فى تقديرها للرشيد وعصره[1] .

(١) رجعنا فى هذا البحث إلى تواريخ الطبرى وابن الأثير وأبى الفدا وابن خلدون ، وإلى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغانى ، وكتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وكتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى وغيرها . وكذلك إلى كتاب : **Finlay Byzantine Empire**

ست الملك الفاطمية

(٣٥٩ – ٤١٤ هـ) ، (٩٧٠ – ١٠٢٣ م)

تسطع في تاريخ مصر الإسلامية شخصية نسوية تكاد تغشى بروعتها وبهائها كل شخصية نسوية أخرى في تاريخنا . تلك هي شخصية شجرة الدر أول وآخر ملكة جلست على عرش مصر الإسلامية ، وحكمت مصر حيناً لم يطل أمده ، ولكنه خلد في تاريخنا مثلا فريداً يثير إعجاب الأجيال .

وقد لا تتفوق شجرة الدر في خلالها أو شخصيتها على شخصيات نسوية كثيرة تبوأت مكانتها في قصور الخلفاء أو السلاطين ، وكان لها أحياناً أثرها البارز في توجيه سياسة الملك ، ولكن من وراء الستار ؛ ولكن شجرة الدر تمتاز على هذه الشخصيات جميعاً بما هيأ لها القدر من الجلوس على عرش الخلفاء والسلاطين ، وتخليد مكانتها بذلك في سجل الملوكية الرسمي .

على أن مصر الإسلامية قد عرفت غير شجرة الدر شخصيات نسوية أخرى كان لها أعظم نفوذ في توجيه سياستها ومصايرها . وفي طليعة هذه الشخصيات الأميرة ست الملك الفاطمية ابنة الخليفة العزيز بالله ، وأخت ولده الخليفة الحاكم بأمر الله . وقد ولدت هذه الأميرة النابهة سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) بعد الفتح الفاطمي لمصر بنحو عام ، وقدمت إلى مصر مع والدها العزيز في ركب جدها المعز في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، وربيت في القصر الفاطمي بالقاهرة المعزية عاصمة الخلافة الفاطمية الجديدة . وكانت أمها جارية رومية أو قبطية على الأرجح كانت سرية للعزيز ، وفي بعض الروايات الكنسية المعاصرة أن هذه الجارية النصرانية كانت أيضاً أماً للحاكم بأمر الله وهي رواية ضعيفة ينقصها التحقيق[1] . والمرجح حسبما تحدثنا معظم الروايات المعاصرة واللاحقة أنها كانت فقط أماً لست الملك دون الحاكم . أما الحاكم فقد ولد بعد مولد أخته بستة عشر عاماً من أم أخرى هي زوجة العزيز الشرعية التي تنعتها الرواية الإسلامية باسم « الست العزيزية » .

---

(١) راجع كتابي « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » الطبعة الثانية ص ٨٨ – ٨٩

وقد كان لهذه المصاهرة النصرانية أعظم أثر فى سياسة العزيز بالله فيما بعد ، كما كان لها أعظم أثر فى تربية ست الملك ، وفى تكوين مبادئها الدينية والسياسية . ذلك أنه كان لهذه السيدة النصرانية التى حظيت بحب الخليفة وغدت أم ابنته الكبرى ، أخوان هما أرسانيوس وأريسطيس ، رفعهما العزيز إلى ذروة المناصب الكنسية ، فعين أرسانيوس مطراناً ثم غدا بطريقاً للطائفة الملكية بالإسكندرية ، وعين أريسطيس بطريقاً لها ببيت المقدس ؛ وكان للحبرين نفوذ عظيم فى البلاط الفاطمى . وكان من أثر هذا النفوذ أن طبعت سياسة العزيز نحو النصارى بطابع الاعتدال والعطف ، فقوى نفوذهم فى الدولة فى عهده ، وتبوأوا مناصب الوزارة والثقة ؛ وقد كان لليهود يومئذ فى الدولة الفاطمية مثل هذه المكانة من القوة والإعزاز ، ولاسيما فى ظل الوزير يعقوب بن كلّس وزير المعز لدين الله ثم ولده العزيز من بعده ، وقد كان يهودياً اعتنق الإسلام وتألق نجمه بتولى الوزارة حتى غدا أعظم رجل فى الدولة ؛ بيد أن مبالغة العزيز فى اصطفاء الذميين لم تلبث أن أثارت فى أواخر عهده عاصفة من السخط ، وأردك العزيز خطر هذه السياسة على سلطان الخلافة وهيبتها ، فانقلب حيناً إلى مطاردة الذميين ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الترفق بهم والاعتماد على معاونتهم بتأثير زوجه النصرانية وتأثير ابنته ست الملك ، وذلك مع العمل فى الوقت نفسه على الحدّ من طغيانهم واستئثارهم بالسلطة . وهكذا استطاع اليهود والنصارى فى عهد العزيز بالله أن ينعموا بأعظم قسط من الجاه والنفوذ .

وكانت ست الملك منذ نشأتها أميرة عاقلة حازمة ، وافرة التحفظ والجد ، تعنى بالجليل من الأمور ، وكان والدها العزيز يحبها حباً جما ، فلما كبرت وترعرعت ، غدت موضع ثقته يستشيرها فى كثير من الأمور . وعرفت ست الملك منذ فتوتها بالعقل والحزم وحسن التدبير . وتسميها الرواية أحياناً « ست الكل » ، وتنعتها بالسلطانة . وكان لآرائها وتوجيهها بلا ريب أكبر الأثر فى تعزيز سياسة التسامح التى اتبعها العزيز نحو النصارى ؛ وتنوه جميع الروايات النصرانية المعاصرة واللاحقة بفضل ست الملك فى صوغ هذه السياسة المستنيرة نحو الذميين فى عهد العزيز بالله .

ولما توفى العزيز بالله فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) وخلفه ولده الحاكم بأمر الله

كانت ست الملك قد بلغت السادسة والعشرين من عمرها ، وكان أخوها الحاكم الخليفة الجديد ، غلاماً يافعاً فى نحو الثانية عشرة من عمره ؛ فتولى إدارة الشئون « الأستاذ » برجوان مولى أبيه مدى حين واستأثر بكل سلطة . ولكن الخليفة الفتى ما لبث أن سئم هذه الوصاية ، فدبر مقتل برجوان (٣٩٠ هـ — ٩٩٩ م) واسترد سلطته . ومن ذلك الحين يبدأ عهد الحاكم بأمر الله الحقيقى ، وهو من أغرب العهود التى شهدتها مصر الإسلامية ، وأكثرها شذوذاً واضطراباً ، وأحفلها بالحوادث الجسام .

عاشت مصر فى ظل الحاكم بأمر الله زهاء ربع قرن شهدت فيه كثيراً من ألوان الطغيان والسفك والتناقض ؛ وحمل الحاكم تيارٌ من العنف والإغراق لم يسبق له مثيل ، فأكثر من إصدار المراسيم الشاذة المتناقضة ، ما بين حرمان وإباحة ، يحرم بعض الأطعمة ثم يبيحها ، ويقلب الليل نهاراً ويجعله مسرح النشاط والعمل ، ويحظر التبرج على النساء ، ثم يحجر عليهن فلا يبيح لهن الخروج ، ويأمر بمطاردة النصارى واليهود ، ثم يعود فيعفو عنهم ، ويأمر بهدم الكنائس ، ثم يعود فيسمح ببنائها ، ويأمر بقتل الكلاب ، ويمعن فى القتل والسفك ، فيقتل وزراءه وكتّابه واحداً بعد الآخر ، ويقتل رؤساء العشائر ذوى النفوذ ، ويشجع الدعوات السرية الإلحادية ، ثم يهيم فى التقشف والزهد ، ويرصد النجوم بالليل ، وهكذا يمضى طوال عصره تدفعه مختلف النزعات والتيارات ، فتضطرب أمور الدولة ، وتضعف منعتها ، وتهددها الأخطار الخارجية ، وتضطرب حياة الشعب ، وتهب على المجتمع المصرى فى عهده ، ريح من الروعة والإرهاب والتوجس .

ماذا كان موقف ست الملك خلال هذه الأعوام الحرجة والأحداث المثيرة ؟ لقد لبثت ست الملك عقب وفاة أبيها العزيز مدى حين تتمتع بمكانتها ونفوذها فى البلاط ، وتمد أخاها الخليفة الفتى بالنصح والإرشاد كلما شهدت عنفه وشذوذه ، وتعمل ما استطاعت للسهر على سلامته وسلامة الملك والدولة . ولكن الحاكم ما لبث أن تبرم بنصحها وتدخلها ، وظهرت بين الخليفة وأخته بوادر خلاف ما لبث أن استحكم فيما بعد ، واتخذ صورة خصومة مضطرمة ، كان لها أعظم الآثار وأخطرها .

وكانت ست الملك مذ شعرت بتقلص نفوذها فى البلاط قد لجأت إلى حياة العزلة ، وأقامت فى القصر الفاطمى الغربى المسمى بالقصر الصغير ، وهو المقابل للقصر الكبير أو القصر الخلافى ، يفصل بينهما الميدان الكبير المسمى «بين القصرين» على أنها لم تنقطع فى عزلتها لحظة عن متابعة الاهتمام بالشئون العامة . وكانت ترقب فى جزع وتوجس مسلك أخيها الحاكم ، وتحاول بكل ما وسعت أن تعمل على إصلاح الأمور ، وتهدئة الخواطر واتقاء الأزمات . ولما استأثر الحاكم بالسلطة واندفع فى تيار العنف والإغراق ، وأسرف فى القتل وإصدار الأحكام والقوانين الشاذة ، كانت ست الملك تعترضه وتسدى إليه النصح ، وتحذره من سوء العواقب ، وكانت هذه الأميرة النابهة تقدر مدى العواقب الخطيرة التى يمكن أن تؤدى إليها مثل هذه السياسة العنيفة الغاشمة ، وتشفق على ملك أسرتها أن تحتمله هذه العاصفة الهوجاء ، التى ما زال يثيرها الحاكم منذ عشرين عاماً دون تدبر ولا هوادة . وكان الحاكم من جانبه يحقد عليها ، وينأى عن نصحها ، ويأخذ عليها تدخلها فى شئون الدولة ، وكان فوق ذلك ينعى عليها مسلكها الشخصى ، ويتهمها بسوء السيرة والتقلب بين أذرع مختلف العشاق ، والتورط فى حمأة الفضائح الغرامية ، ويهددها بإرسال القوابل لاستبرائها . على أنه ليس فى سيرة ست الملك ما يدل على أنها كانت تنحدر فى حياتها الشخصية إلى مثل هذا الدرك المشين ، خصوصاً وقد كانت فى العهد الذى نتحدث عنه قد جاوزت الخمسين من عمرها ، والرواية الإسلامية تشيد بالعكس بحزمها وعقلها وكياستها .

وهكذا استمر الحاكم فى سياسته العنيفة المخربة لا يلوى على شىء ولا يقبل نصحاً من أحد . وكانت مصر قد قطعت فى ظل حكمه المضطرب الحافل بصنوف الأحداث والمحن زهاء خمسة وعشرين عاماً ، وقد أشرفت على شفا التفكك والدمار . ولكن شاء ربك أن ينقضى هذا الليل الطويل الذى خيم على المجتمع المصرى فجأة وبصورة مدهشة . ففى ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم كعادته للطواف بالجبل ، وكان يشغف برصد النجوم كما قدمنا ، وركب حماره الأشهب ، وخرج من القاهرة يصحبه ركابيان فقط . ثم سار متوغلا فى شعب المقطم متجهاً نحو الجنوب ، وصرف الركابيين أثناء ذلك ، ومن تلك الساعة يختفى الحاكم بأمر الله من مسرح التاريخ

إلى الأبد ، وتغمره الأساطير المغرقة . ذلك أن أحداً لم يعثر بجثته قط ، ولم يعرف مصيره قط بطريق التحقيق ، وكل ما هنالك أنهم وجدوا حماره على مقربة من بركة حلوان وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، وقيل أيضاً إنهم عثروا بثيابه ملقاة فى قاع البركة وفيها أثر الطعّان مما يدل على قتله .

* * *

وقد قيلت فى اختفاء الحاكم بأمر الله أساطير كثيرة ، فقيل إنه اختفى وارتفع إلى السماء وسوف يعود فى آخر الزمان . وقيل إنه توارى فى الصحراء وتنصر وترهب حتى توفى . وقيل غير ذلك . وكلها أساطير مغرقة . والحقيقة التى تؤيدها معظم الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، هى أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة ، وقتل غيلة فى تلك الليلة المشهودة . ولكن من الذى قتله ؟ ومن الذى دبر قتله ؟

وهنا تعرض أغمض وأدق صفحة فى حياة الأميرة الفاطمية . ذلك أن معظم الروايات الراجحة تنسب تدبير هذه المؤامرة الخطيرة إلى ست الملك . والحقيقة أن ست الملك كانت أشد الناس جزعاً على مُلك أسرتها من أن تطيح به سياسة الحاكم الغاشمة وأشدهم حرصاً على حمايته وتوطيده ، وأكثرهم مقاومة لسياسة أخيها المخربة . فلما أسرف الحاكم فى عيثه وفى نزواته الخطرة ، ولما ضاقت ذرعاً بالمقاومة، واستنفدت كل وسيلة ممكنة ، لم تجد مناصاً من اتخاذ الخطوة الحاسمة فى القضاء على الشر من أساسه ، وذلك بالقضاء على شخص الحاكم ذاته ، وإبعاده نهائياً عن مسرح الحوادث .

ثم تحدثنا الرواية عن بطل الجريمة ، ويد الأميرة فى تنفيذها ، فتقول لنا إنه هو الحسين بن دوّاس زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية ، وكان من أشد الناقمين على الحاكم لأنه مال على كتامة وسلبها نفوذها . وكان يخشى من غدره وبطشه . وبحثت ست الملك حولها بين العناصر الناقمة فلم تجد أوفر عزماً وأشد مراساً من الحسين بن دوّاس ، فاتصلت به سراً وعرضت عليه ما انتهت إليه الأمور من الاضطراب والفوضى من جراء تصرفات أخيها وتطرفه وإغراقه ، وانتهاكه حرمات الشريعة والإيمان بادعاء الألوهية ، وما يهدد الدولة والإسلام كله من خطر التمزق إذا استمر الحاكم فى غيه ولم يوضع حد لشنيع تصرفاته وجرائمه ،

وأنه لا سبيل إلى تدارك الموقف ودفع الخطر غير قتل الحاكم وتولية ولده ؛ فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقاً بالوفاء والكتمان ، وقطعت على نفسها مختلف المواثيق والعهود ، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا فى شئونها . ورتب الحسين خطته ، وعهد بتنفيذ الجريمة إلى عبدين من أخلص عبيده ، فخلعت عليهما ست الملك ووهبتهما مالا وخيلا وغيرها ، وزودتهما بسكينين ماضيين ، واتفق على أن يكون التنفيذ فى مساء اليوم التالى حينما يخرج الحاكم كعادته ليلا إلى المقطم ، ويتوغل فيه منفرداً مع بعض الركابية فقط . وتمت الأمور على هذا التدبير المحكم ، ففى مساء اليوم التالى وهو يوم الاثنين ٢٧ شوال خرج الحاكم راكباً حماره إلى الجبل لىرصد النجوم كعادته ، فلما توغل فى شعب الجبل منفرداً وليس معه سوى ركابى واحد فقط ، وطال تجواله حتى قرب الفجر ، خرج عبدا الحسين من مكمنهما ، وكانا يرصدان حركاته ، فانقضا عليه وقتلاه ، وقتلا الركابى وقطعا قوائم الحمار ، وحملا جثة الحاكم إلى سيدهما فى كساء فحملها إلى ست الملك ، فدفنته فى نفس مجلسها ، واتخذت كل أهبة لإخفاء الجريمة وتدبير ما يجب لجلوس الخليفة الجديد .

وهنا تبدو الأميرة الفاطمية فى ذروة حزمها وصرامتها ، فإنها بعد أن أتمت تدبيرها فى تنصيب ولد أخيها أبى الحسن على (الظاهر) مكانه فى كرسى الخلافة ، واستوثقت من طاعة الزعماء والقبائل ، بادرت إلى القضاء على شركائها فى الجريمة ، فدبرت مقتل الحسين بن دواس وهو فى بعض أبهاء القصر ، ثم دبرت مقتل الوزير خطير الملك . ولم تبق على أحد ممن وقفوا على السر . وتمت هذه الإجراءات الدموية بسرعة وصرامة ، وذهب السر الرهيب مع الجناة إلى الأبد .

* * *

وجلس الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله مكان أبيه الحاكم فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١ هـ وهو فتى يافع لم يجاوز السابعة عشرة . وتولت ست الملك تدبير الأمور وغدت كل شىء فى البلاط والدولة ، وأخذ الخليفة الجديد بوحى عمته القوية فى إصلاح الأمور وتهدئة الخواطر ، فألغى كثيراً من المراسيم الشاذة ، وأباح كثيراً مما منعه أبوه ، واستأنف سياسة التسامح نحو النصارى واليهود ،

وبدأ عهد من السلام والأمن لم تشهده مصر طوال أيام الحاكم . وبذلت ست الملك جهوداً بارعة فى توطيد أركان الدولة ومطاردة الخوارج ؛ ونمى إليها أن عزيز الدولة فاتك الوحيدى والى حلب ينوى الخروج والعصيان ، فلجأت إلى مصانعته وأرسلت إليه خلعاً وأموالا ، ودست عليه فى نفس الوقت غلامه بدراً ليدبر مقتله ، وبذلت له وعوداً كبيرة ؛ ونفذ بدر جريمته وقتل فاتك بعض غلمانه ، وتولى بدر بعد مصرعه حكم حلب ، وأقرته ست الملك على ولايته . وهكذا عملت بمختلف الوسائل على إخماد روح العصيان وتوطيد سلطان الدولة فى النواحى .

ولم تنس ست الملك شئون السياسة الخارجية ، فسعت إلى الصلح والمهادنة مع الدولة البيزنطية تأميناً لحدود مصر الشمالية ، وأوفدت إلى بازيل الثانى قيصر قسطنطينية بطريق بيت المقدس سفيراً ليعمل على عقد الصداقة بين الدولتين ، وليطمئن بلاط قسطنطينية على مصير النصارى ، وحمايتهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام شعائرهم ، وإعادة أملاكهم وكنائسهم . وهكذا استمرت هذه الأميرة النابهة زهاء ثلاثة أعوام بعد مصرع أخيها ، توجه شئون الملك والخلافة بهمة وبراعة تخلق بأعظم الزعماء والقادة . بيد أنها كانت تدنو مسرعة من الخاتمة ، ولم تلبث أن توفيت فى أواخر سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) ، وقد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها .

لقد عاشت ست الملك الفاطمية أميرة فقط ، ولم تجلس على عرش ولم تتبوأ رياسة أو زعامة رسمية . ولكنها كانت بذكائها وقوة نفسها وبارع خلالها أقدر من كثيرين ممن تبوأوا العروش والرياسة . وإذا كانت الرواية لم تحدثنا كثيراً عن جمالها وسحرها كامرأة ، فإنها تفيض فى مواهبها البديعة كمدبرة للملك والسلطان[1] .

(١) تحدثنا بإفاضة عن نشأة الأميرة ست الملك وحياتها ، والدور الذى قامت به فى مصرع أخيها فى كتابنا « الحاكم بامر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » الطبعة الثانية ص ١٨٥ و ٢١٢ ، ٢١٣ و ٢١٦ — ٢٢٧ .

الحسن الصباح

(نحو ٤٣٠ – ٥١٨ هـ) ، (١٠٣٨ – ١١٢٤ م)

فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، بينما كانت الدولة الفاطمية بمصر ترفع لواء الشيعة الدينى والسياسى ، كانت الدعوة الشيعية فى فارس والعراق تتمخض عن فرقة أخرى ، تنتمى كالخلافة الفاطمية إلى الإمامة الإسماعيلية ، وتشق طريقها إلى السلطان والملك بأساليب عجيبة ، لم تعرفها من قبل أية فرقة إسلامية أخرى. وكان سلطان الشيعة السياسى الذى حققه الفاطميون فى مصر بفتوحهم ، وإقامة دولتهم الباذخة ، قد أخذ فى الضعف والانحلال . ولكن الدعوة الشيعية لبثت مع ذلك قوية تضطرم فى المشرق . وكانت تتجه دائماً إلى الخلافة الفاطمية لتستمد منها الإلهام والعضد الروحى ، ولكنها كانت تتخذ مع ذلك صبغة محلية تكيّفها الحوادث والظروف .

وكانت هذه الفرقة المذهبية الجديدة ، تنضوى منذ البداية تحت علم الإمامة الإسماعيلية . بيد أنها عرفت فيما بعد فى مختلف الأقطار بأسماء مختلفة مثل الملاحدة والمزدكية والتعليمية والباطنية ، وعرفت فى الشام أيام الصليبيين بالحشيشية . والباطنية أشهر ألقابهم وأخصها ، أطلق عليهم لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تأويل تنزيلا[1] ؛ ولأنهم من جهة أخرى كانوا يحرصون على كتمان دعوتهم وغاياتهم[2] ، يبثونها فى الخفاء ولا يبدونها إلا لخاصة الصحب والتلاميذ .

ومؤسس هذه الدعوة الإسماعيلية الباطنية ، وواضع أصولها ، ومنظم دعاتها ، رجل تقدم لنا سيرته العجيبة صفحة من أغرب صحف الدعوات السرية ، هو الحسن بن على الصبّاح الحميرى ، وهو شخصية تذكرنا أعمالها وقوة خلالها بأعظم زعماء الحركات السرية والإرهابية الحديثة ، بل سنرى فيما يلى أن الحركات الثورية والإرهابية الحديثة التى هزت أركان العروش والدول ، قد تقتبس كثيراً

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩ (هامش كتاب الفصل) .

(٢) ابن خلدون – كتاب العبر – ج ٤ ص ٩٤ .

من نظمها وتعاليمها السرية ، من نظم الحسن وتعاليمه ، وأن الحسن كان إمام هذا الفن وأستاذه الذى لا يجارى .

كان الحسن الصبّاح إماماً من أئمة الدعوة السرية فى عصر كانت الدعوة فيه أنفذ سلاح لغزو المجتمعات والجماهير . وكان قطباً من أقطاب الخفاء ، يحيطه الخفاء بسياج من القوة والروع ، وكانت فلسفته أعظم عناصر قوته . ذلك لأن الحسن لم يكن متآمراً وداعية فقط ، بل كان أيضاً كما سنرى فيلسوفاً يطبع فلسفته كثير من الذكاء والطرافة ، وكان ينظر من خلال فلسفته إلى العالم والمجتمع بمنظاره الخاص ، ويتخذ منها قانوناً خاصاً للحكم على الأشخاص والأشياء والحوادث .

* * *

ظهر الحسن فى عصر كان الإسلام يستقبل فيه مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، ويستجمع قواه ليخوض مع النصرانية فى ميدان الحروب الصليبية معركة جديدة من معارك الحياة والموت . وكان مولده فى طوس من أعمال خراسان فى حدود الثلاثين بعد المائة الرابعة . وكان والده الصبّاح فقيهاً متواضعاً يعتنق مذهب الشيعة الرافضة فى الخفاء ، ويستتر بثوب من التقشف والورع . وكان ينتحل لنفسه نسبة عربية ويزعم أنه سليل الصباح الحميرى . وقضى الحسن صباه فى طوس ، ودرس الفقه والحديث على المحدث الشهير موفق الدين النيسابورى . وكان من زملائه فى الدراسه اثنان تألق نجمهما فيما بعد ، وأصبحا من اعلام العصر ، وهما الشاعر الأشهر عمر الخيّام ، والوزير الكبير نظام الملك . وكانت طوس يومئذ مركزاً للدراسات الدينية الخطيرة . وفيها ولد وظهر فى نفس العصر أعظم فلاسفة الإسلام الروحيين ونعنى حجة الإسلام أبا حامد الغزالى . وكانت أيضاً مركزاً للدعوات الدينية السرية ، ومهبطاً لأقطاب الدعاة . وفيها تلقى الحسن الدعوة الإسماعيلية منذ حداثته . ويحدثنا الحسن عما خالجه يومئذ من تردد فى قبولها ، وما كان يعتقده من أن مذهب الإسماعيلية ، إنما هو مذهب الفلاسفة ، وأن إمامهم خليفة مصر الفاطمى ، إنما هو مفكر من المفكرين الفلاسفة ، وكيف انتهى أخيراً إلى اعتناق المذهب ، وغدا من تلاميذ عبد الملك بن عطّاش أحد

أقطاب دعوتهم . ثم صحبه إلى الرّى شاباً يضطرم إخلاصاً للدعوة وحماسة فى بثها(١) .

ودرس الحسن الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء التى كانت فى عصره علوماً رفيعة ، وكانت سلاحاً يشهره الأذكياء والأدعياء على البسطاء والعامة . وكان صديقه ورفيق صباه نظام الملك ، قد شق طريقه إلى السلطان والمجد ، فاتصل به يلتمس عونه وعضده فألحقه بخدمة السلطان . وقرّبه السلطان وحظى لديه بما أبدى من فطنة وبراعة . ولكنه لم يلبث أن انقلب على صديقه والمحسن إليه يحاول الإيقاع به . وأوجس نظام الملك خشية من دسه ونفوذه فعمل على إقصائه ، واتهمه بالإلحاد وبث الدعوة الإسماعيلية ، فأقصاه السلطان وغادر البلاط ساخطاً يلتمس لنشاطه آفاقاً أخرى .

وكانت هذه مرحلة التكوين والاستعداد فى حياة الحسن . وكان هذا الرهط المستتر من الدعاة يتجه دائماً إلى مصر وإمامها الفاطمى ، قطب الدعوة وملاذها ، ورمز سلطانها وسيادتها ، فإلى مصر اتجهت أنظار الحسن . وشجعه شيخه عبدالملك لما آنس فيه من مقدرة وإخلاص على السفر إليها ، ليحظى برؤية إمامها المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، وليستمد منه التأييد والعون ؛ فسار الحسن إلى مصر وهبطها فى حدود الثمانين (نحو سنة ٤٨٠ هـ)(٢) . وفى رواية أخرى أن الحسن سار إلى مصر فراراً من نقمة حاكم الرّى إذ اتهمه ببث الدعوة الإلحادية والتستر على نفر من الدعاة المصريين(٣) . ولما وصل إلى مصر لقى منتهى الحفاوة ، واستقبله داعى الدعاة الشريف طاهر القزوينى وعدة من الشيوخ الأكابر عند الحدود . ورحب به الخليفة المستنصر بالله ، وأكرم وفادته ، وأفرد لإقامته منزلا خاصاً ، وقربه وأمره بدعاء الناس إلى إمامته . ولبث الحسن بمصر ثمانية عشر شهراً يتمتع فيها بتأييد الخليفة ورعايته وثقته ، ويدرس أساليب الدعوة على أساتذة دار الحكمة المصرية ، التى لبثت بالرغم من تقلص نفوذها القديم أعظم مركز علمى لتلقين الدعوات السرية . بيد أنه لم يستطع أن يحرز من النفوذ ما كان يطمح إليه . ذلك أن الخليفة الفاطمى لم يكن يومئذ أكثر من زعيم روحى ، وكانت مصاير الحكم

---

(١) رجعنا فى ذلك إلى ما أورده مسيو **Jourdain** المستشرق الفرنسى فى مذكرة استقاها من مخطوطات إسماعيلية محفوظة بدار المكتبة الوطنية بباريس ووجهها إلى المؤرخ **Michaud** صاحب تاريخ الحروب الصليبية (انظر **Michaud: T. I. p. 474 et suiv.**) .

(٢) مذكرة مسيو جوردان المشار إليها . (٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ .

والسلطان قد انتهت يومئذ كلها إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، المتغلب على الدولة والمستأثر بشئونها . ولم يوفق الحسن إلى الحظوة لدى أمير الجيوش إذ كان يوجس خيفة من نياته ومشاريعه . واستحكم الجفاء بين الرجلين . ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر ولده نزاراً لولاية عهده ، أيده الحسن فى اختياره بحماسة وطالبه المستنصر بالدعوة لإمامته ثم لإمامة ولده نزار من بعده . ولكن خالفه أمير الجيوش وحزبه ، واختار ولد الخليفة المستعلى لولاية العهد ؛ وكان هذا الخلاف منشأ فرقة إمامية نعتت بالنزارية نسبة لنزار ولد المستنصر(١) . وسخط أمير الجيوش على الحسن لمناوأته ، وانتهز هذه الفرصة فحمل الخليفة على إقصائه ، وأمر به فاعتقل فى بعض قلاع دمياط ، بيد أنه استطاع غير بعيد أن يفر من معتقله ، وأن يجوز فى بعض السفن إلى ساحل الشام .

ونزل الحسن فى حلب وأقام بها حيناً ثم رحل إلى بغداد ، فخوزستان وأصبهان ويزد وكرمان ، وهو يبث دعوته أينما حل . وكان يبثها فى الواقع فى مهاد خصبة تجتاحها الدعوات السرية منذ بعيد . بيد أن الحسن لم يكن رجلا نظرياً يقف عند الدعوة والمثل النظرية ، وإنما كان رجل عمل يرى فى الدعوة مرحلة تمهيدية ، ويتطلع إلى اجتناء ثمراتها العملية . وكانت فارس تقدم يومئذ بنظمها الإقطاعية وأحوالها السياسية والاجتماعية المضطربة ، إلى المغامرين خير الفرص . وكانت المنطقة الشمالية الغربية ما بين الديلم والعراق تتخللها عدة قلاع منيعة شاهقة تقع فى هضاب وعرة ، ويستطيع المسيطر عليها ، أن يبسط سيادته على تلك المنطقة كلها . فإلى هذه المنطقة اتجهت أنظار الحسن . وكان الإسماعيلية قد بدأوا بالفعل حركتهم العنيفة ، فرفعوا لواء الثورة فى أنحاء همذان ، وحاربوا جند السلطان ؛ واستطاع أحد زعمائهم أحمد بن عطاش ولد الشيخ عبد الملك أن يستولى على قلعة « شاه در » بالقرب من أصبهان ، وأن يتخذها قاعدة للهجوم والدفاع . أما الحسن فوجه اهتمامه إلى ولاية روذبار الواقعة فى شمال قزوين ، وإلى قلعتها المنيعة ألموت . وكان قد بعث دعاته إلى هاتيك القلاع والحصون ، يبثون الدعوة بين الجند ، ويفسدون ولاءهم وعقائدهم ، وكان حاكم القلعة من قبل ملكشاه علوياً يدعى أبو مسلم ، وهو صهر لنظام الملك ، فاتصل به الحسن وثوقت بينهما أواصر الصداقة ، ولبث الحسن

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٣٧ .

يتحين الفرص ؛ وفى ذات مساء وثب بصاحب القلعة فى جمع من أنصاره فأخرجه منها واستولى عليها . وكان ذلك فى السادس من رجب سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) .

وبادر السلطان بإرسال الجند إلى ألَموت لاستردادها . فضيقوا الحصار عليها ، وجهد الحسن وأنصاره داخلها ؛ فعندئذ فكر فى اغتيال نظام الملك خصيمه ومطارده الحقيقى ، فدس عليه فتى من دعاته ، فاغتاله ذات مساء من شهر رمضان (سنة ٤٨٥) وقتل القاتل لوقته(١). ووقع الاضطراب فى البلاط واستدعى السلطان جنده فرحلوا عن ألموت ، وتنفس الحسن الصعداء . ثم بادر إلى تحصين القلعة ،وملأها بالرجال والذخائر والأقوات ، وغرس حولها الأشجار الباسقة وغدت ألَموت ومعناها « تعليم العقاب » تسيطر بقوتها ومنعتها على ولاية روذبار كلها .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى السلطان ملكشاه ، ووقع الخلاف بين ولديه محمود وبركيارق . وانتهز الإسماعيلية فرصة الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستولوا على عدد كبير من القلاع والحصون فى قوهستان وأصبهان وهمذان وغيرها ، واستفحل أمر ابن عطاش صاحب قلعة « شاه در » وبسط سلطانه على كثير من أنحاء أصبهان ، وازداد الإسماعيلية قوة حين حالفهم السلطان بركيارق على أخيه ، ونشطوا إلى مطاردة الأمراء السلاجقة حلفاء السلطان محمود واغتالوا عدة منهم . وبثوا الرعب والروع فى أنحاء فارس ، وفشت دعوتهم بين الجند والعامة ، وغدوا قوة يخشى بأسها . وكان بركيارق نفسه أول من خشى بطشهم فانقلب إلى قتالهم ، وفتك بجموعهم فى أنحاء مملكته . ولما انتهت الحرب الأهلية بين أبناء ملكشاه وعقد الصلح بينهم ، جد الأمراء السلاجقة فى محاربة الإسماعيلية ، وأثخن فيهم السلطان محمد بن ملكشاه ، وأفنى جموعهم فى أنحاء أصبهان ، وحاصر ابن عطاش فى شاه در ، واستبسل الإسماعيلية فى الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئاً ، ووقعت القلعة أخيراً فى قبضة السلطان ، وأسر ابن عطاش وآله ولقوا أروع موت .

وليس من موضوعنا أن نتتبع أدوار هذه المعركة التى اضطرمت فى فارس بين

---

(١) الروضتين فى تاريخ الدولتين ج ١ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٩٤ ، وكلاهما يبدى فى روايته أن نظام الملك توفى قتيلا بيد الباطنية . وابن خلدون صريح فى أن القتل تم بتحريض الحسن . ولكن ابن الأثير يقدم لنا فى ذلك رواية أخرى (ج ١٠ ص ٧٠ و٧١) .

الإسماعيلية والأمراء السلاجقة وخلفائهم التتار . ويكفى أن نقول إنها استطالت زهاء قرن ونصف بسط الإسماعيلية خلالها حكم إرهاب حقيقى على الأنحاء الشمالية ، ولم يظفر السلاطين بالقضاء على دولتهم المروعة إلا بعد جهود جبارة متوالية .

فى ذلك الحين كان الحسن الصباح ممتنعاً فى ألَموت معقله ومركز سلطانه ؛ وكان صعوده إلى « ألموت » بدء مرحلة جديدة فى حياته وحياة طائفته . ومن ذلك الحين ينتظم الإسماعيلية إلى دولة حقيقية ، ويغدو الحسن الصباح زعيماً لدولة دينية سياسية . دولة من نوع خاص يتمتع زعيمها قبل كل شىء بصفة الإمامة الروحية ، ويستند إلى قوة خفية غير ظاهرة ، قوامها جيش من الدعاة والفدائيين المتعصبين ، يتشحون بأثواب من الزهد والورع ، ويعتملون على غزو الأذهان والعقول ، وعلى سلاح المؤامرة والغيلة ، ويؤيدون تعاليمهم الخفية بالخناجر المستورة ، ومثلهم الفلسفية والروحية بأعمال عنف مروعة . والواقع أن دولة الإسماعيلية الباطنية لم تكن سوى جمعية سرية هائلة ، وضع الحسن نظمها ومبادئها المدهشة ، ولبث أعواماً طويلة يرعاها ويوطدها فى عزلته ، حتى غدت قوة عظيمة تحدث آثارها العميقة فى حوادث العصر وتطوراته .

— ٢ —

وقد وضع الحسن قواعد مذهبه ومبادئ طائفته بالفارسية ، فى عدة رسائل فلسفية كلامية نقل إلينا خلاصتها مواطنه ومعاصره الفقيه والمتكلم البارع أبو الفتح الشهرستانى(١) فى كتابه « الملل والنحل » . وقد عاش الشهرستانى فى ذلك العصر المضطرب الحافل بالحروب والثورات الداخلية ، وعاصر حركات الإسماعيلية ووثباتهم فى فارس ، وعاصر إمامهم الحسن منذ « صعوده » إلى ألَموت حتى وفاته ، ونقل إلينا تعاليمه قبل أن تمتد إليها يد التغيير والتبديل . وإليك خلاصة هذه التعاليم التى جعلها الحسن دستوراً لدعوته ، والتى تدل بكثير من الطرافة فى الابتكار والمحاجة .

يقول الحسن بوجوب الدعوة إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان ومكان . وإن الفرقة الناجية تتميز من سائر الفرق بأن لها إماماً وليس لغيرهم إمام . ويقول

---

(١) كان مولد الشهرستانى فى سنة ٤٦٧ هـ ووفاته سنة ٥٤٨ بشهرستان من أعمال خراسان.

فى معرفة البارى بضرورة استعمال العقل والنظر إلى جانب المعلم الصادق ، وإن الناس فى ذلك فرقتان ؛ قالت الأولى بوجوب الاستعانة فى معرفة الله بالمعلم الصادق ، وإنه لا بد من معرفته أولا والظفر به ثم التعلم منه . وقالت الثانية بالأخذ فى كل علم من معلم وغير معلم ؛ وإن الحق مع الفرقة الأولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين ، وإذ تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية ، فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين . قال وبالاحتياج عرفنا الإمام ، وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج كما بالجواز عرفنا الوجوب أى واجب الوجود ، وبه عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات .

ثم يقول الحسن إن فى العالم حقاً وباطلا ، وإن علامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة ، وإن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأى ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأى مع الفرق المختلفة ، وهى مع رؤسائها . وجعل الحق والباطل ، والتشابه بينهما من وجه ، والتمايز بينهما من وجه ، التضاد فى الطرفين ، والترتب فى أحد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه ، ووزن بذلك الخير والشر ، والصدق والكذب ، وسائر المتضادات ؛ وطريقته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم ؛ وأن التوحيد ، هو التوحيد والنبوة معاً ، حتى يكون توحيداً ؛ وأن النبوة هى النبوة والإمامة معاً حتى تكون نبوة . ولم يتعد فى مسألة الألوهية قوله : إن إلهنا هو إله محمد ، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ، والرسول هو الهادى إليه . وقد منع الحسن العامة عن الخوض فى العلوم ، وكذلك الخاصة عن مطالعة كتبه المتقدمة إلا من استطاع منهم فهمها .

هذه خلاصة الآراء والمبادئ التى أقام عليها الحسن الصباح دعوته ، وجعلها دستوراً لطائفته ، وقد ذكر لنا الشهرستانى بعد إيرادها ، أنه كثيراً ما ناظر القوم أى الإسماعيلية فى هذه المقدمات . فلم يظفر منهم بطائل ، وأنه كثيراً ما نعى عليهم التسليم والتقليد دون المحاجة والإقناع (١).

وليس من موضوعنا أن نناقش هذه الآراء والمبادئ فذلك شأن المتكلمين ، وقد ناقشوها فى مواطن كثيرة . وقد وضع الغزالى مواطن الحسن ومعاصره ، رسالة خاصة فى تفنيد مبادئ الإسماعيلية الباطنية أسماها « فضائح الباطنية » ، وحمل

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج٢ ص ٣٢ — ٣٦ .

فيها عليهم وعلى مبادئهم حملة شديدة ، ووصف مذهبهم إجمالا فيما يأتى : « أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق ، لما يعتريها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الاختلافات ، وإيجاب لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستنصر ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ويكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان فلا بد فيه من إمام معصوم يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين . هذا مبتدأ دعوتهم . ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين فى فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم » . ثم يقول : « والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب ، واستباحة المحظورات واستحلالها ، وإنكار الشرائع ، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم »(١) .

* * *

كانت هذه الدعوة الفلسفية الكلامية تمثل فى برنامج الحسن جانبه المعنوى والنظرى فقط . أما الجانب العملى فكانت تحدوه ثورة إلحادية حقيقية ؛ وكان شعار الحسن الخفى الواقعى : « أنه لا شىء حق ، وكل شىء مباح » . بيد أنه كان يتشح بثوب من الورع الفياض ، ويسبغ على آرائه وخططه صبغة دينية عميقة ، ويستظل بلواء الإسلام الحق والإمامة المقدسة ، ويتظاهر بأنه لا يبغى سوى توطيد كلمة الدين وقمع البدع والضلال . وكان النظام السرى المدهش الذى وضعه لطائفته أنفذ أسلحته وأمضاها . وكانت الطائفة تتدرج فى مراتب سبع سرية على رأسها الرئيس أو السيد أو الشيخ ، وهو اللقب الذى اختاره الحسن وآثره على ألقاب الملك والإمارة ، وعرف فيما بعد « بشيخ الجبل » نظراً لامتناع الشيخ فى قلعته الجبلية الشاهقة . ويلى الشيخ المقدمون فالدعاة فالرفاق فالفدائيون ، وهم عماد الطائفة وسر قوتها ، وسيفها المشهر دائماً على أعناق خصومها ، ثم الحراس والمحاربون ثم التلاميذ . ولا يقف أهل المراتب الأخيرة على شىء من أسرار

---

(١) الغزالى فى رسالة فضائح الباطنية التى نشرت بعناية المستشرق جولدسيهر ، ومهد لها بمقدمة طويلة بالألمانية ، وطبعت فى ليدن (سنة ١٩١٦) ص ٨ و ١٠ .

الدعوة وغاياتها ، ولا يقف عليها سوى كبار المقدمين والدعاة ، وأهل المراتب الصغرى آلات صماء توجه حيثما وكيفما أريد .

وقد استعان الحسن فى تنظيم طائفته بخبرة واسعة بالناس والطبيعة البشرية ؛ وكان يعرف حق المعرفة ما يمكن اجتناؤه من الدعوة السرية ، وماجناه الفاطميون بواسطتها من الظفر والسلطان ، فكانت وسيلته وسلاحه النافذ فى تأييد هيبته وسلطانه . وكان يعلم من دراسة عميقة للسياسة والتاريخ ، أن الإلحاد والفساد الخلقى قد يعاونان أحياناً على إسقاط أسرة ، ولكنهما لايعاونان قط على تأسيس أخرى . وقد تفيد الفوضى المحكومين أحياناً ، ولكنها يجب ألا تكون قط غاية الحكام ، وأن الكتلة التى تخضع لواحد أو أكثر لا يمكن قيادتها إلا بقوانين وأصول أخلاقية ودين مستنير ؛ فهذه وحدها كفيلة بطاعة الشعوب وسلامة الأمراء[1] .

وعاش الحسن فى ألَموت فى عزلة مطبقة ، يؤلف كتب الدعوة ، ويسهر على مصاير طائفته وسلطانه . وفى عهده ازدهرت الطائفة واستطاعت بسلسلة من المغامرات والمعارك المتواصلة أن تبسط سلطانها على عدد من الحصون والمعاقل القوية فى العراق والشام . وغدا الإسماعيلية فى الواقع قوة سياسية يحسب حسابها ولا سيما فى فارس . ولما استفحل أمر الطائفة هب الأمراء السلاجقة إلى محاربتها وسحقها كما رأينا . وانتهت المرحلة الأولى من النضال بسحقهم وزوال نفوذهم من منطقة أصبهان . أما الحسن فلبث ممتنعاً فى ألموت يعمل على توطيد نفوذه فى منطقة روذبار . ولما وقع الخلاف بين أبناء ملكشاه عمل الإسماعيلية على توسيع نفوذهم ، وأثخنوا فى تلك الأنحاء وقطعوا طرق القوافل ، وأسرفوا فى الاعتداء والسفك والنهب ، وبسط الحسن فى تلك الأنحاء حكم إرهاب حقيقى ؛ فاستغاث الناس بالسلطان ، وحاول السلطان أن يدعو الحسن إلى طاعته بالحسنى . وهنا يروى أن الحسن حينما وفد عليه رسول السلطان يدعوه إلى طاعته ، دعا أمامه باثنين من رجاله وأمر أحدهما أن يغمد خنجره فى قلبه ، وأن يلقى الثانى بنفسه من أعلى الحصن ، ففعلا فى الحال وهلكا على الأثر . ثم قال الحسن للرسول : قل لمولاك يطيعنى هكذا سبعون ألفاً من الرعايا المخلصين .

---

(١) فون هامار Von Hammer فى كتابه عن الإسماعيلية أو الحشيشية Geschichte der Assassinen ص ٨٣ .

فعندئذ سيّر السلطان ، وهو يومئذ محمد بن ملكشاه ، جنده لمحاربة الإسماعيلية والاستيلاء على ألموت معقلهم ، وتوالت حملاته عليهم ، ولكنهم استطاعوا هزيمتها جميعاً . فلم ير السلطان بداً من أن يشهر عليهم حرباً عظيمة ؛ فأرسل إليهم فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) جيشاً ضخماً بقيادة الأمير أنوشتكين شيركير فهاجمهم واستولى على عدة من قلاعهم . وغادر الإسماعيلية الحصون المفتوحة إلى ألموت فغصت بهم ، وجمع الحسن قواته واستعد للمعركة الحاسمة . ثم سار أنوشتكين إلى ألموت ، وضرب حولها الحصار الصارم ، وبنى حولها المساكن لجنده . وطال الحصار أعواماً ؛ ولقى الإسماعيلية أهوالا فى جانب الأقوات والمؤن ، وأشرفوا على الهلاك ، وهددهم شبح الموت جوعاً ، وكاد اليأس يحملهم على التسليم ؛ ولم ينقذهم من القضاء المحتوم سوى موت السلطان محمد (٥١١ هـ) . وعندئذ اضطر أنوشتكين أن يرفع الحصار وأن يرحل ؛ فطارد الإسماعيلية مؤخرته ، واستولوا على ما خلفه من الأقوات والأسلاب ، وقويت بذلك نفوسهم وآمالهم ، وعاد سلطانهم كما كان خطراً مروعاً .

- ٣ -

إلى ذلك الحين قطع الحسن فى ألموت منذ استيلائه عليها زهاء ثلاثين عاماً ، يوطد زعامته الدينية وسلطانه السياسى ببراعة مدهشة . وكان يحرص جد الحرص على إمامته الدينية ويحيطها بجميع المظاهر الصارمة المؤثرة ، وكان يعيش فى منتهى التقشف ، ويشتد فى تطبيق أصول الدين وفرائضه ، ويسود الزهد المطبق والطاعة العمياء كل مكان ، وتحرم الخمر والموسيقى وكل الملاذ والملاهى الدنيوية المحرمة . وكان الشيخ أو شيخ الجبل (وهو اللقب الذى اتخذه الحسن) يرتدى دائماً البياض على طريقة المبيضة ، ويرتدى الرفاق والفدائية أثواباً بيضاء وأحذية وأحزمة حمراء . وكان يلازم معقله طوال السنين لا يغادره مطلقاً ، بل يقال إنه مدى إمامته فى ألموت وقد طالت خمسة وثلاثين عاماً ، لم يظهر فى شرفة قصره أكثر من مرتين[١] .

وعاش الحسن طويلا بعد أهله وصحبه جميعاً ، وسقط معظم أكابر دعاته صرعى الخناجر ؛ وفى أواخر حياته شابت الوحشية طباعه ، وتفاقمت صرامته

---

(١) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها .

وقسوته ، حتى أنه قتل ولديه بيديه ، أولهما وهو « الأستاذ » الذى كان يرجى أن يخلفه فى رياسة الطائفة ، لأنه اتهم بالاشتراك فى مقتل حسين القينى مقدم قوهستان ، وهو من خاصة الدعاة المقربين ، والثانى لأنه شرب الخمر . بيد أنه لا ريب أن هناك بواعث أخرى حملت الحسن على هذه الصرامة الدموية ، فربما خشى من دسائس ولديه ، وقد سئما حكمه الطويل ، ويئسا من تولى السلطة مكانه ، وربما رآهما الحسن غير خليقين بخلافته ، فى رياسة تقتضى كثيراً من المواهب والصفات الرفيعة فاعتزم أن يسحق الأسرة ، وأن يترك خلافته للأصلح من دعاته . ذلك أن روابط الدم والقرابة لم يكن لها كبير حساب فى جماعة توثق روابطها قبل كل شىء بأواصر الجريمة والدم المسفوك(١) .

ويقول لنا فون هامار فى هذا الموطن : « إن الحسن كان جامداً خلال سلطانه ، ولكنه كان يدفعه إلى أطراف خراسان والشام . وكان يوجه بقلمه خناجر أتباعه الفدائية . وكان أداة رائعة للقدر ، كالوباء والحرب ، كارثة على الملوك الضعفاء ، والشعوب المنحلة » .

وقد ترك لنا المؤرخ الفارسى « ميرخوند » فى كتابه « روضة الصفاء » نبذة طويلة عن تاريخ الإسماعيلية فى فارس ؛ وأهمية روايته فى أنها منقولة عن التاريخ الذى وضعه الوزير عطاء الملك وزير السلطان هولاكو عن الإسماعيلية ، منقولا عن كتبهم وأوراقهم بعد أن سقطت ألَموت فى يد السلطان ، ولقى الإسماعيلية مصرعهم فى فارس سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وتاريخ ميرخوند هو مرجعنا فى كثير من الوقائع والتفاصيل التى أوردناها(٢) .

* * *

وتوفى الحسن الصباح فى ألَموت سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاماً وقد أشرف على التسعين من عمره .

وكان الحسن كما رأيت رجلا من أفذاذ الرجال ، ومغامراً يفيض ذكاء وجرأة وإقداماً ؛ وكان مفكراً من أعظم مفكرى عصره . وقد شق إلى الرياسة والملك طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر ، فذلل وعره وصعابه بدهاء وبعد نظر ، وثاقب

(١) فون هامار . المصدر السابق ذكره .

(٢) مذكرة مسيو چوردان المشار إليها .

معرفة بالناس والحوادث . وإذا كان قد لجأ فى تحقيق خططه وغاياته إلى وسائل مروعة ، وأساليب مثيرة يأباها الولاء والشرف والخلق الأمثل ، فهو لم يكن فى ذلك إلا مطبقاً لنوع من السياسة المكياڤيلية ، قبل عصر المكياڤيلية ، وهى سياسة لا تحجم اليوم عنها ولا تأنف من اتباعها فى عصرنا دول عظيمة قوية . وإذا كان قد اختار هذه الأساليب الدموية لإنشاء دولته وتوطيد سلطانه ، فإنه لم يكن يقصد فيما يرجح أن ينحدر الإسماعيلية إلى ذلك المعترك الإجرامى الذى انحدروا إليه على يد خلفائه ، حتى غدوا غير بعيد جمعية من المغامرين والقتلة السياسيين الذين لا تحدوهم أية غاية مثلى .

وتنوه الرواية الإسلامية بشجاعة الحسن وقوة رأيه ، وبراعته فى مختلف العلوم والفنون[1] ؛ ويعتبره المستشرق فون هامار عبقرية عظمى .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٢ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ٢١٤ .

الملك الناصر صلاح الدين

(٥٣٢ – ٥٨٩ هـ) – (١١٣٧ – ١١٩٣ م)

هى شخصية من ألمع الشخصيات فى تاريخ الإسلام ، وتاريخ الشرق الإسلامى . وهى لا تسطع فقط ببطولة صاحبها ، وأعماله العظيمة ، ولكنها تسطع أيضاً بخلاله الشخصية ، ونوازعه الإنسانية المؤثرة . تلك هى شخصية الملك الناصر صلاح الدين .

ظهر صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، فى وقت اضطربت فيه أحوال مصر ، وأحوال الشرق الإسلامى بصفة عامة ؛ وكانت الدولة الفاطمية المصرية معقل الشرق الأوسط ، قد بدت عليها أعراض الوهن قبل ذلك بنحو قرن ، وبدأ الغرب عدوانه المنظم على المشرق ، وجاء الفرنج الصليبيون فغزوا بسائط الشام وثغوره ، وافتتحوا بيت المقدس ، وأقاموا المملكة اللاتينية فى قلب الشرق الإسلامى (سنة ١٠٩٩ م) رمزاً لعدوانهم ، وتمهيداً لمشاريعهم فى استعباد شعوبه ، والقضاء على تراثها الروحى والحضارى .

وكان الأمراء السلاچقة من جهة اخرى ، قد دفعوا فتوحهم شرقاً نحو الشام ، واستولى عاهلهم عماد الدين زنكى أتابك الموصل على حلب ، واشتبك مع الصليبيين فى معارك عديدة ، وانتهى بأن انتزع منهم مدينة الرها (سنة ١١٤٤م) ولما توفى بعد ذلك بعامين ، خلفه ولده نور الدين محمود ، وحذا حذوه فى مقارعة الصليبيين ، ثم استولى على دمشق فى سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ) من صاحبها مجير الدين أرتق ، وهو أيضاً من الأمراء السلاچقة ، وكان أميراً ضعيفاً ، وكان الفرنج الصليبيون يطمحون إلى امتلاكها ، وقد هاجموها بالفعل قبل ذلك ببضعة أعوام ، وكان نور الدين يخشى وقوعها فى أيديهم ، فكان استيلاؤه عليها ضرورياً لحمايتها ، وتأمين شمالى الشام من عدوانهم . وبذا قامت فى تلك المنطقة مملكة إسلامية قوية ، تسهر على حركات المملكة اللاتينية ، وحركات الصليبيين .

فى تلك الآونة ، كانت مصر تعانى فى ظل الخلافة الفاطمية المحتضرة ، أشنع ضروب الضعف والفوضى . وكان الأواخر من الخلفاء الفاطميين ، قد غدوا أشباحاً ، فى ظل نفر من الوزراء الطغاة ، وغدا القصر الفاطمى مسرحاً للقتل والغيلة . فتولى الخلافة فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) الظاهر بأمر الله ، ثم توفى مقتولا بعد ذلك بخمسة أعوام ، بعد أن قتل وزيره الطاغية ابن السلّار المتسمى بالملك العادل . وخلفه ولده الطفل ، الفائز بنصر الله . وفى عهده استولى الصليبيون على عَسْقَلان (١١٥٣ م) آخر القواعد المصرية فى فلسطين . واستغاث نساء القصر بالأمير طلائع بن رزِّيك حاكم الأشمونين ، وكان من أقدر الرجال ، فزحف على القاهرة ، فى أنصاره من القبائل العربية ، ودخلها واستولى على السلطة ، واتشح بالوزارة ، وتسمى بالملك الصالح . واستطاع بعزمه ، وقوة شكيمته ، أن يعيد الأمن والنظام ، وانتعشت قوى مصر نوعاً ، واستطاعت القوات المصرية بقيادة ضرغام صاحب الباب ، أن توقع الهزيمة بالفرنج الصليبيين على مقربة من غزة (١١٥٨ م) .

وكان الصالح بن رزيك ، يرى دفعاً للخطر الصليبى ، أن تتحد مصر والشام ، فى محالفة دفاعية هجومية ، وأرسل سفراءه بذلك إلى نور الدين ، ولكن مسعاه لم يثمر ، لأن نور الدين لم يكن لديه ثقة كافية ، بقوة مصر ومشاريعها .

وتوفى الخليفة الطفل فى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) ، فأقام الصالح مكانه فى الخلافة العاضد لدين الله ، وكان أيضاً طفلا فى التاسعة . ولكن لم يمض سوى القليل حتى قتل الصالح ، بدسيسة من نساء القصر ؛ فخلفه ولده العادل رزيك واستولى على مقاليد السلطة . وبدت من شاور بن مجير السعدى ، والى قوص ، أو الوجه القبلى إمارات الانتقاض ، فعزله العادل ، فرفض العزل ، وحشد جمعاً كبيراً من أنصاره ، وسار إلى القاهرة ، فهُزم العادل وقُتل ، واستولى شاور على الوزارة ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١١٦٣ م (٥٥٨ هـ) .

ولكنه لم يلبث طويلا حتى ثار به ضرغام بن عامر اللخمى صاحب الباب ، وانتزع منه السلطة وتسمى بالملك المنصور ، ففر شاور إلى الشام ، واستنصر بملكها نور الدين ؛ وتردد نور الدين فى البداية ، ولكن الفرنج انتهزوا تلك الفرصة ، وزحفوا على مصر بقيادة ملكهم أماليك ؛ وبالرغم من أنهم ردوا

فى البداية على يد ضرغام ، فإن الأنباء ترامت إلى نور الدين بأن ضرغام يحاول الاتفاق والتحالف مع الفرنج ؛ وخشية من أن ينجح الفرنج فى الاستيلاء على مصر ، بادر نور الدين فجهز قوة كبيرة من « الغز » التركمان ، أرسلها إلى مصر مع شاور ، وكان يقودها أسد الدين شيركوه بن شادى ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فوصلت إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (مايو سنة ١١٦٣ م) .

وهنا ، ولأول مرة ، يذكر التاريخ صلاح الدين فى حوادث مصر . وكان هذا الفتى الذى قدر له أن يغدو من أعظم رجالات التاريخ ، وأن يكتب على يديه إنقاذ الشرق والإسلام من عدوان الصليبيين وعدوان الغرب ، يومئذ فى السادسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) بقلعة تكريت الواقعة على نهر دجلة ، بين بغداد والموصل . وهو يوسف بن أيوب بن شادى ، وقد كان جده شادى هذا من الأكراد الروادية ، وأصلهم من بلدة دوين من أعمال بلاد الكرج ، وكان له ابنان أكبرهما نجم الدين أيوب ، ثم أسد الدين شيركوه ؛ فسارا إلى العراق والتحقا بخدمة مجاهد الدين بهروز ، صاحب الشرطة من قبل السلطان مسعود السلجوقى . ثم عين بهروز نجم الدين أيوب حاكماً لقلعة تكريت ، وكانت إقطاعاً له لما رآه من حزمه وعقله ؛ وفى تكريت رزق أيوب بولده صلاح الدين . ثم وقعت النفرة بين بهروز وبين الأخوين ، لاتهامه إياهما بمعاونة خصمه عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، فغادرا تكريت وقصدا إلى عماد الدين ، فأكرم وفادتهما وضمهما إلى جنده . ولما افتتح عماد الدين بعلبك عين نجم الدين أيوب حاكماً لها ؛ ولما قتل عماد الدين وخلفه ابنه نور الدين محمود فى الملك ، التحق الأخوان بخدمته . وأبدى شيركوه بالأخص فى خدمته غيرة ، وبرز بشجاعته وبراعته العسكرية فى كثير من الوقائع ، فجعله نور الدين مقدم جنده ، وهكذا احتل كل من الأخوين فى بلاط دمشق مكانة رفيعة ونعم بالسلطان والنفوذ .

ونشأ صلاح الدين يوسف فى كنف أبيه أيوب ، فى مهاد الكفاح والفروسية ، ولكنه نشأ فى نفس الوقت فى مهاد العلم والتقى ، وظهرت عليه منذ حداثته مخائل الهمة والنجابة ؛ ولما بلغ أشده ، كان إلى جانب أبيه فى خدمة نور الدين .

ولما سار عمه شيركوه فى قوات الشام إلى مصر سنة ٥٥٨ ﻫ ، كان من أكابر ضباط الحملة . وكان ضرغام أو الملك المنصور أثناء ذلك ، قد استبد بالدولة وأسرف فى قتل منافسيه من الزعماء والأكابر ، فلما علم بمقدم عساكر الشام مع شاور ، سار فى قواته لقتالهم ، واشتبك الفريقان فى معركة شديدة فى ظاهر بلبيس ، هزم فيها ضرغام ؛ فارتد فى فلوله إلى القاهرة ، فسار شاور فى قوات الشام فى أثره ، واستولى على الفسطاط ؛ واعتصم ضرغام بالقاهرة ، ولكن معظم جنده انفض عنه ، وتخلى عنه الخليفة العاضد ، وأخيراً هاجمته جموع الدهماء فأخذ وقتل ، (رمضان ٥٥٨ﻫ) ، ودخل شاور القاهرة واسترد سلطانه .

ولكن شاور ما لبث أن تنكر لشيركوه ، ونكث بعهوده لنور الدين . وثار الخلاف بين الحليفين ، فبعث شيركوه ابن أخيه صلاح الدين فى بعض قواته ليحتل بلبيس والشرقية؛ واستنصر شاور بالفرنج الصليبيين ، وزحفت جموعهم مرة أخرى على مصر ، ووقعت بين قوات شاور وحلفائه الفرنج ، وبين شيركوه وقائع عديدة ، وبادر نور الدين بمهاجمة فلسطين من الشمال ، ليرغم الفرنج على الانسحاب من مصر ، ونجحت هذه الحركة فعقد الفريقان الهدنة ، وارتد شيركوه بقواته إلى الشام .

وعقد شاور النية على الاستمرار فى محالفة الفرنج ، والاستنصار بهم خوفاً من مطامع نور الدين فى مصر ، وعقد نور الدين النية من جهة أخرى على ألا يمكن الفرنج من الاستيلاء على مصر ، إذ يصبح ذلك كارثة عليه وعلى الشرق الأوسط كله ؛ وكان شيركوه قد خبر أحوال مصر وأدرك أنها بضعفها وتفككها ، تغدو غنماً هيناً ، ووصفها لنور الدين بأنها « مملكة بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال » .

وأخذ نور الدين وشيركوه يدبران الخطط للاستيلاء على مصر ، وشاور من جانبه يدبر الخطة لاستقدام الفرنج والاستعانة بهم . وأخيراً اعتزم نور الدين أمره ، وبعث قواته إلى مصر بقيادة شيركوه وصلاح الدين ، فوصلت إلى مصر فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ ﻫ (١١٦٧ م) . وزحف الفرنج على مصر فى نفس الوقت استجابة لنداء شاور ، ووصلوا إلى الفسطاط ؛ ووصلت عساكر الشام من طريق الضفة الأخرى من النيل ، وعسكرت بالجيزة قبالة الفرنج .

وعقد ملك الفرنج أماريك مع الخليفة العاضد ، معاهدة يتعهد فيها الخليفة بأن يدفع للفرنج تعويضاً قدره مائتا ألف قطعة من الذهب ، ومثلها فيما بعد ، نظير النفقة لرد العدو . ثم وقعت على أثر ذلك عدة وقائع بين الفرنج والمصريين وبين جند الشام ، أولا على مقربة من المنيا حيث هزم الفرنج ، وثانياً حول الإسكندرية حيث سار شيركوه فاحتلها ، وعهد بالدفاع عنها إلى صلاح الدين ؛ ثم سار إلى الوجه القبلى ليجمع الإتاوات . وبالرغم من أن الفرنج وجند شاور حاصروا الإسكندرية من البر والبحر بشدة ، فإنها صمدت للحصار ، حتى جاءت الأنباء بعودة شيركوه ، وبأنه أضحى على أبواب القاهرة ، فعندئذ آثر الفرنج عقد الهدنة ، واتفق الفريقان على أن تترك مصر للمصريين ، وأن ينسحب شيركوه والفرنج كل إلى أراضيه .

وعاد شيركوه ببقية جنده إلى الشام ؛ ولكن أماريك لم يف بعهوده فى الجلاء التام ، فتركوا فى القاهرة نائباً عنهم ، وأصروا على أن يتولى حراسة أبواب القاهرة رجال منهم ، وزادوا فى مقدار الإتاوة التى يجب أن يؤديها شاور . وفضلا عن ذلك فإن أماريك كانت تحدوه فى الواقع ، فكرة فى الاستيلاء على مصر جملة ، وخصوصاً بعد أن مُهدت له السبل لذلك . ومن ثم فانه لم يمض عام ، حتى سار أماريك على رأس قواته مرة أخرى إلى مصر يريد افتتاحها ، فوصل إلى بلبيس فى شهر نوفمبر سنة ١١٦٨ م (صفر سنة ٥٦٤ هـ) وقتل أهلها جميعا .

وعندئذ أدرك شاور ، وأدرك أهل مصر ، ما ينطوى عليه التحالف مع الفرنج من الغدر والأخطار ، وبعث شاور إلى نور الدين وشيركوه يستصرخهما ، لإرسال العساكر لإنجاده ، وإنقاذ مصر من الفرنج . وأدرك نور الدين بدوره ، أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشروعه نحو مصر ، فأرسل شيركوه إلى مصر للمرة الثالثة على رأس جيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل ، من الحرس والغز ، ومعه صلاح الدين . وكان شاور فى تلك الأثناء قد حشد قواته لمدافعة الفرنج ، وأحرق مدينة الفسطاط لكى يحمى القاهرة ، واستمر الحريق أربعة وخمسين يوماً ، وأخذ فى نفس الوقت فى مفاوضة أماريك وإغرائه بالوعود والأموال ؛ وبينما كان الفرنج على مقربة من القاهرة يرقبون الفرصة لاقتحامها ، إذ وصلت

عساكر الشام فى شهر ديسمبر سنة ١١٦٨ م (ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ) ، واتصلت فى الحال بعساكر مصر ، وعندئذ أدرك أمالريك خديعته ، وحرج مركزه ، فارتد بجنده عائداً إلى فلسطين دون أن يشتبك مع خصمه فى أية موقعة ، ودخل شيركوه القاهرة ظافراً ، وتلقاه أهل مصر بالغبطة والإكرام ، واستقبله الخليفة العاضد ، وخلع عليه ، وأظهر له شاور منتهى المودة . ولكن هذا الوزير المتقلب الماكر ، لم يكن فى قرارة نفسه ، مطمئناً لنيات شيركوه ، وكان شيركوه من جهة أخرى ، أبعد من أن يثق بولاء شاور وصدق نياته ووعوده ، ويرى أنه لا سبيل لتحقيق غايته من استخلاص مصر ، إلا إذا اختفى شاور من الميدان ؛ وهكذا كان كل يتربص بالآخر . وأضمر شاور أن يفتك بشيركوه وأصحابه ، فى مأدبة يقيمها لهم ، وكان يذهب فى موكبه وحرسه إلى مخيم شيركوه على النيل ، من آن إلى آخر ؛ ونمى إلى شيركوه ما يضمره الوزير الغادر ، فأضمر من جانبه القضاء عليه ؛ وفى ذات يوم جاء شاور فى موكبه كالعادة إلى مخيم شيركوه ، ولم يكن شيركوه هناك ، ففاجأه صلاح الدين وعز الدين جوردك ، وقبضا عليه ، وفر أصحابه . وعلم الخليفة العاضد بذلك ، فأرسل إليهم يطلب إعدام شاور ، فأعدم فى الحال ، وأرسل رأسه إلى الخليفة ، وذلك فى يوم ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ هـ ، وانتهت بذلك حياته المليئة بالمغامرات والدسائس .

وعلى أثر مقتل شاور ، استدعى العاضد أسد الدين شيركوه ، وخلع عليه أثواب الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش . ولكن شيركوه لم يمكث طويلا فى هذا المنصب ، إذ توفى بعد ذلك بنحو شهرين فقط فى ٢٧ جمادى الثانية من نفس العام . وعندئذ استدعى العاضد ابن أخيه صلاح الدين ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالملك الناصر ؛ وكان العاضد يعتقد أن صلاح الدين أضعف جانباً من عمه ، وأنه لا يتمتع فى العسكر بمثل نفوذه ، وأنه يستطيع أن يسيطر عليه دون صعوبة ، ثم يضع على رأس الجند من يستميلهم إلى جانبه .

ولكن العاضد كان واهماً فى ظنه . ذلك أن صلاح الدين ما كاد يتسلم زمام

الأمور ، حتى حجر على العاضد ، ومنعه من كل تصرف ، ونزع رجال الدولة المصريين كل سلطة ، واستقدم أباه وأخوته وسائر أهله من الشام ، وولاهم مناصب النفوذ والثقة ، وأخذ دور الأمراء الفاطميين وإقطاعاتهم ووهبها لأصحابه : وأمر بأن يدعى فى الخطبة للسلطان نور الدين بعد العاضد ، وعمد إلى استصفاد أموال العاضد وموارده بالطلب المستمر ؛ وهكذا تبين ما يرمى إليه صلاح الدين من القضاء على الخلافة الفاطمية ، وعلى دولة الفواطم . وحملت هذه التصرفات بعض رجال القصر الفاطميين وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة أحد الأساتذة المحنكين ، على تدبير مؤامرة لاستدعاء الفرنج ، والقضاء على سلطان صلاح الدين ، فضبطت المؤامرة ، وقتل مؤتمن الخلافة ، فثار لمقتله الجند المصريون ، وطوائف الحرس السودانيين ، وانضم إليهم كثير من العامة ، واحتشدت منهم ألوف عديدة فى ميدان بين القصرين ، وحاولوا الزحف على دار الوزارة ، فجرد عليهم صلاح الدين قوات الغز ، ونشب القتال بين الفريقين ، حتى انهزم السود ومزقوا ، وأبعدت فلولهم إلى الصعيد (ذو القعدة ٥٦٤ هـ — ١١٦٩ م) ، وهكذا تلاشى أمر العاضد بالقضاء على الحرس الخليفى ؛ واستمر صلاح الدين فى خطته للقضاء على رسوم الدولة الفاطمية ومعالمها ، فعزل قضاة الشيعة ، وقلد القضاء الأعلى لقاض شافعى ، وجعل نوابه من القضاة الشافعية ، وأبطل من الأذان « حى على خير العمل » ، ووضع يده على القصور الفاطمية ، وسائر محتوياتها ، وعين على حراستها أمينه الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وجرد العاضد وجميع أفراد أسرته من أموالهم وأمتعتهم ، وضيق على سائر أهل القصر ، ثم كانت الخطوة الأخيرة ، بقطع الدعاء للخلافة الفاطمية ، والدعاء للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى ، وذلك تنفيذاً لأوامر السلطان نور الدين ؛ وكان ذلك فى السابع من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ؛ وتوفى الخليفة العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام ، دون أن يدرى بأمر هذا القرار الحاسم ، الذى قضى على آخر رسوم الخلافة الفاطمية ، وبه اختتمت حياتها .

ولما توفى آخر الخلفاء الفاطميين ، استولى صلاح الدين على القصور الفاطمية ، وأخرج منها أهل العاضد ونساءه وحاشيته ، ونقلهم إلى أمكنة أخرى ، واعتقل أبناءه وعمومته وأبناءهم فى إيوان بالقصر ، وأخرج العبيد والجوارى ، فأعتق

البعض ، وباع البعض الآخر ، وأُخرجت المكتبة الفاطمية العظيمة من أروقتها ، وأعطى صلاح الدين معظم محتوياتها لصديقه وكاتبه القاضى عبد الرحيم بن على البيسانى ، المعروف بالقاضى الفاضل ، وبيع الباقى ، وأخرجت سائر محتويات القصور والخزائن الخلافية ، فوجد فيها من الذخائر والجواهر النفيسة ، وفاخر الأثاث والرياش والكسوة ، ما لا يحيط به وصف ، واستصفى ذلك كله ، بالهبة والبيع ، حتى غدت تلك القصور العظيمة ، التى لبثت أجيالا مضرب الأمثال فى البذخ والفخامة ، قاعاً صفصفاً ، وخيمت عليها أعلام الخراب والموت .

وفى أثناء ذلك كان صلاح الدين قد بدأ حملاته العسكرية الأولى ضد الصليبيين ، وكان ملك القدس الفرنجى قد سار فى أسطول كبير اشترك فى إعداده قيصر قسطنطينية لمحاصرة دمياط ، فهرع صلاح الدين فى جنده ، وعزز حامية دمياط حتى استطاعت أن ترد كل محاولة للعدو ، وأُرهق المحاصرون بالعواصف والوباء ، حتى اضطروا إلى رفع الحصار والرحيل ، (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) . وفى العام التالى سار صلاح الدين فى قواته صوب فلسطين ، وعاث فى أحواز غزة ونهبها ، ثم سار إلى ثغر إيلة الواقع على خليج العقبة ، وانتزعه من الفرنج تأميناً لطريق الحاج ، ولجأ فى ذلك إلى طريقة مبتكرة ، إذ ابتنى سفناً حُملت أجزاؤها إلى البحر الأحمر ، ثم ركبت واستعملت لحمل الجند والعتاد .

وفى ذلك الحين ابتدأت الوحشة بين صلاح الدين وبين السلطان العادل نور الدين . وكان المفروض أن صلاح الدين يقوم على حكم مصر باسم نور الدين وبالنيابة عنه ؛ ولكن الحقيقة أن صلاح الدين كان يجيش بنزعة استقلالية ، ويشعر أنه أحق باجتناء تراث مصر العريض لنفسه ، فلما دعاه نور الدين ليسير بقواته إلى الكَرَك ، حيث يعتزم هو السير إليها فى نفس الوقت ، ويتعاونان على هزيمة الفرنج ، اعتذر صلاح الدين عن السير إليه ، بحجة أن الموقف فى مصر ما زال غير مأمون العاقبة ، وأنه يخشى انتقاض العلوية ، واضطراب النظام إذا ترك البلاد ؛ فغضب نور الدين لذلك ، ونمى إلى صلاح الدين أنه يفكر فى السير إلى مصر لانتزاعها منه ، فبعث صلاح الدين نزولا على نصح أبيه وإخوته ، إلى نور الدين يلاطفه ، ويؤكد له أنه ما زال رجله وخادمه المطيع ،

وأنه على استعداد لتنفيذ أوامره ورغباته . ثم بعث إلى نور الدين فى العام التالى هدية فخمة تحتوى على قدر عظيم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ، ومنها ستون ألف دينار من الذهب العين ؛ ومع ذلك فإن نور الدين لبث على توجسه من موقف صلاح الدين ومشاريعه ، ورأى أن يتحقق الأمور ، فأرسل إلى القاهرة وزيره موفق الدين خالد ابن القيسرانى ، ليطالب صلاح الدين بحساب مفصل عما استولى عليه من قصور الخلفاء الفاطميين ، فقدم إليه صلاح الدين ما شاء من البيانات ، وعرفه بأموال الجند ، ومبلغ إقطاعاتهم ونفقاتهم ، ومبلغ ما ينفق فى حكم مصر وضبط أحوالها من المبالغ الطائلة . ولبث صلاح الدين وآله حيناً على تخوفهم من نيات نور الدين نحو مصر ، حتى أنهم فكروا فى السير إلى اليمن وافتتاحها لتكون لهم مثوى وملاذا ، وسار إليها بالفعل الأمير شمس الدولة أخو صلاح الدين ، وافتتحها ، ودعى فيها للخليفة العباسى ، وبعث بالخبر إلى القاهرة ثم أرسل إلى دمشق .

ولكن القدر كان يحبو صلاح الدين بتأييده وسعده . ذلك أنه لم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى توفى السلطان العادل نور الدين محمود عاهل دمشق ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٩ هـ (مايو سنة ١١٧٤ م) وخلفه ولده الصالح إسماعيل ، وهو صبى فى الحادية عشرة من عمره ، فخطب له صلاح الدين بمصر ، وقد أمن بوفاة نور الدين القوى ، منافسته ، ومشاريعه نحو مصر ، وقرر فى الحال أن يعمل لتوحيد المملكتين .

بيد أنه اضطر أن يرجئ تنفيذ خطته قليلا من الوقت . ذلك أنه قبيل وفاة نور الدين بنحو شهرين ، وقف صلاح الدين على مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ، ورد الأمر إلى الفاطميين . وكان بين المتآمرين عدة من الزعماء العلوية . منهم القاضى المفضل ضياء الدين ، والشريف الجليس ، وعبد الصمد الكاتب ، وداعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل ، والفقيه الشاعر عمارة اليمنى ، شاعر الفواطم ومرثى دولتهم ، والقاضى الأعز ، سلامة العوريس متولى ديوان النظر ، ومعهم جماعه كبيرة من الضباط والأجناد السود ورجال الحاشية ، ومنهم بعض أتباع صلاح الدين . وقد اشتهرت هذه المؤامرة ، فى التاريخ بالأخص باسم الشاعر عمارة اليمنى ، وكان من أعظم أولياء الدولة الفاطمية ، وهو القائل فى رثاء دولتهم من قصيدة طويلة :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... سقيت مهلا أما تمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما والله ما التحمت ... فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل

واتصل المتآمرون بأماليك ملك بيت المقدس ، ووليم الثانى ملك النورمان بصقلية ، ووعدوهما بمبالغ طائلة من المال ، وغنائم إقليمية ، ووافق الفرنج على بذل العون المطلوب واستعدوا للتنفيذ . ولكن زعيماً من المتآمرين وشى بزملائه لصلاح الدين ، فقبض فى الحال على المتآمرين ، وشنقوا فى ميدان بين القصرين ، وفى مقدمتهم عمارة اليمنى وزملاؤه الذين تقدم ذكرهم ، وشنق معهم جماعة من الأجناد والعبيد ، وصودرت منازلهم وسائر ممتلكاتهم ، وتتبع صلاح الدين جماعة كبيرة من أولياء الدولة الفاطمية ، وقتل كثيراً منهم ، ونفى الكثير إلى الصعيد . وهكذا قضى على هذه المؤامرة الخطيرة فى المهد ، ومزق حزب الفاطميين شر ممزق . وكان ذلك فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ (أبريل سنة ١١٧٤ م) .

على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن وليم الثانى ملك النورمان ، كان فى تلك الأثناء قد اتخذ أهبته لغزو مصر ، أما أماليك ملك بيت المقدس ، فقد تقاعس عن العمل لما وقف عليه من فشل المؤامرة . ووصل أسطول النورمان إلى مياه الإسكندرية فى أواخر شهر يوليه سنة ١١٧٤ م ، وبذل النورمان جهوداً شديدة لاقتحام الثغر وسحق حاميته ، ولكن الحامية السكندرية صمدت فى وجه الغزاة ، ووردت الأنباء العاجلة بأن صلاح الدين قادم لإنجادها على وجه السرعة . ووصلت الأمداد من القرى والبلاد القريبة ، واستطاعت الحامية بذلك أن تخرج لمهاجمة الغزاة ، ونجحت فى ردهم عن أسوار المدينة ، وفى حرق آلاتهم وسفنهم ، وهكذا أدرك النورمان أنه لا أمل فى النصر ، فلم تمض أيام قلائل حتى أقلعت سفنهم ، وارتدوا خائبين .

وفى هذا الوقت بالذات توفى أماليك ملك بيت المقدس ، وخلفه ولده

الطفل بلدوين ، وبذلك ركنت المملكة اللاتينية حيناً إلى السكون .

— ٣ —

كانت وفاة نور الدين زنكى عاهل الشام ، إيذاناً بتحول عظيم فى مصاير الشرق الأوسط ، وكان صلاح الدين قد أدرك بتفكيره الثاقب ، ونظره البعيد ، أن الظروف التى تجوزها مصر والشام فى تلك الفترة لم تكن ظروفاً طبيعية ، وأن هذه الإمارات التى انتثرت إليها الكتلة الإسلامية فى مصر والشام ، لم تكن سوى دويلات ضعيفة متخاذلة ، وأشلاء مهيضة ممزقة لا يمكن أن تصمد فى وجه العدو المغير ، المقتطع لبعض أطرافها ، المتغلغل فيما بين أرجائها ، ونعنى الفرنج الصليبيين ، وأنه لكى يمكن أن يرد عدوان الصليبيين وعدوان الغرب النصرانى عن الشرق الإسلامى ، يجب أن يتحقق أمران جوهريان . الأول : جمع كلمة الإسلام والإمارات الإسلامية فى مصر والشام ، فى جبهة قوية موحدة ، تقودها إلى الكفاح والجهاد بنجاح ، والثانى : القضاء على المملكة الصليبية ، فى بيت المقدس ، وتطهير الأراضى الإسلامية كلها من الصليبيين .

ولم يكن صلاح الدين يصدر فى ذلك عن أية فكرة مستحدثة ، أو مشروع مبتكر ، وإنما كانت تحدوه فى ذلك بالأخص فكرة عملية ، وسابقة تاريخية مؤثلة . ذلك أنه يعرف أن الدولة المصرية ، كانت منذ القرن التاسع الميلادى أى منذ عهد الدولة الطولونية ، تشتمل على رقعة إقليمية موحدة تشمل مصر والشام ، وأن الدولة الفاطمية المنقضية كانت تسيطر على هذه الرقعة كلها ، وتمتد حدودها حتى آسيا الصغرى ، وأن الدولة المصرية لم تستطع منذ القرن التاسع أن تصمد فى وجه جارتها القوية من الشمال ، ونعنى الدولة البيزنطية ، إلا باجتماع كتلتها الموحدة واجتماع قواها ومواردها ، فلما ضعفت الخلافة الفاطمية واقتصت أطرافها فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، استطاع الفرنج الصليبيون أن يغزوا أراضيها بنجاح ، وأن يفتتحوا بيت المقدس وثغور الشام ، واستطاع الغرب أن يدبر مشاريعه العدوانية المتوالية ، وأن يجد فى مصر والشام فريسة هينة سهلة .

ومن ثم فإنه كان لزاماً ، أن يُقضى على هذا التمزق الذى ساد رقعة الوطن الموحد ، وأن تعود الكتلة الإسلامية فى مصر والشام إلى سابق تماسكها ووحدتها ،

لكى تستطيع أن تصمد فى وجه الفرنج الصليبيين ، كما صمدت من قبل فى وجه الدولة البيزنطية ، وهذا ما اعتزم صلاح الدين أن يعمل على تحقيقه بكل ما وسع .

وما كاد الفرنج يجلون عن الإسكندرية ، حتى تواترت الأخبار باضطراب الأحوال فى الشام ، وبداية المعارك الأهلية ، فعندئذ حزم صلاح الدين أمره ، وغادر مصر إلى الشام فى قوة كثيفة من الفرسان ، مستخلفاً أخاه العادل على مصر ، وأشرف على دمشق فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فخرج الناس لملاقاته مغتبطين بمقدمه ، ودخل دمشق واحتل قلعتها ، دون مقاومة ، وذلك فى مستهل ربيع الثانى . وأعلن أنه جاء لمعاونة الملك الصالح إسماعيل ، والمحافظة على مصالح المملكة ، وتدبير أمورها نيابة عنه ؛ وضبط النظام ، وفرق الأموال ، وأبطل المكوس ، اجتذاباً للشعب ؛ ثم سار إلى حمص واستولى عليها ، وزحف بعد ذلك على حلب . وكان سيف الدين غازى صاحب الموصل ، وهو ابن أخى نور الدين ، قد توجس من مقدم صلاح الدين ، واستفحال أمره على هذا النحو ، فبعث جيشاً لقتاله ، وانضمت إليه قوات الملك الصالح ، وكان قد سار إلى حلب وامتنع بها ، فلما رأى صلاح الدين تفوق خصومه ، ارتد إلى حماة واستولى عليها . وكان خصومه قد استنصروا بالكونت ريمون أمير طرابلس الفرنجى ، فسار إلى حمص لمهاجمتها ، ولكنه ارتد عنها حينما علم بمقدم صلاح الدين إليها . واستولى صلاح الدين على حمص بعد حصار قصير ، ثم التقى بعد ذلك بقوات الملك الصالح صاحب حلب وهزمها ، ثم هزم قوات الملك سيف الدين غازى فى موقعة أخرى ، وانتهى الأمر بأن عقد بينه وبين صاحب حلب صلح يعترف فيه بسيادته على سائر ما بيده من بلاد الشام .

ومما هو جدير بالذكر أن خصوم صلاح الدين ، وعلى رأسهم سيف الدين غازى ، وأخوه عز الدين مسعود ، فكروا فى التخلص منه بطريق الغيلة ، وعهدوا بهذه المهمة إلى سنان شيخ الجبل مقدم الإسماعيلية الباطنية فى الشام ، وبعث سنان بالفعل إلى معسكر صلاح الدين ، وهو على مقربة من حلب ، بعدة من رجاله الفداوية متنكرين فى ثياب الجند ، وتمكن بعضهم من التسلل إلى خيمة صلاح الدين ، وطعنه أحدهم بخنجره فى رأسه وخده ، فجرحه جرحاً

بالغاً ، ولكن غير مميت ، ونجا صلاح الدين من هذه المؤامرة الدموية بأعجوبة ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) .

ولبث صلاح الدين فى الشام زهاء عامين ، وهو يتردد بين دمشق والنواحى ويقاتل أهل حلب بين آونة وأخرى ، حتى انتهى الأمر بالصلح ، على أن تبقى حلب وأعمالها بيد الملك الصالح . واستولى فى تلك الأثناء على عدد من الحصون الحصينة ، وحاصر مصياب مركز الإسماعيلية فامتنعت عليه ، واستقدم الجند من مصر ليستعين بها فى حملاته ، ورد بعض غارات محلية للصليبيين . وكان صلاح الدين قد كتب للخليفة العباسى المستضىء بأمر الله بفتوحاته ، وما قام به من إعادة الخطبة العباسية ، فقدمت عليه رسل الخليفة وهو بحماة ، بالتشاريف والأعلام السود ، وعهد الخليفة بسلطنته على بلاد مصر والشام وغيرهما مما فتح .

ولما شعر صلاح الدين بأن الأمر قد استتب له بالشام ، كما استتب بمصر ، قرر العودة إلى مصر ، فغادر دمشق فى الرابع من ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ ، مستخلفاً عليها أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، فوصل إلى القاهرة فى السادس والعشرين من الشهر (أكتوبر سنة ١١٧٦ م) .

وكان صلاح الدين مذ تولى الوزارة أيام العاضد ، ينزل بدار الوزارة التى نزل بها من قبل عمه شيركوه ، ولم ينزل قط بالقصور الفاطمية ، حتى بعد إخلائها من ساكنيها . فلما توالت المؤامرات العلوية لسحقه ، رأى أن ينشئ له معقلا حصيناً يعتصم به ، ويكون آمناً فيه على نفسه من كيد خصومه ، من شيعة الفاطميين وغيرهم ، ويجعله مستقراً له وقاعدة لحكمه ؛ وعهد إلى وزيره القوى الحازم بهاء الدين قراقوش بتحقيق رغبته ، فتولى قراقوش إنشاء قلعة الجبل الشهيرة وذلك فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، واستمر العمل فيها بعد ذلك مدة طويلة ، ورأى صلاح الدين فى نفس الوقت أن يبنى سوراً عظيماً يضم القلعة ومدينتى مصر والقاهرة ، بعد أن اتسعت أحياء القاهرة ، خارج السور الفاطمى القديم ، فتولى قراقوش أيضاً تحقيق هذا المشروع ، وأبدى فى تنفيذه همة فائقة ، وهدم كثيراً من الأهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة تجاه مدينة مصر ، واستعملت أحجارها الضخمة فى بناء السور والقلعة ، وبلغ محيط السور

الحديد بعد إتمامه أربعة وعشرين كيلومتراً (١). وابتنى صلاح الدين أيضاً قناطر الجيزة العظيمة تجاه الأهرام ، وأبدى عناية خاصة بتحصين القاهرة ، وتعمير الأسطول بالإسكندرية ، وكان قراقوش يده اليمنى فى تنفيذ هذه المشاريع كلها .

على أن ألمع ما فى منشآت صلاح الدين المعمارية فى تلك الفترة ، هو إنشاؤه للمدارس والمستشفيات ، وهو أول من ينسب إليه فضل إنشاء المدارس بمصر ؛ وكانت معاهد الدراسة قبل عصر صلاح الدين تنحصر فى الجوامع ، وبالأخص فى جامع عمرو والجامع الأزهر . وكان الحاكم بأمر الله قد أنشأ دار الحكمة أو دار العلم ، وهى الجامعة المدنية الحرة التى عاشت إلى جانب الأزهر زهاء قرن ؛ ولكن دار الحكمة كانت جامعة فلسفة مذهبية ، ترمى إلى نشر الدعوة الفاطمية الشيعية قبل كل شىء . ولما تولى صلاح الدين شئون مصر ، كان من ضمن أعماله حين أبطل رسوم الدولة الفاطمية ، أن أبطل صلاة الجمعة الرسمية بالجامع الأزهر سنة ٥٦٧ هـ ، ولكنه لم يتعرض لمهامه الدراسية ، فلبث على حاله معهداً للقراءة والدرس . وبدأ صلاح الدين بإنشاء المدارس منذ سنة ٥٦٩ هـ ، فحول دار سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر إلى معهد للصوفية ، وحول دار عباس الوزير العبيدى إلى مدرسة للحنفية عرفت فيما بعد بالمدرسة السيوفية ، وأنشأ المدرسة الصالحية بجوار قبة الإمام الشافعى (٥٧٢ هـ) فكانت أعظم المدارس المصرية ، وأنشأ بمدينة مصر المدرسة الشريفية والمدرسة القمحية ، وأنشأ مدرسة إلى جانب المشهد الحسينى ، وحول دار الشراب بالقصر الفاطمى إلى مارستان للمرضى ، وأنشأ بالإسكندرية مارستانا آخر . وكانت حركة صلاح الدين فى إنشاء المدارس فيما بعد ، قدوة طيبة للسلاطين والأمراء والوزراء ، حتى لقد أنشئ منها العدد الجم فى دول السلاطين المتعاقبة ، وغدت القاهرة خلال العصور الوسطى بأزهرها ومدارسها العديدة ، كعبة العلوم والدراسات الإسلامية فى العالم الإسلامى .

— ٤ —

وكان صلاح الدين ، منذ استتب له الأمر فى الشام ، إلى جانب استتبابه فى مصر ، وعادت الجبهة الدفاعية الإسلامية بمصر والشام ، إلى وحدتها التاريخية

(١) رأينا أن نلحق ترجمة الملك الناصر صلاح الدين بفصل عن وزيره بهاء الدين قراقوش .

القديمة ، يشعر بأن الوقت قد حان للبدء فى تحقيق مهمته الكبرى ، وهى مكافحة الفرنج الصليبيين ، وتحرير الشرق الإسلامى من عدوانهم ، والقضاء على المملكة الصليبية رمز هذا العدوان المستمر من جانب الغرب النصرانى . ومنذ سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) نرى صلاح الدين يضطلع بحملات متوالية ضد الصليبيين ، ويشتبك معهم فى معارك مستمرة .

ففى أوائل هذا العام سار صلاح الدين إلى عسقُلان ، فعاث فى أحوازها ، ثم سار إلى الرملة ، واشتبك على مقربة منها بالصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، فوقع بين الفريقين قتال شديد هزم فيه السلطان ، وقتل وأسر كثير من المسلمين ، وارتد صلاح الدين إلى القاهرة ، وقد حزت فى نفسه الهزيمة . وأخذ يحشد الجند ويعد العدة لحملة جديدة .

وفى شعبان من السنة المذكورة ، غادر القاهرة فى قواته إلى دمشق ، مستخلفاً أخاه العادل على مصر ، فوصل إلى دمشق فى شوال . وكان الفرنج قد زحفوا على حماة يريدون افتتاحها ، فلما علموا بمقدم السلطان رحلوا عنها ؛ ووقعت فى العام التالى (١١٧٨ م) عدة معارك بين السلطان وبين الصليبيين ، ونظم السلطان عدة غارات ناجحة على معاقل الصليبيين فى طبرية ، وصور وبيروت . وفى محرم سنة ٥٧٥ هـ (يونيه ١١٧٩ م) ، خرج السلطان فى قواته ، ومعه صمصام الدين أجلك والى بانياس فى قوة مختارة ، فالتقى بجيش كثيف من الصليبين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، فى سهل مرج عيون على مقربة من حمص ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف ، هزم فيه الفرنج هزيمة ساحقة ، وأسر فيه عدة كبيرة من أكابر فرسانهم ، ومنهم مقدم الداوية (فرسان المعبد) ومقدم الأسبتارية ، والكونت ريمون صاحب طرابلس ، وهوغ صاحب طبرية وغيرهم ، وأخذوا مقيدين إلى دمشق ، حيث افتُدى الكثير منهم بعد ، نظير مبالغ طائلة .

وفى ربيع العام التالى ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) جهز صلاح الدين بمصر قوة بحرية كبيرة ، سارت على طول شاطئ فلسطين ، فى الوقت الذى زحفت فيه قوى السلطان من البر ، فأدرك بلدوين ملك بيت المقدس أنه لا قبل له بمقاومة ناجحة ، وطلب عقد الهدنة مع السلطان ، فقبل صلاح الدين وعقدت الهدنة

بين الفريقين لمدة عامين . وانتهز صلاح الدين هذه الفرصة ، فخرج لمحاربة بقية الأمراء السلاجقة فى الجزيرة وكليكلية ، وهم قلج أرسلان صاحب قونية ، وعز الدين مسعود صاحب الموصل ، وأمراء إربل وكيفا وماردين ، فخشى أولئك الأمراء العاقبة ، واستطاع صلاح الدين ، أن يحملهم دون قتال على الطاعة ، وعلى التهادن معاً ، حرصاً على سلامة الجبهة الإسلامية . بيد أن هذه لم تكن سوى الخطوة الأولى فى هذا السبيل .

وغادر السلطان دمشق فى أواخر شهر رجب عائداً إلى مصر ، فوصل إلى القاهرة فى الثالث عشر من شعبان سنة ٥٧٦ هـ .

وأنفق صلاح الدين فى مصر زهاء عام ونصف ، قام فيها بتنظيم شئون البلاد ، وتحصين أطرافها ، فأصلحت أسوار دمياط ، وقلعة تنيس ، وعنى عناية خاصة بتنظيم الجيش ، وتعزيز الأهبات العسكرية . وفى أوائل سنة ٥٧٧ هـ (يونيه سنة ١١٨١ م) قدمت سفارة من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس ، ووقعت معاهدة صلح بينه وبين السلطان ، أفرج بمقتضاها عن الأسرى المسلمين .

وكان صلاح الدين أثناء ذلك يرسم خطة الغزاة الكبرى ، التى يزمع أن يضطلع بها ضد الفرنج الصليبيين . وفى أواخر سنة ٥٧٧ هـ ، توفى السلطان الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب ، فخلفه ابن عمه السلطان عزالدين مسعود . وشعر صلاح الدين عندئذ بأن الوقت قد حان للتدخل فى حوادث الشام ، والبدء بتنفيذ خطته ، فكتب إلى نوابه فى الشام بالتأهب ، وخرج فى قواته وعُدده من القاهرة ، فى الخامس من محرم سنة ٥٧٨ هـ (١١ مايو سنة ١١٨٢ م) ، وقد شاء القدر أن تكون هذه آخر مرة يغادر فيها الديار المصرية ، فلم يعد إليها بعد ذلك قط .

وسلك صلاح الدين طريق إيلة ، وقام فى طريقه بعدة غارات ضد الصليبيين ، ووصل إلى دمشق بعد أسابيع قلائل . ثم غادرها إلى حلب ، فعجم عودها ، ثم تحول شرقاً وعبر الفرات ، وهو ينوى أن يخضع الجزيرة كلها لصولته ، حتى يمكن بذلك تأمين جناحه الشمالى ، فاستولى على الرُّها ، وحرّان ، والرقة ، ونصيبين ، وسنجار ، وحاصر الموصل ، ولكنه لم يوفق إلى أخذها ؛ فسار

إلى آمد واستولى عليها ، ثم عبر الفرات إلى حلب فاضطرت إلى التسليم صلحا ، وعوض عنها صاحبها عز الدين مسعود بمدينة سنجار . ولم يوفق صلاح الدين إلى إخضاع الموصل إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ؛ وفى العام التالى استولى على ديار بكر ، (١١٨٦ م) فتم له بذلك تحقيق مشروعه فى إخضاع الجزيرة كلها ، وتعزيز الجبهة الدفاعية الشمالية وتأمينها بصورة مطلقة .

وفى أثناء ذلك كان الفرنج الصليبيون فى الجنوب ماضين فى عدوانهم ؛ وذهب أحدهم وهو رينو دى شاتيون أمير الكَرَك فى الجرأة ، إلى حد أنه نظم حملة برية وبحرية لقطع طريق الحاج ، ووصلت سفنهم المغيرة فى البحر الأحمر جنوباً حتى عيذاب ، وكان هذا الزعيم الصليبى ينوى السير جنوباً حتى يغزو الحجاز ، ويعتدى على قبر الرسول ويهدم الكعبة ؛ وفتك الفرنج بالحجاج ، وأسروا الكثير منهم ، وأحرقوا عدة سفن ، فبادر الملك العادل ولد السلطان ونائبه فى مصر ، بتجهيز حملة بحرية قوية ، سارت إلى البحر الأحمر ، وطاردت مراكب الفرنج ، ومزقتها ، وأفرجت عن كثير من الأسرى المسلمين ، ومزقت كذلك قوى الفرنج البرية ، وأسرت منها عدداً كبيراً حملوا إلى القاهرة وضربت أعناقهم (إبريل سنة ١١٨٣ م) .

وتابع صلاح الدين إغاراته على الفرنج ، وعاث فى مناطق بيسان وجنين ونابلس ، واعتزم بنوع خاص أن يستولى على قلعة الكرك الحصينة ، وأن يعاقب صاحبها البرنس رينو على عدوانه وجرأته ، فحاصرها غير مرة وضربها بالمجانيق بشدة ، ولكنها صمدت فى وجهه ، وانتهى الأمر بعقد الصلح والتهادن بين الفريقين لمدة أربعة أعوام (أغسطس سنة ١١٨٤ م) .

ولكن هذا الأمير الغادر ما لبث أن نكث العهد ، وعاد إلى عدوانه ، ففتك بقافلة من التجار المسلمين حين مرورها بجوار قلعته ، واستولى على أموالهم ، فأقسم السلطان بأنه إن ظفر بهذا الأمير الغادر فإنه سوف يقتله بيده .

— ٥ —

وكانت نذر المعركة الكبرى تبدو فى الأفق شيئاً فشيئاً ، وكان صلاح الدين قد أرسل إلى سائر الجهات فى مصر والشام والجزيرة ، يستنفر الناس إلى الجهاد ، ويحثهم على التجهيز والاستعداد . وفى أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ (إبريل

سنة ١١٨٧ م) ، خرج فى قواته من دمشق ، وسار إلى بصرى ليحمى منها طريق عودة الحاج ، إذ بلغه أن رينو أمير الكرك ، ينوى الفتك بهم ، وأنه ينوى من جهة أخرى أن يقطع الطريق على القوات المصرية القادمة للالتحاق بجيش السلطان . ولما انتهى عود الحاج ، سار صلاح الدين إلى الكرك والشوبك وعاث فى أنحائهما ، ووافته عساكر مصر بقيادة العادل قادمة من طريق إيلة ، وكانت قوات الشام والجزيرة تتلاحق فى تلك الأثناء ، وتجتمع فى دمشق تحت قيادة الملك الأفضل ولد السلطان . وسارت من هذا الجيش بأمر السلطان حملة قوية إلى ثغر عكا لاقتحامه وتخريبه ، واشتبكت مع الفرنج وفرسان الداوية والأسبتارية فى معركة طاحنة ، فهزم الفرنج ، وقتل مقدم الداوية وجماعة كبيرة من الفرسان ، وعاث المسلمون فى أحواز عكا ، واستولوا على كثير من السبى والغنائم ؛ ثم اجتمعت قوات السلطان بقوات ولده الملك الأفضل ، فاجتمع من ذلك جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية باثنى عشر ألف فارس من النظامية ، وعدد كبير من المتطوعة . وسار السلطان فى قواته بعد أن أعدت للقتال ، جنوباً نحو طبرية ، واستولى عليها ، واعتصمت حاميتها بالقاعة ، وكان قصده أن يستدرج الفرنج لمقاتلته ، فلم يتقدموا ؛ فترك طبرية ، وعاد إلى معسكره ، على مقربة منها ، وكان الفرنج قد اجتمعوا فى سهل قريب مقفر بعد أن خربوا عيون الماء به توقعاً لمقدم المسلمين . وفى اليوم الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٨٣ ﻫ (٤ يوليه سنة ١١٨٧ م) ، تحرك المسلمون نحو الفرنج ، وكان جيش الفرنج يقرب من خمسين ألف مقاتل ، وعلى رأسهم جى دى لوسنيان ملك بيت المقدس ، والبرنس رينو دى شاتيون صاحب الكرك ، والكونت ريمون صاحب طرابلس ، وزعماء الفرسان الداوية والأسبتارية . وكان مقصد الفرنج أن يمنعوا الجيش الإسلامى من السير إلى طبرية ، وامتلاك قلعتها ، فتحركوا نحو طبرية يقصدون مكاناً به الماء ، فوقف الجيش الإسلامى فى سبيلهم ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك طاحنة ، وقاتل الصليبيون قتالا شديداً ، ولكن المسلمين رجحت كفتهم واستطاعوا محاصرة الفرنج ، فارتد الفرنج نحو تل بقرية حطّين القريبة ، يعتصمون به ، فوقف المسلمون فى سبيلهم واشتد القتال بين الفريقين ، ودافع الفرسان الفرنج الذين اعتصموا بالتل دفاعاً شديداً ، وردوا المسلمين مرات ،

ولكنهم هزموا فى النهاية شر هزيمة ، واستولى المسلمون على خيمة ملكهم ، وعلى الصليب الكبير المسمى « صليب الصلبوت » وهو الذى يزعمون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح ، وأسر سائر الأمراء والفرسان الفرنج ، وفى مقدمتهم ملك بيت المقدس ، ورينو دى شاتيون ، ومقدم الأسبتارية ، وعدة كبيرة من الفرسان ؛ وأخذ الأمراء الأسرى إلى خيمة السلطان ، فقتل السلطان بيده ، رينو دى شاتيون ، (أو البرنس أرناط) وفاء لنذره ، وجزاء له على غدره وجرأته المثيرة فى محاولته السير إلى قبر الرسول ، وكان نصراً عظيماً لم يسمع به منذ مقدم الصليبيين إلى المشرق .

وعلى أثر هزيمة الفرنج وسحق قواتهم ، سار السلطان إلى طبرية ، واستولى على قلعتها بالأمان ، ثم سار إلى عكا ، فغادرها أهلها بالأمان ، ودخلها المسلمون فى يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، وأقيمت بها أول جمعة منذ ملكها الفرنج ، وسلمها السلطان لولده الملك الأفضل ، واستولى المسلمون على عدة من البلاد القريبة مثل الناصرة ، وقسارية ، وحيفا ، وصفورية ، وغيرها ، وزحف صلاح الدين بعد ذلك شمالا فاستولى على صيدا ثم بيروت ، وتم هذا الزحف المظفر ، فى أقل من شهر ، وبدا كالسيل يحمل من يصادره ، وأخذ سلطان الفرنج فى سائر النواحى الباقية بأيديهم يضطرب ويتداعى .

وكان صلاح الدين يرمى من حملته الكبرى قبل كل شىء إلى استرداد بيت المقدس ، وسحق المملكة الصليبية ، وإعادة الصلة المباشرة بين شطرى الإمبراطورية المصرية ، كما كانت قبل الغزو الصليبى ، وكان يضطرم فوق هذه العوامل المادية ، بفكرة الجهاد المقدس ، والعمل على حماية الإسلام من أعدائه ، وكان يشعر أن كسرة الفرنج فى حطين قد ثلمت صفوفهم ، وضعضعت قواهم ، وأنه لا بد أن يتبع نصره بالسير توا إلى تحقيق غايته .

فسار فى قواته إلى عسقلان ، لكى يتم عزل بيت المقدس عن البحر ، وطوقها من البر ، وضربها بالمنجنيقات ضرباً شديداً ، حتى سلمت بالأمان فى آخر جمادى الثانية ، (٥ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) ، واستولى على معظم البلاد والحصون المجاورة . ثم سار إلى بيت المقدس ، وكان قد أرسل إلى الأسطول المصرى بالخروج إلى مياه فلسطين ، فخرج بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وكان

من أشجع وأمهر أمراء البحر فى ذلك الوقت ، وسيطر على تلك المياه ، وقطع السبيل على سائر السفن الفرنجية التى تحاول الاقتراب من الساحل .

وأشرف صلاح الدين بجيشه على بيت المقدس فى منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) وكانت تموج بجموع زاخرة من الفرنج الذين قصدوها من سائر البلاد التى افتتحت ، وقد صمموا على الدفاع عنها بكل ما وسعوا . وكان منظم الدفاع عن المدينة الفارس باليان دى إبلين ، وذلك تحت زعامة البطريق الأكبر ، ولم يكن بها أحد من الأمراء الفرنج ، وليس بها سوى الملكة سيبيل زوجة الملك الأسير جى دى لوسنيان . وتقول الروايات النصرانية إن عدد المدافعين عن المدينة لم يكن كبيراً ، وأنها كانت تموج فى الواقع بجموع النساء والشيوخ والأطفال .

وضرب صلاح الدين الحصار حول المدينة ، وقد شعر بحصانتها ، ووفرة المدافعين عنها ، وضربها بالمنجنيقات ضرباً شديداً ، ورد الفرنج فضربوا المسلمين بالمنجنيقات من فوق الأسوار ، وقاتلوا أشد قتال ، وكان الفرسان الفرنج يخرجون من المدينة من آن لآخر ، وتنشب بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة ، ولكن المسلمين شددوا الوطأة على المدينة ، واستمروا فى ضربها بشدة ، وتمكنوا من نقب السور ؛ فلما شعر الفرنج بخطورة الموقف ، بعثوا وفداً منهم يطلب الأمان إلى السلطان ؛ فرفض السلطان فى البداية ، وذكر الفرنج بما فعله أسلافهم عند افتتاح المدينة ، من الفتك بأهلها المسلمين وقتل الألوف منهم ، وأنذرهم بأنه سيفعل بهم مثل ما فعل أسلافهم ، فعندئذ قصد الفارس باليان بنفسه إلى السلطان ، وأنذره بأنه إذا لم تحصل المدينة على الأمان ، فإنهم سوف يقتلون أبناءهم ونساءهم ، ويحرقون متاعهم وأموالهم ، ويخربون الصخرة والمسجد الأقصى ، ويقتلون أسرى المسلمين وهم عدة آلاف ، ثم يرتدون بعد ذلك إلى مقاتلة المسلمين قتال اليأس والموت . فعندئذ رأى السلطان نزولا على نصح مستشاريه أن يقبل منح الأمان ، واتفق على أن يسلم الفرنج المدينة ، على أن يؤمنوا فى أملاكهم ، وأن يُعتبر أهلها أسرى يسمح لهم بالفداء خلال أربعين يوماً ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صبى أو صبية ديناراً . ودخل المسلمون بيت المقدس فى يوم الجمعة

السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ (٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م) فى نظام وسلام ، وكان يوماً مشهوداً ؛ وفى الحال رفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، وأنزل الصليب من أعلى قبة الصخرة ، وطهر المسجد الأقصى وصخرته من الهياكل والصلبان ، وأبدى صلاح الدين فى تحصيل الفداء منتهى التسامح ، ولم يدخل خزائنه منها سوى القليل . وأذن للملكة سيبيل وغيرها من الأميرات الفرنج بمغادرة المدينة فى حاشياتهن دون فدية ، واستوهبه الكثير من الأمراء عدداً من الفرنج ، واقتسم الأمناء الأموال ، ولعب الاختلاس دوره الذميم ، وضاعت على السلطان مبالغ طائلة ؛ ويقول لنا ابن الأثير إنه كان بالمدينة وقت تسليمها ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل ، غير من يتبعهم من النساء والأطفال ؛ وكان دخول المسلمين بيت المقدس على هذا النحو السلمى ، المنزه عن ارتكاب الإثم وإراقة الدماء، صفحة مشرقة ناصعة ، تناقض كل المناقضة، ما ارتكبه الفرنج الصليبيون حين دخولها فى سنة ١٠٩٩ م ، من رائع السفك والإثم والتقتيل .

ويصف لنا العماد الأصفهانى كاتب صلاح الدين ، وهو شاهد عيان ، مجلس السلطان غداة يوم الفتح فى تلك العبارات البليغة :

« وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيأة التواضع ، وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجح ظافر ، وبابه مفتوح ، ورفده ممنوح ، وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع ، ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبل ، ومحياه يلوح ، ورياه يفوح ، ومحبته تروق ومهابته تروع ، وآفاقه تضيء وأخلاقه تضوع ؛ وكأن دسته به هالة القمر ، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون ، والشعراء وقوف ينشدون وينشدون ، والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تزر لتبشر ، والعيون من فرط المسرة تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع »(١).

— ٦ —

وهكذا انهار صرح المملكة اللاتينية الصليبية التى لبثت فى قلب الشرق الإسلامى عصراً ، تهدد كيانه ونظمه ومدنيته . وكان لسقوطها فى العالم الإسلامى

(١) فى كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٤٤ .

وقع عميق ؛ مقرون بأخلص آيات الغبطة والشكر والعرفان . وكذا كان لسقوطها فى الغرب أعظم صدى ، وكان مثار فورة جديدة من التعصب والعدوان ، هى التى أسفرت عن تنظيم الحملة الصليبية الثالثة .

وغادر السلطان بيت المقدس بعد أن رتب شئونها ، وسار إلى مدينة صور ، ولكنها امتنعت عليه لحصانتها ، ووفرة الفرنج المحتشدين بها . وكان قد اجتمع بها سائر الفرنج الذين رحلوا عن المدن والحصون المفتوحة ، وسار إليها الملك جى دى لوسنيان ، وعدد كبير من الأشراف والفرسان الذين سرحهم السلطان بعد أن تعهدوا بالكف عن الحرب . فلما قصد إليها صلاح الدين ألفاها تموج بالمدافعين ، وقد حصنت أمنع تحصين ، وأضحى من العسير الاقتراب منها ، وبالرغم من أن المسلمين طوقوها من البر ،وضربوها بالمنجنيقات والدبابات[١] بشدة ، وحاصرتها السفن المصرية من البحر ، فإنها استطاعت أن ترد المهاجمين ، وأن توقع بهم خسائر كبيرة . واستمر حصار صور زهاء شهرين (رمضان وشوال سنة ٥٨٣ هـ — نوفمبر وديسمبر سنة ١١٨٧ م) وعندئذ عول السلطان على مغادرتها ؛ وكان هذا القرار خطأ عسكرياً فادحاً ، إذ غدت صور بذلك معقل الصليبيين المنيع ، ومركز تجمهم ، ونقطة ارتكازهم على الشاطىء ؛ وينحى ابن الأثير باللائمة على صلاح الدين ويعتبره وحده مسئولا عن هذا الفشل ، لأنه هو الذى كان يعطى الأمان للفرنج ، ويرسلهم إلى صور بأموالهم ثم يقول « إن الملك لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم » .

وعلى أثر امتناع صور ، سار السلطان شمالا ، وقضى بقية الشتاء فى عكا ثم فى دمشق ، ورحلت العساكر إلى مختلف أوطانها لتستريح . ولما دخل الربيع عاد السلطان فتحرك فى قواته لاستئناف الغزو ، ومطاردة الفرنج ، فلم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى كانت مدن الشاطئ الواقعة شمال صور قد افتتحت كلها ، ثم افتتحت صفد ، وكانت معقل الداوية ، وكوكب ، وكانت معقل الأسبتارية ، والكرك وكانت لشدة امتناعها وعدوانها المتكرر ، ثغرة خطيرة فى مواصلات الشمال والجنوب . وكذلك أرغم صاحب أنطاكية على طلب

(١) هى من آلات الحرب القديمة لضرب الأسوار والصعود إليها ، وقد ذكرها ابن الأثير فى حديثه عن حصار صور (ج ١١ ص ٢١٠) .

الأمان على أن يسلم الأسرى المسلمين . وتم ذلك كله فى أشهر قلائل (٥٨٤ هـ — يونيه إلى سبتمبر ١١٨٨ م) ، ولم يبق بأيدى الصليبيين من فتوحهم بأراضى الشام سوى ثغر صور المنيع ، وكان بقاؤه بأيديهم نقطة الارتكاز ، وقاعدة الهجوم للحملة الصليبية الثالثة .

ذلك أن عود بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام ، كان له فى الغرب أعمق الأثر . واعتبرته البابوية وأوربا النصرانية بأسرها كارثة فادحة . وأخذ أقطاب النصرانية من الملوك والأشراف والفرسان ، يتأهبون لحملة صليبية جديدة ، كان قوامها أعظم ملوك أوربا النصرانية يومئذ ، وهم ملوك ألمانيا وانجلترا وفرنسا . وفى أثناء ذلك كانت صور ، كما قلنا تموج بقوات الفرنج اللاجئين إليها ، وعلى رأسهم جى دى لوسنيان ملك بيت المقدس السابق وبطريقها ؛ وكان البطريق والقساوسة يلهبون شعور الفرسان والجند بتحريضهم ودعواتهم إلى الأخذ بثأر المسيح واسترداد قبره ؛ وكان الأمل يحدوهم بأن قوات الغوث والإنجاد لن تتأخر عن القدوم . وبهذه الروح اعتزم الفرنج فى صور أن يبدأوا مهاجمة المسلمين ، فخرج جى دى لوسنيان فى قوات كثيفة ، وقصد إلى عكا ، وضرب حولها الحصار ، (رجب ٥٨٥ هـ — أغسطس ١١٨٩ م) ، وكان صلاح الدين قد خرج فى قواته من دمشق قبل ذلك ببضعة أشهر ، وهو يشتبك مع فرنج الساحل فى وقائع مستمرة ، فلما علم بمسير الفرنج إلى عكا ، هرع إليها فوصل إليها بعد وصول الفرنج بيومين ، وفى الحال ضرب الحصار حول الفرنج المحاصرين لها ، وامتنعت الحامية الإسلامية بداخل المدينة ، ولم يمض شهران ، حتى قدم الملك العادل بجند مصر ، وقدم الأسطول المصرى بقيادة الحاجب لؤلؤ إلى مياه عكا ، ليحول دون وصول الأمداد إلى الفرنج من البحر ، وبعث السلطان إلى سائر الجهات يستنصر الناس للجهاد . ووقعت أول معركة كبيرة بين الفرنج والمسلمين فى الرابع من أكتوبر ، وفيها صد الفرنج بخسائر فادحة ، ولكن السلطان لم يتبع نصره بهجوم مضاد ، فقضى الفرنج الشتاء فى تحصين مراكزهم ، وحفروا حولها خندقاً عميقاً ، وأقاموا عدة أبراج تجاه الثغر المحصور ، ووقعت خلال ذلك بين المسلمين والفرنج عدة معارك برية وبحرية اشتركت فيها الحامية المحصورة ، وهزم الفرنج فى موقعة كبيرة أخرى (يوليه ١١٩٠ م) ، ولكن

المسلمين لم يستفيدوا من هذا النصر أيضاً ، وصمد الفرنج ، حتى جاءتهم نجدة من البحر قوامها عشرة آلاف مقاتل بقيادة هنرى دى شمبانى فقويت نفوسهم ، وكانت هذه طلائع النجدات الصليبية الجديدة ، التى بدأت تصل إلى الشرق .

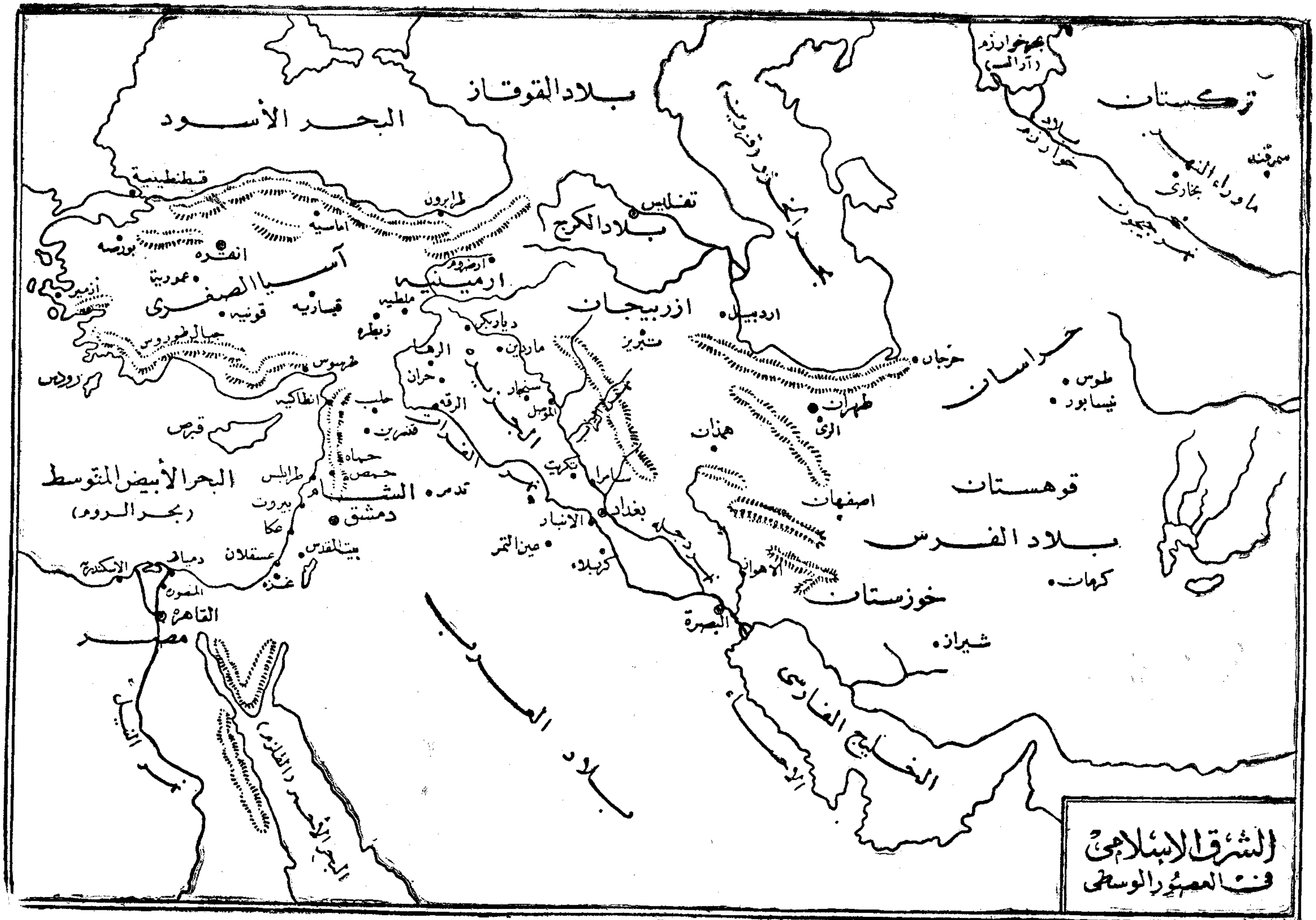
كان سقوط بيت المقدس ، كما قلنا نذير فورة جديدة من التعصب والاضطرام فى الغرب ، وقد شعرت أوربا النصرانية ، أن الجهود التى بذلتها مدى قرن لافتتاح الشام ، واحتلال الأراضى المقدسة سوف يقضى عليها نهائياً ، إذا لم تتدارك البقية الباقية من الصليبيين فى المشرق بالغوث والإنجاد ، ومن ثم فقد نظمت الحملة الصليبية الثالثة ؛ وكان قوام هذه الحملة الجديدة ، زعماء الغرب الثلاثة يومئذ ، وهم إمبراطور ألمانيا فردريك بارباروسا ، وملك إنجلترا رتشارد الأول الملقب بقلب الأسد ، وملك فرنسا فيليب أوجست . وقصد إمبراطور ألمانيا فى قواته إلى المشرق عن طريق البحر والدولة الشرقية ، ووصل إلى شواطئ آسيا الصغرى فى مارس سنة ١١٩٠ م ، ولكنه حينما عبر بجيشه نهر سالوف غرق فى النهر ، وكان جيشه قد تبدد خلال السير من المرض والمشاق ، ولم يبق منه سوى ألف رجل ، فقاد بقية الجيش ولده فردريك دوق سوابيا ووصل إلى عكا فى أكتوبر ، ووصل ملكا إنجلترا وفرنسا فى قواتهما إلى صقلية فى شتاء سنة ١١٩٠ م ، وسار فيليب أوجست فى ربيع العام التالى تواً إلى عكا ، وتبعه رتشارد ، ولكنه عرج فى طريقه على قبرص ليفتحها ووصل إلى عكا فى أوائل يونيه سنة ١١٩١ م .

وكان قد مضى عندئذ على حصار عكا زهاء عامين ، والحامية الإسلامية صامدة داخل الثغر المحصور ، والمعارك تنشب فى ظاهره ، بين المسلمين والفرنج من وقت إلى آخر ، فلما نزلت الأساطيل والجيوش الصليبية الجديدة إلى الميدان ، رجحت كفة الفرنج رجحاناً ظاهراً ، واشتد الضغط على الحامية الإسلامية ، واضطرت عكا أخيراً إلى التسليم ، وذلك فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ م (جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ) ، ولم يكن السلطان طرفاً فى هذا التصرف ، ولم يوافق عليه ، ولكنه اضطر إلى قبوله نظراً للظروف القاهرة التى أملت به .

ومما هو جدير بالذكر أن صلاح الدين ، كان منذ شعر بخطورة الموقف حول عكا ، قد أرسل إلى الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى عاهل

المغرب والأندلس يستنصر به ، ويستمد عونه ، ويصف له ما بذل من جهود فى محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وما كان لذلك من أثر فى تحالف النصرانية والغرب عليه ، ويطلب إليه أن يمد الشام ، مسرح النضال بجزء من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل فى الوقت نفسه جزءاً آخر منها صوب صقلية ليحول دون مقدم النورمان إلى المشرق ، (أواخر سنة ٥٨٥ هـ) . ولما بدأ تقاطر القوات الصليبية الجديدة إلى المشرق ، عاد صلاح الدين فأرسل فى العام التالى (٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م) إلى عاهل المغرب سفارة على رأسها وزيره عبد الرحمن بن منقذ ، ويصف صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة المنصور ، ما حدث من مقدم جيوش الألمان والإنجليز وأساطيلهم إلى مياه عكا ، ويكرر صريخه بطلب الإمداد والغوث . على أن هذا الصريخ لم يسفر عن أية نتيجة عملية ، إذا كان المنصور فى تلك الآونة بالذات يواجه بالمغرب والأندلس ثورات وأحداث عاقته عن القيام بالعون المنشود .

وكانت مفاوضات الصلح قد بدأت بين السلطان والصليبيين قبل تسليم عكا ، فلما وقع التسليم ، استؤنفت المفاوضات ، وقبل السلطان ما اشترطه الفرنج من تأدية فدية كبيرة عن أسرى الحامية بلغت مائتى ألف دينار ، وأن يطلق خمسمائة أسير من أكابر النصارى ، وأن يرد صليب الصلبوت ؛ واتفق على تنفيذ هذه الشروط خلال شهرين ، ولكن السلطان شعر حينما استعد لتنفيذ هذه الشروط ، أن الفرنج يتذرعون بالتسويف والمطل فى الإفراج عن أسرى الحامية ولا سيما الأكابر منهم ، واحتج الملك رتشارد من جهة أخرى بتأخر السلطان فى التنفيذ ، فأمر بقتل نحو ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين ؛ وقضت هذه الجريمة المروعة على كل أمل فى الصلح . وفى الحال رد السلطان الأسرى النصارى وصليب الصلبوت إلى دمشق ؛ وكان ملك فرنسا قد انسحب خلال ذلك بقواته ، وارتد عائداً إلى بلاده ؛ فاعتزم رتشارد أن يتابع الحرب وحده ، وأن يحاول استرداد بيت المقدس . فسار فى قواته صوب عسقلان ، فبعث صلاح الدين بشطر من قواته لمضايقة الفرنج ، وارتد فى باقى الجيش إلى الرملة ؛ وقرر بعد مشاورة أمرائه أن يخرب عسقلان ، فعجل بالسير إليها ، وأمر بهدم صروحها وتخريبها ، فخربت تماماً ، وألقيت حجارتها إلى البحر ، (سبتمبر سنة ١١٩١م) ،


الشرق الإسلامي
في العصور الوسطى
البحر الأسود
بلاد القوقاز
تركستان
قسطنطينية
طرابزون
اماسية
انقره
بورصه
عمورية
آسيا الصغرى
قيساريه
قونيه
ملطيه
زبطره
ارمينيه
ازربيجان
اردبيل
تبريز
تفليس
بلاد الكرج
ديار بكر
ماردين
الرها
حران
الرقه
سنجار
الموصل
تكريت
سامرا
بغداد
الانبار
عين التمر
كربلاء
البصرة
الأهواز
خوزستان
شيراز
كرمان
بلاد الفرس
قوهستان
اصفهان
همذان
طهران
الرى
جرجان
خراسان
طوس
نيسابور
ماوراء النهر
بخارى
سمرقند
بحر جيحون
بلاد خوارزم
بحر خوارزم
(آرال)
جبال طوروس
طرسوس
انطاكيه
حلب
قنسرين
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
عكا
دمشق
الشام
تدمر
بيت المقدس
عسقلان
غزه
دمياط
الاسكندرية
المنصوره
القاهرة
مصر
قبرص
رودس
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
بلاد العرب
الخليج الفارسي
البحر الأحمر (القلزم)
الاحساء

وسار السلطان بعد ذلك إلى بيت المقدس ليقضى فيها الشتاء . وأدرك رتشارد ، بعد أن خربت عسقلان أنه لا فائدة من الاستيلاء عليها ، فسار صوب بيت المقدس ؛ ولكن الخلاف اشتد بين زعماء الصليبيين ، وعلم رتشارد من جهة أخرى أن قوات المسلمين تتفوق عليه فى الكثرة والأهبة فارتد إلى عكا ؛ وفى مطلع الربيع سار السلطان إلى يافا وهاجمها بشدة ، وانتزعها من الفرنج عنوة ، وقُتل من حاميتها عدد كبير وأسر الباقون (يونيه ١١٩٢ م) .

وكان رتشارد منذ فشل مشروعه فى السير إلى بيت المقدس ، يتوق إلى عقد الصلح مع المسلمين ، وكان من جهة أخرى قد أدركه المرض ، ووصلته من انجلترا أنباء مقلقة تستدعى عوده ، فعندئذ رأى أن يعجل بالمفاوضة . وانتهى الأمر بأن عقد بينه وبين السلطان صلح مدته ثلاثة أعوام وثمانية أشهر ، على أن يستبقى الفرنج ما بأيديهم من بلاد الساحل ما بين يافا وعكا ، وأن يسمح لهم بالحج إلى بيت المقدس (شعبان ٥٨٨ هـ — سبتمبر سنة ١١٩٢ م) .

— ٧ —

وعلى أثر عقد الصلح سار صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وأمر بإصلاح أسوارها ، وإنشاء المدرسة ، والبيمارستان ، والرباط ، وغيرها ، من المنشآت العامة ، وكان يعتزم قضاء فريضة الحج ، ولكنه شعر بالإعياء والضعف ، فسار إلى دمشق فى أوائل شعبان ليستريح بها بعض الوقت .

بيد أنه لم تمض ثلاثة أشهر أخرى حتى مرض صلاح الدين ، وتوفى فى السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣ م) فى السادسة والخمسين من عمره ؛ وكانت مشاق السير والحروب المستمرة ، التى استطالت منذ موقعة حطين زهاء خمسة أعوام ، قد أثّرت فى بنيته السقيمة ، واستنفدت قواه . وكان المرض ينتابه خلال هذه الأعوام كرة بعد أخرى ؛ ولكنه لم يقعد قط عن متابعة جهوده ، فكان وقت المعركة يتنقل دائماً بين الصفوف ، ويتقدم جنده إلى المعمعة ، ويحثهم على القتال ، ويذكى هممهم وشجاعتهم بجرأته وإقدامه ، ورقيق خلاله ورائع فروسته .

وهب صلاح الدين حياته للجهاد فى سبيل الله ، وإنقاذ الإسلام والمشرق من عدوان الغرب النصرانى ، واستطاع قبل وفاته أن يحقق أعظم أمانيه باسترداد

بيت المقدس ، وسحق المملكة الفرنجية الصليبية ، وكان سبيله إلى تحقيق هذه الأمنية العظيمة ، هو أن يجمع كلمة الشرق الإسلامى ، وأن يعيد إليه وحدته الإقليمية ، التى انصدعت بانحلال الدولة الفاطمية ، وعدوان الصليبيين على الشام . وقد وفق صلاح الدين فى تحقيق هذه الغاية أعظم توفيق ، ولم تقف جهوده عند رد الإمبراطورية المصرية إلى سابق تماسكها الإقليمى ، بل استطاع أن يجمع كلمة الكتلة الإسلامية من جبال كردستان ومشارف آسيا الصغرى حتى صحراء لوبية ، وأن يعتمد على جهودها الموحدة فى محاربة الصليبيين ورد عدوان الغرب النصرانى ، فكانت جيوش صلاح الدين تجمع فى صعيد واحد بين المصريين والشاميين والعرب والأكراد والتركمان والترك ، وغيرهم ، يشعرون جميعاً بشعور واحد ، ويعملون جميعاً لغاية واحدة هى الذود عن الإسلام وأرضه وحضارته وتراثه .

كان صلاح الدين بطل الإسلام بلا مراء ، بل هو من أعظم أبطال الإسلام قاطبة ؛ وكانت الفكرة الإسلامية تملأ نفسه ومشاعره ، يضطرم بها ، ولا يؤمن بغيرها ، ولم تكن تحدوه فى جهاده أية فكرة قومية أو عنصرية أو إقليمية ؛ ومن ثم فإنه من الخطأ التاريخى أن يقال إن صلاح الدين كان يؤمن بفكرة العروبة أو القومية العربية ، وإنه كان فى جهاده لضم أقطار الدولة الفاطمية القديمة ، فى مصر والشام ، وهى التى غدا هو وريثها وعاهلها ، — كان يعمل لوحدة عربية أو ما يشبهها ، فلم تكن تجول بخاطره أية فكرة من هذا النوع ، وإنما كانت مثله وجهاده ، تتجه إلى آفاق أوسع وأبعد مدى : إلى آفاق الوحدة الإسلامية . ذلك أنه إذا كان عدوان الحملات الصليبية ، يتسم فى ظاهره بالصبغة الدينية ، ويرمى إلى مهاجمة الإسلام والقضاء على سلطانه ، وإعلاء كلمة النصرانية ، فقد كان صلاح الدين يضطرم بفكرة الدفاع عن الإسلام ، والذود عن قوته وتراثه ، ولم يكن يخفى عليه أنه بسحق الحملات الصليبية ، إنما يقضى فى نفس الوقت على مطامع الغرب الاستعمارية فى الشرق .

فإذا نحن أسبغنا على صلاح الدين أو على مشاريعه وأهدافه ، وجهاده فى سبيل الله ، أية صفة أخرى غير الصفة الإسلامية ، وإذا نحن نسبناها إلى بواعث

قومية أو عنصرية أو إقليمية ، فإنا بذلك نجنى على سيرة البطل الإسلامى العظيم ، إذ نجرده من أروع حالى بطولته وأشرفها .

ولم يخف هذا المغزى الإسلامى العظيم الذى جعله صلاح الدين شعار حياته ، وشعار جهاده ، على مفكرى عصره ، فنرى صاحب الروضتين يقول معلقاً على وفاته : « وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله ، منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى » ويقول آخر « وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد ، وخفت الأرض من جبلها الذى كان يمنعها أن تميد ، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره ، ثاكلا لوحيد ، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد » .

وكان صلاح الدين ، يتسم بطائفة من أجمل الصفات الملوكية والإنسانية ، فقد كان وافر الحلم ، جم التواضع والبساطة ، متقشفاً فى ملبسه وطعامه ، وافر الجود والبذل ، ينفق كل ما تصل إليه يده فى أغراض الجهاد ومصالح المسلمين ، ولا يهتم بشيء من أعراض هذه الدنيا من مال أو قصور أو غيرها ، حتى أنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقاراً ، ولم يوجد فى خزائنه شيء من الذهب أو الفضة سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً ، فكان ذلك دليلا مؤثراً على زهده ، وعفة نفسه ، وطهارة يده ، وصونه لمال المسلمين .

وكان شديد التقى والورع ، يشغف بمجالس القرآن والحديث ، ويؤثر مجالس العلم والتقى ، ويشارك الفقهاء فى تحقيق الظلامات وتصريف العدالة ، وكانت مجالسه تتسم بالوقار ، والجد وعفة اللسان ، وكان يؤثر الشورى ويجمع فى بلاطه جمهرة من أكابر كتاب العصر ومفكريه ، وفى مقدمتهم صديقه ومستشاره الوفى عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل ، وكاتبه العماد الأصفهانى الذى خلد فى كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » كثيراً من صور جهاد السلطان وفضائله وخلاله المشرقة . ومما يؤثر عن تسامحه وتقديره لنوابغ العلم ، أنه عين العلامة الطبيب والفيلسوف اليهودى القرطبى موسى بن ميمون طبيباً خاصا له ، وكان قد وفد على مصر ، بعد أن غادر الأندلس وطنه تحت ضغط الاضطهاد الموحدى ، ونزل بالقاهرة سنة ٥٦١ هـ . ولما توفى السلطان ، استمر طبيباً خاصاً لولده الملك الأفضل .

وكانت الشهامة والفروسية من أبرز صفات هذا السلطان العظيم المظفر ، فقد كان صلاح الدين فارس الإسلام بحق ، بل كان مثلا أعلى للفروسية فى عصره ، وقد رأينا كيف كانت تحمله الفروسة فى كثير من المواطن على العفو عن خصومه من الفرنج الصليبيين وإطلاق سراحهم ، والثقة فى شرفهم ووعودهم ، ثم كانوا يقابلون تسامحه وفروسته بالنكث ، ويعودون إلى قتاله ، وقد رأينا كيف عفا عن الفرنج المدافعين عن بيت المقدس وحقن دماءهم ، وصرح لهم بافتداء أنفسهم ، وكان هذا التصرف الذى تمليه الشهامة والفروسة ، من أنبل تصرفات صلاح الدين ؛ وكان يناقض كل المناقضة ، ما ارتكبه الصليبيون حين افتتاح بيت المقدس من قتل الألوف من أهلها المسلمين العزل .

والخلاصة أننا كلما تأملنا جوانب هذه الشخصية الإسلامية العظيمة ، ألفيناها تفيض بآيات البطولة والنبل والإنسانية المؤثرة[1] .

---

(١) رجعنا فى كتابه هذا الفصل إلى تاريخ ابن الأثير ، والروضتين فى تاريخ الدولتين ، لشهاب الدين المقدسى . والفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى . والسلوك فى دول الملوك للمقريزى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى ، وكذلك إلى الإستاذ لاين بول فى كتابيه :
W. Besant & E. H. وكذلك إلى : Saladin و Hiatory of Egypt in the Middle Ages
Jerusalem, the City of Herod and Saladin فى كتاب Palmer

بهاء الدين قراقوش

توفى سنة ٥٩٧ هـ – ١٢٠١ م

كثيراً ما تغير حقائق التاريخ أو تشوه ، ويغمرها معترك من الخرافة ، فتغدو على كر الأجيال وقد غاضت معالمها الحقيقية ، ورسخت صورها التى ينسجها الخيال ، وأضحت تحجب ما عداها من الصور التى تعتمد على الحقائق التاريخية . وهذا القول ينطبق على بهاء الدين قراقوش ، وزير السلطان صلاح الدين . فإن الرواية التاريخية تقدمه إلينا وزيراً نابهاً وإدارياً حازماً ، قام بمشروعات إنشائية عظيمة ، هذا بينما تقدمه إلينا الأسطورة أو بعبارة أخرى يقدمه إلينا القصص الشعبى طاغية غشوماً ، وحاكماً ظالماً ، سفاكاً للدماء متجاهلا كل حق وكل عدالة وكل رفق ، حتى أنه غدا مضرب الأمثال لكل عسف وجور ، يتمثل ذلك فى العبارة الشعبية المأثورة « حكم قراقوش » .

فما هو وجه الحقيقة فى ذلك ، وما هى حقيقة شخصية هذا الرجل الذى تدمغه الأساطير الشعبية بهذه القسوة ؟ وأخيراً ما هو مبعث هذه الأساطير والظروف التى ترعرعت فيها ؟ هذا ما سنحاول أن نعالجه فى هذا الفصل .

تحدثنا الرواية التاريخية المعاصرة والقريبة من العصر عن بهاء الدين قراقوش ، وتقدمه إلينا فى صور طيبة ، تختلف كل الاختلاف عما تقدمه إلينا الأسطورة . وقد عنى ابن خلكان بترجمته بين أعيان وفياته . وهو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين . وقراقوش معناها بالتركية «النسر الأسود» . وكان خصيا أبيض من خدم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين . فلما تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد بالله ، جعله متولى القصر الفاطمى حرصاً على ما فيه . ولما استقل صلاح الدين بشئون مصر عينه كبيراً لشئون القصر والخاص ، فأبدى همة وغيرة وكفاية فى كل ما أسند إليه ، وتقدم فى الحظوة حتى غدا رجل صلاح الدين الأول وساعده الأيمن ، يوليه كامل ثقته وينتدبه لمهام الأمور . ولما غاب صلاح الدين عن مصر مدة ، عين قراقوش نائباً عنه وفوض أمورها إليه ، فوطد الأمور وضبط النظام والأمن . وقد قام

قراقوش خلال خدمته لصلاح الدين ، بطائفة من أعظم الأعمال الإنشائية التى خلدت اسمه ، والتى ما زالت آثارها ماثلة بيننا . فهو الذى أنشأ قلعة الجبل العظيمة على سفح المقطم . وكان صلاح الدين قد رغب فى إنشاء معقل حصين يعتصم به ، ويكون فيه آمناً على نفسه من كيد خصومه ، من شيعة الفاطميين وغيرهم ، ويجعله مستقراً له وقاعدة لحكمه . فتولى قراقوش تحقيق رغبته ، وقام على إنشاء القلعة وذلك فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) وإنشاء بئرها العجيبة لتمدها بالماء . وكان صلاح الدين قد رأى فى نفس الوقت أن يبنى سوراً عظيماً يضم القلعة ومدينتى مصر والقاهرة ، بعد أن اتسعت أحياء القاهرة التى خارج السور الفاطمى القديم ، فلم ير أيضاً خيراً من قراقوش لتحقيق رغبته . وأبدى قراقوش فى تنفيذ هذا المشروع همة فائقة ، وأزال عدداً كبيراً من القبور والمساجد التى تعترض خطط السور ، وهدم كثيراً من الأهرام الصغيرة التى كانت قائمة بالجيزة تجاه مدينة مصر ، واستعملت أحجارها الضخمة فى بناء السور والقلعة . وابتنى قراقوش أيضاً قناطر الجيزة العظيمة على النيل على مقربة من الأهرامات ، وابتنى عددا آخر من المنشآت . ولما استولى صلاح الدين على ثغر عكا من يد الفرنج ، ندب قراقوش لإصلاحه وترميم أسواره وقلاعه ، ثم عاد الفرنج فاستولوا عليه ، ووقع قراقوش أسيراً فى أيديهم . ولم يفرج عنه إلا لقاء فدية عظيمة . ولما نجا قراقوش من الأسر ، ومثل أمام السلطان سر صلاح الدين بخلاصه أيما سرور ، وأعلى مرتبته وغمره بصلاته ، ولبث قراقوش على حظوته حتى توفى صلاح الدين فى سنة ٥٨٩ هـ .

وعاش قراقوش بعد ذلك عدة أعوام أخر ، رفيع المكانة وافر الهيبة نافذ الكلمة حتى توفى فى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . ونستطيع على ضوء هذه الخلاصة الموجزة لسيرة قراقوش ، أن نقول إنه كان شخصية بارزة ، وإنه قام بأعمال عظيمة . وهذا هو نفس ما تردده التواريخ المعاصرة والقريبة من عصره . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ما رواه معاصره العماد الأصفهانى مما جاء فى وصفه على لسان صلاح الدين حينما تقرر ندبه لإصلاح ثغر عكا وهو : « الراجح الرأى ، الناجح السعى ، الكافى الكافل بتذليل الجوامح وتعديل الجوانح . وهو الثبت الذى لا يتزلزل ، والطود الذى لا يتجلجل — بهاء الدين قراقوش الذى

يكفل جاشه بما لا تكفل به الجيوش » . وقال عنه ابن خلكان وقد عاش قريباً من عصره « وكان رجلا مسعوداً وصاحب همة عالية » . ومتى تقرر ذلك فإنه يحق لنا أن نتساءل عن سر تلك الأحكام القاسية التى تحيط بها الأسطورة شخصية قراقوش ، والتى تقدمه إلينا فى صور قاتمة مثيرة . والظاهر أن هذه الأساطير الشعبية المثيرة قد ظهرت فى عصر قراقوش ذاته ، أو من بعده بقليل ، فقد انتهت إلينا رسالة خطية صغيرة منسوبة للأسعد بن مماتى ناظر الديوان فى عهد صلاح الدين وعنوانها « الفاشوش فى أحكام قراقوش » يحمل فيها على قراقوش بشدة ، ويرميه فيها بالطغيان والغفلة ، ويقول فى مقدمتها « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرمة فاشوش قد أتلفت الأمة ، صغت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » . وتحتوى هذه الرسالة على عدة أخبار ونوادر منسوبة لقراقوش للتدليل على اضطراب تفكيره ، وعلى شدة جوره وعسفه . وقد نسبت هذه الرسالة (عدا الديباجة) أيضاً إلى السيوطى ، ووردت فيها نفس الأخبار والنوادر . بيد أن المرجح أنها ترجع إلى عصر صلاح الدين ذاته ، بدليل أن ابن خلكان يشير إليها ، ويبدى ريبه فى صحة ما ورد فيها ، ويرجح أنها موضوعة وليست من تأليف ابن مماتى . وقد استرعى نظرنا من بين النوادر التى نسبت فيها لقراقوش نادرتين .

الأولى : أنه أمر بحبس دائن شكا من مماطلة غريمه . وذلك أنه أمر بالقبض على المدين فاحتج بأنه رجل فقير ، وأنه كلما اقتصد مبلغاً وأراد إعطاءه للدائن لم يجده ، فعندئذ قال قراقوش احبسوا صاحب الحق ، حتى إذا حصل المدين شيئاً يجد له موضعاً يدفع له فيه . فعندئذ قال صاحب الحق تركت حقى يامولاى وأجرى على الله ومضى لشأنه . الثانية : أنه كان بمصر تاجر غنى بخيل ، وكان له ولد يقترض باسمه ، واستمر الاقتراض حتى زاد عليه الدين ولم يمت أبوه ؛ فاتفق مع الدائنين على أن يدفن والده بالحياة . وانقضوا عليه بالفعل ذات يوم فغسلوه وكفنوه ، ووضعوه فى النعش وهو يصيح ولا يغاث . فلما وصلوا إلى المسجد للصلاة عليه ، اتفق أن كان قراقوش ماراً فنزل وصلى عليه مع المصلين وسمع الميت المزعوم ذلك ، فصاح مستغيثاً وهو يقول يا مولاى انقذنى من ولدى فهو يريد دفنى بالحياة . فقال قراقوش للولد : كيف تفعل ذلك بوالدك ؟ فقال :

هو كاذب يا مولاى ،فإنى لم أغسله ولم أحمله فى التابوت إلا وهو ميت ،وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك ، فقال قراقوش للحاضرين : أتشهدون بصحة ما قال؟ فقالوا بلى نشهد . فالتفت قراقوش للميت وقال : كيف أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ؟ روح اندفن لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يدفن بعد هذا اليوم ، فحمل الرجل ودفن بالحياة .

ورسالة « الفاشوش » تضم عدة من الأخبار والنوادر المماثلة ، وكلها من أفانين الخيال الشعبى ، وكلها بعيدة الاحتمال والتصديق . وقد رفض تصديقها مؤرخون عظام مثل ابن خلكان الذى عاش قريباً من هذا العصر . بيد أنها لبثت تتناقل على كر العصور ، وتدمغ اسم ، الرجل الذى نسبت إليه ، وتغمر شخصيته الحقيقية بوابل من الصفات والأحكام القاسية التى ما زالت تعلق به حتى عصرنا .

بيد أنه يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن أن تصدر مثل هذه الترهات والأباطيل من رجل مثل قراقوش ، كان وزيراً لملك عظيم مثل صلاح الدين يقدر أقدار الرجال ، وكان معاونه الأثير لديه ، الحائز لكامل عطفه وثقته ، وكان صلاح الدين يدخره للاضطلاع بكل عظيمة من الأمور والمهام .

وفى رأينا أن السر فى هذا التزييف التاريخى ، يرجع إلى شخصية قراقوش نفسه وإلى أعماله الضخمة ، فقد كان قراقوش شخصية ممتازة وافرة الصرامة والحزم . وقد امتازت بالأخص بالقوة والسرعة فى إنجاز المنشآت العظيمة ، التى كان فى مقدمتها إنشاء قلعة الجبل وسور القاهرة وقناطر الجيزة ، وكلها من المنشآت الهائلة التى تقتضى إقامتها حشد عشرات الألوف من الرجال . وقد رأينا فوق ذلك أن قراقوش أمر بهدم عدد كبير من الأهرامات الصغيرة لكى يستعين بأحجارها الضخمة على إقامة هذه المنشآت . ونحن نعرف ما يقتضيه مثل هذا العمل من الجهود الضخمة المضنية . وقد كان يُعتمد فى العصور الوسطى فى إنجاز الأعمال العامة ، بالأخص على السخرة وحشد الأيدى العاملة بطريق القسر والإرهاق . وقد كانت هذه الوسيلة تتخذ على يد رجال أقوياء مثل قراقوش صوراً مثيرة من الخشونة والقسوة ، فكان يحشد عشرات الألوف أو مئات الألوف أحياناً ، من العمال والأسرى والعبيد ، ومعظمهم يحشد رغم أنفه ، وربما خطف الناس من الشوارع أو من منازلهم ، ثم يساقون إلى العمل قسراً تحت

إشراف قوم من العرفاء الظلمة القساة ، ولا يحصلون من الأجر إلا على كسرة جافة يتبلغون بها ، وكان الكثير منهم يهلك من القسوة والإنهاك وسوء التغذية ، وهكذا كان قراقوش خلال الأعمال الضخمة التى قام على إنشائها ، رمزاً لكل هذه القسوة وهذا الظلم الفادح ، وكان مسئولا فى نظر العامة عن هذه الضحايا العديدة ، التى تتساقط ألوفاً فى سبيل الإشادة بمقدرته وعزمه وكفايته . وربما كان قراقوش فوق ذلك تطبعه ألوان من القسوة والنزق والسذاجة ، وهى عادة مما يقترن بصفات هذا الصنف من الرجال ، الذين يجمعون بين القوة والصرامة والعزم .

ابتدع الناس هذه الصورة المثيرة لقراقوش ، ولصقت به منذ عصره ، ثم تناقلتها الأجيال ، وزادت عليها ما شاء الخيال الشعبى الخصب ، فأضحى قراقوش وقد غمره سيل الأساطير ، واستبدلت شخصيته التاريخية العظيمة ، بتلك الشخصية القاتمة الزائفة ، التى ما زالت تلاحقه وتغلب عليه حتى عصرنا .

الملكة شجـــرة الدر

(نحو ٦١٢ – ٦٥٥ هـ) ، (١٢١٥ – ١٢٥٧م)

لما توفى السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شامخة ولكن مفككة العرى ، وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية ؛ ففيه حطمت المملكة الصيليبية فى فلسطين واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ، ومزقت قوى الصليبيين فى سائر الأنحاء . وخلف صلاح الدين فى ملك مصر ولده الملك العزيز ، وكان نائبه بها ، وخلفه فى الشام ولده الأفضل ، وفى حلب ولده المظفر ؛ وبذا انقسمت المملكة المصرية الشامخة إلى ثلاث ممالك ، وأخذت قواها التى حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، تتبدد فى سلسلة لا نهاية لها من الحروب الأهلية ؛ ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل . ولما توفى العزيز بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلا ، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء ، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر ، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل ، وانتهى الأمر بهزيمته واستيلاء العادل على عرش مصر والشام . وهنا آنس الفرنج ضعف المملكة المصرية ، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين ، وطمع الفرنج فى استرداد بيت المقدس ، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ – ١٢٠٤ م) . وفى عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً ، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالا مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادى نزيل مصر يومئذ وصفاً ترتجف له الفؤاد فرقاً[1] . وفى سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر وزحفوا على مدينة دمياط ، وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ، وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوباً ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك ، وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفى الشام ولده المعظم ؛ وحاول

---

(١) راجع هذا الوصف فى كتاب « الإفادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادى (مصر) ص ٤٩ وما بعدها .

الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين ، على أن يخلى الفرنج دمياط ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية .

وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام ، واستقرت الأمور فى عهده ، وتوطدت أركان المملكة وانتعشت قواها المبددة . وتوفى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

فخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ؛ وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق ، فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ، وسار فى أنصاره معلناً الخلاف . ووصل إلى جنوبى الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب «الكَرَك» كميناً ، وأسره وزجه سجيناً إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريته « شجرة الدر » أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) . فلبث يرسف فى أسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله ، أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ، ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفى أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته فى اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين فى شئون الدولة ؛ فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة ، وترى فى الملك العادل فتى طائشاً لا يصلح للملك ، وتتربص الفرص للوثوب عليه ؛ فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك رأوا الفرصة سانحة للعمل ، فساروا إليه فى معسكره ببلبيس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر فى عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن فلبث فيه عدة سنين ، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦ هـ) ، وبذا لقى نهايته المحزنة .

— ٢ —

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره . وكان مولده بمدينة القاهرة فى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) وبها نشأ وترعرع ؛ ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائنهم حتى تنفذ شروط الصلح ؛ ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩ هـ) ، ثم أرسله فى سنة ٦٣١ هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) ؛ ولبث الصالح نائباً على الديار الشرقية حتى توفى أبوه فى سنة ٦٣٥ هـ ، ولقى ما لقى من الخطوب ، حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا .

ودخل الصالح مصر فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ ومعه « شجرة الدر » حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ فيما يبدو أول عهدها بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنت مع سيدها فى قلعة الكَرَك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو فى طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت فى صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند مسيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر(١) :

فمن كانت هذه المرأة التى سطعت غير بعيد فى بلاط مصر ، والتى قدر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغــدو بتبوئها الملك مثلا فريداً فى صحف التاريخ الإسلامى ؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية «جارية » تركية أو أرمينية أو رومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب فى عجز الرواية عن أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها ، فهى لم تكن إلا واحدة من ألو الجوارى اللائى كانت تغص بهن قصور الخلفاء والسلاطين فى تلك العصور ، ولا نعرف عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجبن الخلفاء

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى مبدان السلطة والنفوذ ، ويشاطرن في توجيه الشئون .

وهكذا فإنا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة فى سنة ٦٣٧ ﻫ وهى مع سيدها الملك الصالح فى طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ بجاريته وحظيته وأم ولده خليل . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها «خليل» يومئذ فيما يبدو طفلا لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو ما يزال فى طور الطفولة ؛ وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زجت مع سيدها إلى قلعة الكرك كانت حاملا فسقطت غماً وروعاً . فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثانى بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ ﻫ فإنا نستطيع أن نقدر سنها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة التثقيف ، بارعة فى القراءة والكتابة . وتنوه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصريفها للأمور ؛ وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية . وقد استطاعت غير بعيد أن تحرز بخلالها وقوة نفسها ، مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثيرة ، وتوثقت مكانتها بمولد ولدها خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت بالملكة « عصمة الدين أم خليل شجرة الدر »[1] .

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى صحة اسم الملكة شجرة الدر ، فتذكر بعض الروايات أنه « شجر الدر » وليس « شجرة الدر » . وممن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر ، جمال الدين بن واصل وهو مؤرخ معاصر ؛ وقد ذكرها على هذا النحو مراراً فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١و٣٦٢ و٣٧٢) ؛ وكذلك أبو الفدا فى تاريخه (ج ٣ ص ١٤٠و١٤١و١٤٢و١٩٢) ؛ وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢و٣٦٣و٣٧٧) . وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الإسلامية فى مقال شجر الدر) وكذلك المستشرق لاين پول فى كتابه عن تاريخ مصر (ص٢٥٥) . ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعنى « شجرة الدر» . ومن هؤلاء الصفدى فى « الوافى بالوفيات » وابن قزأوغلى فى « مرآة الزمان » (وقد نقل عنهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقريزى فى كتاب السلوك وفى =

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح ، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، ورجحان عقلها ، وكانت مذ جمع القدر بينهما ، تعاونه فى تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها ، فلم تلبث أن تبوأت فى البلاط وفى الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة ، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ، ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهى كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التى فتنته بخلالها الرفيعة تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعتقها وتزوجها ، ولم تبق شجرة الدر بعد جارية تسمو بجمالها وسحرها ، ولكنها غدت غير بعيد سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ فى بلاط القاهرة نفس الدور الذى لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده هشام المؤيد فى بلاط قرطبة ؛ ولما توفى ابنها خليل طفلا بعد ذلك بقليل لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

وكان الصالح نجم الدين ملكاً متين الخلق وافر الحشمة ، شديد الهيبة يمقت المجون والعبث ، ويؤثر العزلة ، ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب ، وكان يوكل شئون الدولة إلى كتّابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالجة وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلالها الشخصية البديعة ، امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها فى هذا السبيل مآثر لا تحصى (١).

= الخطط ، وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ، ولو أنه فى كتابه المنهل الصافى يسميها « شجر الدر » (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧) والسيوطى فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٨ و ٣٩) وابن إياس فى (بدائع الزهور ج ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر فى سائر المواطن التى لها علاقة بها ، مع أنه يحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعادل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم « شجر الدر » هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية ، خصوصاً وأن ابن واصل ، وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية ، فإنه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم « شجرة الدر » هو الإسم الغالب الذى كانت تعرف به الملكة فى البلاط وفى الحكومة أو بعبارة أخرى هو الإسم الشعبى الذى غلب عليها . ولهذا نضاه وأخذ به معظم المؤرخين المصريين ، وفى مقدمتهم المقريزى . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوعاً .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩ .

ولم يكن للملك الصالح فى الوقت الذى بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهى المعروفة ببنت العالمة . وكانت زوجاً لمملوكه الجوكندار (حامل الصوبخان) فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديدات من تدانى شجرة الدر فى مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

— ٣ —

وعنى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، وعين ولده المعظم تورانشاه نائباً على البلاد الشرقية ، واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وانتزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة ، وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين فى النواحى .

وحالفه التوفيق أيضاً فى محاربة الصليبيين فهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس ، وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التى سلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية ، التى لعبت أعظم دور فى تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد) ، وتبوأ عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ؛ وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عيثهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... تُرك بدولـتة يا شرجـلوب
قد أخـذ الله أيوباً بفعلتـه ... فالنـاس كلهـم فى ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزودهم

بأسطول نهرى من الشوانى المسلحة التى أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال « الحلقة » أو الحرس السلطانى ، وكانوا بما أثر عنهم من الشجاعة والبراعة فى القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح فى أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة فى أوائل سنة ٦٤٦ هـ ، وقد وُصف بأنه ناسور وعسر بول تلته قرحة فى الرئة ؛ وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأمينى صاحب حلب على حمص . فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص ، وحمل فى محفة ، وهنالك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة فى طريقها إلى مصر . فاضطر إلى التنازل عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر فى محفته وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته فى أشموم طناح على مقربة من دمياط التى كانت فى ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ؛ وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سيرت إليها ، وهى الحملة الصليبية السابعة التى قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء فى قبرس ، ثم ساروا إلى مصر فى أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩م) . وفى الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث ، وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شىء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحصى . وكان الملك الصالح مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط فى حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم ، فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرع بالشجاعة والعزم ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضى بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينذر فيه ملك الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه[1] .

---

(١) راجع نص هذين الكتابين فى « السلوك فى دول الملوك » للمقريزى ج ١ (٢) ص ٣٣٤ و ٣٣٥

وفى اليوم التالى نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح . وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربى ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقى ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ؛ وهرع فى أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط فى صباح اليوم التالى دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة ، واستشاط السلطان حنقاً لما وقع ، وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير فخر الدين يوسف ، وأمر بشنق عدة كبيرة من مقدمى الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولا فى محفته إلى المنصورة ، وهى المحلة التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل ، حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى سنة ٦١٥ هـ ، ونزل بقصرها المتواضع ؛ وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها وإعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية فى تلك القاعدة الجديدة . وقدم أسطول نهرى من الشوانى الحربية ورابط فى النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطانى سيل من من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم فى الأهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج فى أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالا بين المسلمين والفرنج . وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى فى يد المسلمين ، أرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهرى الذى ساد عليه الوجوم مذ سقطت دمياط ؛ واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين ، وأن تنتزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معززاً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيه إلى أوائل نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) والملك الصالح أثناء ذلك يعانى أوصاب المرض ويسير الى الموت بخطى بطيئة . وفى أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالخاتمة ، فتوفى فى قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان

سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩) ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ، وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم تورانشاه نائبه فى الديار الشرقية . وكان يومئذ فى حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

— ٤ —

كانت وفاة السلطان فى تلك الآونة العصيبة ضربة موئلة ، وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير ؛ ولكن القدر كان رحيما بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإنقاذ الموقف واتقاء الكارثة تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض فى قلب المعسكر السلطانى ، تشرف على تدبير الشئون وإنفاذ الأوامر بمعاونة رجال القصر المخلصين ، وفى مقدمتهم الأمير فخر الدين يوسف ومحسن الطواشى . وكانت ترقب سير المرض بجزع وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر ؛ فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والأمة ، وتذكى ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم فى أرضها يتأهب لإنزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير فخر الدين يوسف كبير الخاص ، ومحسن الطواشى وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فصدعا بالأمر ؛ وكان الأمير فخر الدين رجلا وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة أصدق العون ، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخاص والأطباء والغلمان ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين ، ووضع الجثمان فى تابوت حمل تحت جنح الظلام إلى الروضة ثم دفن فيما بعد فى تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . وبقيت الخدمة السلطانية على حالها ،

والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم : « السلطان مريض ما يصل إليه أحد » . وكان السماط السلطانى يمدّ فى مواعيده ، وكأن السلطان حى يتناول طعامه كالمعتاد ، وكانت الأوامر والكتب والمناشير تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية فى تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض : إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده ، ويقول البعض الآخر : إن شجرة الدر كانت لبراعتها فى الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة ، وفى رواية ثالثة أن الذى كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل(١) .

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب ؛ وفى غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم : إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم تورانشاه ، أن يكون سلطاناً بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة ؛ فصدع الأمراء بالأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حياً ، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر ؛ وأنفذت شجرة الدر فى نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة ، أمراً ممهوراً بالعلامة السلطانية ،أن يقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمى الجند بالقاهرة على ما تقدم ؛ فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة وكاتب الإنشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع بالدعاء للملك المعظم تورانشاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الأمور حيناً على هذا النحو والأمير فخر الدين يوسف يقوم بتدبير الشئون وإنفاذ الأوامر بإشراف شجرة الدر وتوجيهها ؛ وسار لاستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاى .

— ٥ —

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتم ، وقدروا ما يترتب على ذلك من اضطراب الأمور فى

---

(١) راجع ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٦٢) والسلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٣٩ و٣٤٥ ، والنجوم الزاهرة عن مرآة الزمان .

المعسكر الإسلامى ، فقرروا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين ،وزحفوا جنوباً نحو فارس كور(١) وسفنهم تسير بحذائهم فى النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان ، فأخذ المسلمون فى الاستعداد للقتال . ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر ، وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد ، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطانى . وفى أوائل رمضان (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرقى المنصورة ، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (البحر الصغير) واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة ، وكانت شوانى المسلمين ترابط إزاءها ؛ وكان معظم عسكر المسلمين فى شرقى النيل ، وبعض الفرق ترابط فى البر الغربى ؛ وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين تنشب متعاقبة فى البر والبحر ،وأخصها تبادل الرمى بالنبال والمجانيق ، واستمرت هذه المعارك مدى أسابيع سجالا بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تباعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب ؛ وبذل الفرنج جهوداً عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكى يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم ، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة ، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة (النار اليونانية) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً وذعراً ، وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيماً فى الحروب الصليبية ؛ واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ، ولا يجدون سبيلا لاتقائها ؛ وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخائض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير فخر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأثخن جراحاً وقتل ، وتفرق فرسانه ؛ وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تثخن فى المسلمين هنا وهنالك ، ووصلت

---

(١) هى فارسكور الحديثة .

طلائع الهاجمين إلى أبواب القصر السلطانى ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين وتحيق بهم الهزيمة المروعة . ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال « الحلقة » وهم مماليك الملك الصالح، الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس ، أطبقوا على الفرنج بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الداوية » (١) سوى أفراد قلائل ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديله على بحر أشموم حيث بدأوا هجومهم المشئوم ، وحال الظلام بين الفريقين ؛ وكان ذلك فى اليوم الخامس من ذى العقدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠م .

تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التى خلدت فى صحف مصر الإسلامية ؛ بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر فى الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الانزعاج ، وحل الاستبشار مكان التوجس ، وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر ، وكان يوماً مشهوداً .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ، فقد كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج ، فى القصر السلطانى ، ترقب مصاير المعركة . ولما قتل الأمير فخر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة فى البداية على المسلمين ، لم يخب عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والجنان ، تعاون برأيها وتشجيعها فى توجيه المعركة ؛ ولما زال الخطر ورد الفرنج إلى مراكزهم، لم تختر شجرة الدر قائداً جديداً للجيش ، بل آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ؛ ولبثت على ذلك أياماً تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة ، حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم تورانشاه .

— ٦ —

ارتدت فلول الفرنج منهزمة عقب الموقعة تقصد إلى مراكزها العامة ،

---

(١) الداوية أو فرسان المعبد **The Templars** وهم حسبما تقدم من أشهر جماعات الفرسان الدينية أيام الحروب الصليبية .

والمسلمون فى أثرها يثخنون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر أشموم ، مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين ، عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام ؛ وجمع الفرنج قواتهم فى تلك البقعة وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذى حاق بهم ؛ وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذخائرهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بمقدم الملك المعظم ، وكان قد غادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج فى طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ؛ ووصل إلى الصالحية فى ١٦ ذى القعدة أى بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين وكبار رجال الدولة ، وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ؛ وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصيبة استطالت زهاء ثلاثة أشهر ، ولكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة ، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة ، وأن تؤدى مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير .

وفى اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم فى ركبه إلى المنصورة ، ودخل قصر أبيه ، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور ، وكان حرياً أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه ، لما أسدت إلى الوطن والعرش فى تلك الآونة العصيبة من جليل الخدمات ، ولما يدين به لها من فضل ترشيحه للملك ، وأخذ العهد له فى غيبته ؛ ولكن تورانشاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعة ، بل كان بالعكس يخشاها ويتوجس من سلطانها ونفوذها ؛ وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهى بالقاهرة يهددها ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ؛ فقيل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقدس خيفة بطشه

وغدره[1]. وكان الملك المعظم فتى نزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة ، وبطش بكثير من رجال الدولة وحطهم عن مراكزهم ، واضطهد مماليك أبيه الملك الصالح ، فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء المماليك ، وتغيرت نفوسهم عليه وأخذوا يتربصون الفرص لإزالته من طريقهم .

وفى أثناء ذلك كان الفرنج فى مراكزهم فى حيرة واضطراب . وكانت المؤن تأتيهم فى السفن من دمياط عبر النيل ، فدبر المسلمون خطة لقطع المؤن عنهم والبطش بهم ، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجمال ثم أنزلت فى النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة ؛ فلما جاءت مراكب الفرنج محملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج ؛ فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم . وفى التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول فرنجى جديد مشحون بالأقوات والمؤن ، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دمياط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة (مارس سنة ١٢٥٠ م) فتفاقم الأمر على الفرنج ، ودب إليهم الجوع والوهن وأخذ المرض يتفشى فيهم ؛ وكانت النيران التى تطلقها حرّاقات المسلمين على معسكرهم ، تزيد فى بؤسهم وكربهم ، وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب نصح أمرائه وقادته ، فاعتزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التى قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ هـ وهى أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج ، فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالا نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم وعتادهم . وفى مساء يوم الثلاثاء الثانى من محرم سنة ٦٤٨ هـ (١٥ أبريل سنة ١٢٥٠ م) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم فى النيل قبالتهم ؛ ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ؛ وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذى أنشأه الفرنج على بحر أشموم ، وطاردوهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى احتاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ،

---

(١) النجوم الزاهرة (عن ابن قزأوغلى) ج ٦ ص ٣٧١ و ٣٧٣ .

ومزقوا شر ممزق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة ، وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

ولجأ لويس التاسع أو رى إفرنس [١] كما تسميه الرواية المصرية فى نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أبى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور ، وطلب الأمان من المسلمين فمنح الأمان ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهناك اعتقل ملك فرنسا فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ، ووضع القيد الحديدى فى يديه ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى [٢] . وفى بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معززاً مكرماً [٣] ؛ وكان نصراً باهراً لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم تورانشاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهنالك نصب الدهليز السلطانى ، وأقام السلطان إلى جانبه برجاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشرى إلى سائر الأنحاء فعم السرور والفرح فى العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء فى رسالة السلطان إلى نائبه فى دمشق الأمير جمال الدين ابن يغمور فى تفصيل الموقعة ما يأتى « نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا لاتيأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الإثنين مستهل الأيام المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله . . . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل وقد حل بهم الخزى والويل ؛ فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما

---

(١) رى إفرنس أو ريدافرنس هى مقابل الفرنسية القديمة **Roy de France** أو ملك فرنسا ؛ ولم يفت الرواية الإسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : « وكان هذا اريدافرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وإفرنس هى أمة الفرنج ، ومعنى ريدافرنس ملك إفرنس فى لغتهم معناها الملك » (مفرج الكروب) .

(٢) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

الاسرى فحدث عنه البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس (يريد ملك فرنسا) إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته » .

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلى . ذلك أن الملك المعظم أساء السيرة كما قدمنا واضطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع فى مناصبهم رجالا من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ؛ فغضب الأمراء وأكابر الدولة لتصرفاته ، وغضب المماليك البحرية لمناوأته إياهم ، وكذلك لمسلكه الخشن نحو شجرة الدر ، ونكران فضلها فى ضبط المملكة ، والتمهيد لجلوسه على العرش . وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ؛ وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضمره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتحريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم فى تدبيرها ، ولكن المؤامرة دبرت ونفذت بسرعة فى المعسكر السلطانى . والظاهر أن الذى دبرها بالأخص اثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم الإثنين ٢٧ محرم (٦٤٨ هـ) أعنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السماط فى خيمته ، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه . فما كاد ينتهى حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقت إلى الذراع ، فوقع الهرج فى المخيم السلطانى ، وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم وراء المعسكر واحتمى بأعلاه ، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وفى مقدمتهم بيبرس وأقطاى وأخذوا يرمونه بالنبال ، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ، ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة ، دون أن يتحرك إنسان لنجدته ، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل ناحية وأثخنوه جراحاً ، ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى بنفسه فى النيل وهم فى أثره ، وأجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته إلى الجسر

وبقيت هنالك ثلاثة أيام فى العراء ، ثم دفنت فى مكانها بلا احتفال ولا تكريم .

— ٧ —

وهكذا هلك الملك المعظم تورانشاه فى غمر دامية ، فتى فى عنفوانه ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع ؛ وشاء القدر أن يختتم بموته ثبت ملوك بنى أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة .

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هى من يخلف الملك القتيل على العرش ؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة فى حل تلك المشكلة . وكانت شجرة الدر فى قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث ، وكانت هذه المرأة الموهوبة التى أثبتت بخلالها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال ، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمراء الجند فى المعسكر السلطانى ، واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية .

أجل كان تنصيب الملكات فى الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ، ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة . ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى ؟ لقد جلس فى العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام ، وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات ، وكانت منهن واحدة على الأقل شهيرة معروفة تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروع ، وهى كليوباطره أو كلابطره كما تسميها الرواية العربية[1] . بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذيوعاً ، فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهى جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القياصرة ، ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القياصرة ؟ أجل جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الإمبراطورة إيرينى معاصرة الخليفة المهدى وولده هرون الرشيد ، وهى التى تعرفها الرواية الإسلامية باسم « رينى » والإمبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛ وكان مثل تيودورا بالأخص معروفاً فى مصر ، فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمى ، سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أيام الشدة العظمى يستمد

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠ .

منها القوت والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين . وإذن فلم يك منصيب الملكات بدعة فى الدول العظيمة ، فلماذا لا تجلس على عرش مصر امرأة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجالس النساء على عرش القياصرة ؟

اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركمانى أحد زعماء البحرية (١) ؛ وأخذت البيعة للملكة الجديدة فى اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ (مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشرى إليها الأمير عز الدين ، فابتهجت لما وقع وبدأت عهدها الجديد كملكة لمصر الإسلامية .

وكانت تولية شجرة الدر حادثاً فريد فى التاريخ الإسلامى ، وإذا استثنينا ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فإنه لم يحدث قط فى أية مملكة مسلمة أن تولت الملك امرأة(٢) ، وكذلك لم تجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا امرأة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة .

وكان للحادث أعظم وقع فى العالم الإسلامى حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله العباسى نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا »(٣) ، ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين ، وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عز الدين أيبك ليكون مقدماً على العسكر ، وليعاون شجرة الدر فى نفس الوقت على تصريف الشئون .

وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم ، وكانت يومئذ فى نحو الأربعين

---

(١) ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢) .

(٢) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الإمارات الهندية المسلمة فى ذلك هو مثل السلطانة رضية ملكة دهلى (دلهى) التى وليت الملك عقب مقتل أخيها فى أواسط القرن السادس الهجرى واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال (راجع رحلات ابن بطوطة — مصر — ج ٢ ص ٢٢) . وظهرت أيضاً فى أوائل القرن السابع فى بلاد خوارزم وخراسان أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هى تركان خاتون والدة السلطان محمد بن تكش ، وكانت ذات سطوة وسلطان (أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨) .

(٣) السلوك ج ١ (٢) ص ٣٦٨ ، وابن إياس ج ١ ص ٨٩ ، والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩ .

من عمرها تفيض قوة وعزماً ، واختارت لوزارتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنّا وكان أول عهده بالوزارة ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة ، فهى الملكة عصمة الدين شجرة الدر ، وهى « السّتر العالى » « والدة خليل » وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح ، وكانت هذه علامتها على الأوامر والمراسيم . ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل « اللهم وأدم سلطان السّتر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل » ومثل « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » ؛ وكذلك نقش اسمها على السّكة بالعبارة الآتية « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين »(١) وقد اعتقد العلامة الأستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدل بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم(٢) قبل أن تكون جارية للملك الصالح ، ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال . وأكبر الظن أن كلمة « المستعصمية » التى أطلقت على شجرة الدر كانت تعنى انضواءها تحت لواء الخليفة العباسى من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشاريف عند تولى الملك من الخليفة العباسى .

وكان أول ما عنيت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج وإجلاءهم عن الأراضى المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون فى ذلك مصلحة كبيرة لمصر والإسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الإفراج عنه وعن باقى الأمراء المأسورين معه ، لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين ، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكامل والصالح ؛ ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أى إلى أربعمائة ألف دينار ، وكانت

---

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥ .

(٢) وتوجد فى المتحف البريطانى قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب المشار إليها وهى القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع Lane-Poole: A History of Egypt p. 255 note)

مرجريت دى بروڤانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ فى دمياط تعانى آلام المرض والمحنة ، فبذلت لجمع الفدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون دمياط فى الثالث من صفر (٦٤٨ هـ) . وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه فى المعتقل مستشاره ومترجمه المؤرخ دى چوانڤيل ، وهو الذى ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائقة[١]. وغادر الفرنج أراضى مصر توا وركب لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر فى سفنهم إلى ثغر عكا ، وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سحقت تلك الحماة الصليبية العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت مصر عندئذ بدورها التاريخى مرة أخرى فردت عادية الغزاة الصليبيين عن مصر وبلاد المشرق ، وعملت على حماية الإسلام والمدنية الإسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التى سيرت لغزو مصر باسم الدين .

وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الموقعة أبياتاً شهيرة ما زالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرنسيس[٢] إذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير أو جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً ... فرب غش قد أتى من نصيح

---

(١) وقد وضع مهادى جوانڤيل De Joinville بعنوان Histoire de St. Louis (تاريخ القديس لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : Memoirs of the Crsuadcs

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

— ٨ —

كانت تولية شجرة الدر حركة جريئة ولكن خطرة فى نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ما عرف عن الملكة الجديدة ، من أصالة فى الرأى وقوة فى الخلال ومقدرة فى تدبير الشئون ؛ وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات وما أحرزته من نجاح فى إجلاء الفرنج ، فإن فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء فى مصر والشام لم يرق لهم أن يستظلوا بلواء امرأة . وسرعان ما ظهرت بوادر الانتقاض الأولى فى الشام حيث أبى نائب السلطنة فى دمشق الأمير جمال الدين ابن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبى يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم ، وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر ؛ وكان لهذه الأنباء فى بلاط القاهرة أعمق صدى ، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام .

ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف وتشعر بضعفها كامرأة ، ورأت أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة ، وتدعم عصمتها وهيبتها كامرأة ؛ وتم هذا الزواج بالفعل فى ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨ ه ؛ ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها فى تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين ، فعندئذ رأت شجرة الدر أن تقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ؛ فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها ، وأن يتولى العرش مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك ؛ ونفذ هذا المشروع فى نهاية ربيع الثانى ، وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ ه .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاء لبنى أيوب وتهدئة لثورتهم أن ينصبوا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل فى نحو السادسة ، وأخذت له البيعة فى اليوم الثالث من جمادى الأولى ، وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتى « رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ ثائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بنى أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول العرش فى مصر على اضطرامها ، وسير الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك ، فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاى فى قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨ ﻫ) . ولكن هذا الفشل لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواته مرة أخرى وسار بنفسه إلى مصر ومعه عدة من أمراء بنى أيوب ، وذاع خبر مسيره فى القاهرة فاضطربت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وأنصار بنى أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاى للقاء المهاجمين ، ثم تبعه الملك المعز فى بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة رجحت فيها كفة الشاميين أولا ، ولكن المماليك صمدوا ودارت الدائرة فى النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ووقع عدة من أمراء بنى أيوب فى الأسر ، وكان ذلك فى أوائل ذى القعدة سنة ٦٤٨ ﻫ .

فعاد الملك الناصر منهزماً بفلوله إلى دمشق واعتصم بها ، واستقر الملك المعز فى ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه واستقرت الأمور نوعاً ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوى الملك الناصر فى سنة ٦٥١ ﻫ ، على أن يستقل المعز بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقى من أراضى المملكة المصرية والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر وباقى الأمراء الأيوبية المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعاً بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة اضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجاً فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلاً حصيف الرأى والخلال ، طاغية ظلوماً فى نفس الوقت ؛ ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك ويصدع بأمرها ووحيها . وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه ، وتحمى عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش فى توجس دائم من دسائس زعماء البحرية السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه ؛ وكان الخطر ماثلا فى الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء وفى مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى يتربصون به ويتحدّونه بلا انقطاع . وكان فارس الدين أقطاى يتزعم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئه كلما سنحت الفرص ، وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها فى موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج ، وحدث أن خطب فارس الدين أقطاى ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها فى القلعة فى جناح من القصر الملكى لأنها من سلالة ملوكية ، فخشى المعز عاقبة هذا الطلب وتظاهر بالموافقة عليه ؛ ولكنه اعتزم فى الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطر ؛ وبينما كانت العروس فى طريقها إلى مصر فى موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاى ذات يوم إلى القلعة وأعد له فى نفس الوقت كميناً لقتله ؛ وجاء أقطاى إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتلة وفى مقدمتهم المملوك قطز الذى تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فركنوا إلى الفرار وسار بعضهم إلى الشام ، وقصد بعضهم إلى قيصر الروم وتفرق بذلك جمعهم وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذى أراد أن يتدرع بتوليته فى وجه بنى أيوب ، وأنزله من القلعة ورده إلى منزله السابق بين أهله واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم .

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم . بيد أن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

— ٩ —

كانت شجرة الدر خلال ذلك هى الروح المسيطرة على كل شىء فى البلاط والدولة ؛ وكان الملك المعز يعانى من هذا الطغيان الأدبى المرهق ولا يرى سبيل الخلاص منه ؛ وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر ، تجيش بكل ما تجيش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما[1] ، بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة فى نظر الملك المعز جحيما لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر فى ازدياد ، ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر فى أن يضع لها حداً واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن ، ولعله لم يكن فى الوقت نفسه بعيداً عن التفكير فى التخلص من شجرة الدر ، والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية فى هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجم أخبره أنه سيموت قتيلا على يد امرأة فلم يشك فى أنها هى شجرة الدر وفكر فى أن يكون البادئ بالعمل ، ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه ؛ وحدث حادث ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم فى « الجب » وعلى رأسهم أيدكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيدكين احتراماً وصاح بالتركية : « والله ياخوند ما عملنا

(١) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه « قد سمعت كلامك » . ولما زج أيدكين وزملاوءه إلى الجب قال لهم « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر ، أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص منها ، وأرسلت شجرة الدر سراً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز ، وتعده بالزواج منه وتمليكه عرش مصر ، فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ، فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يتربص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب ، وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغة فى الاطمئنان وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والإخلاص ؛ فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صبابة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ما كان يخالجه من ريب فى نياتها الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأساً أن يستجيب إلى دعوة زوجه المغرية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول

سنة ٦٥٥ هـ [١] وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة مع بعض خاصته ، وما غربت الشمس حتى غادر المعز فى ركبه ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة وغمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم إلى حفاوتها الغادرة ولم يتخذ لنفسه أى تحوط ، وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزى ومحسن الجوهرى ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة ؛ فاستراح المعز قليلا ، ثم قصد إلى الحمام ليلا ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة . فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه فى نفس الوقت حتى زهق . وفى رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه ؛ وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقــذه ، وأن شجرة الدر تأثرت لتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه. فصاح بها محسن الجوهرى مغضباً : « إذا تركناه فإنه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجه الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين ، وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ أبريل سنة ١٢٥٧ م) .

وبادرت شجرة الدر فى الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة فأرسلت ليلا إلى القاضى ابن مروزق واستشارته فى الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز ، فاعتذر ولم يبد رأياً ، وأرسلت فى نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيبك الحلبى وجمال الدين العزيزى فلم يرتضها أحد

---

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم — وهو اليوم الذى قتل فى مسائه الملك المعز — كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (السلوك ج ١ (٢) ٤٠٣) . ويقول لنا صاحب النجوم الزاهرة إن ذلك اليوم كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول (ج ٦ ص ٣٧٥) ، وقد رأينا بعد مقارنة التاريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

منهم رهبة وروعا ؛ وهكذا أخفقت شجرة الدر فى محاولتها أن تقيم على وجه السرعة فى السلطنة أميراً تستتر وراءه فى الحكم . وأذيع فى صباح اليوم التالى أن الملك المعز مات بالليل فجأة ، فحدث أيما هرج واضطراب ، ولم يصدق معظم الناس هذا النبأ ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب ، وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفى مقدم الحلقة ، وحاصروا القصر وقبضوا على الخدم والحريم ، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع . وفى الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفائزى[1] ، ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور علىّ ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صبياً فى نحو الخامسة عشرة ، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة ، وفشلت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش .

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر ، وكانت قد امتنعت بجناحها فى القلعة مع نفر من خدمها وجواريها ، وحاولوا اقتحام الدار ، فمنعهم الأمراء الصالحية ، وكادت تقع بين الفريقين فتنة ، لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكى واعتقلت مع بعض جواريها فى البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ ، وكان يقع فى الناحية الجنوبية منها ، وقبض على الخدم الذين اشتركوا فى الجريمة وفى مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة ، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزى الذى استطاع الفرار إلى الشام ، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشية ، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين بن حِنّا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك فى الجريمة ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل ؛ وأما شرف الدين الفائزى فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك الجديد أياماً ، ثم قتل فى سجنه بعد ذلك بقليل ؛ وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطانى ووضعوا أيديهم على جميع ما فيه ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت فى القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

---

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى ، وكان قبطياً فأسلم وتقدم فى وظائف الدولة حتى ولى رياسة الوزارة للملك المعز ، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل ، ثم قبض عليه وتوفى قتيلا فى جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ .

ولبثت شجرة الدر فى معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهى تعانى أمرّ ضروب التوجس والروع ، وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم ، وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت فى أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم فى العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود ؛ وكان الملك الفتى (المنصور) وأمه يضطرمان ظمأ للانتقام من الزوج القاتلة ؛ وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قلائل حتى خفتت معارضتهم وانحنوا أمام العاصفة . وفى يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثانى[1] نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكى تتولى عقابها بنفسها ؛ وهنا يقول لنا المقريزى : « فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت فى الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها . ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت وحملت فى قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى . . . »[2] .
وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها

---

(١) تختلف الروايات المصرية فى تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت فى تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقريزى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعنى بعد مقتل المعز بثلاث أيام وذلك وفقاً لروايته (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٤) . ويقول لنا صاحب النجوم الزاهرة نقلا عن غير رواية إن مقتل شجرة الدر كان فى يوم السبت ١١ ربيع الثانى وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا إنها قتلت فى يوم ١٦ ربيع الثانى ويقول ابن إياس إنها قتلت يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الثانى (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن بالرواية الثانية لأنها أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث .

(٢) دفنت شجرة الدر فى التربة التى أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة فى سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) . وما تزال هذه التربة قائمة إلى اليوم . وهى توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة وتعرف اليوم باسم =

أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة ، وحطمتها وسحقتها فى الهاون حتى لا تقع فى أيدى أعدائها[١] .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التى لبثت أعواماً طويلة زينة البلاط المصرى وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذى زهق به زوجها الملك المعز ؛ وكان القصاص مثيراً ، ولكن عادلا ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحى ؛ بدأت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة .

كانت شجرة الدر بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة شخصية عظيمة ، تمتاز بخلال ومواهب غير عادية ، وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامرأة وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع فى حسناء وافرة السحر ، فقد كانت قوية النفس ، صارمة العزم ، وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش فى جو من المهابة والجلال ؛ ولم تكن فقط جارية القصر الأثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ، ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها ؛ وقد لبثت مذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر ، زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية فى البلاط وفى الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ ، ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى ، إلا عنوان الذروة فى هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثبت جنانها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر ، أعظم الأثر فى إنقاذ مصر من كارثة

= جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة ، وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب فى جنباتها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عن الستر الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والدة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه ؛ التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شموس المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لها مطيعة وسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل فى الملأ الأعلى خدامها . ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام ، بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الإسلامية فى العصر الأيوبى للمرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب ، ونشر بمجلة العمارة عددى ٧ — ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج (٢) ص ٤٠٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

مروعة ، وتحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها ، وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدئ ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر ، تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة ، فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة تعشق أعمال البر وتوقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسية .

* * *

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلح من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش ؛ ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ، ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها ؛ وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها ، تواجه فترة من أدق فترات تاريخها ، وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو المشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً ، وبلغ الخطر المروع ذروته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية ، وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) ؛ وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق ؛ وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ؛ وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو المشرق ، ولم يك ثمة شك فى النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء . ففى تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قُطُز أقوى الزعماء البحرية فى

ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملكة ، وكان يرقب سير الحوادث فى الشرق بجزع ، ويرى أن وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ، فانتهز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملكاً (٢٤ ذو القعدة سنة ٦٥٧ هـ) وأعلن إلى زملائه الأمراء فى صراحة أنه لا يبغى الملك لذاته ، ولكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ، فإذا تم القضاء على هذا الخطر ، فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب ، وأعلنت دمشق خضوعها لهم ، ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنبات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل ، وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة فى حشد الجند وإتمام الأهبة ، فلما وصل رسل هلاكو ، أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رؤوسهم على باب زَويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين وبادر بلقاء الغزاة فى عزم وثقة ؛ وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم فى معركة عظيمة حاسمة فى عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) ؛ وفى عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام ؛ ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المظفر « قُطُز » أن يستخلص الشام من التتار وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين ، وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار كما كان لها من قبل فضل القضاء على سيل الغزوات الصليبية ، وكانت فى عين جالوت تقوم برسالتها التاريخية فى حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

تيمورلنك

(٧٣٧ — ٨٠٧ هـ) ، (١٣٣٦ — ١٤٠٥ م)

كانت سهول التركستان الوعرة منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى مبعثاً لطائفة من أكابر الغزاة البدائيين ؛ وكانت غزواتهم المخربة تنساب دائماً نحو الجنوب والغرب ، وكانت مناطق شمالى الهند وفارس تجذبهم دائماً بحضارتها وموا ردها التالدة ؛ وكانت فارس بالأخص مركز اندفاعهم نحو الغرب . ففى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى خرج تموچين الشهير بچنكيزخان من أقاصى مملكته الشاسعة فى أواسط الصين على رأس جيش من المغول والتتار ، واجتاح بلاد التركستان (ما وراء النهر) ثم انحدر هذا السيل المروع إلى خراسان والهند وخرب مدنها الزاهرة (١٢١٩ م) وانساب التتار بعد ذلك خلال فارس حتى العراق ، ولكن السيل كان قد هدأت حدته ، وارتد الغزاة أمام جند الخلافة ؛ وعاد چنكيزخان إلى مملكته بعد أن جعل من أواسط آسيا قفراً بلقعاً .

ولم تخب فورة الغزو المخرب بوفاة چنكيزخان ؛ ولكنها تجددت بعد قليل على يد هلاكو عاهل التتار فى فارس . وكان اندفاع التتار يومئذ نحو الغرب أو بعبارة أخرى نحو الممالك الإسلامية قوياً مروعاً . ففى أوائل سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) زحف هلاكو على رأس جموعه التتار إلى بغداد وحطموا كل مقاومة ، ودخلوها دخول الضوارى المفترسة ، ودمروا صروحها ونهبوا خزائنها وذخائرها ، وقتلوا عشرات الألوف من أهلها ، وقضوا على الخلافة العباسية وعلى معالم الحضارة الإسلامية فى مناظر هائلة من السفك والتدمير ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته ، وانتهت بذلك حياة الدولة العباسية بعد أن عاشت نحو خمسة قرون .

ثم تابعت جموع التتار بعد ذلك زحفها نحو الغرب ، وجازت الفرات واجتازت بلاد الجزيرة ، ثم اتجهت نحو الشام واستولت على حلب ودمشق ، وانسابت بعد ذلك نحو الجنوب تريد غزو مصر ؛ ولكن شاء القدر أن يكون تحطيم هذا السيل المدمر على يد مصر . ففى رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر ١٢٦٠ م)

التقت الجيوش المصرية بالغزاة فى عين جالوت على مقربة من بيسان ، ومزقتهم بعد موقعة دامية ، وارتد التتار على إثر هزيمتهم نحو الشرق ، واستطاعت مصر أن تؤدى بذلك رسالتها التاريخية فى حماية تراث الإسلام والمدنية الإسلامية مرة أخرى .

ومضى زهاء قرن آخر قبل أن يتجدد خطر الغزو التترى . ولكنه عاد منذ منتصف القرن الرابع عشر يضطرم مرة أخرى وفى نفس مهده القديم أعنى سهول التركستان . ففى تلك الآونة ظهر فى الميدان قائد فتى قدر له فيما بعد أن يحتل مكانه بين أعظم غزاة التاريخ . ذلك هو تيمور أو تيمورلنك . وكان مولد هذا الفاتح العظيم فى سنة ١٣٣٦ م (٧٣٧ هـ) فى بلدة كش على مقربة من سمرقند ، وأبوه تراجاى زعيم قبيلة برلاص إحدى قبائل التتار القوية . وكان قد اعتنق الإسلام واعتنقه أبناء قبيلته ؛ وهكذا نشأ ولده تيمور مسلماً . وتعلم تيمور الفروسة منذ صباه ومهر فيها ؛ بيد أنه كان يعانى من عاهة أصيب بها وهو فتى ، وهى عرج فى إحدى ساقيه ترتب على إصابته فى بعض مغامراته من سهم رمى به ، ومن ثم كانت تسميته بتيمورلنك (أو تيموز الأعرج) . وظهر تيمور فى ميدان الحرب منذ سنة ١٣٥٨ م حيث أرسله « كورجان » صاحب چاكاتاى على رأس جيش من الفرسان ليغزو خراسان . ولما قتل كورجان وثب إلى الملك تغلق تيمور صاحب كشغر وهو من ولد جنكيزخان ، واختار تيموراً لحكم بلاد ما وراء النهر ، وغدا تيمور فى الوقت نفسه عقب وفاة أبيه زعيماً لقبيلة برلاص وقوى أمره وتألق طالعه . ولما توفى تغلق تيمور حل تيمورلنك فى الحكم مكانه ؛ وثارت بينه وبين صهره ومنافسه مدى حين معركة شديدة على الحكم فهزمه وقتله ، واستولى على بلخ وتربع أخيراً على عرش سمرقند ، وبسط سلطانه على المملكة كلها (سنة ١٣٦٩ م) .

ومن ذلك التاريخ يبدأ تيمور حياة الغزو الباهر ، وتسير غزواته فى نفس الاتجاهات التاريخية التى سلكها أسلافه الغزاة التتار من قبل . وقد بلغت غزواته زهاء خمس وثلاثين غزوة استطاع خلالها أن يثخن فى الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، وأن يفتتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى . وكانت فارس وهى دائماً مجاز التتار إلى الغرب فى مقدمة فتوحه ، وكانت حينما

غزاها قد انحدرت إلى غمر الفوضى وانقسمت إلى ممالك وإمارات عدة ، فاجتاحها تيمور بسرعة ، وقضى على أعظم أمرائها الشاه منصور فى موقعة شيراز ، وتابع زحفه حتى الخليج الفارسى ؛ ثم غزا بغداد والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وغزا خوارزم فقاومه ملكها تقطامش مدى حين وخاض معه عدة معارك انتهت بهزيمته وسقوط مملكته فى يد الفاتح (سنة ١٣٩٥ م) .

وفى سنة ١٣٩٨ غزا تيمور الهند . وكان يومئذ قد جاوز الستين ولكنه كان يضطرم أبداً بشغف الفتح ، فاجتاحها بسرعة وأثخن فى بسائطها وخرب قواعدها واستولى على دهلى حاضرتها ؛ وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى . وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٣٩٩ خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة واخترق فارس ، ثم اتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ، وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بنى عثمان الذين بزغ نجمهم فى هاتيك الأقطار قبل ذلك بنحو مائة عام ، وكانوا يغيرون على تلك المنطقة من آن لآخر ، وكانت أملاك تيمور وبنى عثمان تلتقى هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس ، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل ، واستولى عليها ، وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها ، فلم يستطع شيئاً ، واخترق تيمور بلاد الأناضول وانحدر بجيشه جنوباً نحو الشام وهى يومئذ ولاية مصرية يقصد افتتاحها ، ثم يفتتح مصر ، وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامى كله ، ويحقق المشروع الذى عجز التتار عن تحقيقه منذ مائة وأربعين عاماً عند ما هزموا على يد مصر فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ م .

وفى أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) اجتاح تيمور شمالى الشام دون مقاومة واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول) ، ثم اخترق الشام جنوباً إلى دمشق ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ، فوصل إلى دمشق فى جمادى الأولى وفى ركابه جمع من العلماء على رأسهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون نزيل مصر يومئذ . واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافاً حدث فى معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ،

ونمى إلى السلطان أن مؤامرة دبرت لخلعه فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعاً فى صحبه إلى القاهرة . وعندئذ رأى جماعة العلماء والفقهاء أن يحاولوا إنقاذ المدينة بطلب الصلح والأمان من الفاتح ، وتولى ابن خلدون لقاء تيمور ومفاوضته بالنيابة عنهم ؛ ويصف لنا المؤرخ ذلك اللقاء الشهير فى « تعريفه » وصفاً شائقاً ويورد لنا ما وقع بينه وبين الفاتح من الأحاديث[1] . ووافق تيمور على تسلم دمشق ومنحها الأمان ، وندب ولده شاه ملك لاستلام المدينة وحكمها ، ولكنها لم تنج مع ذلك من عيثه وسفكه ، فقد اقتحم جنده المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والتخريب والنهب مدى حين .

بيد أنه كان من حسن الطالع أن مُكث تيمور بالشام لم يطل . ذلك أنه لم تمض سوى شهرين حتى وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد سلطان الترك وحركاته ، فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالا إلى بلاد الكرج ، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم » وهو الإسم الذى كان يطلق يومئذ على مملكة الترك العثمانيين .

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الحاسمة التى تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر . فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخر بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ، ويحذره من سطوته وبطشه ، ويتحداه فى عبارات جافة مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التى تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر من تيمور وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على وسائله فى الحرب والسياسة ، ويرميه بالعدوان والغدر ، ويرمى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ، وينوه بقوته ومقدرته جنده وعظم استعداده للحرب والطعان ، على أن ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذى اختتم به بايزيد

(١) راجع كتابى ابن خلدون الطبعة الثالثة ص ٨٧ — ٩٤ . وراجع « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » ، وهى الترجمة التى كتبها ابن خلدون لنفسه (القاهرة ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١) ص ٣٦٦ — ٣٨٠ ، وكذلك راجع وصف ابن عربشاه لهذا اللقاء الشهير بين المؤرخ والفاتح فى كتاب عجائب المقدور ص ١٠٢ .

رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثاً ، وإن قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثاً » ؛ ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور(١) عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ، ثارت نفسه غضباً « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحليلاته .

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه الآخر ، فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ونفذ إلى مملكة « الروم » واستولى فى طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهرهاليس وطوق مدينة أنقرة ، التى شاء القدر أن تغدو فى عصرنا مهداً لبعث تركيا الجديدة . وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاها تيمور فى الشام أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهى أرقام هائلة فى تلك العصور ، وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ويمتاز بالأخص بفرق الانكشارية الجريئة ، ولكن جيش التتار فضلا عن تفوقه العددى ، كان منفوتاً فى روحه المعنوى . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول ، قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ(٢) (أواخر يوليه سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ، ولكن سرعان ما دب الوهن إلى قواته وانسحب بعضها من الميدان بإغراء تيمور ووعوده ، وعندئذ حاقت النكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ، وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب بورصة (بروصة) عاصمة المملكة ، وطارد الغزاة العدو المنهزم

(١) فى كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور .

(٢) عجائب المقدور (مصر سنة ١٣٠٠ هـ) ص ١٣٩ .

واستولوا على كوتاهية ، ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بورصة فاستولى عليها وعاث فيها ، ونهب القصور الملكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطىء الأوربى حاملا ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه ، وسُحق ملك بنى عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين .

وهنا تعرض للجدل صفحة غريبة فى تلك المأساة الشهيرة . فإن ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا ، إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس[1] ، وهى رواية عربية تؤيدها كثير من الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة . ومما يجدر ذكره أن ابن عربشاه مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط ، واستقى مادته فى سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن ، وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد حيث قضى فى خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الإنشاء ، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التى تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ، وإذن فليس فيما يبدو فى روايته عن القفص الحديدى الذى سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب .

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسى معاصر هو شرف الدين على الذى كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً ، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان إبراهيم ، وخلاصة هذه الرواية هى أن تيموراً حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه فى لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعده بصون حياته وشرفه ، فتأثر بايزيد لكرم خصمه ، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته ، وعانق ولده موسى الذى أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ، وأُنزل السلطان وباقى الأمراء منزلا حسناً . ولما وصلت زوج السلطان وهى الملكة دسبنا اليونانية وابنتها وباقى

---

(١) عجائب المقدور (مصر) ص ١٣٩ . ويشير ابن عربشاه هنا إلى أسطورة تاريخية مشهورة ينسب وقوعها إلى عصر الإمبراطور جاليريوس ڤاليريوس الرومانى . وذلك أنه حارب الفرس فى جبال أرمينية سنة ٢٩٧ م وانتصر عليهم وأسر قائدهم وهو ملك أو أمير يدعى سابور ، فيقال إنه وضع أسيره فى جلد بقرة ، ويقال أيضاً إنه وضعه فى قفص من الحديد . وتنسب بعض الروايات هذه الواقعة إلى الإمبراطور مكسميان . وتروى هذه القصة على سبيل الأسطورة . وليس لها ما يؤيدها فى التاريخ .

حريم السلطان ، حملن إليه مكرمات معززات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التى أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ، وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ؛ ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفى ، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم ، فى المدفن الذى أقامه لنفسه فى بورصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول .

على أن هذه الرواية لا ترجح فى نظرنا رواية ابن عربشاه ، فهى على ما يلوح رواية قصر أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين فيقول لنا : إن رواية شرف الدين فى شقها الأول صحيحة لا ريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة ، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره فى ركبه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيموراً على التشدد فى معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد اقتداء بما قرأه فى بعض السير القديمة ، من أن سابوراً أحد ملوك الفرس وقع فى قبضة قيصر فسجنه فى قفص من الحديد[1] ؛ ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب فى التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عينى مليكهن ، وقد كان ذلك من تيمور مبالغة فى الانتقام من خصمه ، والتشفى منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء فى مكاتبته[2] . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها فى الملك الأسير ، فلم تمض على محنته بضعة أشهر حتى توفى فى غمر الحسرات والأسى ، وكانت وفاته فى مارس سنة ١٤٠٣ م (٨٠٦ هـ) .

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وآخر انتصاراته ، فلم يمض قليل على عوده فى جيشه المظفر إلى مملكته حتى أدركه المرض ، وكان يتأهب لغزو الصين فلم يستطع تحقيق مشروعه ، وتوفى بالحمى وهو معسكر بجيشه على ضفاف سيحون فى بلدة أوترار فى ١٧ فبراير سنة ١٤٠٥ م (شعبان ٨٠٧ هـ) ، وقد

---

(١) جيبون Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون .

(٢) عجائب المقدور ص ١٣٣ .

أربى على السبعين من عمره ، فحنط جثمانه بالمسك وماء الورد ، ولف فى لفائف من الكتان ، ووضع فى تابوت من الأبنوس ، وحمل إلى سمرقند حيث دفن فى مدفنه الذى ما يزال قائماً حتى يومنا .

ويقدم إلينا ابن عربشاه بأسلوبه البليغ المسجع عن تيمور صورة قوية ولكن قاتمة ، ويحمل عليه فى كثير من المواطن ، ويصف لنا ما أنزله الفاتح بمختلف الشعوب والأمم ، من رائع الويل والسفك ، فى قصيدة طويلة يقول فيها :

ناهيك منهم فتنة … كالأبحر الظلما تمور
الأعرج الدجال من … قصم الجماجم والظهور
داخ البلاد ودارها … نوائب الدنيا تدور
أملى له الله الحليم … فزاد عدواً فى فجور
فاجتاح كل الخلق من … عرب ومن عجم القطور
ومحا الصدى ودعا الردى … بحسامه الباغى يمور
أفنى الملوك وكل ذى … شرف وذى علم وقور
وسعى إلى إطفاء نو … ر الله والدين الطهور
فأباح إهراق الدماء … من كل صبار شكور
وأحل سبى المحصـ … ـنات المؤمنات من الخدور
طوراً يرى نكث العهو … د وتارة نقض النذور
أبقت عليه فعاله … لعناً على مر العصور

ومع ذلك فلسنا نجد أبلغ من قلم ابن عربشاه نفسه ، فى وصف شخصية تيمور وخلاله ؛ فهو يفرد فى خاتمة كتابه فصلا لذكر « صفات تيمور البديعة » يصف لنا فيه شخص الفاتح ، ويشيد بمواهبه الخارقة فى هذه العبارات الشعرية : « وكان تيمور طويل النجاد ، رفيع العماد ، ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، عجيب التكوين ، أبيض اللون مشرباً بالحمرة غير مشوب بسمرة ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، أشل أعرج اليمناوين ، عيناه كشمعتين غير زهراوين ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت ، قد ناهز الثمانين . كأنه صخرة صماء ، لا يحب المزاح والكذب ، ولا يستميله اللهو واللعب ، يعجبه الصدق ولو كان فيه ما يسوؤه ، لا يجرى فى

مجلسه شيء من الكلام الفاحش ولا سفك دم ، ولا من سبي ونهب وغارة وهتك حرم . مقداماً شجاعاً يحب الشجعان والأبطال ، ذا أفكار مصيبة وفراسات عجيبة ، وسعد فائق وجد موافق ، وعزم بالثبات ناطق ، ولدى الخطوب صادق ، محجاجاً درّاكاً للمحة وللمزة ، مرتاضاً مستيقظاً لرمزه ، يفرق بين المحق والمبطل بفراسته ، ويدرك الناصح والغاش بدربة درايته ، ويكاد يهدى بأفكاره النجم الثاقب ، ويستتبع بآراء فراسته ، فريد الطور بعيد الغور ، لا يدرك لبحر تفكيره قعر ، ولا يسلك فى طور تدبيره سهل ولا وعر » . ثم يعمد المؤرخ بعد ذلك إلى تحليل نفسية الفاتح وبوادر عظمته وفخاره ، وإلى إحصاء مآثره بلهجة المؤرخ الصادق الذى لم تفقده عواطفه الشخصية ميزة الناقد الحق[1] .

ويعتبر تيمورلنك من أعظم فاتحى التاريخ ، وقد بسط حكمه على عدة ممالك وأقطار مترامية الأطراف ، تمتد من تركستان إلى الأناضول والشام غرباً ، ومن أواسط آسيا إلى نهر الكنج والخليج الفارسى جنوباً ، ووصلت فتوحاته إلى نهر الفولجا وشواطئ البوسفور . بيد أن وفاته كانت نذيراً بانحلال هذا الصرح الشامخ ، الذى شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه .

---

(١) راجع هذا الفصل فى عجائب المقدور ص ٢٠٩ وما بعدها .

الكتاب الثاني

تراجم أندلسيّة

– ١ –

من أبطال الحرب والسّياسة

موسى بن نصــــير

(١٩ ـ ٩٧ هـ) ، (٦٤٠ ـ ٧١٥ م)

كان فتح العرب لمصر فى سنة عشرين من الهجرة فاتحة اندفاع الغزوات الإسلامية نحو الغرب ؛ وبالرغم من صعوبة الفتوحات الغربية ، ووعورة الصحارى والهضاب التى جازها الغزاة ، وعنف المقاومة التى لقوها ، فإنه لم يمض زهاء نصف قرن آخر حتى شملت الغزوات الإسلامية شمال إفريقية بأسره ؛ ولم تأت أواخر القرن الأول للهجرة حتى كانت فتوح الخلافة تمتد من مصر غرباً إلى المحيط الأطلنطى . وتمت هذه الفتوح العظيمة وتوطدت ، على يد نخبة من أكابر القادة الذين تعاقبوا فى حكم إفريقية مثل عقبة بن نافع الفهرى ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن ثابت الغسانى ، وموسى بن نصير اللخمى .

وكان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . وكان أول فاتح مسلم قدر أن يجوز الإسلام على يديه إلى القارة الأوربية . ومع أن الرواية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأن كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول . على أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين لصحابة الرسول ، وأنه ولد فى سنة ١٩هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر ، فى قرية من قرى الجزيرة أو بوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر ابن وائل ، وإن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم وإن أباه نصيراً كان على حرس معاوية ابن أبى سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه . وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب العسكرية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وقاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة ؛ وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند بمصر ، ندب موسى بن نصير

لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر فى خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة ، فلما ولى الحجاج حكم العراق فى سنة ٧٥ هـ ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج ، سوى تدخل عبد العزيز بن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به ؛ ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية(١) .

وتختلف الرواية فى تاريخ تولية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت فى سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ فى عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت فى سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد . ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث فى إفريقية ، ولأن معظم الروايات مجمعة على أن حسان بن النعمان والى إفريقية قبل موسى بن نصير لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك . وقد توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز ابن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥هـ ، وندب عبد الملك ولده عبد الله أميراً على مصر فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل ، وعزل عبد الله حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى ابن نصير . وكانت إفريقية تابعة يومئذ لمصر فى شئون الحكم والإدارة ، وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان فى سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لايزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت ، فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة

(١) وردت هذه التفاصيل فى كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والوثائق والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية . (راجع الكتاب المشار إليه ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) .

وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، فافتتحها وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى وطهرها من العصاة والمتآمرين ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسالمين ، واهتم بنشر الإسلام بين القبائل ، فذاع بينهم ذيوعاً كبيراً .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية ، ويئسوا من إنقاذ إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها . فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولا لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ولده عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى ، وافتتح منها ميورقة ومنورقة . وسارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال إفريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ويحكمها أمير من القوط يدعى الكونت يوليان . وكانت قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ؛ وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . بيد أن مشاريعه فى الفتح لم تكن لتقف عند سبتة ، بل كانت تجاوزها إلى ما وراء البحر من الممالك والأمم المجهولة .

— ٢ —

كانت مملكة القوط فى الضفة الأخرى من المضيق قد هرمت وأصابها الوهن ؛ وكانت وقت أن اقترب العرب من شواطئها فريسة الاضطراب والفوضى تمزقها الخلافات الداخلية ، ويقتتل حول عرشها الزعماء المتنافسون . وكان على عرش القوط يومئذ ملك شديد البأس والعزم هو رُذَريك أو لذريق حسبما تسميه الرواية العربية ، ولكنه كان يواجه خطر الانتقاض المستمر ؛ ولم يكن ملكاً شرعياً ولكنه استطاع أن ينتزع العرش من صاحبه الشرعى الملك وتيزا (أو غيطشة) عقب ثورة دبرها بمؤازرة رجال الدين والأشراف الناقمين . ومع أنه استطاع أن يوطد سلطانه مدى حين فإن الخطر لبث مع ذلك محدقاً بعرشه وملكه ، وكان

اقتراب العرب من شواطئ الجزيرة يحفز خصومه إلى التماس الوسيلة لإسقاطه وسحقه . وكان الكونت يوليان من أنصار الحكم القديم ومن خصوم الحكم الجديد، يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه ؛ وكان غنياً شديد البأس وافر الأتباع والجند ، بعيداً عن سلطة العرش ، يقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق ؛ فتفاهم معه أبناء الملك السابق وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ؛ واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت . وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين الكونت يوليان وبين موسى بن نصير ، وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلا آخر ، فتقول إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تدعى فلورندا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ؛ فاستهوى جمالها الفتان قلب رذريك ، فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام من رذريك ونزعه ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين رذريك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسة التى ذكرناها[1] . ولكن الرواية النصرانية تتردد فى قبولها ، وتنفيها الرواية الإسبانية وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغانى والقصص القديمة ، بل يذهب بعض مؤرخى إسبانيا إلى إنكار شخصية الكونت يوليان نفسه ، ويعتبرها شخصية خيالية . وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول

(١) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (رواية نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) وابن القوطية (افتتاح الأندلس ص ٨) وصاحب « أخبار مجموعة » (ص ٥) وكذلك ابن الأثير وابن خلدون . . إلخ . ولكن ينكرها ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا . ويذهب بعضهم مثل مونتخار إلى إنكار شخصية الكونت يوليان ذاته ، وإلى أن القصة إنما هى اختراع عربى صاغته الأساطير والأناشيد المعاصرة ، ولكن يأخذ بالقصة ويؤمن بها بعض المستشرقين ولا سيما العلامة دوزى راجع :
Histoire des Musulmans d'Espagne (1932) V.I. p 271

تحدوه بواعث لا تخفى ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهى خيانة أدت إلى أن افتتح العرب اسبانيا ، وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لانجد فى القصة ما يحمل على إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع ، فليس ثمة ما يدعو إليه ، وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة ذللت لهم سبل الفتح ، ولعلهم بدونها ما أقدموا عليه أو تعرضوا للفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية الإسلامية فى ذكر قصة فلورندا والأخذ بها .

وعلى أى حال فقد اتصل الكونت يوليان بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح اسبانيا ووقعت المفاوضة بينهما فى ذلك المشروع الخطير . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بهذه الدعوة أن يفتتح العرب اسبانيا لأنفسهم ، وأن يستأثروا بملكها ، بل كان مشروعهم على الأرجح أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب ، وإسقاطه واستخلاص الملك لأنفسهم . والظاهر أيضاً أن موسى وعدهم من جانبه بأنه لا يقصد سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة وراء البحر ، وهذا تصوير للمشروع يؤيده منطق الحوادث وتشير إليه الرواية العربية[1] . وكان موسى قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية هذا الفتح وجليل مغانمه ومزاياه ؛ فلما وقف من يوليان وحلفائه على ما تعانيه إسبانيا من أسباب التفرق والضعف ، وأيقن أنه يستطيع الاعتماد على عون يوليان وحلفائه ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ويستأذنه فى الفتح ؛ فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر . ومع أن المسلمين كانوا قد تمرسوا فى أهوال البحر واختبروا هذه المياه بالحملات والفتوح الناجحة ، فإن موسى

(١) راجع « أخبار مجموعة » (ص ٨) والمقرى فى نفح الطيب (ج ١ ص ١٢٠) وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) وراجع أيضاً Dozy; Ibid; V. I. p. 271; Gibbon: Roman Empire, Chap L I.

لم يسعه إلا النزول على نصح الخليفة . فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء ، بإرشاد يوليان ، وأصابت كثيراً من الغنائم ، واستقبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من مظاهر خصب الجزيرة وغناها ؛ ثم عادت سالمة ، وسر موسى بنتائج الحملة واستبشر بالفوز وجد فى أهبة الفتح .

وفى شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى حاكم طنجة . وقد اختلف فى أصل فاتح الأندلس ونسبته ، فقيل هو فارسى من همذان وإنه كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه ينتمى إلى بطن من بطون البربر وهو الأرجح(١) . وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى خلاله ومواهبه ، فاختاره لحكم طنجة وما حولها وهى يومئذ أخطر مناطق المغرب وأشدها اضطراماً ؛ ثم اختاره لفتح الأندلس . وعبر طارق البحر بجيشه فى سفن يوليان ونزل بالبقعة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ أبريل سنة ٧١١ م) واخترق الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، ثم زحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها ، بعد أن هزم جموعاً من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان رُذَريك أو لذريق يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فأسرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر الذى يهدد عرشه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته ، ولكن طارقاً هزمه وتابع سيره صوب عاصمة القوط .

وكان رذريك أميراً شجاعاً وافر العزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والخصومة . وكان حزب العرش القديم الذى يلتف حول أبناء الملك السابق وِتيزا (غيطشة) يتربص به ويعمل على

(١) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) ، ونزهة المشتاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ص ١٧٩)

إسقاطه ؛ وكانت ريح الخلاف والتفرق تعصف بالشعب القوطى كله . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد . واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم . واجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون إثنى عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان فى قوة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ووهاد صعبة ؛ ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم ، فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل شريش على مقربة من قادس شمالى مدينة شذونة أو شذونة (مدينا سيدونيا) على ضفاف نهر وادى لكه (الجوادليت)[1] ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليه سنة ٧١١ م) ؛ وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة لم تقع فيها بينهما سوى مصادمات بسيطة ؛ وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة ، واستمر القتال بينهما على أشده مدى أربعة أيام ؛ وكان الجيش القوطى بالرغم من ضخامته مفكك العرى منحل العزائم ؛ وكانت الخيانة تعصف بصفوفه وقيادته ؛ فلم يأت اليوم الرابع حتى كتب النصر للمسلمين وهزم القوط شر هزيمة ، ومزّقوا شرّ ممزق وغرق ملكهم ردريك فى النهر .

كانت شذونة موقعة الفصل ، وفيها دالت دولة القوط وغنم الإسلام ملك اسبانيا . وساد الرعب على القوط فاعتصموا بالحصون والجبال ، وتفرقوا فى السهل ، وذاعت أنباء النصر فى أنحاء العدوة ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالا صوب طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وسارت حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة وإلبيرة ومالقة ومرسية ، فافتتحت كلها تباعاً . وبعد أن استولى طارق على

---

(١) وترى بعض البحوث الحديثة أن لقاء العرب والقوط ، وقع جنوبى شذونة على ضفاف نهر بارباتى الصغير الذى يصب فى المحيط على مقربة من رأس « طرف الغار » .

طليطلة ، تابع زحفه شمالا واخترق قشتالة وليون حتى أسترقة ، ثم جبال أستورياس (أشتوريش)[١] واستمر فى سيره حتى أشرف على شواطئ بسكونيه[٢] . ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى إسبانيا .

— ٣ —

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح . فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومولاه . فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ؛ فكتب إليه ألا يتقدم حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذا توغل بغير إذنه[٣] . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يتجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[٤] . وهذا تعليل حسن يتفق مع ما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، فى سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة . ثم سار إلى قرمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه ؛ وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس ، فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين ؛ ولكنها انتهت

---

(١) **Asturias** (٢) **Viscaya** .

(٣) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) وابن القوطية (ص ٩) وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) وابن خلدون (٤ ص ١١٧) وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفح الطيب ١ ص ١٢٦) .

(٤) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله ، فأنبه موسى وبالغ فى إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ؛ وقيل بل همّ بقتله أيضاً . ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه(١) . ووضع الإثنان خطة مشتركة لافتتاح ما بقى من اسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا أراضى الثغر الأعلى (أراجون) ، وافتتحا سرقسطة وطركونة و برشلونه وغيرها من المدن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق غرباً ليغزو جلّيقية وليتمّ القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه(٢) ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا وكانت عند ئذ تابعة لملوك القوط ، واستولى على قرقشونة وأربونة(٣) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون حتى مدينة ليون(٤) . فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة ، ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة .

وهنا فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فيما يأتى : « وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »(٥). ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم . فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والبأس ؛ وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلّت ؛ وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها انحلال شامل ؛ وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرّق ؛ وقد بدأ العرب فعلا

(١) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨ و ٢١٠) وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) والمقرى (١ ص ١٢٧) وابن خلكان عن الحميدى (٢ ص ١٨١) . وذكر الطبرى أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل عذره (القسم الثانى ص ١٢٥٤ فى حوادث سنة ٩٣) .

(٢) فى الجغرافية العربية جبال البرت أو البرتات .

(٣) قرقشونة **Carcassone** ، وأربونة **Narbonne** .

(٤) يسمى الرون فى الجغرافية العربية بنهر رذونة . وتسمى ليون لوطون أو لوذون .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

بغزوها ؛ ولم يتح للنصرانية بعد أن توحّد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جبهة دفاعية موحدة ؛ ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة ؛ فكان الإسلام الظافر يستطيع غزوها وفتحها ؛ ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه . ولكن سياسة التردد والإحجام التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتى كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ؛ وبعث الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ، ويأمره بالعود . فارتدّ موسى مرغماً آسفاً ، ولكنه تمهل فى العود حتى يتم إخضاع معاقل جلّيقية التى اعتصمت بها فلول القوط ؛ فاخترق جليقية واستولى على معظم قلاعها ومعاقلها ومزق كل قوة تصدّت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ولجأت إلى قاصية جليقية . وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ويأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما بلغه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهى هذا الخلاف بتفرّق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك الأقطار الجديدة المجهولة التى افتتحوها ؛ أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه فى الاستقلال بذلك الملك الجديد النائى ؛ وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال التى جمعت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد . ومهما كانت البواعث التى دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام فى اسبانيا . ذلك أن هذه الجموع الضئيلة من القوط ، التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت وكانت منشأ المملكة النصرانية التى قامت فى الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام فى اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى ، قد افتتح المنطقة الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والاعتدال والتسامح .

واتخذ موسى أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة ، فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله وجعل حاضرتها إشبيلية لاتصالها بالبحر ، وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبد العزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، وعلى إفريقية ولده الأكبر عبد الله . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس سنة ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشراف السبى عدد عظيم(١) .

— ٤ —

وتختلف الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير وفى أمر لقائه بالخليفة . فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك وقدم إليه الأخماس والغنائم فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء أخيه سليمان ابن عبد الملك عرش الخلافة وإن سليمان غضب عليه ونكبه(٢) . على أنه يمكن الجمع بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ثم نكبته على يد سليمان . وهنالك ما يرجح لدينا أن موسى لحق بالوليد قبيل وفاته ؛ فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق ، وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام ، أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف(٣) . ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع فإنه كان ثمة من الوقت ما يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط

(١) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة ، وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً بينهم مئات من أشراف القوط ومن أجمل شبابهم ذكوراً وإناثاً (راجع ابن القوطية ص ١٠ . والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦) .

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) وابن خلكان (ج ٢ ص ١١٨) ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (٤ ص ٢١٤) وابن خلدون (٤ ص ١١٨) .

(٣) فتوح مصر ص ٢١١ .

على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولى العهد يومئذ أن يتمهل فى السير حتى يموت الوليد ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من جليل التحف والغنائم . فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حى ، فسلم إليه الأخماس والغنائم ؛ ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً سليمان على كرسى الخلافة ؛ فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى سخطه عليه ، ما قدمه فى حقه طارق ومغيث فاتح قرطبة من مختلف التهم[1] . وفى الحال أمر بعزله واتهمه وبنيه باختلاس أموال عظيمة وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ لديه ، فألح يزيد على سليمان حتى عفا عنه ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه[2] . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك فى سنة سبع وتسعين . بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى وأقاله من محنته ، وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين . وقيل فى سنة تسع وتسعين وهو فى نحو الثمانين من عمره[3] .

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ؛ وأبدت الخلافة بهذا التصرف أنها لم تقدر فى هذا الموطن للبطولة قدرها ؛ ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

---

(١) راجع أخبار مجموعة ص ٢٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ . ومغيث هو مولى الوليد بن عبد الملك ويعرف بمغيث الرومى وقد اشترك فى فتح الأندلس وافتتح قرطبة وغيرها .

(٢) ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ص ٢١٣ ، والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٠ .

(٣) يراجع فى مصير موسى بن نصير فتوح مصر (ص ٢١١) وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) وابن القوطية (ص ١٠ — ١١) وابن الأثير (٤ ص ٢١٦) ونفح الطيب (١ ص ١٣٤ و ١٣٥) وابن خلكان (٢ ص ١٨١) والإمامة والسياسة (٢ ص ٧٦ و ٨٩ و ٩٣ و ٩٦) .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة ، وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة . وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية غزير العلم والأدب ، متمكناً من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش وشهوة الحقد والحسد[1] .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن أخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية ؛ ومع أن سيل الفتح الإسلامى ردّ غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى اسبانيا قروناً يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

صـــقر قريش

(١١٣ – ١٧٢ هـ) ، (٧٣١ – ٧٨٧ م)

لعل التاريخ الإسلامى كله ، وفى سائر عصوره وأقطاره ، لا يقدم إلينا شخصية ، تضارع فى قوتها ، وثَبْت جنانها ، وروعة خلالها ، المثيرة المؤثرة معاً ، شخصية كشخصية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى ، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، وأصل هذه الشجرة الباسقة من الأمراء والخلفاء الذين أضفت عهودُهم ، وأعمالهم المجيدة ومنشآتهم العظيمة ، على الدولة العربية الإسلامية فى اسبانيا ، أثوابها الوضاءة ، وتراثها الحضارى الرفيع .

خرج عبد الرحمن بن معاوية من غِمار العدم ، بعد أن انهار ملك أسرته فجأة ، وتحطمت دولتهم بالمشرق ، وهى ما تزال فى إبان قوتها وعنفوانها ، تحت ضربات المتوثبين من بنى العباس ، وكان من الفروع القلائل التى شاء القدر أن تنجو من الشجرة ، التى اجتثّ الظافرون معظم فروعها ، فى مطاردة دموية شاملة ، يندر أن يقدم إلينا التاريخ الإسلامى لها مثيلا .

إن قصة فرار عبد الرحمن ذاتها ، من المشرق إلى المغرب ، بما يتخللها من الحوادث المؤسية ، والمغامرات المدهشة ، تثير منا كل إعجاب وعطف ، فقد كان يرى الموت والأسر ينذرانه فى كل خطوة ، وقد استطاع أن يجوز من الشام إلى المغرب الأقصى مخترقاً فلسطين ، ومصر وبرقة ، والمغرب الأوسط ، وأعين السلطات الحصيمة ، ساهرةٌ تطارد فلولَ الأمويين ، وتكاد تضع يدها عليه فى كل لحظة . ومما هو جدير بالذكر ، أنه حينما وصل إلى برقة ، استطاع أن يتنفس الصُّعَداء لأول مرة ، وأن يجد ملاذاً أميناً مؤقتاً عند أخواله بنى نفزة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وقد أقام لديهم طويلا يرقب الفرص . وفى خلال ذلك ، وصل إليه مولياه بدرٌ وسالم ، أرسلتهما إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر . والظاهر أن محاولته الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر ، فقد كانت إفريقية يومئذ مطمح الخوارج والمتغلبين ، ولكن عبد الرحمن ، لم يجد على ما يظهر أية

فرصة للعمل فى هذا السبيل ، وكان صاحب إفريقية يومئذ ، عبد الرحمن بن حبيب ، يخشى على سلطانه من ظهور فلول بنى أمية فى إفريقية ، فجد فى مطاردة اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم ، واعتقل آخرين ، وصادر أموالهم . ولما وقف من عيونه على ظهور عبد الرحمن حاول القبض عليه ؛ ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن يصل مع صحبه القلائل إلى المغرب الأقصى ، وأقام هنالك مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حُظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة ، وتجول حيناً فى تلك الأنحاء ، يدرس أحوال الأندلس ، ويتلقى أخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وكانت الأندلس تلوح يومئذ ، بما عُرف عنها من بسطة فى الرُّقعة ، وضخامة فى الثروات والمغانم ، درةً ترنو إليها أعين الطامعين والمتغلبين ، وكانت الأحوال فيها قد استقرت نوعاً ، بعد أن مرت بفترة عصيبة من الحروب والفتن الأهلية ، بين اليمنية والمضرية ، وتولى رياستها باتفاق الجماعة زعيم من المضرية هو يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ هـ . وكان المفروض أن ولاية هذا الزعيم لإمارة الأندلس ، إنما هى حل موقت لحالة طارئة ، حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة . ولكن الخلافة الأموية ، لقيت مصرعها بعد ذلك بثلاثة أعوام ، واستمر يوسف فى الرياسة ، ممثلا لزعامة المضرية ، وهو يعمل بحزم ومثابرة على إصلاح الشئون واستقرار النظام ، ويواجه ثورات الخوارج عليه ، ويحطمها تباعاً ، حتى لاح له مدى حين ، أن سلطانه قد توطد ، فى ذلك القطر العظيم النائى ، الذى رفعه القدر إلى رياسته ، ولكنه لم يقدِّر أن خطراً آخر ، سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره بالانهيار .

ذلك أن عبد الرحمن الأموى ، كان فى تلك الأثناء ، قد تلقى ، وهو فى الضفة الأخرى من البحر ، الكثير من أخبار الأندلس وأحوالها ، وما تعانيه من اضطراب وخلاف على الرياسة ، وثورات مستمرة ، وأدرك أن الظروف تلوح قوية لتأييد دعوته ، وظهور أمره . والحقيقة أن ظروف الأندلس يومئذ ، كانت كلها ، مما يفسح المجال لدعوة عبد الرحمن . فقد كانت الأندلس ما تزال من الناحية الشرعية ، قطراً من أقطار الخلافة الأموية ، ولم تكن رياسة يوسف

مُدَعَّمة بصلك شرعى ، وكان عبد الرحمن سليل الخلافة الأموية ، ومن ورثتها الشرعيين . وكانت الأمة الأندلسية الناشئة ، تتطلع إلى رياسة شرعية ، تلم شعثها ، وتقضى على أسباب الفتنة فيها .

ومن ثم فقد قرر عبد الرحمن أمره ، وفى أواخر سنة ١٣٦ ﻫ (٧٥٣ م) بعث بدراً مولاه إلى الأندلس ، ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية ، وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إلبيرة ، وكانت منزل جند الشام ، وفيها تجتمع عصبة بنى أمية . وكانت رياسة الأمويين والشاميين يومئذ إلى رجلين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد ، فاجتمع بدر بأبى عثمان ، وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبثّ دعوته ، فاستجاب أبو عثمان لندائه ، ونشط وزميله عبد الله إلى بث الدعوة فى إلبيرة ، وبعثا عمالهما فى أنحاء الأندلس ، يدعون إلى تأييد عبد الرحمن .

وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة ، جهزها أبو عثمان ، ومعه عدة من أنصاره الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته . فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المنكَّب الصغير ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٨ ﻫ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه فى طرّش ، وهى قرية حصينة تقع غربى المنكب ، على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ، ويدبر خططه .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس فى أثناء ذلك قد غادر سرقسطة بجيشه ، بعد أن قضى على الثورة فيها ، فلما اقترب من طليطلة ، وافاه رسول من قرطبة ، من قِبل ولده عبد الرحمن ، ينبئه بمقدم الفتى الأموى ، وانتشار دعوته فى جنوب الأندلس ، فذعر يوسف ، وذاع النبأ فى الجيش ، فسرى إليه الخلل ، وتسللت منه العناصر الناقمة ، فهرول يوسف فى بقية الجيش إلى طليطلة ، ليبحث مع حاكمها الصُّميل بن حاتم ، زميله فى زعامة المضرية ، خير الوسائل لرد هذا الخطر الجديد . وكانت الدعوة الأموية ، فى ذلك الحين ، قد اجتاحت جنوبى الأندلس كلّه ، والتف حولها عدة من زعماء القبائل والجند ،

وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد جموعاً كبيرة من الأموية وأهل الشام ، استعداداً للمعركة .

وعاد يوسف والصُّميل إلى قرطبة . وأشار الصُّميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن الأموى وملاطفته ، وإغرائه بمصاهرته . فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرش ، وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، وأن يقطعه كورة إلبيرة أو كورة ريُّه ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلا يرغبه فيه بمحالفته ، ولكن عبد الرحمن لم يخدع بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه وردّ رسله ، وكان فى الواقع يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمع آماله .

ولم يبق إلا أن يتأهب الفريقان لمعركة فاصلة . وكان عبد الرحمن قد أيقن عندئذ بذيوع دعوته ، ووفرة أنصاره . فسار فى صحبه من طرّش إلى ريُّه ، ثم إلى شَذونة ، ثم إلى إشبيلية ، و عُمَّالها يبايعونه تباعاً ، والجند والأنصار ، تحتشد حول رايته ، واجتمع له فى إشبيلية وحدها ثلاثة آلاف فارس ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . ولما رأى أخيراً أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف ، سار فى قواته صوب قرطبة . وكان ذلك فى فاتحة ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفى ذلك الحين كان يوسف والصميل ، قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جيش يوسف قد وهن ، وفقد الكثير من عديده ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموى ، فزادته تفرقاً وضعفاً ، ومع ذلك فلم يكن ثمة بدٌّ من خوض المعركة . وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة فى ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، فى قرية مقابلة تسمى بلّه نوبه . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة . وفى اليوم الرابع ، وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر ، وانحسر فى بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف والصميل فى سبيل عقد الصلح ، وأصر عبد الرحمن على القتال فى اليوم التالى ، أعنى فى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، مُتيمنا فى ذلك

بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم على قوات عبد الله بن الزبير ، وذلك فى يوم الأضحى وقد كان يوم الجمعة أيضاً . سنة ٦٤ هـ ، وفى اليوم التالى ، دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة ، ولكن قصيرة ، فلم يأت ضحى اليوم حتى مزقت خيلُ يوسف ، وهُزم جيشه هزيمة شديدة ، وفر يوسف صوب طليطلة ، وفر زميله الصُّميل صوب جيّان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه مدينة قرطبة دون معارضة ، وصلى الجمعة بالجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع فى الحال بالإمارة ، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٨ مايو سنة ٧٥٦ م) .

* * *

تلك هى المرحلة الأولى من الملحمة العظيمة التى تقدمها إلينا حياة صقر قريش عبد الرحمن الأموى . ولقد كانت على ما اقترن بها من الظفر أهون المراحل وأيسرها . ذلك أن يوم المسارّة ، كان بالنسبة لعبد الرحمن ، فاتحةَ الظفر لا غايته . فقد استطاع ، بعد أحداث وخطوب جمة ، أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يستولى على عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد ، وكان بينه وبين مُلك الأندلس الحقيقى ، مراحل بعيدة ، وكانت الأندلس ، من جراء القلاقل والفتن العديدة ، التى جازتها فى أواخر عهد الإمارة ، قد انفصمت عُراها ، وتفككت أوصالها ، وغدا صرحها يهتز فوق دعائمه الواهنة ، فكان من الضرورى أن تبذل لتوطيده جهود مستمرة فادحة .

وكان يوم المسارّة حاسماً فى مصاير الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحى . وكما أن يوم المسارّة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتثرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، وغدت كل قبيلة ، وكل بطن ، تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة ، المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلى ، وتأبى الخضوع لإمرة سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس

موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية . فكانت المعركة في الواقع ، معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية ، والإقطاع المحلي ، معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً في هذه المعركة ، يحتفظون دائماً بخصومتهم القديمة للعرب ، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحي والضياع . ثم كان هناك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام في الأندلس ، ونعني اسبانيا النصرانية التي استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة في الشمال . وكذلك مملكة الفرنج القوية ، التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية ، فيما وراء جبال البرنيه . وكان نصارى الشمال والفرنج ، يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون في تفرقها وضعفها ، فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، فيمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس ، وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفره الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتى ، الذي لم يكن يوم ظفره يجاوز السادسة والعشرين من عمره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والمحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره ، اثنين وثلاثين عاماً ، في كفاح مستمر ، لا ينتهي من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولا يقمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً ، إلا ليعقبه خارج آخر ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده ، بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب جميعاً ، واستطاع بكثير من الذكاء والعزم والإقدام والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية ، وأن يحيي سلطان أسرته المندثرة ، في ذلك القطر النائي ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين ، وكان تفرق خصومه أهم عامل في ظفره ، فلم تلك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة منتثرة في النواحي والمدن ، تعمل كل بمفردها حول

زعيمها المحلى . وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء خصومه فى الميدان فرادى . واستطاع أن يُخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومَنَعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

ويجب ألا ننسى أن الأندلس ، كانت إلى جانب هذه المعارك الداخلية المضطرمة ، التى كان عبد الرحمن يخوضها بلا انقطاع ، تتعرض إلى خطر الغزو الخارجى ، من جانب جارتها القوية من الشمال ، ونُعنى مملكة الفرنج . وكان عاهل الفرنج يومئذ الإمبراطور شارلمان أو كارل الأكبر ، أعظم ملوك النصرانية فى عصره . وقد ألفى شارلمان بالفعل فى حوادث الأندلس ، وما تجوزه من الفتن الداخلية ، فرصة لغزو اسبانيا ، وذلك حينما استدعاه الخوارج على عبد الرحمن فى الثغر الأعلى ، للقدوم بجيشه إلى اسبانيا ، بفكرة الاستعانة به على توطيد رياستهم المستقلة عن حكومة قرطبة ، ووعدوه بأن يسلموا إليه سرقُسطة عاصمة الثغر ، وبعض المواقع الحصينة الأخرى . وقد سار شارلمان بالفعل بجيشه إلى اسبانيا فى أواسط سنة ٧٧٨ م (١٦١ ﻫ) ، فى الظاهر استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ، ولكن فى الحقيقة تنفيذاً لمشروعه المبيت فى غزو الأندلس . وكانت مملكة الفرنج تخشى تلك القوة الجديدة ، التى يمثلها الإسلام فى الأندلس ، من الناحيتين الدينية والسياسية ، وتخشى من انسياب تلك القوة إلى الشمال ، وعبور جبال البرنيه مرة أخرى ، مثلما حدث من قبل ، حينما نفذت الجيوش الإسلامية إلى جنوب فرنسا بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، واستمرت فى سيرها نحو الشمال ، إلى ضفاف نهر اللوار ، وكانت موقعة بلاط الشهداء الحاسمة ، التى هُزم فيها الجيش الإسلامى وارتد إلى الجنوب ؛ ومن جهة أخرى ، فقد كان شارلمان يخشى من تدفق الدعوة الإسلامية إلى أراضيه من الجنوب ، إلى جانب الغزو العسكرى ، فيتجدد الخطر على النصرانية من صولة الإسلام ، كما كان خطر الوثنية ، يهددها على يد الغزاة السكسون من الشرق . وفى خلال هذا الغزو الفرنجى لأراضى الأندلس الشمالية ، كان عبد الرحمن الأموى مشغولا بكفاحه المستمر للثورات المتوالية فى مختلف النواحى . على أن العناية الإلهية ، قد شاءت أن يبوء عاهل الفرنج بالفشل ، بعد أن اختلف معه الخوارج المسلمون ، وانقلبوا

إلى مقاومته ، وأن ينكب جيشه فى موقعة باب الشزرى الشهيرة ، على يد المسلمين وحلفائهم البشكنس ، وأن ينتهى بذلك خطر الغزو الفرنجى لربوع الأندلس .

وليس من موضوعنا أن نتتبع تلك المعارك والفتن العديدة التى اضطر عبد الرحمن إلى خوضها ، والعمل على سحقها ، والتى استغرقت بقية حياته ، وذلك قبل أن يستقر على عرشه ، ويتوطد سلطان أسرته الجديد ، فهى قصة متماثلة ، وإن تعددت الأسباب والبواعث والأماكن . وكانت تلك الشخصية التى التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام . كان عبد الرحمن الأموى ، يتمتع بعبقرية ممتازة ، وخلال نادرة ، وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن فى ظروف أشق من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه فى كل ميدان ؛ ولكنا نود أن نضيف إلى ذلك ، أن عبد الرحمن لم يدخر خلال هذا الكفاح الدموى ، وسيلة إلا استعملها فى سحق خصومه : الحرب والخديعة ، والغيلة ، والجريمة . ذلك أن عبد الرحمن لم يكن يرعى شرعية الواسطة ، ولكنه كان يذهب توا إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت المحنة المروعة التى نزلت بأسرته ، وحوادث حياته المشجية ، والظروف العصيبة التى يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تحيط به ، تحمل خلاله القوية إلى ذروة التطرف ، فنراه يقرن وافر العزم ، بفيض من الجرأة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة ، بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة .

كان عبد الرحمن طاغية ، مسرفاً فى البطش والسفك ، لا يحجم لأقل بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه ، وقد ذهب فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزروه يوم مقدمه شريداً ، لا عصبة له ، وقاتلوا معه ، وقادوه إلى الظفر والحكم ، بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نمى إليه أنهم يأتمرون به .

على أن هذه الصورة القاتمة لشخصية عبد الرحمن ، يجب ألا تحجب الناحية

الأخرى من صفاته المشرقة . أجل ، كان عبد الرحمن ، إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة ، وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير ، خلاله فى تلك العبارات القوية . قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يتكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً ، طلق اللسان » ، وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها فى جملتها وتفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلاريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص ، نحو هذه الشخصية الفريدة . ويرجع ذلك بلاريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التى خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته ، فى الحياة وفى الرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة ، وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبد الرحمن على احترامه ، والإعجاب به . ولم يكن وصف عبد الرحمن (بصقر قريش) سوى أثر من آثار ذلك الإعجاب الذى غمر أصدقاءه وخصومه على السواء . وهو وصف أضفاه عليه ، ألد خصوم أسرته ، الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، فى حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه من « صقر قريش » من الملوك ؟ قالوا أمير المؤمنين الذى راض الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فمعاوية . قال ولا هذا ، قالوا فعبد الملك بن مروان، قال ، لا . قالوا فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : « صقر قريش » عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده من سنن الأسنة ، وظبات السيوف ، يعبر القفر ، وركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب

تحمله عليه عمر وعثمان ، وذلل صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته ، واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين » .

ذلك هو صقر قريش ، وتلك هى قصته ؛ قصة فتى شريد ، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته . وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، ومع ذلك فإنه يتجه من وراء القفر الشاسع ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، ثم يفوز بافتتاح هذا القطر ، خلال حروب ومعارك لا تخمد أوارها ، ويقيم ملكاً عظيماً ، على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة ، ثم يرسى قواعده على أسس وطيدة ، ويغدو هذا الملك الجديد ، بعثاً لملك أسرته المندثر ، واستئناف مجدها العريض الشامخ . وإنها لقصة عجيبة ، ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها .

* * *

هذا ، وقد بذل عبد الرحمن لتوطيد هذا الملك الجديد وتنظيمه . جهوداً فادحة ، لا يتسع المقام لتفصيلها . ويكفى أن نقول إن عبد الرحمن كان يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، وأنه استطاع خلال الاضطراب الشامل ، أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع فى ظل حكومته ، بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ بعيد . ولو لم يشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ، ومهد الطريق لعقبه ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التى غدت على يد بنيه من الأمراء والخلفاء ، أعجوبة العصور الوسطى .

وعنى عبد الرحمن بالحاضرة الأموية الجديدة ، خليفة دمشق العظيمة ، ونعنى مدينة قرطبة ، فحصنها ، وزينها بالمنشآت الفخمة ، والرياض اليانعة ،

وأنشأ إلى جانبها مُنية الرُّصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة ، بناءً قديماً ساذجاً ، يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بنى أمية بالمشرق ، فأنشأ فى شمال غربى قرطبة ، قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس من الشام وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى الرُّصافة التى أنشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاماً ، ومُتَنزهاً ، ومركزاً للإمارة . وكانت حدائق الرصافة أمًّا لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية . وما تزال تقوم حتى اليوم فى قرطبة ، ضاحية الرصافة الجديدة ، على موقعها القديم الذى اختاره عبد الرحمن .

ومن مآثر عبد الرحمن الباقية إنشاؤه لجامع قرطبة العظيم ، الذى غدا على يد بنيه المتعاقبين ، أعظم مسجد جامع فى الغرب الإسلامى ، وما يزال يقوم حتى اليوم ، رمزاً خالداً لعظمة فنون العمارة الأندلسية .

وقد كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية فى المشرق ، فلما انهار سلطان بنى أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس فى عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة ، كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بنى أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير وأحياناً بالإمام ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء بنى أمية وحكمها . ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بنى أمية بهذا الإسم حكموا الأندلس هم : عبد الرحمن الداخل ، وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر .

وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن وذاعت فى منابرها ، ودعى لبنى العباس فى كثير من النواحى ، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى أشهر . وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه عملا من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بنى أمية الذين وفدوا إلى الأندلس ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به

بنو العباس فى حق بنى أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بنى العباس من الخطبة (١٣٩ هـ) ، وقطعت على أثر ذلك من سائر منابر الأندلس . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أقيالها ، ويرجع ذلك إلى بواعث سياسية عملية ، هى التى حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط فى رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها .

وكان عبد الرحمن جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ، ويعتم به ، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخالطهم . ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية ، إلا فى أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالتزام شىء من الترفع استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة ، ومخاطر الغيلة . وكان فى نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجم ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

وإنا لنختم هذه الصورة الجامعة لصقر قريش ، بالإشارة إلى ناحية من أبدع خلاله ، هى الناحية العلمية والأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ، وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة فى البلاغة والأدب . وقد انتهت إلينا بعض رسائله ، وفيها تبدو قوة بيانه ، ورفيع بلاغته .

وانتهى إلينا من نظم عبد الرحمن قصائدُ كثيرة تدل كلها على قوة شاعريته ، ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين أشاد بعضهم أمامه بموقف الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس أبى العباس عبد الله بن على جلاد بنى أمية المعروف بالسفاح ، ونعيه عليه أثمه فى حقهم ، وسفكَه لدمائهم ، وفقدهِ لحياته ، ثمناً لجرأته . يقول عبد الرحمن معلقاً على ذلك :

شتان من قام ذا امتعاض ... فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مُصْلِتاً لعزم ... مجرداً للعُداة نَصلا
فجاب قفراً وشقّ بحراً ... ولم يكن فى الأنام كَلا
فبزّ مُلكاً وشاد عزًّا ... ومنبراً للخطاب فصْلا

وجند الجند حين أودى ومصّر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعا حيث انتأوا أن هلمّ أهلا

ومن قوله يتشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيها الركب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قدّر البينُ بيننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ورأى بروض الرُّصافة ، وهى الضاحية الملوكية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ، فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد :

تبدت لنا وسط الرُّصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرُّب والنَّوى وطول التنائى عن بنيّ وعن أهلى
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبةٌ فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى يسحُّ ويستمرئ السِّماكين بالويل

وهكذا يبدو لنا عبد الرحمن بن معاوية من خلال نظمه ونثره ، شخصية لامعة وضّاءة تثير الإعجاب والحب ، وتحجب شخصيته السياسية ، وخلالها القاتمة . والحقيقة أن عبد الرحمن ، كما أنه منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، فهو أيضاً أول شخصية بارزة ، ظهرت فى ميدان التفكير والأدب والشعر ، فى هذا المجتمع العربى الجديد ، ويمكننا أن نعتبره بحق رائد تلك النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التى تفتحت فيما بعد ، وازدهرت على يد خلفائه ، وغدت من أعظم الحركات العلمية والأدبية فى العصور الوسطى .

والخلاصة ، أن صقر قريش يعتبر بسيرته العجيبة ، الحافلة بالأحداث والمحن المشجية ، وخلاله القوية المتباينة ، بالرغم مما يطبع بعض نواحيها من ألوان قاتمة ، وعبقريته الأدبية المؤثرة ، يعتبر بحق شخصية من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامى[1] .

---

(١) تناولنا سيرة عبد الرحمن الداخل ، ومراحل حياته بتفصيل شاف فى كتابنا « دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الرابعة) ص ١٤٧ — ٢٠٣ .

أســـد بن الفرات

فاتح صـــقلية

(١٤٢ – ٢١٣ هـ) ، (٧٥٩ – ٨٢٨ م)

كان البحر الأبيض المتوسط الذى يضطرم اليوم بمنافسات الدول البحرية الكبرى ، فى القرن التاسع الميلادى ، مسرحاً لأطماع ومنافسات من نوع آخر ، وكانت الأساطيل الإسلامية قد بدأت منذ أوائل عصر الفتح تجوس خلال هذا البحر وتغزو جزره الغنية . وكان المسلمون قد استولوا فعلا على قبرس ورودس وإقريطش (كريت) فى شرقيه ، والجزائر الشرقية (البليار) فى غربيه ، فلم تبق أمامهم سوى الجزر الثلاث الكبرى أعنى صقلية وسردانية وقورسقة . وكانت هذه الجزر الغنية الضخمة ، تجذب أنظار الغزاة ، فتقصدها الحملات البحرية من وقت إلى آخر ، من ثغور إفريقية والأندلس ، وهى حملات كان ينقصها الطابع الرسمى فى أغلب الأحيان ، وتتألف عادة من جماعة من المجاهدين أو النواتية المغامرين ، الذين يجوسون خلال البحر فى طلب الغنائم والكسب على النحو الذى اتبعه فيما بعد كثير من أبطال البحر الإنجليز والإسبان فى القرن السادس عشر .

وكانت صقلية تقع فى هذا العصر تحت سيادة الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) الفعلية ، أما سردانية وقورسقة فكانتا تقعان تحت سيادتها الإسمية ؛ وكان الفرنج قد استولوا على قورسقة وانضوت تحت لوائهم تطلب حمايتهم من الغزاة ؛ ومع أن السرايا البحرية الإسلامية غزت هذه الجزر غير مرة أيام الدولة الأموية ، فإنها لم تستطع فيما يظهر أن تقوم فيها بفتوحات ثابتة نظراً لضخامتها ، وبعدها عن شواطئ إفريقية والأندلس ، ونظراً لصغر الحملات المسيرة ، وطبيعة هذه الغزوات ذاتها .

ولكن الأساطيل الإسلامية بلغت فى أوائل القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع) فى إفريقية والأندلس مبلغاً من القوة والاستعداد لم تبلغه من قبل ؛ وحملت غزوات النورمانيين لشواطئ الأندلس حكومة قرطبة ، على الاهتمام بإنشاء أسطول قوى

يستطيع حماية الثغور ورد العدوان بمثله . وكذلك عنيت حكومة الأغالبة فى إفريقية (تونس) بالأسطول عناية كبيرة حماية لشواطئها من عدوان البيزنطيين والبيزيين والفرنج . وكان الأغالبة فى الواقع يسيطرون من تونس على المياه الوسطى للبحر الأبيض ، وهى التى غدت فى قت‌ما مسرح منافسة شديدة بين إيطاليا وانجلترا ؛ وكانت أساطيلهم القوية تجوس خلال هذه المياه فيما بين قلّوريه (كلابريا) حتى سردانية وقورسقة وتثخن فى شواطئها . وكانت صقلية نظراً لضخامتها وغناها وقربها من الشاطئ الإفريقى تبدو لهم بالأخص غنيمة قيمة هينة ، فكانت مطمح أنظارهم ومرتقب آمالهم ، يتحينون الفرص لاقتناصها وامتلاكها .

* * *

ولافتتاح المسلمين لصقلية قصة طريفة تبدو بما يمازجها من الظروف والوقائع الغريبة كأنها قطعة من الخيال الشائق . وكان افتتاحها على يد شخصية عجيبة تبدو لأول وهلة كأنها من شخصيات الأساطير الأولى . فأما قصة الفتح حسبما تقدمها إلينا الرواية البيزنطية ، فخلاصتها أن سيداً من أشراف صقلية يدعى يوفيوس (ويسميه العرب فيمى) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ، فقضى الإمبراطور وهو يومئذ ميخائيل الثانى ، بجدع أنفه عقاباً له على جرمه ، ففر إلى بلدة سرقوسة (سيراكوز) وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطى ، وانتزع سرقوسة وبسط حكمه عليها ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلا ، إذ هاجمته جند الإمبراطور وهزمته واستردت المدينة منه . ففر إلى إفريقية (تونس) واستغاث بأميرها وهو يومئذ زيادة الله بن الأغلب ، ودعاه إلى فتح صقلية ، ووصف له غناها وسهولة الاستيلاء عليها . ولكن الرواية الإسلامية لا تذكر لنا شيئاً عن قصة الراهبة المخطوفة ، وتقول لنا فقط إن الإمبراطور غضب على فيمى وهو مقدم أسطوله ، وأمر بالقبض عليه ، وإنه ثار فى شيعته واستولى على سرقوسة ، ثم انتزعها منه زعيم آخر يدعى بلاطة ، فسار فيمى فى سفنه إلى إفريقية ، واستنجد بأميرها زيادة الله ، فاستجاب إلى دعوته ، وسير أسطوله إلى صقلية لافتتاحها بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) .

فمن هو هذا القاضى الجرىء الذى يقود الأساطيل إلى الفتح ؟ إن ما نعلمه عن حياته الأولى ، لا يفسر لنا كيف تحول هذا الفقيه العالم إلى أمير من أمراء البحر .

وهناك روايتان فى أصله ونشأته ، تقول الأولى ، وهى رواية ابن الأبار القضاعى ، إنه أسد بن الفرات بن سنان من أهل نيسابور ، وولد بحرّان ، ويكنى أبا عبد الله ، وقدم أبوه مع محمد بن الأشعث الخزاعى فى عسكره حين ولاه أبو جعفر المنصور إفريقية سنة أربع وأربعين ومائة ، وأسد إذ ذاك ابن سنتين . وقد كان مولده بحران سنة اثنين وأربعين ومائة(١) .

وتقول الثانية ، وهى رواية ابن الخطيب فى « الإحاطة » ، إنه أسد بن الفرات ابن بشر بن أسد المرى من أهل قرية الصبيرمورته من إقليم البساط من قرى غرناطة ، وأنه خرج إلى المشرق ، ولقى مالك بن أنس وروى عن سُحنون بن سعيد(٢) .

والرواية الأولى تبدو بدقتها وتفاصيلها ، أرجح الروايتين

وعلى أى حال فقد نشأ أسد فى مهاد العلم لا مهاد الجندية ، وتخصص فى دراسة الفقه ، ورحل فى طلب العلم إلى المشرق ، وأخذ عن الإمام مالك فى المدينة ، وأخذ كذلك فى بغداد ومصر عن أكابر علماء العصر ، ثم عاد إلى إفريقية وصنف كتاب « الأسدية » أو « المختلطة » فى الفقه المالكى ، ووُلى قضاء القيروان فى عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة ، واستمر إلى جانبه أيام الفتنة مخلصاً للأسرة ، معرضاً عن إغراء خصومها . وفى عهد ولده زيادة الله عين فوق منصبه ، شيخاً للفُتيا أو قاضياً للقضاة ، وكان شديد الزهد والتقى والورع(٣) .

ومن الواضح أنه كان وقت ندبه لقيادة حملة صقلية ، شيخاً قد ربى على السبعين من عمره . على أن هنالك ما يدل على أنه ندب لقيادة البحر قبل ذلك وأنه قام فى هذه المياه بغزوات بحرية سابقة ؛ فقد ذكر لنا ابن خلدون أن أسد ابن الفرات شيخ الفتيا ، فتح قوصرة أيام زيادة الله بن الأغلب(٤) ؛ وفى التواريخ

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة ١٩٦٤) ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) المجلد الأول ص ٤٣٠ و ٤٣١ .

(٣) معجم ياقوت فى كلمة «صقلية» . وابن الأثير (مصر) ج ١ ص ١١٣ . وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٦ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢١١ . وقوصرة حسبما يبدو من وصف ياقوت هى جزيرة بنتلاريا الصغيرة الواقعة بين تونس وصقلية (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ١٨٣) .

الإفرنجية أن المسلمين قاموا منذ سنة ٨٠٦ م بعدة غزوات فى قورسقة . وفى سنة ٨١٠ م ظفروا بالاستيلاء عليها موقتاً ، حتى أخرجتهم منها جنود كارل الأكبر (شارلمان) ولكنهم عادوا إلى غزوها بعد ذلك مراراً . ونستطيع أن نستخلص من تقارب الرواية والتاريخ أن فتح قورسقة المؤقت ربما كان أيضاً على يد أسد بن الفرات ، ولكن فى عهد عبد الله بن الأغلب لا فى عهد أخيه وخلفه زيادة الله .

* * *

ولما اعتزم ابن الأغلب فتح صقلية ، استنفر الناس للجهاد ، فهرعوا لتلبية دعوته ، واجتمعت السفن من مختلف السواحل ، فى مياه ثغر سوسة ، وندب ابن الفرات لقيادة الحملة ، وخرج القاضى وأمير البحر الشيخ ، على رأس سفنه مرة أخرى فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) كما قدمنا متجهاً صوب صقلية . ولم تكن هذه الحملة من السرايا الصغيرة ، بل كانت فيما يظهر أعظم حملة بحرية قادها أسد بن الفرات ؛ فقد كانت حسبما تذكر الرواية الإسلامية تضم تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية(١) ، وكان معظم هؤلاء من الجند المجاهدين فى سبيل الله . ورست السفن الإسلامية فى ثغر مازر (أو مازارا) فى طرف الجزيرة الغربى وهو أقرب ثغورها إلى إفريقية ؛ ونفذ أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرقى الجزيرة لمقاتلة الروم ، الذين اجتمعوا حول زعيمهم بلاطة ، واجتمع إليه فيمى وأنصاره ليقاتلوا معه ، فأبى وطلب إليهم أن يعتزلوهم إذ « لا حاجة بهم إلى الانتصار بالكفار » ؛ ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها الروم ، وغنم المسلمون كل أسلابهم ودوابهم ، وفر بلاطة إلى قلورية وقتل هنالك بيد بعض خصومه . واستولى أسد بن الفرات على عدة حصون داخل الجزيرة ، ووصل فى سيره إلى قلعة الكرات المنيعة (كلتاچيرونى) وقد احتشدت فيها قوة عظيمة من الروم ، فخادعوه بطلب المهادنة وأداء الجزية ، وشجعهم فيمى سراً ، وكان قد بدأ يخشى عاقبة توغل المسلمين فى الجزيرة ؛ فاستمع أسد إلى ضراعتهم ، وتركهم أياماً استعدوا فيها للمقاومة ، وامتنعوا عليه ، فضرب الحصار حول القلعة ، وبث السرايا فى نواحى الجزيرة ، وافتتح ما حول

(١) معجم ياقوت فى كلمة « صقلية » .

سرقوسة ، وحاصرها براً وحاصرتها سفن المسلمين من البحر ، ووصلته الأمداد من إفريقية ، فبعث إلى بَلَرْم الجند والسفن لحصارها ، ولكن وصل فى ذلك الحين إلى مياه سرقوسة أسطول بيزنطى ، بعثه الإمبراطور لإنجاد الجزيرة ، فاشتدت المقاومة على المسلمين ، ونشبت بينهم وبين الروم فى البر والبحر معارك مستمرة ، وأبدى أسد فى تنفيذ خططه الحربية براعة وخبرة مدهشة كأحسن القادة العسكريين . وامتد خط القتال من سرقوسة فى شرقى الجزيرة إلى بلرم فى شمالها الغربى . وهنا وقع الوباء بمعسكر المسلمين فى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) فهلك فيه كثير منهم ، وحمل فيمن حمل أميرهم أسد بن الفرات . والظاهر أنه توفى فى قصريانة (كاستروچوڤانى) أو على مقربة منها ، وأنها كانت يومئذ فى قبضة المسلمين . ذلك أن الفقيه والقائد وأمير البحر الشيخ دفن بها حسبما تقول الرواية الإسلامية(١) ، ومن يدرى فلعل رفاته ما زال يثوى بها إلى اليوم فى قبر مجهول .

وتولى القيادة من بعده محمد بن أبى الجوارى . فلما رأى تفاقم الأمر على المسلمين حاول الانسحاب فى السفن فمنعته السفن البيزنطية من ذلك ؛ فأمر عندئذ بحرق السفن وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة ، وتفرقوا فيها أسراباً يغزون بسائطها ويحاصرون قلاعها حتى جاءتهم الأمداد من إفريقية ، ووصل لمعاونتهم فى الوقت نفسه أسطول أندلسى من السريا المجاهدة المغامرة فى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) فاشتد ساعدهم ومضوا فى افتتاح مدن الجزيرة وثغورها تباعاً حتى أتموا افتتاح معظمها ؛ وكان تقدمهم بطيئاً لوعورة الجزيرة فاستقروا فيما افتتحوه منها . وفى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) استولوا على سرقوسة آخر معاقلها فتم بذلك افتتاحهم لها ، وأسسوا بها إمارة كانت تابعة فى البداية لحكومة إفريقية ، ثم استقلت بعد ذلك عنها حينما سقطت دولة الأغالبة . وقامت فى صقلية دولة إسلامنة لبثت زهاء قرنين ازدهرت فيها الجزيرة ، وغدت حديقة يانعة ، تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، وأضحت فى الوقت نفسه معقلا إسلاميا تخرج منه البعوث والحملات البحرية ، فتجوس خلال المياه الإيطالية وتفتتح ثغورها ، وتصل حتى رومة « ملكة العالم » ؛ حتى إذا أدرك الوهن والانحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة ، توالت حملات الفرنج على الجزيرة حتى استعادها الدوق روجر (رُجّار)

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ .

النورمانى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ، وانتهت بذلك دولة الإسلام فيها كما ينتهى الحلم السعيد .

تلك هى قصة الفتح الإسلامى لصقلية ، وقصة فاتحها أسد بن الفرات ؛ وليس من النادر أن نرى فى الفتوحات الإسلامية الأولى فقيهاً أو محدثاً أو عالماً يتولى قيادة البعوث والحملات ، وقد كان من تقاليد الفتوحات والحروب الإسلامية دائماً ، أن يحتشد الفقهاء والعلماء المقربون من السلطان فى مؤخرة الجيش . ولكن هذا المنظر الرائع الذى يقدمه إلينا هذا الفقيه والقاضى الشيخ والقائد الجرىء وأمير البحر المغامر ، برياسة الأساطيل الغازية وقيادتها إلى الفتح والظفر ، والذى يملأ النفس روعة وإعجاباً ، هو حقاً من المناظر الفريدة فى التاريخ الإسلامى .

يحي الغزال

شاعر وفيلسوف وسياسى

(١٥٦ – ٢٥٠ هـ) ، (٧٧٣ – ٨٦٤ م)

كان عصر الحكم بن هشام أمير الأندلس (١٨٠ – ٢٠٦ هـ) (٧٩٦ – ٨٢١ م) ، بالرغم مما تخلله من ثورات وقلاقل ، بداية عهد استقرار ونهوض بالنسبة للدولة الأموية بالأندلس . وفيه استطاعت الدولة الأموية لأول مرة ، منذ ذهابها بالمشرق ، أن تستعيد قسطاً من بهائها القديم ، وأن تبدو فى حلل ملوكية جديدة ، وأن تبث إلى دولة التفكير والأدب روحاً جديداً . وكان بلاط الحكم ، فوق ما يضمه من أكابر القادة وأقطاب الحكم ، مجمع طائفة كبيرة من المفكرين والشعراء والأدباء ، يلوذون بحمايته ، ويتمتعون بعطفه . وكان الحكم ، وهو أديب وشاعر موهوب يتخذ منهم بطانته ، ويؤثرهم بصداقته ، ويجرى عليهم الأرزاق الحسنة .

وكان من أعلام عصر الحكم ، يحيى الغزال الجيانى . وهو شخصية فذة جمعت بين الأدب والحكمة والسياسة . وهو أبو زكريا يحيى بن الحكم البكرى ، نسبة إلى بكر بن وائل . وأصله من جيان، ولقب بالغزال لجماله وظرفه وإناقته ، وكان مولده ، وفقاً للحميدى ، فى سنة ١٥٦ هـ (٧٧٣ م) . وقد عاصر الغزال قبل الحكم ، أباه هشام بن عبد الرحمن ، وجده عبد الرحمن ، وبذا يكون قد عاصر خمسة من أمراء بنى أمية ، وعاش نيفاً وتسعين عاما .

ونظم الغزال الشعر حدثاً ، وبلغ ذروة عنفوانه وشهرته فى عهد الحكم . وكان شعره يميل إلى الدعابة والتهكم اللاذع ، ولكن تطبعه فى نفس الوقت نزعة فلسفية حرة . ذلك أن الغزال لم يكن شاعراً فقط ، ولكنه كان على قول ابن حيان « حكيم الأندلس ، وشاعرها وعرّافها » . وكان متضلعاً فى علوم عصره ، يأخذ بقسط من الفلسفة والفلك والتنجيم . وكان حر التفكير يتناول فى شعره أموراً تثير الريب فى عقيدته . ونحن نعرف أن عصر الحكم كان مليئاً بصنوف الجدل والمناقشات الدينية ، وأن الحكم كان هدفاً لسخط الفقهاء

وحملاتهم المرة ، لما جنح إليه من التضييق عليهم ، والقضاء على نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة ، وكان الفقهاء قد تبوءوا منذ عهد أبيه هشام مكانة رفيعة فى الدولة ، وتغلغل نفوذهم فى معظم الشئون العامة ، وأصبحوا خطراً على نفوذ العرش وسلطانه . فلما عمد الحكم إلى تحطيم نفوذهم ، ثاروا سخطاً عليه ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالوقيعة والدس ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأهداب الدين . وكان الحكم بإسرافه فى مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على دعايتهم قوة . ونحن نعرف ما انتهى إليه تحريض الفقهاء ووقيعتهم ، من اضطرام ثورة الربض ضد الحكم — ربض قرطبة الجنوبى المسمى شقنده — وقيام أهله بالزحف على القصر ومحاولة اقتحامه ، ورد الحرس والفرسان لجموع الثوار والفتك بهم ، وهدم ديارهم . وحدث ذلك كله فى رمضان سنة ٢٠٢ هـ (مارس سنة ٨١٨ م) ، ثم أمر الحكم بإخراج الثوار من قرطبة ، وتفريقهم فى الكور والثغور ، وعبر البحر كثير منهم إلى المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم فى عدة سفن إلى الإسكندرية ، واشتركوا فى حوادث الحرب الأهلية التى كانت قائمة يومئذ بمصر ، ثم أخرجوا منها ، وغادروا الإسكندرية فى سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش بقيادة زعيمهم أبى حفص البلوطى ، وافتتحوها ، وأسسوا بها دولة إسلامية صغيرة زاهرة ، استمرت زهاء قرن وثلث .

ومن جهة أخرى فقد عمد الحكم إلى مقاومة خصومه من الفقهاء المتمردين الطاعنين فى حقه بنفس سلاحهم ، فكان يحشد حوله جماعة من العلماء والفقهاء المستنيرين ، وكان الجدل يضطرم بين الفريقين من فوق المنابر ، وفى الرسائل والقصائد . وكانت هذه الجماعة المستنيرة من العلماء والأدباء والشعراء الأحرار الذين يلتفون حوله ، ويشدون أزره ، تشاطر آثار هذه الخصومة ، فلم ينج أحد منهم ، من اتهام الفقهاء المتعصبين بالإلحاد والزيغ ، وكان الغزال وصديقه الفيلسوف الرياضى عباس بن فرناس ، فى مقدمة من لحقتهم هذه التهمة ، وقدم ابن فرناس بالفعل إلى القضاء متهماً بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته .

ولبث الغزال طيلة حياته على خصومته للفقهاء ، يكثر من التعريض بهم ، والطعن عليهم ، غير مكترث لاتهامهم ومساعيهم للإيقاع به ، وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيــه إلا غنيـاً ... ليت شعرى من أين يسـتغنونا
تقطع الـبر والبحار طـلابُ الر ... زق والقوم هاهنـا قاعـدونا
إن للقـوم مضربا غاب عنـا ... لم يصب قصد وجهه الراكبونا

والواقع أن الغزال لم يكن متحفظا فى شعره ، وكان يقدم بنفسه من آن لآخر إلى خصومه مادة الوقيعة والطعن . ومن ذلك قصيدة نظمها فى ذكر النفس والروح يقول فيها .

يا ليت شعرى أى شىء محصل ير ... ى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بمـا رأى ... فقل للقلوب النائمـات عيـون
وكيف يرى والعين قد مات نورها ... وواقعه شـبه الوقـار سكون

وعرض الغزال فى أرجوزته التى نظمها فى أبواب العلوم إلى القدر وغيره من الأمور الشائكة بطريقة لم يرض عنها فقهاء عصره ، وكانت مثار الطعن فى عقيدته .

— ٢ —

على أن صفة الشاعر الفيلسوف والمفكر الحر ، لم تكن أخص ما تميزت به شخصية الغزال ، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر ، هى صفة الحكيم الناصح ، والسياسى المحنك ، واشتهر بأصالة الرأى ، وحسن التدبير ، واللباقة والدهاء . ومع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، فقد كانت هذه الخلال تفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة ، وتجعله موضع الثقة والتقدير . ولما توفى الحكم بن هشام فى سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) ، وخلفه ولده عبد الرحمن ، لبث الغزال على مكانته فى الدولة ، ونُظم فى سلك كتاب البلاط . وكان منصب الكتابة من المناصب التى تسند عادة إلى المقربين من خاصة الأمير وجلسائه من الأدباء والشعراء ، فتغدو لهم مورد رزق . وتوثقت بين الغزال وبين الأمير الجديد صداقة متينة العرى ، وكان عبد الرحمن يستشيره فى كثير من شئون الدولة ، ومهامها .

وفى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) وقع حادث سياسى كان له فى بلاط قرطبة أعظم صدى . ذلك أن الإمبراطور تيوفيلوس قيصر قسطنطينية ، أرسل إلى أمير الأندلس ، سفارة وهدية فخمة ، ووفد السفير البيزنطى ، واسمه قرطيوس على بلاط قرطبة يحمل كتاب القيصر إلى عبد الرحمن ، وفيه يذكره بما كان بين الأوائل من بنى أمية وبين قياصرة قسطنطينية من أواصر المودة والصداقة ، ويشكو له مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل ، وابن ماردة ، تحقيراً وازدراء . ومراجل هى أم المأمون ، وماردة هى أم المعتصم ، وكلتاهما جارية وأم ولد . كما يشكو إليه من استيلاء البحارة الأندلسيين بقيادة أبى حفص البلوطى على جزيرة إقريطش وهى من أملاكه ، ويطلب إليه استئناف هذه الصداقة القديمة بين القياصرة وبين بنى أمية ، ويبشره بقرب انهيار الدولة العباسية ، ويرغبه فى ملك آبائه بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويعده بنصرته فى هذا المشروع .

واستقبل السفير البيزنطى فى بلاط قرطبة بمنتهى الحفاوة والتكريم ، واعتزم عبد الرحمن بن الحكم أن يرد على هذه السفارة بما يليق من الاهتمام . وهنا اتجهت الأنظار إلى يحيى الغزال صديق الأمير ، وكاتبه ومستشاره . وكانت شخصيته الممتازة ، وكياسته ولباقته ، ترشحه لمثل هذه السفارة الخطيرة . وكان الغزال قد قارب السبعين يومئذ ، ولكنه كان يبدو فتياً ، ويحتفظ بكثير من ظرفه وإناقته . وقبل الغزال تلك المهمة على غضاضة منه ، وندب ليقدم كتاب الأمير وهديته إلى قيصر قسطنطينية ، وغادر قرطبة مع زميله يحيى بن حبيب برفقة السفير البيزنطى إلى المشرق ، عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، عاينوا فيها الأهوال من اضطراب البحر ، وروعة الموج . واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم إليه الغزال كتاب عبد الرحمن وهديته . وكان عبد الرحمن يرد فى كتابه على جميع ما توجه به الإمبراطور إليه ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة ، ويرحب بصداقته ، ويشاطره السخط والنقمة على بنى العباس ، ويعد فى شأن استرداد ملكه بالمشرق خيراً ، وأنه يعتقد أن ذلك سوف يكون

على يديه ، وهنا ظهر الغزال ببديع مواهبه وخلاله ، فسحر الإمبراطور والبلاط البيزنطى بظرفه وذلاقته ورائق حديثه ودعابته ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور ومليكه ، فى جو يفيض عطفاً وثقة . وقدمه الإمبراطور إلى زوجته الإمبراطورة تيودورا ، فسحرته برائع جمالها ، وبلغ من تأثره عندئذ أن كاد ينسى وجود الإمبراطور ، وكاد يتعثر فى محادثته . ولما سأله الإمبراطور عن سبب ذهوله ، لم يخف عليه حقيقة السبب ، وصرح له بأنه لم ير فى حياته « صورة أحسن ، ولا منظراً آنق » من هذه الملكة الحسناء التى « يبهر وجهها الشمس بضيائه ، ويكسفها ببهائه ، ويذكر العاقل بقدرة الله على إبداع الخلق » فسر الملكان من إجابته ، وأنست الإمبراطورة بحديثه ودعابته وخصته بعطفها ، ووهبته طائفة من اللآلئ النادرة لكى يستعين بها على تجهيز بناته ، وقدمت إليه ابنها الأكبر ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فسحره الفتى بظرفه ، وبارع خلاله ، وفيه يقول الغزال من قصيدة طويلة :

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذى عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصرى ... العمومة حين ينسب والخؤول
على قد سواء لا قصير ... فتحقره ولا هو بالطويل
ولكن بين ذلك فى اعتدال ... كغصن البان فى قرب المسيل

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية ، وروعه البلاط البيزنطى ، وترك الغزال فى بلاط القيصر وبطانته أجمل الأثر بما أبداه من فطنته وكياسته ، ورقيق شمائله .

* * *

هذا ، وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة هامة أخرى . وذلك أنه على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم لمدينة إشبيلية وردهم عنها (٢٢٩ هـ — ٨٤٣ م) ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب الصلح والمهادنة ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح ،

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردها فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب» فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال يحيى بن حبيب لمرافقته أيضاً فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط (المحيط الأطانطى) عن طريق « شلب » فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . فلما وصلت السفينة إلى مياه الركن الشمالى الغربى من جليقية ، عصفت بهم ريح شديدة ، وتعالت الأمواج حتى صارت كالجبال، وأشرف السفيران المسلمان على الهلاك ، وهو ما يصفه لنا الغزال فى الأبيات الآتية :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتـ ـت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو ت إلينا عن خيال
فرأينا الموت رأى العـ ـين حالا بعد حال

وأخيراً ، وصل الغزال ورفيقه إلى بلاد المجوس . ويصف لنا ابن دحية بلاد المجوس هذه بأنها « جزيرة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها جزائر كثيرة، منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة . ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) . وكان مُلكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر وقسماً من اسكندناوه ، وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى هوريك . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلا حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته

من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزل فى البلاط النورمانى ، كثيراً من الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان فراعه حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم فى حسنها شعراً رقيقاً يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نـــود يا رود الشـــباب التى تطلع من أزرارها الكوكبا
إن قلت يوماً إن عينى رأت شـــبهه ، لم أعــد أن أكذبا

واجتمع الغزال مراراً بالملكة نود ، وحدثت بينهما محادثات ومساجلات كثيرة رقيقة ، ونظم الغزال فى محاسنها ومدحها غير قصيدة . وشاع ذلك وحُذر الغزال من عواقبه ، فامتنع عن رؤية الملكة ولكنها استدعته ، وطمأنته بأن لا شائبة فى تصرفاته ، فعاد إلى سابق عهده معها .

وعاد الغزال إلى الأندلس ، بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاب توصية وجواز إلى صاحب جلّيقية ، لكى يستطيع الســفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية فى طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة كان سنة ٢٣٢ هـ (أواخر سنة ٨٤٦ م) .

هذا وقد اعتقد العلامة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال أن هاتين السفارتين اللتين اضطلع بهما الغزال إلى قسطنطينية وإلى ملك النورمان ، هما سفارة واحدة هى التى قصد فيها الغزال إلى قسطنطينية ، وإلى بلاط بيزنطة ، وأن رواية ابن دحية عن السفارة الثانية ، إنما هو فى الواقع تكرار للرواية الخاصة بسفارة قسطنطينية أو تحريف لها ، يدل على ذلك تكرار شعر الغزال فى الروايتين عن روعة البحر وأهواله ، وما ذكر عن مقابلاته للإمبراطورة ، ويدل عليه أيضاً أن هذه الرواية الخاصة بالرحلة الثانية ، لم ترد فى أى مصدر آخر غير رواية ابن دحية المذكورة ، وهى رواية متأخرة جداً ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى . ومن ثم فإن الأستاذ بروڤنسال يبدى ريبه فى صحة هذه السفارة الثانية فى رسالته التى وضعها فى هذا الموضوع بعنوان :

Un Echange, d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IX ème Siècle.

« تبادل سفارات بين قرطبة وبيزنطة فى القرن التاسع الميلادى » . ويستند فى ريبه إلى ما تقدم من القرائن .

بيد أننا نخالف صديقنا العلامة المرحوم فيما ذهب إليه ، ونعتقد بالعكس أن رواية ابن دحية بالرغم مما يختلط بها من فقرات تنصرف إلى رحلة قسطنطينية ، تدل دلالة واضحة على أن سفارة أندلسية قد أوفدت إلى ملك النورمان ، وأن ما ورد فى هذه الرواية من إشارات جغرافية وتاريخية ، تحمل على الاعتقاد فى صحتها . فأما من الناحية الجغرافية فإن رواية ابن دحية تشير إلى سفر الغزال من طريق شلب فى الغرب ثم جليقية فى الشمال ثم إلى عودته عن طريق شنت ياقب ، وبيده جواز سفر من ملك النورمان إلى صاحب جليقية ، ومروره بطليطلة فى طريقه إلى قرطبة . وليس من المعقول أن ينصرف مثل هذا البرنامج إلى رحلة يقصد بها السفر إلى قسطنطينية . ومن جهة أخرى ، فان رواية ابن دحية تصف لنا بلاد المجوس والنورمان بأنها جزيرة فى البحر المحيط ، وعلى مقربة منها جزائر صغيرة صغار وكبار .

وأما من الناحية التاريخية فإن الرواية تقول لنا إن أهل هذه الجزائر هم من المجوس . والمجوس فى الرواية العربية هم النورمان ، ثم تقول لنا إن هؤلاء المجوس كانوا يومئذ قد بدأوا يدخلون فى دين النصرانية .

وأخيراً فإن الغزال نفسه يقول لنا فى الشعر الذى نظمه فى الملكة نود ، أن قلبه قد تعلق بمجوسية «تأبى لشمس الحسن أن تغربا» وأن ذلك قد وقع بأقصى بلاد الله .

فهذه القرائن كلها من جغرافية وتاريخية ، تحملنا على الاعتقاد فى صحة رواية ابن دحية بأن الغزال قد اضطلع بعد سفارة قسطنطينية ، بسفارة أخرى إلى ملك النورمان ، وأن ما يقصه علينا من تفاصيل زيارته للبلاط النورمانى وملكته الحسناء ، إنما هى وقائع صحيحة بعيدة عن الريب والاختراع (١).

---

(١) هذا ، وقد عاد الأستاذ بروفنسال إلى التحدث عن هذه السفارة إلى ملك النورمان فى الطبعة الثانية من كتابه **Hist. de L'Espagne Musulmane** ، ولكنه يعاملها فى حديثه كخرافة ، ويستند فى ذلك إلى قوله السابق ، مما ورد بها من تفاصيل مأخوذة من سفارة الغزال إلى قسطنطينية . ثم يقول : إن ما حدث من سعى قصر بيزنطة الخشن ، وغزو النورمان لشواطىء اسبانيا ، قد نفذ إلى العقلية الشعبية ، وبعث قيام أسطورة مشتركة ، طغت بالتدريج على الحقيقة التاريخية **(V.I. p. 254)** .

— ٢ —

ولبث الغزال على مكانته ونفوذه فى بلاط قرطبة حتى توفى عبد الرحمن ابن الحكم فى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) ، وعاش الغزال بعد وفاة صديقه وحاميه ، دهراً آخر ، وحضر شطراً من عهد ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وهو يتمتع بمثل مكانته التى تبوأها فى البلاط منذ عهد الحكم . ثم توفى فى سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، وأدرك خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس ، أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم .

وقد لبث الغزال زهاء نصف قرن يتبوأ مكانته الرفيعة فى الشعر والأدب ، بيد أنه يلوح لنا أن الشاعرية لم تكن أخص مواهبه ، وأنه لم يبلغ فى الشعر مرتبة الزعامة . وإنما اشتهر الغزال بالأخص بالحكمة والكياسة والبراعة والسياسة . فهو فيلسوف فى شعره وفى تفكيره ، وهو سياسى من الطراز الأول ، وربما كانت هذه أبرز صفاته وأجلها(١) .

---

(١) انتفعت فى كتابة هذا الفصل بمراجعة أوراق مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس . وراجع فى ترجمة الغزال وأخباره نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ و٤٤١ ومابعدها . ودوزى : **Recherches. app. 34** ، وليڤى بروفنسال **Un Echange d' Ambassades entre Cordoue et Byzance**. وراجع رواية ابن دحية عن سفارة الغزال إلى ملك النورمان فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف فى سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ — ١٤٥)

عبد الرحمن الناصر

(٢٧٧ – ٣٥٠ هـ) ، (٨٩٠ – ٩٦١ م)

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بنى أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزهو وتزدهر فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ؛ ولكن عوامل الانتقاض والتفكك سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بنى أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه فى نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبد الله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرّف وقتله ؛ وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) ، وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم فى كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ؛ وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً فى العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ، ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع فى النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص فى فنون الحرب والفروسية ؛ وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه فى بعض الأيام والأعياد . وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً مقضياً ؛ بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده . وما كاد الأمير عبد الله يسلم أنفاسه الأخيرة ، حتى بويع حفيده عبد الرحمن بالملك ، وكان أول من بايعه أعمامه وأعمام أبيه ؛ وساد البشر يوم

بيعته فى القصر والمدينة ، وتوسم الجميع فى الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفى ذلك يقول شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهـــلال جـديداً ... والملك غضّ جديد
يا نعمــة الله زيدى ... ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر ... فأنت للدهر عيـــد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ؛ وكان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التى اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة ولم تكن ناجعة ، وأنه لا بد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل ؛ ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الحاجب بدر ، فاستخلصت قلعة رباح وإستجة من أيدى العصاة (جمادى الأولى) . وفى شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتى فى الصفوف حماسة ، وأكبروا شجاعته وإقدامه ؛ واتجه عبد الرحمن إلى جنوب شرقى الأندلس حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أعظم الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من المدن والحصون القوية فيما بين رندة ومالقة ، وسير بعض قواته لإنقاذ كورة ريه التى كان يهددها الزعيم الثائر فاستولت عليها وأمنتها ، وقصد إلى الحصون والقواعد الثائرة فاحتل منها منتلون وشمنتان ومنتيشة وغيرها ، وقدم إليه الزعماء الخوارج طاعتهم فقبلها وعفا عنهم ؛ ثم سار إلى كورة إلبيرة فاحتل حصونها التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واتجه بعد ذلك إلى وادى آش فاحتل حصونها ، ثم توغل فى شعب جبل الثلج (سيرّا نفادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون ؛ وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه ؛ وما زال عبد الرحمن فى تلك الأنحاء يخضع

حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ؛ وعاد إلى قرطبة يوم الأضحى بعد أن قضى فى غزوته ثلاثة أشهر .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع وتتحفز ، وعاد ابن حفصون إلى تنظيم خططه وقواته . وكانت إشبيليه فى مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله بنو حجاج ، وهم ينتمون بالرغم من أصلهم العربى إلى المولدين بطريق الأم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة ؛ وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين الذين أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية ، التى لم تدخر وسعاً فى الرفق بهم ، ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . فلم تمض أشهر قلائل حتى بعث عبد الرحمن إلى إشبيلية حملة قوية استولت عليها بعد حصار طويل ، وانهارت دعائم الثورة بها ، وهدمت أسوارها (جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ) . وفى شوال من نفس العام خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية وقصد إلى كورة ريُّه والجزيرة . وكان ابن حفصون قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء وعادت الثورة تضطرم فيها ؛ فجال عبد الرحمن بين حصونها واستولى على كثير من معاقلها ، واشتبك مع ابن حفصون فى معركة شديدة هزم فيها الثائر وحلفاؤه النصارى وارتد بفلوله نحو الغرب . وما زال عبد الرحمن يطارد الثوار فى تلك المنطقة حتى دخلت فى طاعته معظم المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء الذين قدموا خضوعهم وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح(١) .

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (1930) V. II. p. 103

وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء . وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصيبة وسعاً فى بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة ؛ وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان لجهودهم أثر كبير فى التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره فى تهدئة الثورة والفتّ فى عضد الثوار . ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك يقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف جهوده فى سحق الثورة ، فسير قواته إلى كورة تدمير وإلى مدينة لبلة (٣٠٤ هـ) . وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٠٥ هـ وقع حادث كان له أكبر الأثر فى تفكك عرى الثورة وانحلالها : ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة ومثير ضرامها فى جنوبى الأندلس . وكان ابن حفصون فى الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح . وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من الرعاية والتسامح يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين من رعايا الحكومة الإسلامية . وقد دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته فى المناطق الشرقية الجنوبية فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ؛ وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

وترك ابن حفصون أربعة أبناء تولوا مكانه رياسة القواعد الشرقية الجنوبية ولا سيما ببشتر حيث قام ولده جعفر . ولبث عبد الرحمن بضعة أعوام أخرى يغزوهم تباعاً أحياناً بنفسه وأحياناً على يد قادته ، حتى انتهى بسحقهم جميعاً والاستيلاء على قواعدهم وحصونهم وذلك سنة ٣١٥ هـ (٩٢٨ م) . وترك ابن حفصون أيضاً ابنة هى أرجنتا التى اعتنقت النصرانية ، فقبض عليها وأعدمت

لارتدادها عن الإسلام ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية فى سلك القديسين والشهداء[1] .

ولم يغفل عبد الرحمن فى الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه فى جنوب شرقى الأندلس تشغل معظم عنايته ، عن مطاردة الثورة فى الأنحاء الأخرى ؛ فغزا الثوار فى طليطلة وبطليوس (سنة ٣١١ هـ) ، ثم سار بعد ذلك إلى تدمير وبلنسية ، وقضى على الثورة وعلى زعمائها فى سائر الأنحاء ، وسادت السكينة بعد ذلك أرجاء الأندلس ، ولم يبق عليه إلا أن ينازل عدو الأندلس التاريخى ونعنى إسبانيا النصرانية .

— ٢ —

كانت اسبانيا النصرانية فى خلال تلك الفترة التى اضطرمت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فى النواحى ، تسير قدماً فى سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس وممالأة ثوارها ، والعيث فى أراضيها ؛ وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين هما مملكة ليون (أو مملكة جلّيقية) ومملكة ناڤار (نبرّة أو بلاد البشكنس) ؛ وكانت ليون وهى الواقعة فى الشمال الغربى بين المحيط ونهر دويرة أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة اسبانيا النصرانية فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين اسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التى تتاخم مملكة ليون مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية ومبراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر لقلتهم فى تلك الأنحاء ، وكثرة اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط فى تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) فقتل من بقى فى تلك المنطقة من المسلمين ثم ارتد إلى جباله ؛ وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء . وانتهز ألفونسو تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة ، واختط هناك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها

(١) راجع تفاصيل ثورة ابن حفصون وأبنائه من بعده فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ . وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، وفى كتابى دولة الإسلام فى الأندلس ، الطبعة الرابعة ص ٣٨٢ — ٣٨٩ . وراجع أيضاً : **Dozy : Ibid; V. II. p. 109**

النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع ؛ وجرى ولده غرسية (جارسيا) على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت اسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ومواردها الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة ، وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى حتى يفرغ من أمر الثورة . ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرص إبان الفتنة واضطرام الثورة فى الأندلس ؛ فما كاد عبد الرحمن يلى الملك حتى بادر أردونيو الثانى (أرذن) ملك ليون بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، وزحف على مقاطعة ماردة وعاث فيها (سنة ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م) وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . وكانت منطقة ماردة من المناطق الثائرة ، ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية ، فلم يمض عامان حتى سير حملة بقيادة وزيره أحمد بن أبى عبده ، ليقابل عدوان النصارى بمثله ، فأثخن المسلمون فى أراضى ليون ، وهزموا النصارى فى عدة وقائع . وانتقم أردونيو لهزائمه بالإغارة على منطقة طلبيره وحرق مدنها وانتساف زروعها ، فسير عبد الرحمن حملة أخرى بقيادة ابن أبى عبده وزحف المسلمون على قلعة شنت إشتبن وتسمى أيضاً (كسترومورس) وهى أمنع قلاع النصارى على الحدود وضربوا حولها الحصار ، وهرع أردونيو لإنجادها فى جموع ضخمة . وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى العدد مختل النظام ، يتألف سواده من البربر والمرتزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ؛ فلما نشبت الموقعة بين المسلمين والنصارى دب الهرج إلى صفوف المسلمين ، وتسللت وحدات كثيرة منهم من المعركة ، ولكن قائدهم الشجاع صمم على أن يثبت إلى النهاية فأصيب المسلمون بهزيمة فادحة ، وقتل ابن أبى عبده وعدة كبيرة من ضباطه ، ومزق المسلمون شر ممزق ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (سبتمبر سنة ٩١٧ م) .

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة ، وأتبع النصارى ظفرهم باعتداء جديد . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو ملك ناڤار (بلاد البشكنس) إلى غزو الأراضى الإسلامية ، وعاثا فى أحواز ناجرة وطليطلة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة ومقتل قائده الشهم ، فخرج من قرطبة فى جيش ضخم فى المحرم سنة ٣٠٦ هـ (يوليه سنة ٩١٨) ، وهرع إليه أهل الثغور من كل ناحية ظمئين إلى الجهاد والإنتقام ؛ وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل إلى قلب ليون ، وهاجموا النصارى بالرغم من اعتصامهم بشعب الجبال ؛ ونشبت بين الفريقين بالقرب من مكان يسمى « مطونية» معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة . وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (أغسطس سنة ٩١٨ م)[١] .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفتّ فى عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالا بين الفريقين مدى أشهر ، وكثر العيث والسبى فى مناطق الحدود . فعندئذ رأى عبد الرحمن أن يسير بنفسه إلى مقاتلة النصارى مرة أخرى ، فسار فى جموع كبيرة من جيش الأندلس وأهل الثغور فى المحرم سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠ م) وعبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة وأحرقها ، ثم سار إلى قلعة شنت إشتين واستولى عليها واجتاح هذه المنطقة كلها ، واستولى على معظم القواعد والحصون ، وارتد النصارى مؤثرين القتال فى المواقع الوعرة التى اختاروها . ولما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو فاجأه سانشو ملك ناڤار بقواته ، ولكنه لم يفلح فى مفاجأته ، ورده المسلمون بقوة فارتد إلى شعب الجبال ، وانضم إلى حليفه أردونيو ، وجمع الملكان قواتهما لقتال المسلمين . ولما نفذ عبد الرحمن بقواته إلى مفاوز البرنيه أخذ النصارى فى إرهاقه وأصيب المسلمون ببعض الخسائر ، وشعر عبد الرحمن بخطر المأزق فبادر بالخروج إلى السهل المنبسط ؛ وهنا طمع النصارى فى قتال المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حمى الجبال ، والتقى الفريقان عند مكان يسمى « چونكيرا » فدفع النصارى ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و١٨٠ .

فيهم قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ؛ وانهارت كل مقاومة ، وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم ، وهدم عبد الرحمن حصون العدو وقلاعه ، وأصلح حصون المسلمين وفى مقدمتها حصن بقيرة المشرف على حدود ناڤار ؛ ثم قفل راجعاً إلى قرطبة فوصل إليها فى سبتمبر سنة ٩٢٠ م بعد أن قطع فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر(١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة واقتحمها وقتل كل من كان فيها من المسلمين ، فضجت الأندلس لهذا الاجتراء ، وبادر عبد الرحمن فسير حملة إلى الثغر الأعلى (أراجون) بقيادة وزيره عبد الحميد بن بسيل (٣١١ هـ) فزحف على تُطيلة وعاث فى أراضى النصارى ، ثم لحق به عبد الرحمن فى المحرم سنة ٣١٢ هـ (أبريل ٩٢٤ م) فى جيش ضخم وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ؛ ودخل أراضى ناڤار فى شهر ربيع الآخر (يوليه) ، فساد الذعر بين النصارى . وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، واستولى عبد الرحمن على عدد من القواعد والحصون الهامة ، وقتل كل من وجده فيها من النصارى . ثم نفذ إلى قلب ناڤار وزحف على عاصمتها بنبلونة ؛ وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه فى شعب الجبال ، فكان يرد كل مرة بخسائر فادحة . ودخل عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجمع سانشو قواته مرة أخرى وحاول دفاعاً عن ملكه فهزم هزيمة فادحة ، ومزقت قواته كل ممزق ؛ وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع ناڤار وسحق قواتها (ربيع الثانى ٣١٢ هـ — أغسطس ٩٢٤ م)(٢) .

وفى العام التالى (٩٢٥ م) توفى أردونيو ملك ليون فثارت عقب وفاته حول العرش حرب أهلية بين أولاده استمرت بضعة أعوام ، وانتهت بفوز ولده راميرو وجلوسه على العرش فى سنة ٩٣٢ م . وانتهز الناصر فرصة انشغال ليون بحربها الأهلية فمضى فى جهوده لسحق الثورة والقلاقل الداخلية وتوطيد السكينة ، ومقاومة دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ — ١٨٩ . وكذلك : Dozy : Ibid, V. II. p. 141-143

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ ، وكذلك : Dozy : Ibid, II. p. 144-145

وكان راميرو الثانى أو رذمير ، كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس ؛ فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة فى المملكة الإسلامية ، هو خير السبل لتبديد قواها ؛ وكانت طليطلة قد عادت إلى الثورة وسار عبد الرحمن إلى حصارها ، فحاول راميرو إنجاد المدينة الثائرة تلبية لدعوة أهلها ، ولكن القوات الإسلامية ردته قبل أن يصل إليها ، وأرغمت طليطلة على التسليم والخضوع بعد أن أضنتها مصائب الحصار ، ودخلها عبد الرحمن ظافراً فى صيف سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) . وفى العام التالى عاد ملك ليون إلى محاربة المسلمين واحتل مدينة أوسمة ، فسار الناصر إلى قتاله ونفذ إلى أراضى قشتالة ، واقتحم مدينة برغش عاصمتها وخربها ، وقتل على مقربة منها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م)(١) .

ولما توفى سانشو ملك ناڤار قامت بالأمر بعده أرملته طوطه وصية على ولده غرسية ؛ وكانت امرأة وافرة العزم والجرأة ، فلم يمض سوى قليل حتى تحرك البشكنس وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) ؛ وكان بنو هاشم سادة سَرَقُسطة وزعيمهم محمد بن هاشم التجيبى يضطرمون بأطماع خفية ، ويضمرون الخروج على حكومة قرطبة ، وخصوصاً لما رأوه من نشاط عبد الرحمن فى إخضاع الولاة المحليين وسحق سلطان الأسر القديمة . فلما اضطرمت الحرب بين ملك ليون والناصر ، رأوا الفرصة سانحة لتحقيق مشاريعهم ، وعقد محمد التجيبى صاحب سرقسطة معاهدة سرية مع راميرو ، ثم جاهر بالخروج على عبد الرحمن والاعتراف بسيادة ليون ، وعقد محمد وراميرو بعد ذلك محالفة مع طوطة ملكة ناڤار ، وبذلك تحالف الشمال كله على عبد الرحمن .

فسار عبد الرحمن إلى مقاتلة أعدائه فى جيش ضخم فى ربيع سنة ٩٢٧ م ، وبدأ بالزحف على قلعة أيوب فاقتحمها وقتل صاحبها مطرّف التجيبى ومن معه من حلفائه النصارى ، ثم عهد بحصار سرقسطة إلى أحمد بن إسحاق قائد الفرسان وعينه حاكماً للثغر ، ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى ، لمرض فى نفسه ولأطماع كانت تجيش بها نفسه . ونمى إلى عبد الرحمن أنه يأتمر به مع أخيه أمية بن إسحاق

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ، وكذلك : **Dozy : Ibid V. II p. 148**

فاعتقلهما واكتفى بنفيهما من الأندلس ؛ فالتجأ أمية إلى راميرو وتحالف معه . وحاول أحمد أن يتصل بعمال الفاطميين فى عدوة المغرب ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه وأمر بإعدامه ؛ واستمر حصار سرقسطة أشهراً حتى سقطت وأسر صاحبها محمد بن هشام . وبذلك انهارت ثورة بنى هاشم فى الشمال ، والتمس محمد العفو من الناصر فعفا عنه ، ورده إلى منصبه جرياً على أسلوبه مع الزعماء ذوى البأس والعصبية .

ولم ينس عبد الرحمن أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ؛ ففى الوقت الذى كانت جنوده تحاصر فيه سرقسطة ، سار فى بقية الجيش إلى بنبلونة عاصمة ناڤار وخربها ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ؛ وهرعت إليه طوطة ملكة ناڤار تقدم إليه خضوعها وطاعتها ، فقبل الناصر خضوعها وأقر ولدها غرسية ملكاً على ناڤار فى طاعته وتحت حمايته .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ، ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثانى ملك ليون وهو محور النضال الحقيقى . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف وعهد بقيادته إلى نجدة الصقلبى . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوءوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ فى بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة فى القصر والجيش ؛ وكان لهذه السياسة التى أسرف الناصر فى اتباعها أسوأ الأثر فى نفوس الزعماء العرب ، وفى انحلال قوى الجيش المعنوية . وفى صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم متجهاً نحو سيمانقة دون أن يفطن إلى ما يفت فى عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية . وتأهب راميرو الثانى لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوّده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ، وانضمت إليه طوطه ملكة ناڤار ناكثة لعهدها ؛ وبذلك اتحدت قوى إسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً فى شأن الموقعة التى نشبت

بين المسلمين والنصارى . وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والتحفظ . وفى موطن واحد فقط تقدم إلينا الرواية الإسلامية تفصيلا للموقعة تقترب فيه من أقوال الرواية الفرنجية ، وذلك بالرغم مما يشوبه من لون القصص والأسطورة ؛ فتقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمّورة Zamora عاصمتها وكانت فى غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين ، وهزموا هزيمة شديدة وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً . وكان ذلك فى يوم ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة[١] .

ولدينا من الروايات الأندلسية ، رواية ابن حيان فى « المقتبس » وهى التى ينقلها عن عيسى بن أحمد الرازى ، وهو مؤرخ عاش قريباً من العصر ، وخلاصتها أن الناصر ، لما عزم على غزو أهل جلّيقية ، جد فى الاستعداد والحشد ، وخرج فى حشوده إلى الغزو فى شعبان سنة ٣٢٧ هـ (يونيه ٩٢٩ م) ، وقصد إلى أرض العدو بطريق طليطلة ، ونفذ إلى قشتالة ، فألفى النصارى قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة . وكان محمد بن هاشم التجيبى والى سرقسطة ، قد تقدم فى قواته ، فعبر نهر شنت مانكش (سيمانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولا ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة وقتل منهم جموع غفيرة ، وأسر محمد بن هاشم (١٣ شوال ٣٢٧ هـ) وارتد المسلمون فى تراجعهم إلى خندق عميق هو الذى تنسب إليه الموقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير . فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فملكها العدو فى الحال ، واحتل الناصر على النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هنالك يومه ، وقد ساد

---

(١) هذه رواية المسعودى فى مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٨٧ ، ونقلها المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الخلل فى الجيش ، وأيقن الناصر بتمحيص المسلمين ، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة ».

ويزيد ابن حيان على ما تقدم ، أن هذه الوقيعة التى اشتهر حديثها بالأندلس ، قد نالت الخليفة والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير ، واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية . ومن الحقائق المؤلمة التى ينقلها إلينا ابن حيان أنه قد بدا فى هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان ، فقبعوا للصفوف ، وسارعوا فى الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة » .

ورأى الناصر أن يعتذر لدى شعبه عما لحقه من الهزيمة ، فأصدر باسمه كتاباً عن الموقعة ينقل إلينا ابن حيان نصه ، وفيه يحاول كاتبه أن يفصل أدوار المعركة ، ويستخلص منه « أن المعركة سارت أولا فى صالح المسلمين ، واستطاع المسلمون أن يردوا النصارى إلى أن سقط محمد بن هشام التجيبى قائد الطليعة عن فرسه وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من أمداد كثيفة ، واضطرمت المعركة من جديد بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية أيضا بانتصار المسلمين . وفى اليوم التالى عاد النصارى إلى الهجوم ، واحتدم القتال ، وهزم النصارى كرة أخرى . ثم أمر أمير المؤمنين بالرحيل ، والعدو يلاحق ساقته ، وسار الناصر فى اتجاه حصن شانت مانكش ، ثم أشرف فى مسيره على خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها النصارى ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت الحرب ، ودافع أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، حتى تقدم أكثرهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته . فلما رأى النصارى ذلك ، نزلوا من متن الجبال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، وحامى الخليفة عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقه حتى أسهلوا ، وانتظمت جموع أمير المؤمنين وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد » ، وقد أرخ هذا الكتاب فى الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ .

وكتاب الخليفة اعتذار ، وزخرف من القول لاينفى الحقيقة التاريخية ، وهى أن المسلمين قد أصابتهم الهزيمة الفادحة .

وتقول الرواية الفرنجية من جهة أخرى إن عبد الرحمن سار بجيشه فى اتجاه سيمانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرقى مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفته طوطة فى قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية فى القتال فتوراً ، وتراجعوا أمام النصارى ، ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون . ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا فى قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربى حتى محلة صغيرة فى جنوبى مدينة شامنقة تسمى ألا ندبجا (الخندق) ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً ، فساد الخلل فى الجيش الإسلامى ، ومزقت منه فرق برمتها وقتل قائده نجدة بن حسين الصقلبى ، وأسر محمد بن هشام حاكم سرقسطة ، ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحاً ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان(١) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين ؛ ويقال إن الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن إسحاق إذ حذره من الكمين ، ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة ، ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره(٢) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم فى أوربا وفى العالم الإسلامى ؛ بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر فى قوة الأندلس ومنعتها . ولم يدخر عبد الرحمن منذ عودته إلى قرطبة جهداً فى تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت إلى هذه الكارثة ؛ ولكن موقعة الخندق كانت خاتمة أعماله الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه . واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه ؛ وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه راميرو بعد

---

(١) Dozy : Ibid; V. II. p. 155 & 156 وكذلك Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien V. II. p. 150 وما بعدها حيث يورد الروايات النصرانية .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

أن لبث فى سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ؛ وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ؛ واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

على أن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع خلال الأعوام التالية ، فقد قام المسلمون بعد ذلك بعدة غزوات متعاقبة فى أراضى ليون . ولما توفى راميرو الثانى فى سنة ٩٥٠ م ، ثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو وانتهى الأمر بجلوس أردونيو ، وغزا المسلمون أراضى ليون خلال ذلك وعاثوا فيها ، ثم عقد الصلح بين الفريقين واستقرت بينهما علائق السلم حيناً .

— ٣ —

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت شمالى إفريقية ، وامتدت بسرعة إلى عدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطئ الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً ؛ وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب ؛ فمنذ عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب غازية ، وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول ، وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . فى سنة ٣١٩ ﻫ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً استولى عليها من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزناتة إلى طاعته ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس ، وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى سؤله وأمده بالأموال والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ ﻫ (٩٣٣ م) استطاع موسى ، أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت ، ثم توفى عبيد الله فى

العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته . وجازت جيوش عبد الرحمن بعد ذلك مراراً إلى المغرب لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ؛ واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له .

ولما تولى المعز رابع الخلفاء الفاطميين ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها ، وأخذت أساطيلها تزعج الدولة البيزنطية بغزو شواطئ قلورية (جنوبى إيطاليا) كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق ؛ والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية . وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن وعاثت فى ألمرية ؛ فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب إلى شواطئ إفريقية (تونس) فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس ، ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطئ إلى عدوة المغرب ، وعبرت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدراجهم [1] .

— ٤ —

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر وانسيابها إلى المغرب الأقصى على مقربة من شواطئ الأندلس ، فى مقدمة البواعث التى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و١٤١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ و ٢٣٨ . وراجع **Dozy : Ibid; Vol. II. p. 164 & 165**

حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس . وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة ، واكتفى بلقب الإمارة ، وسار بنوه على أثره ؛ وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير بعيد أن تستعيد مجدها السالف فى عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط ، فإن أمراء بنى أمية لم يفكروا فى الإقدام على منافسة بنى العباس فى ألقاب الخلافة . وقيل فى تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، وإنهم أبعد عن نيلها لقصورهم عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية ، وإنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين (١) . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية ؛ فلما ظهرت الدعوة الفاطمية فى إفريقية ، ونمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الاضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك فى مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نص الوثيقة التى صدرت بذلك وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإننا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب

---

(١) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ، والمسعودى فى مروج الذهب (هامش نفح الطيب ج ١ ص ١٩٩) وابن الأبار فى الحلة السيراء (ليدن) ص ٩٩ .

عنا ، وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ »(١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة ، على يقين بأفضليته وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين ؛ وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة ؛ ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة فى سنة ٣٢٧ هـ ، أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام وهو تحريف واضح ينقضه وثيقة الدعوة الرسمية(٢) .

* * *

وكان من أبرز الحوادث الداخلية فى عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مسرّة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها والقضاء عليها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير فى شأنها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس العلوم الدينية وتبحر فيها ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة فى التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، ودرس على المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت شعار من النسك والورع . وكان ذلك فى بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه وسحر بيانه ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع . واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٨٧) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة ، وترويج البدع ، والانحراف عن مبادئ الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) ، ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه . وكان أهل السنة من جهة أخرى يهاجمون هذه الآراء ، وينوهون بانحرافها عن مبادئ الدين الصحيحة . ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى ولاة الأمر ، ولم يصدر قرار السلطة العليا فى شأن ابن مسرة وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته . وأخيراً ، صدر المرسوم الخلافى يدمغ تعاليم ابن مسرة وآراءه ، وقرئ على الناس بالجامعين بقرطبة والزهراء فى يوم الجمعة التاسع من ذى الحجة سنة ٣٤٠ هـ . ويبدأ الكتاب الخلافى بالتنويه بشأن الإسلام وأفضليته على سائر الأديان ، وبرسالة محمد خاتم النبيين ، ويحمل على « الفرقة التى لا تبتغى خيراً ولا تأتمر رشداً » ، وعلى ما انزلقت إليه من الضلال ، والمبادئ المغرقة ، وما تزعمه من خلق القرآن وتحريم التأويل ، وأنه لما شاع أمر هذه الجماعة ، وفشا غيها ، واتصل بأمير المؤمنين خبرها ، وقدحها فى الديانة ، وخروجها عن الجادة ، أمر بالضرب على أيديها ، وإنذارها إنذاراً فظيعاً ، واعتزم أن يوقع بها العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وأن ينفذ عهده إلى سائر عماله ، كى يقوموا بمطاردة هذه الطغمة الخبيثة التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » ، ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته .

وهنا ، نجد الدولة تعنى بشدة بأمر تلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرّة وتلاميذه ، وهى التى استحالت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً كما يصورها المرسوم الخلافى ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم كانت بالعكس حركة تفكير فلسفى حر ،

لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ، ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم ، وسلطانهم المطلق[١] .

— ٥ —

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان فى الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، وفيه بلغت الدولة الأموية بالأندلس ذروة القوة والبهاء ، وكان حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان فى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها فى المشرق بهاء وفخامة . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر وهو مقام الملك ، قصراً جديداً سماه دار الروضة وجلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ فى ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة ؛ ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه مُلك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرُّصافة فى ظاهرها لتكون له منزلا ومتنزها ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة ، فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولإنشاء الزهراء قصة

(١) أورد لنا ابن حيان فى المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) نص هذا الكتاب الخلافى الذى صدر بشأن ابن مسرة كاملا . وقد نشرناه بنصه الكامل فى كتابنا دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الرابعة ج ٢ ص ٤٣٣) .

ربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة، ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين فأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته الزهراء ، وإنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً وأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ، فأوحت إليه « الزهراء » أن ينشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها[١] . بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة .

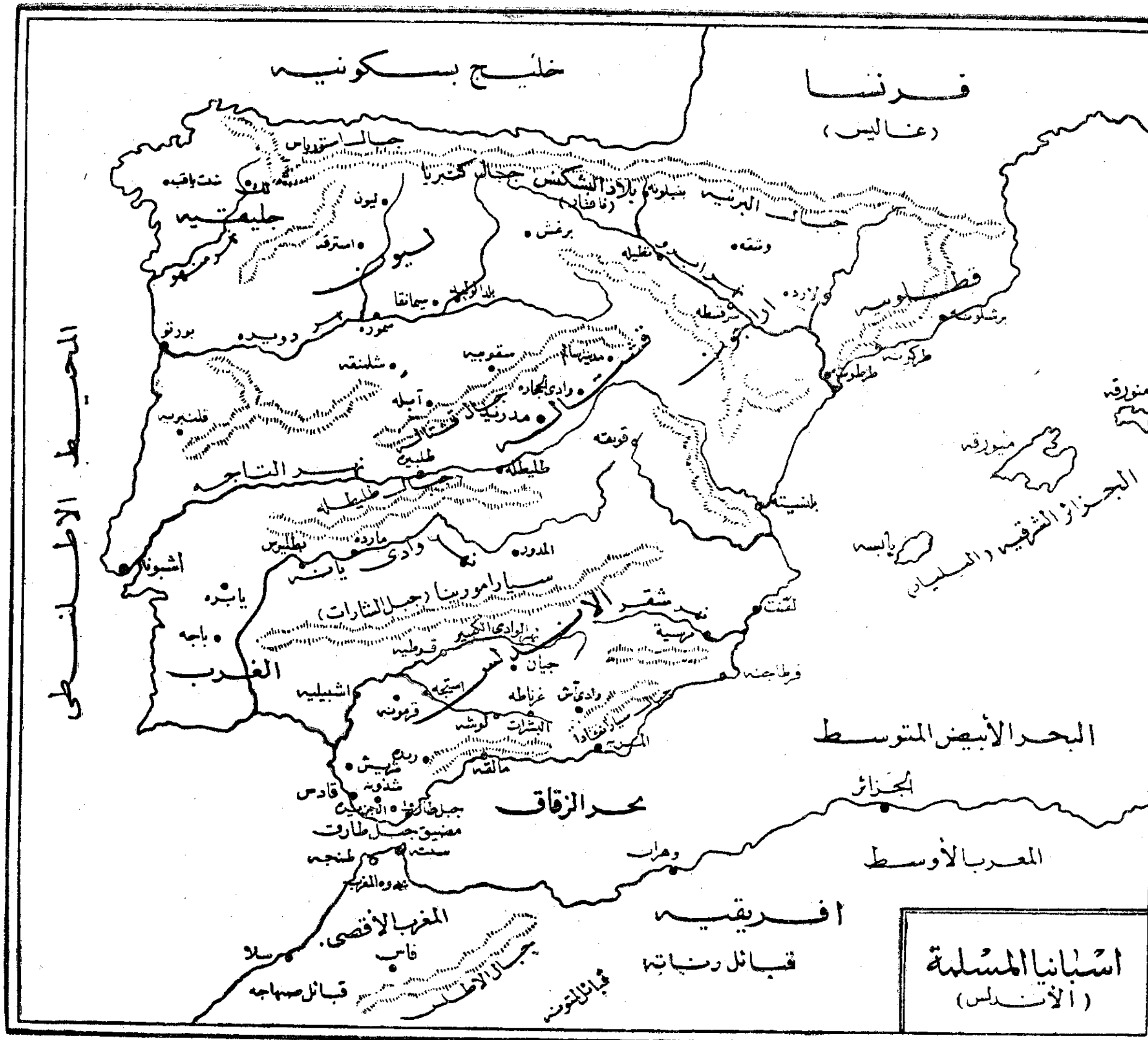
والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعـــدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم   ملك محـــاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعــاظم شــأنه   أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها فى سفح جبل يسمى جبل العروس[٢] . وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) ، وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة[٣] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ولا سيما من بغداد وقسطنطينية[٤] ، وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من ألمرية وريه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ومن الشام وقسطنطينية[٥] . وكان يشتغل فى بنائها كل

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .
(٢) نزهة المشتاق للإدريسى (طبع رومة) ص ١٩٣ ، والمسالك والممالك لابن حوقل . (ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ .
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .



اسبانيا المسلمة
(الأندلس)

يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعنى مدى خمسة وعشرين عاما . هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد الحكم[١] . وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ؛ وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلا سمى بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[٢] . وزوّد الناصر مقامه فى قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذى أهدى إليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها إلى الحوض[٣] . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الرويات على أنه لم يبن فى أمم الإسلام مثله فى الروعة والإناقة والبهاء[٤] .

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال[٥] ؛ وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى[٦] . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

(١) نفح الطيب ج١ ص ٢٦٥ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و٢٤٧ .
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .
(٤) « « ج ١ ص ٢٦٤ و٢٦٥ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٦٢٤ .
(٦) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة(١) . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة ، أوصاف وأرقام مدهشة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والفخامة ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس ، أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها(٢) . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوى أو قصر الفاتيكان الشهير برومة وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة ، والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأورقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع ، من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة ، وأن يحجر على الخليفة الطفل هشام المؤيد ولد الحكم ، ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ . (٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها بجوار قرطبة على نهر الوادى الكبير وسماها « الزاهرة » ، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية .

— ٦ —

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مراردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء اسبانيا والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف ؛ وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه فأنشأ له وحدات جديدة قوية ، وأصبح للأندلس من ذلك العهد أسطول قوى كامل الأهبة يسيطر على مياه اسبانيا الجنوبية ، والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر الأبيض المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لمما يستوقف النظر ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند

وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة وثلث يدخر للطوارئ [١] . ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام ، حتى أن العلامة دوزى ينقلها ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[٢]. ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره وانه وبنو حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر[٣] . وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وزهت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش ، ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وضواحيها ثمانية وعشرين ، وازدانت بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ووصلت إلى قاصية الشمال حتى أن الراهبة السكسونية هروسوڤيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر ، أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »[٤] .

— ٧ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التى أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان والمغرب ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٢) **Dozy : Ibid ; Vol. II. p. 173**

(٣) ابن حوقل المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٥ ، وكذلك **Dozy : Ibid; V. II. p. 179**

واصطناع البربر والموالى ، الذين آزروه وقت المحنة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة فى جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد فى البلاط وفى الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عهده بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة . بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، مقصوراً على شئون القصر والخاص .

واقتفى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل فى الاسترابة بالقبائل العربية ذات البأس والعصبية ، وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية فى الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق لا ينى عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف فى سبيله ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه(١) . وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم(٢) . وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم(٣) .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق فى الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون فى البطانة وفى القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الجلـّيقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللومبارديين والإيطاليين(٤) ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالا بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) Dozy : Ibid ; V. II p. 153

(٤) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥ .

مبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد ؛ ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة فى شئون الإدارة والحكم فضلا عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى فى القصر والإدارة والجيش ؛ ومالبث أن سما شأنهم وتوطدسلطانهم ،وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئذ فى القصر والبطانة بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين ، وفى رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين . وعلى أى حال فقد كان منهم الحرس الخلافى ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ، ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم[١] . بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرّى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص[٢] ؛ وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ؛ وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة (ألانديجا) (٣٢٧ هـ) ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوى ، الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية[٣] .

— ٨ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها فى عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها فى المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية فى طلب المودة وعقد العلائق الدبلوماسية .

---

(١) Dozy : Ibid; Vol. II. p. 153. وراجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ .
(٢) البيان المغرب ج٢ ص ٢١٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .
(٣) Dozy: Ibid; V. II. p. 153

وكان عصر الناصر من أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية ، فكانت ثمة معاهدات وسفارات وعلائق سياسية بين قرطبة ومعظم الأمم النصرانية ؛ وتوالت وفود ملوك النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ينشدون الحلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام فى الغرب. ففى صفر سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع إمبراطور قسطنطينية المعروف ببورفيروچنتوس بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود زين فيه القصر الخلافى بأبدع زينة ، وركبت العساكر فى أكمل نظام ، وجلس الناصر على عرشه الفخم يحف به أعضاء الأسرة الملكية والوزراء والحجاب ، وأقبل الرسل فهالهم ما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا إلى الناصر كتاب الإمبراطور مكتوباً باليونانية ، وعلى الكتاب طابع ذهبى على أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع وفى ترجمة عنوانه ما يأتى :

« من قسطنطين ورومانين(١) المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم ، إلى العظيم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاه » . وخطب أعلام الإسلام يومئذ فنوهوا بما بلغه الإسلام على يد الناصر من الإعزاز والقوة واجتماع الكلمة .

ولما انصرف رسل الإمبراطور ، بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ، ويوثق عرى التحالف بين المملكتين ، فرجع بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء .

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة(٢) ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم لتكون شبه تحالف مثالى ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة ، وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة لمقاومة الدولة الفاطمية

---

(١) هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ — ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

الفتية ، التى بدأت تزعج البزنطيين فى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس[(١)] ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم . ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع ، فى طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ هى سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ؛ وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة فى غموض وإيجاز وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللمان » وتسميه « هونوا » أو « هونتو »[(٢)] . ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية فى تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٢ هـ الموافقة سنة ٩٥٤ م ، ففى ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن يوحنا كان مكلفاً بالدفاع عن قضية النصرانية لدى زعيم الإسلام ؛ بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الكنسية أن مهمة سفارته الأصلية ، كانت بشأن توغل المستعمرات الإسلامية المغامرة فى جنوبى فرنسا وليجوريا وسويسرة وعيثها فى تلك الأنحاء ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها . ووصل يوحنا إلى قرطبة ومعه طائفة من الهدايا النفيسة ، فاستقبل بحفاوة ، ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ؛ ولما ألح يوحنا فى المقابلة أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل إلى أوتو رسولا حبراً فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ، وأنه سيعتقله أى يوحنا أضعاف هذه المدة لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية ؛ وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك ألمانيا رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ، ويبقى يوحنا معتقلا حتى يعود السفير ،

---

(١) هو بطرس بن سيمو ن الكبير ملك بلغاريا وقد كانت يومئذ تعرف بمملكة الصقالبة .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

واختير لهذه السفارة قس من رعايا الخليفة ، هو ربيع الأسقف ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى أوتو فى تورنجن حيث كان ينفق معظم أوقاته ؛ وكان أوتو يعانى يومئذ بعض المتاعب الداخلية ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة بعد سنتين من سفره (٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن برؤية يوحنا سفير الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة فى حفل فخم ، وأفضى السفير إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، هو أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس (جنوب فرنسا) وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها ولا تستطيع أن تبذل نصحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها[1] .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر فى نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعى السائد فى ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين فى ظل هذا النظام من الاستقلال الداخلى ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام قائلا : « إن ملككم أمير حكيم ماهر ولكن فى سياسته شيئاً لا أسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطة ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته معتقداً أنه يكسب عطفهم بذلك ، وهذا خطأ فادح فان مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد فى كبريائهم وتذكى رغبتهم فى الثورة »[2] . وفى ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر فى الحكم المطلق ، وسياسته فى سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة ، التى تبادلها أوتو الأكبر وعبدالرحمن الناصر زعيما النصرانية والإسلام فى عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية ، فقد تلقى الناصر بعد ذلك فى سنة ٣٤٤هـ

---

(١) راجع فى موضوع هذه السفارة وتفاصيلها فى : **Reinaud : Invasions des Sarrazins p. 137-193** وكذلك ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) **Dezy : Ibid; V. II. p. 153**

سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو ؛ وفى سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة ناڤار بنفسها إلى قرطبة ومعها ولدها غرسية ، وسانشو أمير ليون وطائفة من الأحبار والعظماء النصارى ؛ فاستقبلهم الناصر فى قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة وأقر ولدها ملكاً على ناڤار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ؛ ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا[1] ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح فى الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامى .

— ٩ —

فى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً وعاد إلى الجلوس فى القصر ، ولكنه أصيب بنكسة وعاد إلى احتجابه ؛ ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم فى شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (أكتوبر سنة ٩٦١ م) وكانت وفاته بقصر الزهراء فى الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهى أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام فى عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة ، ولم تصل الدولة الإسلامية فى الغرب إلى ما وصلت إليه فى عصر الناصر من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ ؛ وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة عسكرية وإدارية ، ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره فى تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره وسعادة جدّه واتساع ملكه وقوة سلطانه وإقبال دولته وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »[2] . وكان عالماً

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .
(٢) الحلة السيراء (ليدن) ص ٩٩ — ١٠٠

أديباً يهوى الشعر ويقرب الأدباء والشعراء ؛ ويفيض شاعره الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فى مناقبه ويستعرض غزواته فى أرجوزة طويلة[1] ؛ ويصفه ابن الأثير بأنه كان أبيض أشهل حسن الوجه عظيم الجسم قصير الساقين[2] ؛ وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً ، منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر الله .

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة ، وربما كان أبلغ ما قيل فى ذلك تلك العبارات القوية التى يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العهد الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة بأكثر مما يثيرهما المصنوع ؛ تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها ، والتى كانت تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر كما تدعو إليه فى أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذى استأثر بمقاليد الحكم وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »[3] .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧

(٣) Dozy; Ibid. V. II. p. 175

صبح أم المؤيد

(توفيت نحو ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م)

حظية خليفة ، أم خليفة ، سيدة مطاقة الرأى ، تولى وتعزل الوزراء والقادة ، وتدبر شئون السلام والحرب ، حسناء يغنم جمالها ملكا ، وبأس خليفة ، ويسيطر على قصر وحكومة ، صاحبة السلطان المطلق فى دولة من أعظم دول الإسلام ، نصرانية ناڤارية مع ذلك : تلك هى صبح أو صبيحة أو « أورور » قرينة الحكم المستنصر بالله الأموى خليفة الأندلس وأم ولده هشام المؤيد بالله .

يقدم إلينا التاريخ الإسلامى أمثلة كثيرة لنساء أجنبيات من الرقيق أو الأسرى سطعن فى قصور الخلفاء والسلاطين ، وتمتعن بالسلطان والنفوذ ، ولكنه لا يقدم إلينا كثيراً من المواطن التى تستأثر فيها أجنبية نصرانية بالسلطان والحكم المطلق فى دولة إسلامية قوية ، وتسهر على مصاير هذه الدولة بذكاء وعزم ، وتقودها لخير الإسلام والخلافة . والواقع أننا لا نستطيع أن نجد لذلك مثلا أسطع من مثل صبح أو « أورور » تلك الفرنجية الحسناء ، التى لبثت زهاء عشرين عاماً تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة ، وتقوم بتدبير شئونها فى السلام والحرب مع أعظم رجالات الأندلس . ولم تك صبح سوى إحدى كواكب هذا الثبت الحافل من النساء الفرنجيات ، اللائى يقدمهن إلينا تاريخ الأندلس منذ الفتح ، واللائى يتركن أثرهن فى سير الحوادث أحيانا . ونستطيع أن نذكر منهن « إيلونا » القوطية أرملة رُذَريك (لذريق) ملك القوط عند الفتح وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » فقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير أول حاكم للأندلس بعد الفتح ، وكان نفوذها ووحيها السيئ من الأسباب التى أدت إلى مقتله على يد الخوارج عليه (سنة ٩٥ هـ) . ومنهن لامبيجيا الفرنجية الحسناء ابنة أودو أمير أكوتين ، تزوجها « منوصة » الذى تسميه الرواية الفرنجية « منوزا » أو « مونز » وكان حاكماً للولايات الشمالية (البرنيه) ثم تحالف مع أبيها الدوق أودو ، وأخذ يدبر الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايته ، ولكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس يومئذ ، وقف على مشروعه وأرسل لقتاله جيشاً قويا لبث

يطارده فى الجبال حتى أخذ وقتل ، وأسرت زوجه الأميرة الحسناء لامبيجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق (سنة ١١٣ هـ) . ومنهن ماريا الإسبانية النصرانية زوج الأمير محمد بن محمد ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الإسلام فى الأندلس ويسميها العرب «مزنة» ؛ ومنهن أخيراً «ثريا» النصرانية زوج السلطان أبى الحسن النصرى ملك غرناطة ، وهى فتاة إسبانية وابنة قائد شهير أخذت أسيرة فى بعض المعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فأحبها السلطان أبو الحسن وتزوجها ، وكان لنفوذها ودسائسها أثر كبير فى إضرام الحرب الأهلية فى غرناطة ، وفى سير الحوادث التى أدت إلى ذهاب دولة الإسلام فى الأندلس .

ظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) (٩٦١ — ٩٧٦ م) . ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى ، وكل ما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك هو أن «صبحاً» كانت جارية بشكنسية[١] أى ناڤارية[٢] . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع بين المسلمين والنصارى أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة «أورورا **Aurora**» الفرنجية ومعناها الفجر ، أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[٣] . وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر[٤] . ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . وكان الحكم حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ولم يكن رزق ولداً بعد ، وكان يتوق إلى ولد يرث الملك من بعده ، فحققت أمنيته على يد صبح ، ورزق منها بولد سماه عبد الرحمن وذلك فى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٢ م) ، وفرح بمولده أيما فرح وسمت لديه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و٢٦٩ ، ودوزى **His. des Musulmans d'Espagne** (الطبعة الجديدة) ج٢ ص ١٩٠ .

(٢) يسمى العرب إقليم ناڤار (نبره) ببلاد البشكنس محرفة من اسمها القديم «**Bascony**» وأحياناً يسمونها «بسكونيه» .

(٣) راجع : **Dozy : Ibid, V. II. p. 190** .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و٢٥٣ .

مكانة صبح. ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولداً آخر سماه هشاما (سنة ٣٥٤هـ)؛ ولكن الحكم رزئ بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبد الرحمن ، فاشتد حزنه عليه وعقد كل آماله على ولده هشام ، ولبثت صبح تستأثر فى البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان . بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم بارعة فى تدبير الشئون مخلصة لسيدها ، تعاونه فى تدبير مهام الحكم بذكاء وبصيرة ، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية . ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية ، ولكن هنالك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية ؛ فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[1] ، وتصفها التواريخ الإفرنجية « بالسلطانة صبح »[2] ، بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية و « أم ولد » فقط . وتصفها الرواية الإسلامية بعد موت الحكم بأنها « أم ولد »[3] . وهو فى الشريعة وصف الجارية التى حملت من سيدها وأصبحت أماً لولده .

وعلى أى حال فقد كانت صبح تحتل مكان الملكة الشرعية ، وتتمتع فى البلاط والحكومة بنفوذ لا حد له ، وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها فى معظم الشئون ، وكانت كلمتها هى العليا فى تعيين الوزراء ورجال البطانة . وكان كبير الوزراء الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحَفى يجتهد فى خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير ؛ واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس ، تلك هى شخصية فتى مغمور يدعى محمد ابن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، أصله من الجزيرة الخضراء من قرية طُرُّش ، ووفد على قرطبة حدثاً ، ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً وبرع فى الآداب والشريعة ، وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال ، وكان فى نحو السابعة والعشرين من عمره حينما أراد الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب المصحفى فيمن رشح لتولى هذا

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) راجع دوزى ج ٢ ص ١٩٠ و١٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ ، والمعجب للمراكشى ص ١٤ .

المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه وظرف شمائله فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)(١) ، ولما توفى عبد الرحمن عين مشرفاً لأملاك أخيه هشام . وتقدم بسرعة فى وظائف الدولة ، فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث فقاضياً لكورة إشبيلية ، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة ، وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (ناظراً للخاص) .

ويرجع الفضل فى تقدم محمد بن أبى عامر بتلك السرعة إلى مواهبه وكفايته الباهرة ، ولكنه يرجع بالأخص إلى عطف صبح عليه وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء لا تزال فى زهرة شبابها ، ولا يزال قلبها يضطرم حبا وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان يفتنّ من جهة أخرى فى خدمة صبح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة قصراً صغيراً من الفضة بديع الصنع والزخرف ، لم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمله من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب الألباب ، ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً ، فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به ؛ وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته وإلى نساء قصره جمعياً ويعجب له ، ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عليم أو خادم لبيب وإنى خائف على ما بيده »(٢) . ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . ويقدم المقرى عن ابن حيان رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر فاستحسنت كتابته وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية ، وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ؛ وسعى لديه بعض خصومه واتهموه بأنه يبدد الأموال العامة التى عين للنظر عليها فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها ، وكان فى الخزانة عجز لجأ ابن أبى عامر فى تداركه وسده إلى صديقه الوزير ابن حدير ، فأغاثه وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه وتوطدت ثقته فيه ؛ واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه يندب لعظيم المهام والشئون ، وهو خلال ذلك كله يحرص على عطف صبح ويستزيد منه ، ويصانع الحاجب جعفر ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ، ويخلق حوله حزباً من الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه .

وكانت أعظم أمنية للحكم فى آخر أيامه أن يضمن البيعة من بعد وفاته لولده أبى الوليد هشام ، وهو يومئذ غلام فى نحو العاشرة من عمره ، وكانت أمه صبح تشاطره هذه الأمنية ، وكان أشد ما يخشاه الحكم أن ينتزع الملك من بعده أخوه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، فرأى تفادياً من ذلك أن يعلن بيعة ولده أثناء حياته ويضع رجال الدولة والأمة أمام الأمر الواقع ، ونفذ هذا المشروع فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ (فبراير سنة ٩٧٦ م) وعقدت البيعة لهشام فى حفل جامع بالقصر ، وأعلن الحكم أنه يقلد ولده الخلافة من بعده ، وأخذت له البيعة من الحاضرين ، ودعى له فى الخطبة على المنابر ونقش اسمه فى السكة ، وأنفذت الكتب إلى النواحى لأخذها من الأكابر والأعيان ؛ وتولى تنظيم البيعة والشهادة محمد بن أبى عامر وهو يومئذ مدير الشرطة وناظر المواريث ، وميسور الكاتب مولى صبح ، واطمأن الحكم بذلك على مصير ملكه ومستقبل ولده نوعاً ، ولكنه لم يعش بعد ذلك سوى بضعة أشهر ، وكان المرض يشتد عليه منذ حين ثم أصابه الشلل ؛ وتوفى فى الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) .

* * *

ولما توفى الحكم المستنصر بالله ، كانت مقاليد السلطة مجتمعة فى أيدى ثلاثة : هم صبح أم هشام ، والحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وكان قد أضيف إليه النظر على الحشم (نظر الخاص) . ولم يكن يعترض على

بيعة هشام سوى صقالبة القصر ، وكانوا زهاء ألف ولهم نفوذ عظيم ، وكان رأيهم أن تأخذ البيعة للمغيرة بن الناصر أخى الحكم ، ولكن الحاجب جعفر وقف على مشروعهم فى الحال ، واستدعى القواد والجند الذين يثق بإخلاصهم تحوطاً للطوارئ ، واتفقت الكلمة على تولية هشام وقتل المغيرة ، ولم تمض ثلاثة أيام على وفاة الحكم حتى بويع ولده هشام ولقب بالمؤيد بالله ؛ وتولى الحاجب جعفر وابن أبى عامر تنظيم البيعة ، وتولى ابن أبى عامر فى نفس الوقت تدبير مقتل المغيرة بن الناصر ، فنفذ إليه الجند ليلة البيعة وقتلوه . ومنحت السيدة صبح الوصاية على ولدها ، وكان فى نحو الثانية عشرة من عمره ، وتم بذلك مشروع الحكم المستنصر ، ومشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته والمحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظا بنفوذه ، وليستطيع أن يحقق على يدها ومن طريق تغلبها على ولدها ، ما يضطرم به من الأطماع الخفية . أما الحاجب جعفر فكان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى أن يتولى الملك رجل قوى كالمغيرة فيفقد نفوذه وسلطانه ؛ وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين الثلاثة ، ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة لم يكن طبيعيا ، ولاسيما بين الحاجب جعفر ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر ، وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر فى عهد الحكم تزداد كل يوم تمكناً ووثوقا ، وكان ابن أبى عامر يرى عندئذ فى صبح ملاذ حمايته ورعايته لدى الحكم ، وكان وجود الحكم يحد يومئذ كثيراً من أطماعه ومشاريعه ؛ ولكنه مذ توفى الحكم وأضحت السلطة الشرعية كلها مجتمعة فى يد صبح بوصايتها على ابنها هشام ، أخذ يتأهب للعمل فى طريق آخر ، ويرى فى خليلته صبح أداة صالحة هينة يستطيع أن يخضعها لإرادته ويسخرها لمعاونته ، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها على هذا الرجل ، الذى سحرها بخلاله وقوة نفسه وباهر كفاياته ، وتضع كل آمالها فيه لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض بضعة أيام على تولية هشام حتى رفع ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى رتبة الوزارة ، فى نفس الوقت الذى أقر فيه هشام حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له(١) ، وبذا

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

أشرك ابن أبي عامر فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الحكومة على ذلك الاختيار سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كاها دهراً ، وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ويرتاب فى أطماعه ونياته ، ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته .

وهكذا تولى محمد بن أبى عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتدبيرها ، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة . وكان ابن أبى عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بمؤازرة صبح له . ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت ترجع أيضاً إلى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى مُلك ولدها الفتى ، وأن يوطد السلام والأمن فى المملكة . فكان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الأمير الفتى ، هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبعه وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة التى تهيئ الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب . وكان ابن أبى عامر يشجع هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده ؛ ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين فى قصره ، لا يعرف شيئاً عن العالم الخارجى ، إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور بن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة . وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[1] . ويروى كوندى

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم ، جاء من ماردة إلى قرطبة يوم البيعة لهشام ليؤدى يمين الطاعة ، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع[1] . وفى الفرص النادرة التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج كان ابن أبى عامر يتخذ أشد التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم ، الذى اعتزم ابن أبى عامر أن يحدثه فى نظم الدولة لتمكين سلطانه وطغيانه ، وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

ولا يتسع المقام للإفاضة فى شرح الوسائل والإجراءات المتعاقبة التى تذرع بها ابن أبى عامر لتحقيق مشروعه ؛ ولكنا نقول فقط إنه سار إلى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ فى تحقيقها إلى أشد الوسائل ؛ واستطاع بعزمه وصرامته وبراعته أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . وفى ذلك يقول لنا ابن خلدون : « ثم تجرد (أى ابن أبى عامر) لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم »[2] . وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر ، ودسائس الخصيان الصقالبة بالقصر ؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة ، وحمل جعفر على نكبتهم وتشريدهم ، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقون أو شردوا ؛ ولبث بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر ، ويحرض صبحاً عليه ، وبنوه كلما سنحت الفرص بقصوره وسوء تدبيره ، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات ؛ وجد بعد ذلك فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، وسحق كل من يصلح للولاية والرآسة . وفى ذلك يقول ناقم منه :

أبنى أمية أين أقمـــار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أســـود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هـــذا الثعلب

وعمد ابن أبى عامر إلى الجيش ، فنظمه من جديد ليؤكد عونه وإخلاصه ، وأبعد عنه كل العناصر المريبة ، وملأه بصفوف جديدة من البربر والمرتزقة ؛

(١) كوندى ج ١ ص ٤٩٥ .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

وفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة فى ضاحية قرطبة على ضفة الوادى الكبير وسماها بالزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين ؛ وأنشأ له حرساً خاصا من البربر والصقالبة ؛ واتخذ سمة المُلْك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه فى السكة ؛ وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم(1) .

* * *

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب ؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبى عامر على إحداثه ؛ وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ووحيه ؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطرة التى يسعى إلى تحقيقها ؛ هذا إذا لم نفرض أن تلك الفرنجية المضطرمة الجوانح كانت تذهب فى حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر ، أو المنصور كما نسميه فيما بعد ، انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو ؛ وظهرت فى ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر المنصور على هشام ، وعلائقه بصبح . فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليـــه ؟
وتملك باسمـــه الدنيا جميعــاً ... وما من ذاك شىء فى يديه(2)؟

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ؛ وقاضيه ابن السليم :

اقترب الوعد وحـــان الهلاك ... وكل ما تحذره قـــد أتـــاك
خليفـــة يلعب فى مكتب ... وأمه حبـــلى وقاض « »(3)

---

(1) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (طبعة دوزى) ص ١٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩١ وما بعدها .

(2) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى .

(3) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة إلى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور ، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لكاتب مغربى يدافع فيها عن المنصور ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب[(1)].

ولم تخمد جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور ، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلا جديداً على إخلاصها ووفائها ، وكانت زوج المنصور أسماء ابنة القائد غالب مولى الحكم وصاحب « مدينة سالم » ، وهى فتاة بارعة الجمال والخلال ؛ زفت إلى المنصور سنة ٣٦٧ هـ ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ؛ ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ذاته بإشراف الخليفة ، وبعبارة أخرى بإشراف أمه صبح ؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف ؛ وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[(2)] ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور ، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل .

* * *

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصاير الأندلس ، ويسير من ظفر إلى ظفر ، ويثخن فى ممالك اسبانيا النصرانية ؛ ولم تبلغ اسبانيا المسلمة ما بلغته فى عهد المنصور من القوة والسؤدد ، ولم تبلغ اسبانيا النصرانية ما بلغته فى عهده من التمزق والضعف ؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة ، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل اسبانيا النصرانية ، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام ؛ فكانت الأندلس فى عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن ؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى ، وكان قد فتح فى عهد الحكم المستنصر ؛ ولكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكماً من الطغيان المطبق ، وكانت وسائله العنيفة الصارمة ، الدموية فى أحيان كثيرة ، تذكى من حوله أوار البغض والتربص ؛ وكان اجتراؤه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ودوزى ج ٢ ص ٢١٤ و ٢١٥ .

سلطانها ، والحجر على صاحبها الشرعى ، تقدمه دائماً إلى الشعب فى ثوب الطاغية المغتصب ، فكان الشعب يعجب به ولا يحبه . على أن المنصور كان يسير دائماً فى طريقه معتمداً على قوته ووسائله ، لا يحفل برأى الزعماء أو الشعب ؛ فلما استتب له كل أمر ، واجتمعت فى يده كل السلطات ، ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الملك ومظاهره ، فبدأ بالتخلى عن لقب الحاجب ، وخلعه على على ولده عبد الملك ، وهو فتى فى الثامنة عشرة ؛ وتسمى بالمنصور فقط ؛ ثم أصدر أمره بأن يخص دون سائر أهل الدولة بلقب « السيادة » فى المخاطبات ، وتسمى عندئذ « بالملك الكريم »(١) . وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التى يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهى إليها ، وهى أن ينسخ الخلافة الأموية حكماً كما نسخ سلطانها فعلا ، وأن ينشئ دولة عامرية تتمتع بمراسيم الملك والخلافة .

ولم تك ثمة معارضة يخشى بأسها المنصور ؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ولكنه لبث خاملا ضعيف العزم والإرادة ، لا تسنده أية قوة ؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة ، وجمع حوله الجيش . ولكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها : تلك هى صبح أو « أورور » صاحبته القديمة ، وعونه السابق فى الوصول إلى ذرى الحكم ، وفى الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه . فقد ثارت صبح لما تبينته من نيات المنصور وغايته ، وكانت صبح يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تصرم ذلك الحب الذى شغفها بالمنصور دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها كل سلطة ؛ وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة ، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ، ومنازعته واسترداد سلطانه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ؛ وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ، ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . ولم تقف عند هذا الحد ، بل فكرت فى القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه ، ففاوضت زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور ، وأرسلت إليه الأموال سراً ليحشد الجند وليتأهب للعبور إلى الأندلس ؛ وكان زيرى بن عطية أقوى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و٣١٦ .

زعماء المغرب ، وكان مخلصاً لبنى أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها ؛ فلبى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة . ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها ، فبادر برؤية هشام المؤيد سراً ، وتفاهم معه ، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم ؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لا تمتد إليها يد خصومه . ثم تحول إلى زيرى بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه ؛ فرد زيرى بأن محا اسمه من الخطبة وطرد عماله بالمغرب ، وتأهب للحرب ، وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاه واضح فهزمه زيرى وارتد إلى طنجة ؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين ، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم فى نهايتها زيرى ومزق جيشه ، وفر إلى الصحراء الداخلية (٣٨٨ هـ — ٩٩٧ م)(١) .

* * *

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر ، إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مُكن له فى كل شىء ، ولم يبق الخليفة الأموى سوى شبح فقط . ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلا بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام المؤيد ، أيام المنصور ، ثم تجددها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بنى أمية ، إلا مرحلة السقوط النهائى . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت إلى السكينة والعزلة ؛ فلانسمع عنها بعد ذلك فى تاريخ الأندلس ؛ ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م) أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك ، إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام(٢) . والظاهر أنها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالى ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٣ ، ودوزى ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

وللشاعر الأندلسى أبى عمر بن محمد بن دراج القسطلى قصيدة طويلة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » نقتطف منها ما يأتى :

بقاء الخلائق رهن الفناء وقصر التدانى وشيك التنائى
لقد حل من يومه لاقتراب وقد حان من عمره لانتهاء
هل الملك يملك ريب المنون أم العز يصرف صرف القضاء
هو الموت يصدع شمل الجميع ويكسو الربوع ثياب العفاء
ألم تر كيف استباحت يداه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملوك مصاباً وأودى بحسن العزاء

* * *

وحاشا لرزئك أن يقتضيه عويل الرجال ولدم النساء
لبيض أياديك فى الصالحات تمسك وجه الضحى بالضياء
فيا أسف الملك من ذات عز تعوض منها بعز العزاء
فتلك مآثرها فى التقى وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاء بأعمالك الزاكيات خير المجازين خير الجزاء
ولقيت فى ضنك ذاك الضريح نسيم النعيم وطيب الثواء(١)

(١) تراجع هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج القسطلى المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى ص ١١٩ — ١٢٣ .

المعتمـــد بن عباد

(٤٣١ – ٤٨٨ هـ) ، (١٠٣٩ – ١٠٩٥ م)

لما انهارت دعائم الخلافة الأموية بالأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وقامت على أنقاضها دول الطوائف ، كانت دولة بنى عباد فى إشبيلية أقوى الدول الحديدة وأعظمها شأناً ؛ وكان أمراء الطوائف فى شقاق مستمر ، يقاتلون بعضهم بعضاً ، وينتزع القوى منهم أملاك الضعيف ، ويحالفون النصارى بعضهم على بعض ؛ وكان الأمراء النصارى يرحبون بهذه الفرص للتفريق بين الأمراء المسلمين وإضعاف شوكتهم ، ثم إخضاعهم وانتزاع أراضيهم تباعاً . ولم يشذ بنو عباد عن هذه السياسة الخطرة ، فمذ قام عميدهم ومؤسس دولتهم القاضى أبو القاسم محمد ابن إسماعيل بن عباد فى إشبيلية (٤١٤ – ٤٣٣ هـ) ، اتجهت أطماعهم إلى محاربة جيرانهم المسلمين وانتزاع ما فى أيديهم ، واشتبك أبو القاسم ، ومن بعده ولده أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد بالله (٤٣٣ – ٤٦١ هـ) ، فى سلسلة من الحروب الطاحنة مع أمراء غرناطة ومالقة وقرطبة ، وإمارات ولايات الغرب ، انتهت باستيلاء بنى عباد على قرطبة وقرمونة وإستجة ومورور ورندة وما حولها من الأراضى ، وفى الغرب على لبلة وشلب وباجة ، واتسعت بذلك مملكة إشبيلية وغدت أعظم قوة فى جنوبى الأندلس .

وخلف المعتضد بالله ولده أبو القاسم محمد بن عباد فى سنة ٤٦١ هـ ؛ وتلقب بالمعتمد على الله والظافر بحول الله ، وكان فتى فى الثلاثين من عمره إذ كان مولده بمدينة باجة فى سنة ٤٣١ هـ ؛ وكان المعتمد من أعظم ملوك الطوائف إن لم يكن أعظمهم جميعاً ، وقد اشتهر بخلاله الباهرة ، من النباهة والشجاعة والفروسة والجود والبذخ ، كما اشتهر برفيع أدبه ورائع نظمه ، وكما اشتهر بمحنته وخاتمته المؤسية ؛ وفى عهده سطعت مملكة إشبيلية ، وكادت أن تعيد ببهائها وفخامة بلاطها مجد قرطبة الذاهب . وكان المعتمد يجمع حوله عدداً من الوزراء من ألمع كتاب هذا العصر وشعرائه مثل أبى بكر بن عمار ، وأبى الوليد بن زيدون ، وأبى بكر الدانى المعروف بابن اللبانة ، وابن حمديس الصـــقلى ، وغيرهم ، وكانت زوجه

اعتماد الرميكية ، ملكة إشبيلية الأثيرة ، التي يقال إن المعتمد ، اتخذ لقبه اشتقاقاً من اسمها ، وهي أيضاً من ذوى البراعة فى الشعر والأدب ، تمثل فى كثير من مجالس الشعر والأدب ، وتضفى بجمالها ، وبارع خلالها ، على تلك المجالس كثيراً من الروعة والسحر . وكانت قصور بنى عباد بإشبيلية ، ومنها المبارك والزاهى ، تعتبر نموذجاً للروعة والفن الرفيع . وعلى الجملة ، فقد بلغت مملكة إشبيلية فى عهد المعتمد ، ذروة القوة والبهاء . ولكن هذا البهاء الخلب ، كان يغشاه كدر الشقاق المستمر بين الإمارات الإسلامية ؛ وكان المعتمد بالرغم من ذكائه وفطنته ، يرى نفسه مضطراً إلى سلوك نفس المنحدر الخطر ، الذى انساق إليه أبوه وجده من قبل فى سبيل السيادة والملك ؛ ولم ير بأساً فى سبيل تحقيق أطماعه أن يمالىء ملك قشتاله على إخوانه المسلمين ، وأن يتعهد له بدفع الجزية ؛ وكان ملك قشتاله يومئذ أميراً وافر العزم والدهاء هو ألفونسو السادس ، وكان يعمل بكل ما وسع للضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، ويؤلب بعضهم على بعض ولا يضن على حلفائه منهم بعونه وتأييده ؛ وكان المعتمد بن عباد ، يرى فى جيرانه بنى ذى النون أمراء طايطلة أشد خصومة خطراً عليه ، ويسعى جهده إلى إسقاطهم وسحق دولتهم ؛ وقد نشبت بينه وبين يحيى بن ذى النون الملقب بالمأمون عدة وقائع دموية ، فقد المعتمد خلالها قرطبة وقتل بها ولده سراج الدولة ؛ ثم عاد فاستردها ، وهو يضطرم وجداً وحنقاً ويزمع الانتقام من بنى ذى النون بأى الوسائل . ولما توفى المأمون ، وخلفه حفيده الضعيف يحيى الملقب بالقادر ، انتهز المعتمد هذه الفرصة فغزا أراضى طايطلة واستولى على كثير من أنحائها . على أنه لم يقنع بهذا النصر الجزئى ؛ وكان جل همه أن تسحق مملكة بنى ذى النون حتى يخلو له الجو فى جنوبى الأندلس وفى شرقيها ؛ ولم يكن يحول دون غايته سوى تحالف بنى ذى النون مع ملك قشتالة . وكان ألفونسو السادس بالرغم من صداقته الظاهرة لبنى ذى النون ، الذين عاونوه وأكرموا وفادته أيام محنته ، حينما هزمه أخوه سانشو ، واستولى على مملكته قبل ذلك بأعوام ، يضمر لهم فى الواقع أخبث النيات ، ويتطلع إلى انتزاع مملكتهم المتداعية . ولم يكن يخشى فى ذلك سوى مناوأة ابن عباد وخصومته ؛ وعلى ذلك فقد سعى المعتمد إلى التفاهم مع ملك قشـــتالة ، وأوفد إليه وزيره الشهير الشاعر

أبا بكر بن عمار ، وقد كان يومئذ أبرع ساسة الأندلس ، لمفاوضته ، وعقدت بين الملكين محالفة سرية ، تعهد فيها ألفونسو بمعاونة المعتمد على محاربة خصومه من الأمراء المسلمين أو النصارى ، وتعهد المعتمد من جانبه بأن يترك ألفونسو حراً فى محاربة طليطلة والاستيلاء عليها ، وأن يؤدى له جزية الخضوع ؛ وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن المعتمد قبل أن يقدم إحدى بناته وتسمى زائدة زوجة لملك قشتالة ، وأنها حظيت لديه فيما بعد ، وتنصرت باسم البزابيت ، وأنجب منها ولداً هو سانشو الذى قتل حدثاً فى موقعة « إقليش » . وهى رواية باطلة كشفت عن حقيقتها البحوث الأندلسية الحديثة[1] .

وتم لملك قشتالة ما أراد ، ولم يمض سوى قليل حتى استولى على طليطلة بعد حصار قصير (٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م) وانتهت بذلك مملكة بنى ذى النون ، وسقط أمنع معاقل الأندلس الشمالية فى يد اسبانيا النصرانية ؛ وشهدت الأندلس جامدة مروعة تلك الكارثة التى تنذرها بسوء المصير ؛ وسرعان ما أدرك المعتمد ابن عباد سوء تصرفه وفداحة الخطأ الذى ارتكبه . ذلك أن حليفه ألفونسو ما كاد يفتتح طليطلة ، حتى انقلب عليه يطالبه بالجزية ، ويطالبه بتسليم بعض الأراضى والحصون التى كانت تحت حكمه ، بحجة أنها تابعة لطليطلة ؛ وثار الخلاف بين الحليفين ، وتوعد ألفونسو المعتمد بشر العواقب . وشعر المعتمد بالخطر الذى يهدده من حليفه القديم ، وشعر أمراء الأندلس جميعاً بأن ملك قشتالة سوف يجتاح قواعدهم وأراضيهم كلها ، إذا لم يبادروا إلى الاتحاد والتضافر على قمع الخطر المشترك ؛ واجتمعت كلمتهم على توحيد القوى والخطط ؛ بيد أنهم رأوا أن قواهم المضعضعة لم تعد تكفى وحدها لدرء الخطر ، وانتهوا بعد البحث والتشاور إلى وجوب الالتجاء إلى إخوانهم المسلمين فى الضفة الأخرى من البحر ، ودعوتهم

---

(١) وخلاصة ما انتهى إليه البحث فى ذلك هو أن زائدة هذه لم تكن ابنة للمعتمد ، وإنما كانت زوجة لولده الفتح حاكم قرطبة . ولما هاجم المرابطون قرطبة فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعث الفتح بزوجته وولده وماله إلى حصن المدور . ولما قتل الفتح مدافعاً عن قرطبة ، التجأت زائدة إلى ملك قشتالة الفونسو السادس ، ففتن الملك النصرانى بجمالها ، واتخذها حظية ، ثم تزوجها ، ونصرت باسم « اليزابيث » وأنجب منها ولده سانشو الذى قتل صبيا فى معركة اقليش (٥٠١ هـ) . راجع مقالا للاستاذ ذليڤبروڤنسال عنوانه **Zaïda la Mora** نشر فى مجلة **Hispéris (XVIII - 1934)** وراجع كتابنا « دول الطوائف » الطبعة الثانية ص ٣٤٦ و٣٤٧ والمراجع .

إلى إنجادهم وغوثهم . وهكذا استغاث ملوك الطوائف بعاهل المغرب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين اللمتونى[1] ، وكان المرابطون يومئذ فى أوج سلطانهم وقوتهم ؛ واستجاب أمير المسلمين يوسف إلى نداء أمراء الأندلس ، وعبر إليهم فى جيش ضخم ؛ وسارت قوى الإسلام المتحدة إلى قتال ألفونسو السادس ؛ والتقى الفريقان فى سهل « الزلاّقة » ، على مقربة من مدينة بطليوس . وبذلت الجيوش المرابطية والأندلسية جهوداً فادحة ، وأبلى المعتمد خلال المعركة خير بلاء ، شهد به عاهل المرابطين فيما بعد فى رسالته عن الموقعة . وانتهى الأمر بأن هزم النصارى هزيمة فادحة ، وكانت الزلاّقة من أيام الإسلام المشهودة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ، وفيها حطمت قوى اسبانيا النصرانية ، وانقشع الخطر الداهم عن الأندلس واستمدت حياة جديدة .

— ٢ —

وعاد يوسف إلى المغرب بعد أن شهد أحوال الأندلس وأحوال أمرائها ، وأدرك هذا الأمير النابه الذى كان يؤثر العيش الخشن على ملاذ الملك ونعمائه ، أن الحياة الناعمة التى انغمس فيها أهل الأندلس هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى رجولتهم وعزائمهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، والذى لم ينقطع من بعد عوده ، سوف يقضى عليهم جميعاً بلا ريب إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء الجزيرة فى أقرب وقت ؛ ومن ثم فقد اعتزم أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المتنابذين ، المترامين على أعتاب العدو فى سبيل قتال بعضهم بعضاً .

وفى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) عبر يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة برسم الجهاد ، وكان قد عبر إليها للمرة الثانية قبل ذلك بعام ولكنه لم يقم يومئذ بغزوات ذات شأن ؛ وازداد سخطاً على أمراء الأندلس لما بدا من تقصيرهم فى نصرته . ولما عبر للمرة الثالثة كانت تحدوه نحوهم نيات خطرة ؛ وسار تواً إلى غرناطة فاستولى عليها ، وبعث بأميرها عبد الله بن بلكين سجينا إلى أغمات ؛ ثم ألقى أوامره بافتتاح قواعد الأندلس الأخرى ولاسيما إشبيلية إلى قائده سير بن أبى بكر ،

---

(١) نعنى بترجمة يوسف بن تاشفين فى الفصل القادم .

وارتد إلى العدوة يجهز الجيوش والأمداد . وزحفت الجيوش المرابطية على معظم قواعد الأندلس وافتتحتها تباعاً ، وقتل جميع أمرائها أو أسروا ، وكان بين القتلى الأمير الشاعر ابن الأفطس عمر المتوكل صاحب بطليوس وولديه . وسار سير بن أبي بكر بنفسه إلى إشبيلية ، وأدرك المعتمد بن عباد أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ؛ واستغاث بحليفه ألفونسو السادس فأمده بجيش كبير ، ولكن المرابطين هزموه على مقربة من قرطبة ؛ وامتنع المعتمد بحاضرته إشبيلية ، واستعد داخلها للدفاع لما شهد من تفوق المرابطين عليه في الكثرة والأهبة ؛ وشدد المرابطون الحصار على إشبيلية ؛ وسقطت في تلك الأثناء قرطبة في يد المرابطين ، وقتل فيها الفتح ولد المعتمد مدافعاً عنها ؛ ثم سقطت رندة ، وأسر فيها ولده يزيد الراضي بالله ، وقتل بالرغم من العهود التي قطعت بتأمينه . وشعر المعتمد بالأمل يغيض في نفسه شيئاً فشيئاً ، ولكنه استمر على مقاومته ، حتى اقتحم المرابطون إشبيلية عنوة ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً ، واستقبلهم المعتمد في خاصته على باب قصره يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، فاستولى المرابطون على المدينة ، وأسروا المعتمد وآله ، واحتووا على قصره وماله ومتاعه ، وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م) .

وهكذا سقطت مملكة بني عباد كلمح البصر ، وخبا نجمها الذي سطع حيناً في سماء الأندلس ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، في مناظر من الفروسة الرائعة تخلق بالأُلى شادوها ؛ ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . ومن الخطأ التاريخي ما تزعمه بعض الروايات من أن المعتمد سلم عاصمته إلى المرابطين بالأمان مختاراً[1] . والحقيقة التي تجمع عليها معظم الروايات الإسلامية والأندلسية بنوع خاص ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية وأخذوها عنوة في

(١) ينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن إشبيلية سلمت للمرابطين بالأمان (ص ١٠١) ولكن ابن الأثير (ج ١٠ ص ٦٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٠ و ٤١) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) ، والفتح بن خاقان في قلائد العقيان (ص ٢١ و ٢٢) والمراكشي في المعجب (ص ٧٧) والمقري في نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣) يتفقون جميعاً على أنها أخذت عنوة . ويأخذ دوزي بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٤٩ و ١٥٠) .

مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، حتى اقتحم الأعداء قصره ، وأسروه . وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية شاهد عيان هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة شاعر المعتمد وصديقه ، فهو يصف لنا فى كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية » مناظر سقوط إشبيلية التى شهدها بنفسه فى قوله :

« إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب فى الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، وذخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه وترامیه ، على الموت بنفسه ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة فى البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ؛ وخرج الناس عن منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى . . . » (١) .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ومعاصرهم تقريباً منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه فى تلك العبارات القوية المؤثرة : «ولما انتشر الداخلون فى البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) ، والموت يتسعر فى ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبة القصر ، وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرقاً ، وملأتهم فَرَقاً ، وما زال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى إلى قصره ، واستمسك به يومه وليلته ، مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته . . . »(١) .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه فى وصف ذلك اليوم المشهود إذ يقول :

(١) نقله نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٥٣) .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ فى ترجمة المعتمد بن عباد ؛ وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاما .

إن يسلب القوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره بعد سقوط حاضرته وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه وتقاه ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى جميع ولده ونسائه وآله .

— ٣ —

وكان يوسف بن تاشفين قد قرر مصير بنى عباد كما قرر مصير من قبلهم من الأمراء المغلوبين ؛ وقد رأينا كيف بطش المرابطون بأمراء الأندلس فقتلوا بعضهم ، وأسروا البعض الآخر وألقوا بهم إلى غيابة السجن ، وكان بين القتلى الفتح ويزيد الراضى بالله ، ولدا المعتمد بن عباد ؛ قتل الأول مدافعاً عن قرطبة ، وأسر الثانى ثم قتل عند سقوط رُندة . أما المعتمد نفسه فكان نصيبه الأسر والنفى ؛ وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث أخرى غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه كما رأينا ؛ وربما أراد سيد المرابطين بذلك أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ فى التراب ذلك الذى كان قطب الفتنة فى الأندلس ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه . وعلى أى حال ، فقد انتزع المعتمد وآله من « قصر » إشبيلية المنيف ، وحملوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى المنفى ؛ وسارت السفن من إشبيلية فى نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى المغرب ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ؛ وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد

بالبكاء والنواح، حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس مع آله رهين الأسر والذل، يغادر موطن عزه إلى مصيره المجهول . وفى ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر الدانى (ابن اللبّانة) ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، من قصيدة طويلة :

نسيت إلا غداة النهــر كونهم ... فى المنشــآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع فــلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجــه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعهــا ... كأنها إبل يحدو بهــا الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد(١)

وأنزل المعتمد وأسرته أولا بطنجة ، واعتلقوا فيها أياماً ؛ وهنالك زاره الحصرى الضرير الشاعر ، وألحف فى طلب الصلة ، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع فى ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وقطعة شعر يعتذر فيها عن ضآلة الهبة ؛ فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة ، وقضوا هنالك أشهراً قبل أن يحملوا إلى مقرهم النهائى(٢) .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم إلى أغمات ، وهى مدينة صغيرة تقع على مقربة من مراكش عاصمة المرابطين ؛ وكانت قد اختيرت لتكون منفى للأمراء الأندلسيين ، وإليها سيق عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وآله من قبل ؛ وحل المعتمد بن عباد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ ، وزجوا إلى قلعتها المنيعة ؛ وهنالك قضى المعتمد عدة أعوام يرسف فى أغلال الأسر ، ويتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المعنّى ؛ ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ، بل كان سجناً شنيعاً بكل معانى الكلمة. ضُيق فيه على المعتمد وآله أشد تضييق ، ولم يكن يطلق إليهم ما يكفيهم من النفقة ، فكان المعتمد وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطع فى الأندلس

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٢٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٣ ، والمراكشى فى المعجب ص ٧٩ و٨٠ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٨٠ و٨١ .

بجمالها وخلالها البارعة ، وأبناؤه الأمراء ، وبناته الأقمار(١) ، يرتدون الثياب والأطمار الخشنة ؛ وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن ؛ وهنالك ما يدل على أن المعتمد كان مصفداً بالحديد فى قدميه على الأقل فى أواخر أيام أسره ، ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة بلا ريب ، وكانت قسوة لا مبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق فى شىء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين من الفروسية والخلال الحسنة ؛ وسنرى فيما بعد كيف يفسر موقفه وكيف يلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوج المعتمد ، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ، ثم توفيت ، ودفنت بأغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ؛ فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد ؛ وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى ؛ فصدرت عنه فى معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية وكلها تلهف على سابق مجده وبكاء على ماضيه ، ورثاء لمحنته ، فمن ذلك قوله :

أنبـــاء أسرك قد طبقن آفـــاقا ... بل قد عممن جهات الأرض إطلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم ... حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئـــدة ... وأغرق الدمع آماقاً وأحـــداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها ... وقيل إن عليك القيد قد ضـــاقا

وقوله يوم عيد ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعـة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتســليم خاشـعة ... أبصــارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافيـة ... كأنهـــا لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرتَ فى العيد لا عادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطـــيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثـــلا ... فردّك الدهـــر منهيّاً ومأمـــورا

---

(١) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . فمن أولاده الذين تذكرهم الرواية الرشيد والمأمون والراضى والفتح ، وأبو هاشم وعبد الجبار ، وغيرهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عنهن ، سوى ابنته الشاعرة بثينة .

من بات بعدك فى مُلك يسـرُّ به ... فانما بات بالأحلام مغروراً

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررن به ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيدِ حسادة ... ولكن حنيناً إن شكلى لها شكل
فأسرع فلا شملى صديع ولا الحشى ... وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر بالأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم والتوجع على أيامهم طائفة من القصائد المؤثرة ، التى ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها ؛ وكان أغزرهم فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى سجنه بأغمات ، ونظم فى دولته وأيامه ، وفى محنته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ بنى عباد عنوانه « كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك »[1] .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ؛ بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع فى ظلمات سجنه كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق بها الغمام[2] ؛ وفى أواخر أيامه شدد يوسف فى التضييق عليه ، وأمر بتصفيده بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى حصن أركش من حصون إشبيلية الجنوبية ؛ وكان ممن أفلت عند سقوطها . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) توفى المعتمد فى سجنه بأغمات ، بعد أسر دام زهاء أربعة أعوام ، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بأغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله فى رثاء نفسه قبيل وفاته ، وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرّى للصادى

---

(١) تراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها . ولم يصل إلينا كتاب ابن اللبانة .

(١) يوسف أشباخ فى كتابه « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » الطبعة الثانية ص ٩٧ .

بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا — بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم — بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدرٌ — من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النقش أعلمه — أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم — رواك كل قطوب البرق رعّاد

وهكذا اختتم المعتمد حياته الباهرة فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ؛ ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبو بحر بن عبد الصمد وهو من شعراء دولته وخاصته المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخرّ أمامه ، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله مرثيته الغراء فى المعتمد بن عباد ، ومطلعها :

ملك الملوك أسامع فأنادى — أم قد عدتك عن السماع عوادى
لمّا خلت منك القصور ولم تكن — فيها كما قد كنتَ فى الأعياد
أقبلتُ فى هذا الثرى لك خاضعاً — وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى — نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريته — زادت علىّ حرارة الأكباد

فبكى الناس أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج ، وكان منظراً يفتت الأكباد[1] .

* * *

ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو أربعين عاماً غدا قبر المعتمد بن عباد وقبر زوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً . وفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين بن الخطيب ووصفه لنا بقوله : « وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سورة وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة

(١) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١ .

رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول ، من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها » . وأنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات — رأيت ذلك من أولى المهمات
أناف قبرك فى هضب يميزه — فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا — فأنت سلطان أحياء وأموات
ما روى مثلك فى ماض ومعتقدى — أن لا يرى الدهر فى حال ولا آت

وزاره المقرى مؤرخ الأندلس فى سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكره ابن الخطيب فوق ربوة فى مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً(١) .

وقد زرنا نحن أغمات ، وشهدنا قبر المعتمد وزوجه اعتماد ، وقد أضحى كومة من الأحجار المتناثرة تحف بها الأعشاب البرية ، وشعرنا أمام هذا القبر المغمور بكثير من الخشوع .

— ٤ —

كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ؛ وما زالت محنة هذا الأمير الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كر العصور بألوانها المشجية ؛ وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ؛ وفى كثير منها يصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ؛ ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ويصمه بأقسى الصفات ، فيقول لنا ابن الأثير مثلا فى التعليق على أسر بنى عباد واعتقالهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة . . . وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره »(٢) .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المتعمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله ؛ وتتلخص هذه الأعذار فى أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ،

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .
(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

وتحالفه مع النصارى على إخوانه فى الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام فى الأندلس إلى الخطر تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقضيه فداحة ذنبه . على أنه إذا كان حقا أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات ثقيلة ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الإسلام ، كان أول الداعين إلى الوحدة وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لا ريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها لم تكن دينية فقط ، بل كانت دنيوية أيضاً ، وأن الأندلس كانت تجذب المرابطين بخصبها وغناها ونعمائها . وإنه ليحق لنا أن نتساءل أى ضرورة ، أو أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيبا على النحو الذى اتبعوه بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم ؟ وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لا حول لهم ولا قوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات عمله كأمير وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، للتكفير عما أثم بسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

هذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد ؛ ولا ريب أن هذه الخاتمة المؤسية ، قد أسبغت على المعتمد ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

يوسف بن تاشفين

(نحو ٤١٠ – ٥٠٠ هـ)، (١٠١٩ – ١١٠٦ م)

رجلان عظيمان، يتبوآن فى تاريخ المغرب مكانة خاصة، كلاهما عبقرية ذات خواص ممتازة، وكلاهما مؤسس إمبراطورية عظيمة، هما يوسف بن تاشفين اللمتونى، وأبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدى.

ظهر أولهما فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، أى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى. وظهر الثانى فى أوائل القرن السادس الهجرى أو أوائل القرن الثانى عشر الميلادى. وشاد الأول صرح الدولة المرابطية الشامخة، التى سطعت فى المغرب والأندلس لمدى قصير، ثم انهارت دعائمها كما قامت بسرعة مدهشة؛ وأقام ابن تومرت وخلفاؤه على أنقاضها دولتهم العظيمة التى عرفت بدولة الموحدين.

لا يعرف التاريخ شيئاً أو لا يعرف كثيراً عن نشأة يوسف بن تاشفين وحياته الأولى. وأول ما تحدثنا الرواية عنه فى منتصف القرن الخامس الهجرى حيث تقدمه إلينا رئيساً وحاكما. وكل ما نعرفه عن نسبته أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقين بن منصور بن مصالة بن أمية الحميرى، وأنه ينتمى إلى قبيلة لمتونة من بطون صنهاجه إحدى قبائل البرانس، وأعظم القبائل البربرية فى ذلك العصر عدداً وعصبية وجاها. وأما تاريخ مولده فهو على أرجح الأقوال فى بداية المائة الخامسة للهجرة، وأما عن نشأته وتربيته فلا تقدم إلينا الرواية أية تفاصيل شافية. بيد أنها تنوه بخلاله الممتازة، من الحكمة والشجاعة والعدل والتقوى. ومن المرجح أيضاً أن يوسف لم يتلق من العلم قسطاً يذكر أو لم يتلق منه شيئا. فقد كانت قبائل المغرب الأقصى يومئذ تسودها البداوة والجهل، ويسودها نوع من الوثنية، ولا تعرف من الإسلام سوى الإسم.

وإنما نشأ يوسف فى بيت رياسة فى لمتونة. ولرياسة لمتونة فى هذا العصر قصة خلاصتها أن زعيم كدالة، وهى شقيقة قبيلة لمتونة، فى أوائل القرن الخامس

الهجرى ، يحيى بن إبراهيم الكدالى ، لما رأى ما انتهى إليه قومه من الجهل والبداوة والتأخر ، فكر فى العمل على تهذيبهم وتثقيفهم فى أمور دينهم ، ورحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وقضاء فريضة الحج . ولما عاد إلى قومه استقدم معه من القيروان فقيهاً يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى ، ليعلمهم أمور دينهم . وكان عبد الله من أولئك الدعاة الذين يضطرمون غيرة وحماسة ، وكان فوق تقشفه وورعه ، خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فاستطاع بعد جهود شاقة أن يستميل إليه أولئك البدو الصحريين ، وأن يثقفهم فى أمور الدين ، وأن يبث إليهم كثيراً من الحماسة الدينية . ولما تمكنت هيبته من نفوسهم ، وأصبح صاحب الأمر فيهم ، دعاهم إلى الجهاد ، وبثّ تعاليم الإسلام الصحيحة بين القبائل ، فلبوا الدعوة وحاربوا القبائل المجاورة وأخضعوها تباعا ، حتى دانت لهم سائر لمتونة وكدالة ومسوفة ومسطاسة وغيرُها من بطون صنهاجة . وتولى عبد الله بن ياسين الزعامة الدينية ، وتولى يحيى زعامة الجيوش . ولما توفى يحيى بن إبراهيم الكدالى ندب عبد الله للرياسة مكانه ، أبا زكريا يحيى بن عمر اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد .

وكانت هذه القبائل تعرف عندئذ بقبائل الملثمين ، لأنها كانت تتخذ اللثام شعاراً لها ، وقيل فى سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصا من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم ، أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، أو أنهم كانوا يقلدون فى ذلك قبيلة حمير التى كانوا ينتسبون إليها ؛ فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين لقباً جديداً وسماهم بالمرابطين . والمرابط هو من لازم الثغر لدفع العدو وذلك إشارة إلى اضطلاعهم بمهمة الجهاد فى سبيل الله ، وعرفوا من ذلك الحين بهذا الاسم الجديد .

* * *

واستمر عبدالله بن ياسين فى غزواته لقبائل المغرب وإماراته ، وافتتح بلاد درعة وسجلماسة الواقعة فى جنوب شرقى موقع مدينة مراكش — ولم تكن أنشئت بعد — ثم افتتح أغمات ؛ وتوفى أبو زكريا يحيى بن عمر اللمتونى فى تلك الأثناء ، فندب

عبد الله للرياسة مكانه أخاه أبا بكر بن عمر ، وذلك فى سنة ٤٤٨ هـ . وعين أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً لمقدمة جيشه ، وسار نحو الجنوب مفتتحاً بلاد السوس ، بينما كان عبد الله بن ياسين يدفع فتوحه نحو الشمال والشرق ، حتى قتل مجاهداً فى بعض حروبه ضد أهل تامسنا ، وهى أقصى فتوحه شمالا وذلك فى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) .

وهكذا تذكر الرواية لأول مرة اسم يوسف بن تاشفين ، وتقدمه إلينا فى معرض الرياسة والقيادة . أما قبل ذلك فقلّما تذكر عنه شيئاً .

ولما توفى عبد الله بن ياسين ، استقل أبو بكر بن عمر اللمتونى بالزعامة والحكم ، وتابع حروبه وغزواته ، ثم سار إلى الصحارى الجنوبية ، فتوغل فى بلاد السودان مما يلى جنوب المغرب الأقصى ، واستخلف ابن عمه يوسف فى حكم المغرب . ونزل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية بعد أن طلقها ، حتّى لا تشاطره خشونة الصحراء ، فتزوجها يوسف فيما بعد .

وشغل يوسف فى تلك الأثناء بتوسيع سلطانه ، فبث جيوشه فى مختلف أنحاء المغرب ، وأخذت الجيوش المرابطية فى محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناتة وبنى يفرن ، ودوختها ، وغلبت على سائر أراضيها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحى المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات فى أواخر سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م) ، وقد عظم أمره ، وذاع صيته فى أنحاء المغرب .

وبينما كان أبو بكر مشغولا بحروبه فى الصحراء ، كان يوسف يفتتح مدن المغرب العريقة واحدة بعد أخرى . فسار أولا إلى مدينة فاس أعظم قواعد المغرب الأقصى وافتتحها سنة ٤٥٥ هـ ، واخترق بعد ذلك مفاوز غمارة غازياً حتى طنجة ، واستمر يفتتح القواعد والثغور تباعاً حتى دوخ قبائل المغرب كلها ، وخضعت له زناتة وغمارة ومصمودة ومغراوة ، بعد حروب شديدة استمرت عدة أعوام .

وفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، عنى يوسف بأن يختط لنفسه محلة حسنة الموقع ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً لذخائره ، ووقع اختياره على أرض تقع شمال غربى أغمات ، وكانت لبعض المصامدة فاشتراها يوسف ، واختط

بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل فى بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان هذا مولد مدينة مراكش العظيمة ، التى غدت حاضرة الدولة المرابطية ، ثم الدولة الموحدية من بعدها . وكانت الحاضرة المرابطية الجديدة تقع فى حمى جبل درن من شعب الأطلس ، وتقع من جهة أخرى فى قلب بلاد المصامدة ، وقد كانوا من أقوى قبائل المغرب ، وأكثرهم جمعاً ، وكانوا يؤلفون أغلبية الجيوش المرابطية .

وفى سنة ٤٧٠ ﻫ استولى يوسف على طنجة من واليها الحاجب سكوت البرغواطى ، وكان شيخاً فى التسعين من عمره فقاتل الفاتحين حتى قتل . وزحف يوسف بعد ذلك على المغرب الأوسط فافتتح تلمسان ووهران ، واستمر فى فتوحه حتى الجزائر ثم تونس . وكانت مدن المغرب وثغوره يومئذ جميعاً فى يد الزعماء والأمراء المحليين ، يحكمونها مستقلين عن كل سلطة مركزية ، فقضى يوسف على سلطانهم ، وبسط حكمه على جميع أقطار المغرب ، من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوبا .

ويجب أن نشير هنا إلى حادث كان له أثر حاسم فى مصير الدولة المرابطية الفتية . وقد ذكرنا من قبل أن الأمير أبا بكر اللمتونى ، عميد الدولة المرابطية الأصلى ، قد استخلف ابن عمه يوسف فى حكم المغرب ، وسار إلى الصحارى الجنوبية ليحارب القبائل الوثنية السودانية ، وقد أنفق فى غزواته بضعة أعوام ، ثم عاد إلى الشمال ليستطلع أحوال المغرب ، وكان قد نمى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، وقدم أبو بكر إلى المغرب فى سنة ٤٦٥ ﻫ (١٠٧٣ م) ، ونزل بمدينة أغمات على مقربة من الحاضرة المرابطية الجديدة ، وبعث بعض صحبه إلى يوسف ليسبروا الأحوال ويدرسوا الموقف . فاستقبلهم يوسف بالترحاب وغمرهم بصلاته . ولما وقف أبو بكر على ما شهدوا من أحوال يوسف وضخامة ملكه ، وتوطد سلطانه ، أدرك أن المغرب قد أفلت من يده ، وأنه لا سبيل إلى منازعة يوسف فى أمره . والتقى الرجلان ، أبو بكر ويوسف فى موضع بين أغمات ومراكش ، فأوصى أبو بكر ابن عمه باتباع العدل والرفق فى حكمه ، ثم ودعه ليعود إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ؛ وهكذا عاد أبو بكر فى صحبه إلى الصحراء ، ليستأنف الجهاد

والغزو ، واستمر مجاهداً حتى قتل فى بعض غزواته فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) .

وهكذا قامت دولة المرابطين الكبرى ، وأقامها عبقرية رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى ففيه متواضع هو عبد الله بن ياسين ، واستحالت بسرعة من زعامة دينية محلية إلى ملك سياسى ضخم ، وتلقب يوسف بأمير المسلمين .

وكان يوسف فى بداية أمره يلقب بالأمير ، فلما فتح المغرب ، وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب « أمير المسلمين ، وناصر الدين » وأصدر مرسومه بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك فى سنة ٤٦٦ هـ . وفى أواخر عهده بعد أن ملك الأندلس ، حسبما نذكر بعد ، نصح له الفقهاء ، بأن تكون ولايته صادرة عن الخليفة الشرعى لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد ، سفيره العلامة ابن العربى ، ومعه هدية جايلة وكتاب بما فتح الله عليه من الملك . وطلب تقليده الولاية ، على ما يحكم من الأراضى ، فاستجاب المستظهر لرغبته ، وبعث إليه بمرسوم الولاية ، وبالخلع والتشاريف . وذكر صاحب « روض القرطاس » ، أن يوسف تلقب بألقاب الخلافة ، وهى رواية ضعيفة لا يعتد بها .

— ٢ —

وهنا ننتقل إلى صفحة أخرى من حياة يوسف بن تاشفين .

لم يكن إنشاء هذه الإمبراطورية المغربية الشامخة أعظم ما فى حياة هذا الفاتح العظيم ؛ فهناك فى سيرة حياته صفحة أروع من هذه وأبعد أثراً .

كانت الأندلس فى الوقت الذى قامت فيه دولة المرابطين القوية فى الضفة الأخرى من البحر ، تجوز مرحلة من أخطر وأدق مراحل تاريخها ؛ وكانت الخلافة الأموية قد انهارت منذ فاتحة القرن الخامس الهجرى ، وسقطت الأندلس فريسة الاضطراب والفوضى ، وتواثب الزعماء الطامحون إلى الرياسة فتقاسموا أشلاءها . وقامت فى مختلف المقاطعات والمدن ، عدة كبيرة من الدويلات

الصغيرة ، عرفت بدول الطوائف ، وتشبه أمراؤها بالخلفاء فى ترتيب القصور الباذخة ، واتخاذ الألقاب الضخمة على حد قول ابن رشيق :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   تلقيب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

والواقع أن دول الطوائف إذا استثنينا دولة بنى عباد فى إشبيلية ، كانت دولا هزيلة ، يقتصر معظمها على مجموعة صغيرة من المدن . وكان انقسام الأندلس على هذا النحو خطراً على مستقبل الإسلام فى الأندلس ، سيما وقد كانت اسبانيا النصرانية ترقب الفرصة دائماً للبطش باسبانيا المسلمة . وكان ملوك الطوائف فوق ذلك يخاصم بعضهم بعضاً ، ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد جاره من الأراضى والمدن . وكانت الحرب الأهلية تضطرم بينهم بلا انقطاع . وكانت اسبانيا النصرانية قد اتحدت كلمتها يومئذ والتأم شملها إلى مملكتين هما قشتالة وأراجون . وكان على عرش قشتالة فى ذلك الحين ملك قوى البأس والعزم هو ألفونسو السادس ، فرأى الفرصة سانحة للبطش بهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة ، وافتتاحها واحدة بعد الأخرى . ولم يفطن ملوك الأندلس فى البداية إلى هذا الخطر الداهم فلم يكتفوا بقتال بعضهم بعضاً ، بل أخذ كل منهم يستظهر على أخيه بمحالفة ملك النصارى ، والانضواء تحت لوائه ودفع الجزية له . وألفونسو السادس يشجعهم على هذه السياسة ويؤلب بعضهم على بعض . وكان المعتمد بن عباد كما قدمنا فى ترجمته أقوى ملوك الطوائف ، وأشدهم تورطا فى تلك الخطة . ولم تلبث هذه السياسة الخطرة أن أثمرت ثمرتها ، وبدأ ملك النصارى فى تنفيذ خطته فى الاستيلاء على قواعد الأندلس . وكانت طليطلة أول قاعدة أندلسية يهدف ملك قشتالة إلى انتزاعها ، أولا لوقوعها على مقربة من حدود قشتالة ، وثانياً لتخاذل صاحبها القادر بن ذى النون ، وتخلى باقى ملوك الطوائف عن إنجادها ، ولم تلبث هذه القاعدة الأندلسية العتيدة أن سقطت فى أيدى القشتاليين ، وكان سقوطها ، بعد حصار دام تسعة أشهر ، فى فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ م) . وكان لسقوطها دوى هائل فى الأندلس وفى جميع أنحاء العالم الإسلامى . وتوالت غزوات ألفونسو السادس لدول الطوائف وأخذ يهدد سرقسطة وإشبيلية وبطليوس وغيرها من قواعد الأندلس . وشعر

ملوك الطوائف — وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد حسبما أسلفنا — أن مصيرهم جميعاً إلى السقوط والهلاك إذا لم تجتمع كلمتهم ، وإذا لم يتداركهم غوث من الخارج ، واتجهوا جميعاً بأبصارهم إلى الضفة الأخرى من البحر : إلى المرابطين إخوانهم فى الدين ، وإلى أميرهم يوسف بن تاشفين . وكان يومئذ فى ذروة القوة والسلطان ، وقد ذاع صيته ، واشتهر أمر فتوحه ، وعظيم بأسه وسلطانه فى الأندلس وفى سائر العالم الإسلامى .

وهكذا أجمع ملوك الطوائف أمرهم على الاستغاثة بفاتح إفريقية والمغرب ، وبعثوا إليه برسلهم وكتبهم ، يستنصرون به على محاربة النصارى ، ويصفون له ما أصاب الأندلس على يدهم من المحن ، وما يهددها من خطر السقوط والفناء ، إذا لم يتداركها بغوثه ونصرته . وتردد يوسف بن تاشفين فى البداية فى إجابة مطلبهم ، لأنه لا يعرف أحوال الجزيرة ، ولم يشتبك من قبل قط مع النصارى فى ميدان الحرب . ولكنه اعتزم فى النهاية ، بعد أن استشار قومه وفقهاءه ، أن يستجيب إلى دعوتهم وأن يبادر إلى إنجادهم . ولا ريب أن يوسف كانت تحدوه فى ذلك نزعة جهاد دينية ، وربما كانت تحدوه أيضاً فكرة غامضة فى الاستيلاء على وديان الأندلس الجميلة ، التى طالما سمع العجائب عن خصبها وغناها .

وحشد يوسف جيشاً عظيماً من المرابطين وعبر البحر إلى الأندلس فى قواته ، فاستقبله أمراء الأندلس فى الجزيرة الخضراء ، ثم سار بجيشه إلى إشبيلية حيث وافته جيوش الأندلس . وكان ألفونسو السادس فى ذلك الحين مشتغلا بمحاربة ابن هود أمير سرقسطة ، فلما علم بعبور المرابطين إلى الجزيرة ، ترك فى الحال محاربة ابن هود وجمع الجند من سائر الأنحاء ، ولبى ملوك النصارى الآخرون دعوته وسارعوا إليه فى قواتهم . وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء الجيوش الإسلامية المتحدة . والتقى الفريقان على مقربة من بطليوس فى سهل تسميه الرواية العربية بالزلاّقة وتسميه الرواية النصرانية «ساكرالياس» ، وذلك فى أوائل شهر رجب سنة ٤٧٩ هـ . وفى يوم الجمعة ١٢ رجب الموافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، اشتبك الفريقان فى معركة هائلة ، وكادت قوى الأندلس التى تؤيدها طلائع المرابطين تسحق فى البداية ، ولكن يوسف وثب عندئذ فى نخبة جنده وحرسه الخاص إلى قلب المعمعة ، ولم تلبث أن دارت

الدائرة على النصارى وهزموا هزيمة ساحقة ، وقتل معظمهم أو أسر ، ولم ينج ملكهم من الأسر إلا بصعوبة ، وفر فى بضع مائة من جنده جريحاً مهيضاً .

* * *

وكان ظفر الزلاّقة ظفراً للإسلام كله على النصرانية كلها . فارتد خطر النصرانية عن الأندلس إلى حين ، بعد أن كانت على وشك الفناء ، وكتبت لها حياة جديدة امتدت إلى أربعة قرون أخرى .

وعاد يوسف إلى المغرب متوجاً بتاج الفخار والظفر . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الجزيرة بجيش جديد ليحارب النصارى إلى جانب قوات الأندلس للمرة الثانية تحت أسوار حصن لييط أو (أليدو) فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولكن لم تقع بين الفريقين هذه المرة مواقع فاصلة ، وترك يوسف بعض قواته فى اسبانيا بإمرة خيرة قواده سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يمض على ذلك نحو عام حتى عاد يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة بجيش ضخم . ولم يكن عبوره هذه المرة لمقاتلة النصارى ، بل كانت تحدوه خطط ومشاريع أخرى . فقد رأى بنفسه جمال الأندلس ووفرة خصبها وغناها ، ورأى فى الوقت نفسه ما كان عليه أمراء الأندلس من التنابذ والتخاذل والإفراط فى البذخ والترف والعيش الناعم ، وإهمال شئون الرعية . واعتزم أن يبيد ملكهم ، وأن يستخلص الأندلس من أيديهم ليقوم هو بحكمها والذود عنها . واتخذ عندئذ لذلك كل أهبة ، ووزع قواته فى أنحاء الأندلس . وبدأ بالاستيلاء على غرناطة ، ثم سير قواته إلى أراضى إشبيلية أقوى دول الطوائف بقيادة كبير قواده سير بن أبى بكر اللمتونى ، ودافع المعتمد بن عباد عن عاصمته وملكه حسبما فصلنا أمجد دفاع وأروعه ؛ ولكن ذلك لم يغنه شيئاً فسقطت إشبيلية فى يد المرابطين ، وذلك فى رجب سنة ٤٨٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩١ م) وأسر المعتمد وسائر آله . واستولى المرابطون فى نفس الوقت على قرطبة ، وقتلوا بها المأمون ولد المعتمد ، وقتلوا ولده الراضى بالله فى رندة ، ثم استولوا على ألمرية فبلنسية ومرسية . ثم غزوا بطليوس واستولوا عليها وقتلوا أميرها ابن الأفطس الملقب بالمتوكل وولديه فى مناظر مؤسية ؛ وأثارت هذه المحنة دولة الشعر كما أثارتها محنة بنى عباد ،

ونظم الشاعر الأشهر الوزير ابن عبدون فى رثاء حماته بنى الأفطس قصيدته الرنانة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعـــد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور[1]

ولم تمض أعوام ثلاثة حتى كانت الأندلس كلها قد سقطت فى أيدى المرابطين وذلك فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .

وهكذا احتوى يوسف بن تاشفين على تراث الأندلس بضربة سريعة حاسمة ، وانقلب المنقذ المنجد إلى فاتح متغلب ، واستطاع البربر لأول مرة منذ فتح الأندلس ، أن يفرضوا سلطانهم على الأندلس كلها .

وأبدى يوسف فى معاملة أمراء الأندلس الذين نجوا من القتل قسوة ظاهرة ، فوضعهم فى الأصفاد ، وبعث بهم إلى المعتقل فى المغرب ، وخص المعتمد بن عباد وآله بأعظم قسط من هذه القسوة حسبما فصلنا .

وأسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ونحو المعتمد بنوع خاص ، على سيرته وعلى خلاله ، سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

وقد عرضنا فى ترجمة المعتمد إلى عناصر هذه المأساة ونواحيها المختلفة ، وإلى الصدى العميق المحزن الذى تركته فى صحف الأندلس والمشرق ، وإلى كونها تعتبر بحق وصمة خالدة فى سيرة يوسف لم يمحها كر العصور .

— ٣ —

بقيت بعد ذلك كلمة عن خلال يوسف بن تاشفين وصفاته . لقد كان أمير المرابطين بلا ريب من أولئك الرجال الأفذاذ الذين خلقوا للزعامة وإنشاء الدول ؛ وكان يتمتع بمواهب وصفات بارعة من الذكاء والشجاعة والفطنة وبعد النظر ؛ وكان فى الحرب قائداً عظيماً وجندياً مجرباً وفارساً شجاعاً ، وكان التقشف من أخص صفاته ، فقد كان رغم ملكه الشامخ يعيش كأبسط رعاياه ، بعيداً عن كل مظاهر الترف والنعماء ، وبلغ من تقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبن الإبل ، وقد وهبه الله بسطة فى الجسم وصحة

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب للمراكشى ص ٤٢ وما بعدها .

بديعة ، واستطالت حياته إلى مائة عام أو تسعين عاماً على قول آخر ؛ وتوفى سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) ، بعد أن حكم زهاء خمسين عاماً ، وقام بأعظم فتوحه وأعماله ، وأنشأ إمبراطورية المرابطين الشامخة ، بعد أن جاوز الستين ، وحارب فى موقعة الزلاّقة وهو فى نحو الثمانين .

وترك يوسف مملكته لابنه الأصغر علىّ ؛ ولكن دولة المرابطين القوية لم يتح لها أن تعيش طويلا بعد وفاة مؤسسها العظيم ، بل نستطيع أن نقول إن وفاة يوسف كانت نذيراً بانحلالها وتفككها . ولم تمض ثلاثون عاماً أخرى حتى سقطت هذه الدولة العظيمة الشامخة فريسة لفورة دينية أخرى ، كان مثير ضرامها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين الكبرى[1] .

---

(١) رجعنا فى هذا الفصل إلى تاريخ ابن خلدون ، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى ، وإلى الحلل الموشية ، ونفح الطيب للمقرى ، وإلى العلامة دوزى **Histoire des Musulmans d'Espagne V. III** . وراجع فى سيرة يوسف وقيام الدولة المرابطية كتابنا دول الطوائف الطبعة الثانية ص ٢٩٨ — ٣١٩ ، وكتابنا عصر المرابطين والموحدين (القسم الأول) ص ٣٦ — ٥٦ .

محمد بن تومرت المهدى

(٤٧٣ – ٥٢٤ هـ) ، (١٠٨٠ – ١١٢٩ م)

كانت الدولة المرابطية الكبرى ، التى بسطت سيادتها على المغرب والأندلس منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، من ضفاف نهر دويرة فى اسبانيا شمالا ، حتى مشارف الصحراء الكبرى فى إفريقية جنوباً ، ومن ليبيا شرقاً حتى المحيط الأطلنطى غرباً — كانت هذه الدولة العظيمة تبدو فى أوج قوتها ورسوخها ، فإذا بها تجد نفسها فجأة أمام ثورة دينية صغيرة ، يضطلع بها فقيه متواضع ، وتضطرم بسرعة مدهشة ، حتى تغمر كل شىء فيها ، وتستغرق كل قواها ومواردها ، ثم تنتهى بعد صراع قصير الأمد بالقضاء عليها — تلك هى ثورة المهدى ابن تومرت .

إن التاريخ الإسلامى ، قلما يقدم إلينا حركة أكثر تواضعاً فى بدايتها ، وأبعد مدى فى نتائجها من تلك الحركة التى قام بها محمد بن تومَرت السوسى ، المتشح بثوب المهدى ، والتى أسفرت عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية وأضخمها رقعة ، وأعظمها قوة وسلطاناً ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

ولقد كانت حركة ابن تومرت هى الثانية من نوعها فى الغرب الإسلامى ، وكانت الأولى هى حركة الشيعة التى أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية (تونس) والتى كان زعيمها الروحى وأول خلفائها عبيد الله ، يتشح كذلك بثوب المهدى المنتظر ، وبالرغم من أن الدولة الفاطمية قد انتقلت بعد ذلك إلى مصر ، فإن نشاطها وفتوحاتها ، وسلطانها الروحى والسياسى ، قد استمرت بالمغرب ردحاً من الزمن ، على يد ولاتها من القبائل البربرية التى كانت هى المادة الآدمية التى استندت إليها فى قيامها وتوطدها بالمغرب .

بيد أن حركة المهدى ابن تومَرت هى حركة مغربية مستقلة لم تنبعث كما هو الشأن فى قيام الدولة الفاطمية من الدعوة الشيعية المشرقية ، وإن كانت مع ذلك تستند إلى نظرية المهدى المنتظر ، وهى بذلك تمتاز بتخصصها القوى ، وصبغتها

المحلية البربرية العميعة ، كما تمتاز بأساسها الديني الواضح الذى انبعثت منه ، قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية ، يتزعمها الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، وهى تتجه فى خصومتها المذهبية إلى الصراع المحلى المحض ، وتستمد لمقوماتها العوامل الدينية المحلية ، التى اختص بها المغرب منذ عصور .

ثم هى فوق ذلك تمثل معركة قومية داخلية تضطرم بين فريقين من القبائل البربرية ، تستظل كل منهما بشعارها الدينى الخاص . ذلك أن المرابطين قاموا فى البداية للجهاد فى سبيل الله ، وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات ، والانحراف عن أحكام الإسلام ، وقد كانت هذه الحالة تسود يومئذ كثيراً من القبائل البربرية ، ثم استقرت رياسة الدولة المرابطية فى قبيلة لمتونة ، وحليفاتها كدالة ومسوفه وغيرها من بطون صنهاجة . وكذلك فإن حركة ابن تومرت ، قامت فى البداية على شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبدأت رياسته السياسية فى وطنه بالسوس الأقصى ، وفى قبيلته هرغة ، وغيرها من بطون مصمودة ، وإذن فقد كانت المعركة بين المرابطين والموحدين ، تصطبغ فى نفس الوقت بالصبغتين الدينية والقومية .

— ١ —

فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وقعت بمدينة مراكش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التى اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية . ففى ذات يوم جمعة من هذه السنة دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع تلا الآية « إن المساجد لله » . ولما حضر أمير المسلمين على بن يوسف ، نهض سائر الحضور إلا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على على ، وقال له فيما قال « غير المنكر ببلادك ، فأنت المسئول عن رعيتك » فلم يجبه أمير المسلمين بشىء ، ولما عاد إلى القصر ، بعث إليه من يسأله عن حاجته ، فقال الرجل ليس لى حاجة ، وما قصدى إلا تغيير المنكرات .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق

ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأصل هذا الرجل من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة[1] الكبرى ، من قوم بها يعرفون « بايسرغين » وهم الشرفاء فى لغة المصامدة . وقد ولد بضيعة تقع فى جنوبى السوس الأقصى تسمى « بايجلى ان وارغن » . وقد اختلف فى تاريخ مولده ، وتضعه الرواية فيما بين سنتى ٤٧١ هـ و ٤٩١ هـ ، ويقول لنا ابن الأثير إنه توفى فى سنة ٥٢٤ هـ عن إحدى وخمسين عاماً أو خمسة وخمسين عاماً مما يجعل تاريخ مولده فى سنة ٤٧٣ هـ أو ٤٦٩ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده فى العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ ، وابن الخطيب فى سنة ٤٨٦ هـ ، وابن سعيد فى سنة ٤٩١ هـ ، ويضعه الغرناطى فى سنة ٤٧١ هـ ، وهو أقدم تاريخ ينسب إليه مولد ابن تومرت[2] . وأما عن نسبته فإن الرواية أشد تباينا واختلافاً . ومن المتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، وكان يقال لوالده تومَرت وامغار ، ومعناه فى لغة المصامدة الضياء الذى يقاد فى المسجد ، ومن ثم فقد عرفه التاريخ باسمه الذائع ، وهو محمد بن تومرت ، كما عرفه بلقبه الدينى وهو المهدى ، ومن المحقق الذى لا يقبل ذرة من الجدل ، أن ابن تومرت بربرى الجنس ينتسب إلى هرغة ومصمودة ، ومع ذلك فإنه نظراً لانتحاله صفة المهدى والإمام المعصوم ، لم يعدم رواية تنسبه لآل البيت ، إذ لا بد ، وفقاً لأسطورة المهدى المنتظر أن يكون المهدى منهم ، ومن ثم فإننا نجد إلى جانب نسبة ابن تومرت البربرية المحضة ، نسبة أخرى ترجعه إلى آل البيت ، أما نسبته البربرية فهى أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون ابن أنكليدس بن خالد أو أنه محمد بن عبد الله بن وجلّيد بن يامصال بن حمزة بن عيسى . وهذه النسبة الثانية تمد بعد ذلك على يد بعض الرواة إلى آل البيت على النحو الآتى : ابن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله[3] . وأما نسبته العربية العلوية فهى أنه محمد

---

(١) المعجب ص ٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤ و ٢٢٥

(٢) يراجع فى مولد ابن تومرت الزركشى فى تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت لابن بكر الصنهاجى (المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال) ص ٢١ .

ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيي بن عطاء بن رباح بن ياسر بن العباس بن محمد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . ويؤيد هذه النسبة ابن رشيق في شجرة أنساب الخلفاء والأمراء ، وابن القطان ، وابن صاحب الصلاة مؤرخا الدولة الموحدية[1] ، ويقول لنا المراكشي ، إنه رأى بخط المهدى نسبته المتصلة بالحسن ابن الحسن بن الحسن بن على ابن أبي طالب[2].

بيد أنه يوجد إلى جانب ذلك من المؤرخين من ينكر هذه النسبة على ابن تومرت ويعتبره دعياً فيها . ومن هؤلاء ابن مطروح القيسى ، وهو يصف ابن تومرت بأنه « رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغى » . وقال بعضهم إنه من قبيلة جنفيسة .

ونحن لا نرى فى هذه النسبة العربية النبوية التى يدعيها ابن تومرت لنفسه ، والتى يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم ، إلا نحلة باطلة ، وثوباً مستعاراً ، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدى التى انتحلها شعاراً لإمامته ، ورياسته الدينية والسياسية . ومما يلفت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر البربرية التى تشق طريقها إلى السلطان ، تحاول دائماً أن تنتحل الأنساب العربية كما هو الشأن فى بنى حمود الذين يرجعون نسبتهم إلى آل البيت ، وفى قبيلة صنهاجة وهى الأم الكبرى للمتونة ، صاحبة الرياسة فى الدولة المرابطية فإنها تزعم أنها تنتمى فى الأصل إلى العرب اليمانية[3].

وليست لدينا أية تفاصيل شافية عن نشأة ابن تومرت وحداثته . وكل مايقال لنا من ذلك أنه نشأ فى بيت نسك وعبادة ، وشب قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى فى حداثته « أسافور » ، ومعناه الضياء ، لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد التى يلازمها[4] . ولكن الرواية تتبع سيرة حياته منذ سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، والزركشى ص ١ .

(٢) المعجب ص ٩٩ .

(٣) روض القرطاس ص ٧٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، وروض القرطاس ص ١١٠ .

فنى تلك السنة أو السنة التالية (٥٠١ هـ) حسبما نقل إلينا ابن القطان ، وهو من أوثق مؤرخى الموحدين عن الشيخ يحيى بن وسنا من أهل خمسين ، غادر ابن تومرت وطنه بالسوس فى طلب العلم ، وعبر البحر إلى الأندلس ، ودرس فى قرطبة حيناً ، ثم جاز من ثغر ألمرية إلى المشرق ، ومر فى طريقه على المهدية ، وأخذ بها على الإمام المازرى ، ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبى بكر الطرطوشى ، وقضى بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى بغداد ، وهنالك درس الفقه والأصول على أبى بكر الشاشى الملقب بفخر الإسلام ، ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره[1] . وفى بعض الروايات أن ابن تومرت لقى الإمام أبا حامد الغزالى ودرس عليه فى بغداد ، وقيل بل لقيه بالشام أيام تزهده[2] . ونحن نقف قليلا عند هذه الرواية التى يرددها كثير من مؤرخى المشرق والمغرب ، إذ متى وأين كان هذا اللقاء ، وفى أى الظروف ؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه فى طلب العلم فى سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ هـ ، وقضى فترة فى الأندلس ، وفى المهدية وفى الإسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك إلى بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥ هـ . وقد كان الإمام الغزالى ببغداد يضطلع بالتدريس فى المدرسة النظامية بين سنتى ٤٨٤ و ٤٨٨ هـ (١٠٩١ — ١٠٩٥ م) ، وفى سنة ٤٨٨ هـ غادر العاصمة العباسية ، فى رحلته التأملية الشهيرة التى استطالت حتى سنة ٤٩٩ هـ ، والتى زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة . وإذن فيكون من المستحيل مادياً ، أن يكون ابن تومرت الذى غادر وطنه لأول مرة فى سنة ٥٠٠ هـ ، قد استطاع أن يلتقى بالغزالى فى بغداد أو غيرها من المدن التى زارها فى خلال رحلته ، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عود الغزالى إلى بغداد . ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها ، استجابة لدعوة السلطان

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، والحلل الموشية ص ٧٥ ، والزركشى ص ١ ، والمعجب ص ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية عن ابن القطان ص ٧٥ ، والمعجب ص ٩٩ ، وروض القرطاس ص ١١٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ والزركشى ص ١ .

ملك شاه ، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفى فى جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ (ديسمبر ١١١١ م) .

ويتضح من ذلك جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالى من الناحية التاريخية . وفضلا عن ذلك فإنه يوجد دليل مادى آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة . ذلك أنها تقرن بواقعة أخرى خلاصتها أن ابن تومرت حينما لقى الإمام الغزالى ، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه « إحياء علوم الدين » بالمغرب والأندلس ، تغير وجهه ، ورفع يده بالدعاء ، والطلبة يؤمنون ، فقال « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » وأن ابن تومرت ، رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده ، فاستجاب الإمام ودعا الله بذلك(١) .

وينقض هذه الواقعة من أساسها أن قرار المرابطين بحرق كتاب « الإحياء » قد صدر لأول مرة فى سنة ٥٠٣ هـ ، فى أوائل عهد على بن يوسف ، وذلك أيضاً حسبما يخبرنا ابن القطان ، أعنى بعد أن غادر الغزالى بغداد إلى نيسابور لآخر مرة ، وقبيل وفاته بنحو عام . فأين إذن ، ومتى كان لقاء ابن تومرت به ، وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية أن نصدق تلك القصة التى نسجت حول إحراق كتاب الإحياء ؟ .

هى أسطورة إذن ، نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت ، لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته ، وتذكى عناصر الخفاء والقدسية حول شخصه وإمامته . وقد اختير الإمام الغزالى لبطولتها بالذات ، لتبوئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع فى العالم الإسلامى ، ولشهرته الذائعة فى المغرب ، وصلاته المعروفة بعاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وتأثيره الشرعى لديه ، وتأييده لدولته . ويبدو لون الأسطورة فى هذه القصة التاريخية بنوع خاص ، فيما تزعمه الرواية من أن الإمام الغزالى ، حين رؤيته لابن تومرت ، شهد من صفاته وشمائله ، وتبين فيه من العلامات والآثار ، ما يدل على أمره ومستقبله ، وأنه كان يقول لجلسائه « لا بد لهذا البربرى من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب

(١) الحلل الموشية ص ٧٦ و ٧٧ .

الأقصى ، ويظهر أمره ، ويعلو سلطانه ، ويتسع ملكه ، فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته ، وبان عنه في شمائله » . ثم تزيد الرواية على ذلك ، أن بعض الصحب نقل ذلك إلى ابن تومرت ، وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب ، فلم يزل ابن تومرت يجتهد في خدمة الشيخ ويتقرب إليه ، حتى اطلع على الأخبار التي كانت فيه ، فلما تحقق من ذلك ، اعتزم الرحيل إلى المغرب ليتابع قدره ، ويبحث عن مصيره[1] .

ولم يقف أمر هذه الأسطورة التي تجمع بين الغزالي وابن تومرت عن هذا الحد ، بل لقد كان من آثارها أنه يوجد كتاب منسوب للغزالي عنوانه « سر العالمين ، وكشف ما في الدارين » أو بعنوان أقصر « السر المكنون » ، وقد جاء في أوله ما يأتي : « أول من استنسخه ، وقرأه على بالمدرسة النظامية سراً من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعي من السفر ، رجل من أرض المغرب يقال له محمد بن تومرت من أهل سَلَمْيَة ، وتوسمت فيه الملك »[2] .

وليس أشد إمعاناً من ذلك كله في عالم الأسطورة ، ومن ثم فإنا نجد كثيراً من المؤرخين والمفكرين ، يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها ، فابن الأثير ينفيها بصراحة ويقول لنا « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أي الغزالي) »[3] ويبدي ابن خلدون ريبه فيها ، ويحملها على محمل الزعم[4] . وكذلك فإن البحث الحديث ينكرها وينفيها . ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني ميللر[5] ، والعلامة المستشرق إجناس جولدسيهر . ويستعرض جولدسيهر بنوع خاص ما في هذه القصة من مفارقات ومتناقضات تاريخية . ثم يقول : « ويبدو من ذلك كله أنه يحق لنا أن نلغي من ترجمة ابن تومرت ، قصة الغزالي ، فهي غير مقبولة إطلاقاً ، سواء من حيث ترتيب الحوادث الزمنية ، أو من حيث منطق الحوادث نفسها . وكل ما هنالك أننا نرى فيها تحقيقاً لحاجة الناس ، بأن يجدوا

(١) روض القرطاس ص ١١٠ و ١١١ .
(٢) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية رقم ١٨٠ مجاميع .
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ .
(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .
(٥) (A. Müller : Der Islam in Morgen und Abendland) (Berlin 1885,) B. II. p. 612

سبباً موجهاً غير الصفات الشخصية ، لارتفاع رجل ، وصل فى لمعة نور خارقة إلى السلطان ، وإلى سحق الدولة القائمة(١) .

على أن ذلك كله لا يعنى أن ابن تومرت لم يتأثر فى تعالمه الدينية بآراء الغزالى ونظرياته ، ومن المسلم به أن ابن تومرت ، قد تأثر خلال دراسته بالمشرق ، بالنظريات المشرقية فى علوم الكلام والأصول والسنة . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه تأثر بتعاليم الأشعرية ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلَفية والدفاع عنها ، وفى تأويل المتشابه من القرآن والحديث(٢) .

وأما فيما يتعلق بتأثير الغزالى ، فإن هذا التأثير يظهر فى آراء ابن تومرت ومشاريعه الدينية ، وخصوصاً فيما أبداه ابن تومرت من المعارضة للتقاليد الدينية الكائنة بالمغرب ، فإن هذه المعارضة كانت تعكس فى صور كثيرة ، ما كان قائماً من نظرية الغزالى الكلامية ، وبعض النظريات الأخرى فى المشرق . على أن هذا التأثر بتعاليم الغزالى ، لم يصل فى رأى جولدسيهر إلى الأعماق ، ولم يكن كبيراً ، ويلاحظ جولدسيهر بالأخص أن المهدى ، بالرغم مما يوصف به فى تراجمه من الورع والزهد ، لم يبد قط ميلا إلى المعارف الصوفية ، وإلى ذلك الجَهد النفسى ، الذى يسمح للإنسان بالحياة فى ضمير الحقائق الدينية ؛ وهو الغرض الأساسى فى بحوث الغزالى الدينية . هذا إلى ما كان بينهما من خلاف فى المناهج ، وفى علم الشريعة ، وفى بعض النقط الكلامية الأخرى(٣) .

— ٢ —

ولما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، اعتزم العودة إلى المغرب ، وكان قد قطع فى دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى ، حتى غدا على قول ابن خلدون : « بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً وارياً من الدين » . وركب ابن تومرت البحر من الإسكندرية فى أواخر سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، ويقال إنه خرج منفياً من الإسكندرية لما ترتب من شغب على نشاطه فى مطاردة المنكر ،

(١) مقدمة العلامة جولدسيهر (I. Goldziher) لكتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطلب)
Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger 1903) Introduction p. 12

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٣) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السابقة الذكر ص ٢٠ .

بيد أنه استمر فى دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التى أقلته . فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد فى ذلك حتى قيل ، إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء ، وقد عظم فى نفوسهم ، وبالغوا فى إكرامه(١) . ولما وصل إلى المهدية ، نزل بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكراً من آلات الملاهى ، أو أوانى الخمر ، بادر إلى إزالته وكسرها ، وأصابه بسبب ذلك بعض الأذى . ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته ، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء(٢) . ثم غادر المهدية إلى بجاية ، وجرى فيها على نفس أسلوبه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يقوم بدعوته بلا كلل ، حتى وقعت ذات يوم بسبب تشدده فى إزالة المنكر ، ضجة وشغب ، وكان والى البلدة العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجى ، رجلا فظاً قاسياً ، فسخط عليه هو وخاصته ، وخشى ابن تومرت العاقبة ، فغادر بجاية إلى ناحية قرية منها تسمى ملاّلة ، ونزل فى كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فآووه وأكرموه وطلب إليهم والى بجاية تسليمه إليه ، فأبوا ، ولبث بينهم حيناً يدرّس العلم ، وكان إذا فرغ يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ملالة . فى ذات يوم وفد إليه كهل وفتى حسن التكوين رائع الجمال ، ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على بن علْوى الذى شاء القدر أن يغدو فيما بعد أعظم أصحاب المهدى ، وأعظم قادته ، وخليفة تراثه ودولته . وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان فى طريقه إلى المشرق ، ليطلب العلم ويقضى فريضة الحج ، فسأله ابن تومرت عن شخصه وعن أحواله ، ولما وقف على مقصده ، قال له « إن العلم والشرف والذكر التى يطلبها موجودة ، وإنها تُنال بصحبته ، ودعاه إلى معاونته فيما هو قائم به من إماتة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع » .

---

(١) المعجب ص ٩٩ و ١٠٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ .

وأعجب عبد المؤمن كذلك بشخصية ابن تومرت وغزير علمه ، وعوّل على البقاء إلى جانبه . وهنا تدخل الأسطورة مرة أخرى ، فيقال إن ابن تومرت قد اطّلع على كتاب فى الجفر من علوم آل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، من ذرية الرسول ، وان استقامة أمره ، وتوطد مركزه يكون على يد رجل من أصحابه ، هجاء اسمه كاسم عبد المؤمن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة ، وأنه أى ابن تومرت كان يبحث عن هذا الرجل أينما حل ، فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه « أدرك أنه هو الشخص المبتغى »[١] . وقيل إن ابن تومرت التقى بعبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة ، وإن عبد المؤمن كان عندئذ يشتغل بتعليم صبيان القرية المذكورة[٢] ، وبقى عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت ، وانقطع إليه واختص به ، ودرس عليه حيناً بملالة ، ثم غادرا ملالة معاً ، وذهبا إلى وانشريش ، وهنالك انضم إليهما رجل من قبيلة هرغة أى قبيلة ابن تومرت ، هو أبو محمد البشير . وقصد ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى تلمسان ، وقد تسامع الناس بخبره ، وذاع صيته فاستدعاه قاضيها ، وهو ابن صاحب الصلاة وأنبه على مسلكه ، ومخالفته لعقائد أهل عصره ، وطلب إليه العدول عن دعوته ، فأعرض عنه ابن تومرت ، وسار مع صحبه إلى فاس ، ثم إلى مكناسة ، وهنالك اشتد فى مطاردة المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى ، فغادرها إلى مراكش[٣] .

ونزل ابن تومرت بالحاضرة المرابطية ، وكان ذلك فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) وعكف على طريقته فى مطاردة المنكر وإزالته كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتقى فى المسجد الجامع بأمير المسلمين على بن يوسف ، وجرى بينهما ما سبقت الإشارة إليه من الأحاديث . واستمر ابن تومرت فى حملته الدينية الأخلاقية دون هوادة . وقد كانت مراكش وغيرها من المدن المغربية ، تبدى أيام المرابطين كثيراً من مظاهر التسامح الدينى ، أو بعبارة أخرى ، كثيراً من مظاهر الاستهتار والفساد ، فقد كانت الخمر تباع علنا فى الأسواق ، وكان النبيذ يشرب دون تحفظ ، وكانت الخنازير تسرح فى أحياء المسلمين ، وكان القصف ذائعاً بسائر

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ ، والمعجب ص ١٠٠ .
(٢) المعجب ص ١٠٠ .
(٣) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ و ٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

صنوفه ، ومظاهر التدين ضعيفة باهتة ، هذا إلى ما كان يسود الإدارة من تفكك ، والقضاء من انحلال ، واغتصاب أموال اليتامى ، وغير ذلك من ضروب الفساد[١] .

وهو ما يلخصه المراكشي فى قوله مشيراً إلى عهد على بن تاشفين « واختلت حال أمير المسلمين ، بعد الخمسمائة اختلالا شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد . . . واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من لمتونة ومسّوفه مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه »[٢] .

ووقع ذات يوم حادث زاد فى لفت الأنظار لابن تومرت ولدعوته . وذلك أن الصُّورة أخت أمير المسلمين خرجت فى موكبها ، ومعها عدد من الجوارى الحسان ، وهن جميعاً سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، واتخاذ الرجال اللثام . ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عن دابتها ، ووقع الاضطراب والهرج ، ورُفع الأمر إلى أمير المسلمين على بن يوسف ففاوض الفقهاء فى شأن هذا الداعية المضطرم ، وكانت المعلومات التى جمعت عنه منذ حادثة المسجد ، هو أنه حديث العهد بالوصول إلى مراكش ، وأنه يؤلب الناس ، ويقول لهم إن السنة قد ذهبت . وكان على بن يوسف قد أمر وزيره ينتان بن عمر أن يكشف عن مذهبه وعن أحواله ومطلوبه ، فإن كانت له حاجة ينظر فى قضائها ، وكان جواب ابن تومرت حسبما أشرنا من قبل ، أن لا حاجة له إلا تغيير المنكر[٣] .

ورأى أمير المسلمين أن يناظر الفقهاء هذا الرجل . وكان الفقهاء المرابطون يحقدون على ابن تومرت لاعتناقه مذهب الأشعرية ، وما يملى به من تأويل المتشابه وحمله عليهم ، وإنكاره لجمودهم ، إزاء مذهب السلف ، وإقراره كما جاء

(١) مقدمة جولدسيهر لكتاب محمد بن تومرت السالفة الذكر ص ٩٧ .

(٢) المعجب ص ٩٩ .

(٣) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .

به ، وذهابه إلى حد تكفيرهم ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم[١] ، وقبل ابن تومرت هذا التحدى ، وأبدى فى مناظرته للفقهاء المرابطين تفوقاً ظاهراً . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس ملخصاً لتلك المناظرة ، التى وقعت بين ابن تومرت وخصومه ، ويقول لنا إن من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين ، كان جلهم من علماء الفروع ، وليست لهم معرفة بالأصول والجدل ، وقد جرى معظم الجدل حول طرق العلم ، وهل هى تنحصر أو لا تنحصر ، وعن أصول الحق والباطل . وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرة الدينية هو أن ابن تومرت أبدى فى مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ، إزاء الفقهاء المرابطين ، وهم أقطاب مذهب الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمناهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الأصول لا الفروع ، وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة . أنه يرجع خاصة إلى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط إلى قول مستخرج ، ولا يعتبر الاجتهاد مرجعاً من مراجع الشريعة[٢] . ولم يكن بين الفقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت وتبحره فى علوم الدين ، سوى فقيه أندلسى هو مالك بن وهيب قاضى مراكُش ، وقد كان من أكابر العلماء والأدباء ، وكان متمكناً من علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لا يُظهر من علمه إلا ما يروج فى ذلك الزمان[٣] . فبين لأمير المسلمين خطورة هذا الرجل وخطورة دعوته وتعاليمه ، وقال له إن هذا رجل ، لا يبغى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه يبغى تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وأشار عليه بقتله ، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين باعتقال الرجل وسجنه ، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير : « ألقه فى الكبول لئلا يُسمعك الطبول » . وخالفهم فى ذلك الوزير ينتان بن عمر ، وقال لعلى بن يوسف إن هذا وَهَن فى حق الملك ، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه . فأمر على بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياماً حتى يرى فيه رأيه . ولم تمض أيام

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب محمد بن تومرت ص ٣٩ و ٤٠

(٣) المعجب ص ١٠٢ ، ويقول لنا المراكشى إن مالك بن وهيب هذا ، قد وضع كتاباً فريداً فى بابه اسمه « قراضة الذهب فى ذكر لئام العرب » ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأنه رأى هذا الكتاب فى خزانة بنى عبد المؤمن .

على ذلك حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة فى قرطبة ، وأخذ على بن يوسف فى التأهب للعبور إلى الأندلس . فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت ، فحضر بين يديه ، وقال له علىّ بلغنى عنك ما صنعت ببجاية وغيرها ، فتورع الناس عن قتلك ، فعرفنى بحقيقة غرضك ، فقال ابن تومرت غرضى تغيير المنكر ، ورفع المغارم ، وألا تولّى من قبيلتك أحدا ، وأن تتركوا اللثام لأنه من شأن النساء ، ولا تجوز به صلاة ، فزجره أمير المسلمين ، وأمر بإخراجه من مراكش . وكان ذلك فى أوائل سنة ٥١٥ هـ[1] .

— ٣ —

غادر محمد بن تومرت وصحبه مدينة مراكش إلى أغمات ، وفى بعض الروايات أنه بالعكس استمر حيناً يقيم فى صحبه بين مقابر المدينة ، وينهال عليه الناس والطلاب ، وهو يبث فيهم الدعوة ضد المرابطين ويرميهم بالتجسيم والكفر ، ولكنه اضطر أن يغادر مكانه حينما بلغه أن القوم يضمرون اعتقاله وقتله[2] ، ولما حل ابن تومرت بأغمات استمر فيها على طريقته ، من مطاردة المنكر والحملة على المرابطين ، واتخذ لصلاته ودعايته مسجداً خارج أغمات ، فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده[3] . فعندئذ قصد ابن تومرت وصحبه إلى بلاد السوس ، ولحق بجبال المصامدة ، وذهب أولا إلى تيفنوت ، ثم إلى هنتاتة ، ثم إلى إيكلين ، ومر فى خلال ذلك بكثير من المحلات البربرية ، وهو يتوقف أوقاتاً فى بعضها ، ويبنى المساجد ، وينضم إليه الصحب والأتباع . وقد فصّل لنا أبو بكر الصنهاجى صاحب ابن تومرت برنامج رحلته منذ خروجه من أغمات ، ومسيره خلال جبال المصامدة ، ومن لقيه خلال رحلته من الصحب والأتباع . ورحل ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى قرية إيجليز أو جبل إيجليز من بلاد هرغة ، بلده ، وموطن قومه وعشيرته ، وهنالك انهال إليه المصامدة من كل فج ، وكثر

(١) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ، وروض القرطاس ص ١١٢ ، والحلل الموشية ص ٧٣ و ٧٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، والمعجب ص ١٠٢ و ١٠٣ ، وراجع كتاب أخبار المهدى ابن تومرت صفحة ٦٨ و ٦٩ .

(٢) هذه هى رواية أبى بكر الصنهاجى أحد أصحاب المهدى فى كتابه « أخبار المهدى ابن تومرت » ص ١٦٩ ونقلها صاحب روض القرطاس (ص ١١٣) .

(٣) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة المشار إليها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

صحبه وأتباعه ، وهو يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى قتال المجسمين المرابطين ، وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدى المنتظر والإمام المعصوم ، وما ورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ، وبعث الخاصة من دعاته بين رؤساء القبائل يمهدون لتلك الدعوة ويبشرون بها . ولما شعر ابن تومرت بأن دعايته قد أتت ثمرتها ، وأضحى الميدان ممهداً للعمل ، اعتزم أن يعلن إمامته(١) . وفى اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ (ديسمبر سنة ١١٢١ م) قام ابن تومرت خطيباً فى أصحابه ، وأعلن إليهم أنه المهدى المنتظر(٢) فى خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها صاحب نظم الجمان فيما يلى :

« الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاؤه ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدى ، الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت جورا وظلماً ، يبعثه الله إذا نُسِخَ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه المغرب الأقصى منبته ، وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبى عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم . وقد ظهر جور الأمراء ، وامتلأت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل »(٣) .

وعلى أثر ذلك ، وفى ظل شجرة خروب وارفة ، هرع إلى المهدى عشرة من أصحابه الملازمين له ، وبايعوه على أنه المهدى المنتظر والإمام المعصوم ، وهؤلاء العشرة الأوائل من أصحاب المهدى هم : تلميذه وألصق الناس به عبد المؤمن بن على ، وكان أول من بايعه ، وأبو محمد عبد الله محمد بن محسن الوانشريشى المسمى بالبشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاتى ، وأبو حفص عمر بن على أزناج (أصناك) ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٠٣ .

(٢) هذه رواية روض القرطاس (ص ١١٣) ويؤيدها ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٢٨) والحلل الموشية ص٧٨ ، والزركشى ص ٤ ، ويقول ابن عذارى إنها كانت فى سنة ٥١٨هـ (الأوراق المخطوطة المنقولة من مكتبة جامع القرويين السالفة الذكر) . وجاء فى نفس الأوراق عن ابن القطان أنها كانت فى سنة ٥١٦ هـ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان — مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد لوحة ١٣٣ .

إسماعيل الخزرجى ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى ابن تمارى ، وأبو يحيى بن بكيت . وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة(١) ، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلا ، فسموا أهل خمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدى(٢) ، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة الثالثة . وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أنصار المهدى ، وأقدرهم . وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره إلى طبقات تلى هذه ، فالطبقة الرابعة تتكون من طالبة العلم ، والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ ، وهم صغار الطلبة ، والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدى وعشيرته ، والطبقة السابعة تتكون من أهل هرغة بلد المهدى وموطن قبيلته ، والطبقة الثامنة تتكون من أهل تينملل ، والطبقة التاسعة من أهل جدميوه ، والطبقة العاشرة من أهل جنفيسة ، والطبقة الحادية عشرة من أهل هنتاتة ، والثانية عشرة تتكون من الجند ، والثالثة عشرة من الغزاة والرماة . ووضع المهدى فيما بعد نظاماً خاصا لمهام هذه الطبقات ورتبها ، وجعل لكل منها مهمة تختص بها ، ورتبة لا تتعداها ، سواء فى السفر أو الحضر ، وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلة .

ولما كملت بيعة ابن تومرت على هذا النحو ، لقبه أنصاره بالمهدى والإمام المعصوم ، وكانوا من قبل يقتصرون على تلقيبه بالإمام ، وسمّى المهدى أصحابه وأهل دعوته بالموحدين . ويقول لنا ابن خلدون إنه اختار لهم هذه التسمية تعريضاً بلمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم(٣) . ووضع لهم فى التوحيد كتاباً باللغة البربرية سماه « المرشدة » يحتوى على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتضمن الأعشار والأحزاب والسور ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحّد ، فليس بموحد ، وإنما هو كافر لا تجوز

(١) الحلل الموشية ص ٧٩ وروض القرطاس ص ١١٣ ، ويورد أبو بكر الصنهاجى فى كتابه أخبار المهدى بن تومرت أسماء أخرى ويذكر نفسه ضمن العشرة الأوائل (ص ٧٣) . وكذلك يذكر ابن خلدون بعض أسماء أخرى ج ٦ ص ٢٢٨) .

(٢) ذكر لنا أبو بكر الصنهاجى صاحب كتاب أخبار المهدى ابن تومرت أسماء أهل خمسين ص ٣٣ و ٣٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

إمامته ، ولا تؤكل ذبيحته . قال صاحب روض القرطاس « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا »(١)، ووضع لهم بالبربرية كتباً أخرى فى العقيدة منها كتاب سمى « بالقواعد » وآخر سمى « بالأمانة » ، ودونها كذلك بالعربية ، وكان ابن تومرت أبرع أهل عصره فى إتقان اللغتين العربية والبربرية . ثم وضع بالعربية فيما بعد كتابه فى العقيدة والعلم والإمامة الذى رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن على والذى يفتتحه بقوله « أعز ما يطلب » ، وهى عبارة أصبحت تعتبر عنواناً للكتاب ذاته .

ولبث المهدى بن تومرت يبث دعوته ، ويعمل على توطيدها فى نفوس أنصاره بفصاحته وذلاقته ورقيق وعظه ، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ويدعون إلى إمامته ومهديته ، والناس يفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة يبايعونه بالإمامة ، ويتبركون برؤيته ، حتى استفحل أمره ، وعلا صيته وكثر جمعه ، وأضحى يمثل ، بما تنطوى عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة ، خطراً داهماً على سلطان المرابطين .

وقد تحقق هذا الخطر بالفعل ، إذ نهض المهدى فى أصحابه ، يحارب القوات المرابطية ، ويحرز ضدها نصراً بعد نصر . ولم تهزم قواته سوى مرة واحدة فى موقعة البحيرة فى ظاهر مراكش فى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ، وكانت هزيمة شديدة . ثم توفى المهدى على أثر ذلك فى شهر رمضان من هذه السنة (أغسطس سنة ١١٣٠ م) ودفن بمسجده بتينملل ، واستأنف تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن على الكفاح ضد المرابطين ، واستمر يهزمهم تباعاً ، حتى دخل مراكش فى أواخر سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وقتل آخر أمرائهم إبراهيم بن تاشفين بن على ، وقامت بذلك الدولة الموحدية ، التى شاء القدر أن تحكم المغرب والأندلس ، وأن تغدو من أعظم الدول فى الغرب الإسلامى .

— ٢ —

والآن نعطف بإيجاز على تعاليم المهدى وتراثه الدينى . ولقد انتهى إلينا لحسن الطالع من هذا التراث ما يلقى أكبر الضياء على المبادئ والآراء التى اتخذها

---

(١) روض القرطاس ص ١١٤ .

المهدى سنداً لدعوته الدينية ، والتى جعل منها عقيدة جديدة يمكن أن توصف بالعقيدة الموحدية .

ويجتمع تراث المهدى الفكرى والدينى فى كتابين ، أولهما يضم مبادئه ونظرياته فى الأصول وفى الإمامة ، وفى التوحيد والعلم ، وهو أهم الكتابين ، وقد عرف بكتاب « أعز ما يطلب » لاستهلاله بتلك العبارة ، والثانى كتاب « الموطأ أو موطأ الإمام المهدى » ، وقد وضعه المهدى فى العبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى فى علم الفروع على مثل موطأ الإمام مالك .

ويفتتح المهدى كتابه الأول بتلك الفقرة الرنانة :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

ويبدأ المهدى حديثه عن العلم ، وينوه بأهميته فى تمييز الحقائق والخصائص ، وطرق العلم عنده تنحصر فى الحس والعقل والسمع . ويقسم كلا من هذه الطرق إلى أقسام فرعية عديدة ، ثم يحدثنا عن الصلاة ، ومعناها ، وبيان فضلها وحكمتها وتفاصيلها .

على أن أهمية تعاليم ابن تومرت ونظرياته تبدو فى عدة مسائل خاصة ، هى التى تعتبر قوام مذهبه الدينى . وأول هذه المسائل هو رأى ابن تومرت فى أصول الشريعة ، وهو يرى قبل كل شىء أن الشريعة لا تثبت بالعقل . وعنده أن أصول الشريعة تنحصر فى القرآن والسنة . وهو لا يعتبر القياس والإجماع من تلك الأصول . وهو كذلك ينكر الاجتهاد كأصل من هذه الأصول ويحمل عليه . وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد من الأمور المنطقية ، لأنه يتشح بثوب الإمام المعصوم الذى لا تبحث آراؤه . ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة أن موقف ابن تومرت من الاجتهاد يعارض رأى الإمام الغزالى ، الذى يعلق أهمية كبيرة على مبادئ الإجتهاد . ومن جهة أخرى فإن الغزالى يعارض نظرية الإمام المعصوم فى غير كتاب من كتبه مثل كتاب « المنقذ من الضلال » وغيره .

ثم يحدثنا ابن تومرت بعد ذلك عن العقيدة ، وعن التوحيد . والتوحيد هو أساس مذهب ابن تومرت الديني ، وهو الذى استحال فيما بعد إلى مبدأ سياسى ، هو الذى غدا أساس الدولة الموحدية ودعامة سلطانها الأولى . ويقدم إلينا ابن تومرت صيغ التوحيد والتسبيح التى وضعها لأتباعه ، وهى صيغ تردد مضمون عبارات التوحيد والتقديس التى عرفت منذ مختلف العصور .

على أن أهم ما يتضمنه كتاب ابن تومرت هو كلامه عن الإمامة ، وعن الإمام المعصوم ، وعن المهدى المنتظر وعلاماته ، وعن قيام الطائفة التى تقوم فى آخر الزمان لتقاتل فى سبيل الحق . ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لبّ الكتاب ولبّ مذهب ابن تومرت كله . ولبّ دعوته السياسية كلها . فإن الإمامة الدينية هى الشعار السياسى الذى انتحله ابن تومرت دعامة لزعامته وسلطانه . ونظرية المهدى المنتظر هى الثوب الروحى الذى اتشح به لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها .

وفى رأى ابن تومرت أن الإمامة أمر يجب الإيمان به لدى الكافة ، وأنها ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة . وأن هذا الإمام لا يمكن إلا أن يكون معصوماً من الباطل ، لأن الباطل لا يهدم الباطل ، ومعصوماً من الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال ، وأن يكون معصوماً كذلك من الجور ، ومن البدع ومن الجهل ، لأن هذه لا تهدم إلا بعصمته . ثم يلخص لنا أهمية الإيمان بالإمامة فى قوله :

« والإمامة هى عمدة الدين وعموده على الإطلاق فى سائر الأزمان ، وهو دين السلف الصالح ، والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله ، فاعتقادها دين ، والعمل بها دين ، والتزامها دين ، ومعناها الاتباع والاقتداء ، والسمع والطاعة ، والتسليم ، وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، والأخذ به فى القليل والكثير » .

ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة فى كل زمان ومكان ، لا بد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد شرعيتها ، وتزيد فى قدسيتها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة ، وتلك هى صفة المهدى المنتظر . وهذه النظرية ، نظرية المهدى المنتظر يعرضها لنا ابن تومرت بقوة وحماسة ، ويؤكد لأتباعه وأنصاره

أنه لا بد من طاعة المهدى ، والإيمان برسالته ، والتسليم لأمره ، والانقياد لكل ما يقضى به ، وأن هذه الطاعة إن هى إلا طاعة الله ورسوله ذاتها .

أما أولئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدى ومعارضته ، أو الشك فى أمره ، فويل لهم ، ومصيرهم إلى النكال والبوار .

ولم ينس ابن تومرت فى الوقت الذى يعرض فيه دعوته ، ويشيد بنظرية الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، أن ينظم حملته الهدامة ضد أصحاب الأمر القائم ، وهم المرابطون الذين كان يرمى إلى تحطيم دولتهم والاستيلاء على تراثهم . ومن ثم فإنه يخصهم فى كتابه بفصل يشهر فيه عليهم حملة الخصومة والبغض ، ويحاول أن يسبغ على حملته لواء القدسية ، وأن يردها إلى أصول دينية ، وهو ينعتهم « بالمبطلين ، والملثمين ، والمجسمين »، ويقول لنا إن لهم علامات خاصة ، منها ما كان قبل توليهم السلطان ، وأهمها أنهم حفاة ، عراة ، عالة ، جاهلون بأمر الله ، ومنها ما كان بعد توليهم الملك ، وهى أنهم يأتون فى آخر الزمان ، وأنهم ملوك ، وأنهم يتطاولون فى البنيان ، وأنهم صم وبكم عن الحق ، وعلامات أخرى يحاول ابن تومرت أن يقيم الدليل على صحتها بإيراد طائفة من الأحاديث النبوية . ثم يتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالب المرابطين ، وما أحدثوه من المناكر والمغارم فى كلام طويل ، ويحاول أن يثبت كل أقواله بإيراد الأحاديث المناسبة .

وعلى العكس من ذلك ، فإن هناك طائفة أخرى يقول لنا ابن تومرت إنها هى الطائفة التى بشر الرسول بظهورها ، وهى التى تقاتل على حق ، وتقوم به حتى آخر الزمان ، وانها ظاهرة على من عداها إلى يوم القيامة . ومن الواضح أن ابن تومرت يعنى بها طائفته ، أى طائفة الإمام المعصوم والمهدى المعلوم ، وهو يحاول هنا أيضاً أن يدعم أقواله بإيراد الأحاديث المناسبة .

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك طائفة من المسائل الدينية الأخرى التى لا تتصل أصلا بدعوته الدينية ، أو السياسية ، ولكنها تتضمن مع ذلك بعض وقائع وأقوال تتصل بهذه الدعوة ، فيحدثنا عن الطهارة ، وعن رفع العلم ورفع الدين ، والموالاة ، ثم عن الغلول أى الخيانة ، ثم عن تحريم الخمر ، ووجوب مطاردتها

وإراقتها وكسر أوانيها ، ويستعرض ما ورد فى ذلك من الآيات والأحاديث .

أما الفصل الأخير من كتاب ابن تومرت وهو كتاب « الجهاد » فهو ليس من تأليفه وإنما هو من تأليف الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وذلك حسبما يبدو من النبذة التى اختتم بها هذا الفصل .

هذا عن كتاب « أعز ما يطلب » . وأما الكتاب الآخر الذى تركه لنا لنا ابن تومرت بالعربية ، فهو كتاب « الموطأ » أو « موطأ الإمام المهدى » . وهو كتاب ضخم يتناول فيه على نسق كتاب الموطأ للإمام مالك ، أبواب العبادات والمعاملات والحدود . ولم يأت المهدى فى كتابه بجديد ، وكل ما هنالك أنه قام باختصار كتاب الإمام مالك مع شىء من التقديم والتأخير .

ومن الواضح أنه ليس فى كتاب « موطأ المهدى » ما يهمنا من الناحية التاريخية . بيد أننا نستطيع أن نتخذ تأليفه دلالة على ما كان يتصف به ابن تومرت من النشاط العلمى ، والمقدرة الفقهية . ومن الحقائق الهامة فى نشاط ابن تومرت العلمى ، أن كتبه كانت تنشر بين قومه بالبربرية ، فكان ذلك مما يضاعف أثرها ونفوذها . وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت ، مقدرته البارزة فى إتقان اللغتين العربية والبربرية ،وكان وعظه ومخاطبته لقومه بالبربرية ، تنفذ إلى سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة به وتعلقاً بدعوته . وكانت كتب ابن تومرت بعد القرآن السنة ، هى أشد الكتب الدينية احتراماً . بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم ، لأنها نظراً لكتابتها بالبربرية ، كانت شديدة الذيوع ، وكانت فى متناول كل إنسان .

— ٣ —

كان ابن تومرت ، حسبما تصفه الرواية ، رجلا ربعة أسمر ، عظيم الهامة ، غائر العينين ، حديد البصر ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء على كتفه الأيمن . وكان من أعظم الدعاة الدينيين ، وأغزرهم علماً ، وأشدهم دهاء ، وأقواهم نفساً ، وأشدهم تأثيراً فى النفوس . وكان إلى جانب ذكائه ودهائه يتمتع بمنطق قوى ، ومحاجة قاطعة ، وذلاقة مؤثرة . وكان خطيباً مفوهاً ، فصيحاً فى العربية والبربرية معاً ، يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه ، وكان

متمكناً من علوم القرآن والسنة والأصول ، شديد التقشف والزهد والورع ، لا يقبل على شيء من متاع الدنيا . وكان ظهوره فى ذلك المجتمع البربرى الساذج الذى اختير مسرحاً لدعوته ، والذى كان يخيم عليه الجهل المطبق ، يتسم بصفات الزعامة الخارقة أو النبوة ، ومن ثم فقد ألفى ابن تومرت الطريق ممهداً ليعلن دعوته ، وليتشح بثوب المهدى المنتظر ، وينتحل صفة الإمام المعصوم .

ولكن ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات الخلابة ، كان يتسم بطائفة من الصفات المثيرة ، فقد كان شديد التعصب ، صارم النفس ، سفاكاً للدماء ، غير متورع فيها ولا متحوط ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس فى سبيل رأيه وبلوغ مقصده ، لا تأخذه شفقة ولا رحمة فى دماء خصومه ، ويستحل سبي نسائهم وأولادهم ونهب أموالهم ، ويسبغ على هذا السفك المروع صفة الشرعية ، لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة ، أو لمبدأ التوحيد الذى اتخذه شعاره ، وربما كان فيما ذكر عن المهدى من أنه « كان حصوراً لا يأتى النساء »(١) ما يفسر بعض عوامل هذه القسوة المروعة ، وهذا الظمأ إلى سفك الدماء .

* * *

لبث قبر ابن تومرت فى تينملل عصوراً طويلة مزاراً شهيراً يحج إليه المؤمنون من كل صوب ، ويخصه ملوك الموحدين بأعظم آيات الإجلال . وقد نقل إلينا عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب قصيدة ، أنشأها فى تخليد ذكرى ابن تومرت والإشادة برسالته ، شاعرٌ من أهل الجزائر ، وفد على الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقام على قبر ابن تومرت وأنشد قصيدته بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين . وإليك بعض ما ورد فيها ، وفيه شرح لأسطورة المهدى :

سلام على قبر الإمام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه ... وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علومَ الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا بقسط وعدل فى الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ويملك عرباً من مغير ومنجد
وتتبعه للنصر طائفةُ الهدى فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
هى الثلة المذكور فى الذكر أمرها وطائفة المهدى بالحق تهتدى
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرة التى أبادت من الإسلام كل مشيد
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمة ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغدون للدجال يغزونه ضحاً يذيقونه حد الحسام المهند
وينزل عيسى فيهم وأميرهم إمامٌ فيدعوهم لمحراب مسجد
يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجوههم ويخبرهم حقاً بعز مجدد
وما إن يزال الأمر فيه وفيهم إلى آخر الدهر الطويل المسرمد
فأبلغ أمير المؤمنين تحية على النأى منى والوداد المؤكد
عليه سلام الله ما ذر شارق وما صدر الوارد عن ورد مورد

ومهما كان فى تصوير دعوة ابن تومرت وأسطورة المهدى على هذا النحو من إغراق ومبالغة ، فلا ريب أن العامل الدينى كان أعظم دعامة فى قيام دولة الموحدين . ومع أن هذه الدولة نشأت فى البداية كدولة المرابطين دولة دينية ساذجة ، فإنها ما لبثت أن استحالت إلى إمبراطورية دينية وسياسية عظيمة ، بسطت سلطانها على المغرب والأندلس ، وأعادت بقوتها على الإسلام فى اسبانيا منعته القديمة ، وبعثت إلى الأندلس حياة جديدة ، استطالت إلى أكثر من ثلاثة قرون أخرى .

محمـــد بن الأحمر

مؤسس مملكة غرناطة

(٥٩٥ – ٦٧١ هـ) ، (١١٩٨ – ١٢٧٢ م)

يعرض لنا تاريخ الأندلس (إسبانيا المسلمة) منذ قيام الدولة الأموية ، ثلاث مراحل تمتاز كل منها بمميزات خاصة : الأولى مرحلة القوة والتفوق أعنى تفوق الدولة الإسلامية على اسبانيا النصرانية . والثانية مرحلة الفوضى والكفاح خلال عصر الطوائف والمرابطين والموحدين . والثالثة مرحلة الضعف والانحلال أيام مملكة غرناطة وهى مرحلة الكفاح الأخير . ومن الغريب أن هذه المراحل الثلاث تكاد تتساوى فى مداها الزمنى ، إذ يمتد كل منها زهاء قرنين ونصف قرن ؛ فقد عاشت الدولة الأموية منذ سنة ١٤٠ هـ إلى أواخر القرن الرابع . وامتدت دول الطوائف وسيادة المرابطين والموحدين منذ أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن السابع . وعاشت مملكة غرناطة منذ سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٨٩٧ هـ (١٢٣٨ – ١٤٩٢ م) .

وقد كان شبح الفناء يهدد الأندلس منذ انحدرت إلى غمر التفكك والفوضى ، عقب انهيار الدولة الأموية وقيام دول الطوائف الصغيرة يقاتل بعضها بعضاً ، والعدو المشترك أعنى اسبانيا النصرانية يتربص بها ، ويؤلب إحداها على الأخرى ليسحقها تباعاً ، وقد ظفر غير بعيد بالاستيلاء على مدينة طليطلة ، أول قاعدة أندلسية كبيرة تسقط فى يد اسبانيا النصرانية (٤٧٨ هـ – ١٠٨٥ م) ، ولاح شبح الخطر قوياً يهدد الأندلس كلها بالفناء . ولم ينقذ الأندلس فى تلك الآونة العصيبة من هذا الفناء سوى مقدم المرابطين من إفريقية إلى الجزيرة استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، وانتصارهم فى موقعة الزلاقة الشهيرة على النصارى (٤٧٩ هـ – ١٠٨٦ م) ، ثم اجتذبت الأندلس بنعمائها ومروجها الجميلة أولئك الغزاة البربر فاستولوا عليها ، وقضوا على ملوك الطوائف ، وقطعت الأندلس فى ظلهم ثم فى ظل خلفائهم الموحدين ، الذين استولوا على ملكهم فى المغرب والأندلس

زهاء مائة وخمسين عاماً ، وكانت حقبة مضطربة مليئة بالفكاح والحروب الأهلية . ولكن عناصر القوة والتكافوء ، كانت فيها سجالا بين المسلمين والنصارى .

ولما انهار سلطان الموحدين فى الجزيرة فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عاد شبح الفناء يهدد الأندلس مرة أخرى ، وكان انهيار سلطانهم بالأندلس يرجع أولا إلى ضعف خلافتهم بالمغرب ، وما شجر بينهم حول كرسى الملك من حروب أهلية ، وثانياً إلى نهوض قوى أندلسية جديدة فى شكل ثورات وزعامات محلية ، ترمى إلى مقاومة النصارى ، وتحرير الجزيرة من نير الموحدين . وقد انتهزت اسبانيا النصرانية فرصة هذه الفورات الجديدة ، وهذا الصراع الجديد فى الأندلس بين مختلف القوى ، وأخذت تنتزع من أشلاء الأندلس ما استطاعت . وهكذا أخذت القواعد الأندلسية العظيمة الباقية تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية : قرطبة (٦٣٣ هـ — ١٢٣٦ م) وبلنسية (٦٣٦ هـ — ١٢٣٨ م) ومرسية (٦٤٠ هـ — ١٢٣٤ م) وإشبيلية (٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م) . ولكن عناصر الاضطراب والفوضى أخذت تتمخض هذه المرة عن ظاهرة جديدة من التجمع والاستقرار ، وأخذت عناصر القوة والتماسك تجتمع رويداً فى الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة لتكون مهداً لمولد مملكة إسلامية جديدة ، هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة يرجع إلى عوامل تاريخية وجغرافية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير ، آخر الحواجز الطبيعية بين إسبانيا النصرانية وبين الأندلس ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر : إلى عدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم أن تستمد الغوث والعون من إخوانها فى الدين ؛ وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى ، حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٦ هـ ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبى جميل زيان إلى الأمير أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية (تونس) وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيــل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درســا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست   فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى ، الذى لبث أحقاباً يربط بين الأندلس ، وبين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لها شبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً .

— ٢ —

فى أوائل القرن السابع الهجرى ظهر فى شرقى الأندلس فى منطقة مرسية أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، وأعلن الخرج والثورة على الموحدين . وكان سلطان الموحدين قد أخذ يضطرب ويتصدع فى الثغور والنواحى . وبدأ ابن هود فانتزع مرسية من الموحدين (٦٢٥ هـ) ، وبويع بها ، ودعا للخليفة العباسى المستنصر بالله ، وأخذ أمره يشتد من ذلك الحين ، وأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت فى طاعته عدة من قواعد الأندلس ، ومنها جيّان وقرطبة وألمرية وماردة وبطليوس . ثم استولى على غرناطة سنة ٦٢٨ هـ ، واستمر حيناً يخوض مع الموحدين والنصارى ومنافسه ابن الأحمر معارك متعاقبة . واستطاع النصارى فى تلك الأثناء غزو قرطبة والاستيلاء عليها وذلك فى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) فكان لسقوطها أعظم وقع فى الأندلس وسائر أنحاء العالم الإسلامى . وشغل ابن هود حيناً بمشاريعه الخاصة ، ثم لم يلبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ فى ثغر ألمرية فى ظروف غامضة ، وقيل إن وزيره ونائبه فى ألمرية أبو عبد الله الرميمى هو الذى دبر قتله غيلة ، ، فكانت لوفاته نتائج هامة . ذلك أنه على أثر تحطيم سلطانه وانهيار مشاريعه ، انفسح الطريق وصفا الأفق لمنافسه ابن الأحمر . ولم تكن ثورة ابن هود على الموحدين ونجاحه فى تحطيم سلطانهم ، فى الواقع سوى مقدمة لمرحلة جديدة من مراحل التاريخ الأندلسى ، أو بعبارة أخرى مقدمة لقيام مملكة أندلسية جديدة هى مملكة غرناطة .

ويرجع الفضل فى قيام مملكة غرناطة التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلا آخر ، إلى عبقرية رجل من ذوى النباهة والعزم والتواضع معاً هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر المعروف

بابن الأحمر ، سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة ، على مقربة من جنوبى أندوجر ، من أعمال قرطبة ، ويرجعون نسبتهم إلى الصحابى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية . وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقشف ، جندياً وافر الجرأة والعزم ، يتزعم قومه ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ؛ وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون فى الثغور والنواحى ، وضعف أمر الموحدين ، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود ، وأخذ ينتزع منهم القواعد والثغور تباعاً ، رأى بنو نصر الفرصة سانحة للظهور على مسرح الحوادث ، ونهض كبيرهم محمد بن يوسف بن نصر لمعارضة ابن هود فى جنوبى الأندلس ودعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، وأطاعته جيان وشريش ومالقة من القواعد الجنوبية (سنة ٦٣٠ هـ) ، وكان ابن هود وابن الأحمر يطمح كلاهما إلى الاستئثار بزعامة الأندلس ، وكان لا بد أن يقع بينهما الصدام ، وقد وقع فعلا ، واشتبكا على مقربة من إشبيلية فى معركة هزم فيها ابن هود (٦٣١ هـ) . وحاول ابن الأحمر على أثر ذلك أن يبسط سلطانه على إشبيلية ، ولكنه لم ينجح لمعارضة أهلها لرياسته ، وتمسكهم بدعوة ابن هود ، وكانت رياسة ابن هود بالفعل أوسع نطاقاً ، وأكثر تمكناً فى شرق الأندلس وأواسطه ؛ فلما شعر ابن الأحمر أن الأمر قد استتب لابن هود ، وجاءته موافقة الخليفة العباسى على دعوته ، سعى إلى التفاهم معه فعقد معه الهدنة والصلح أولا ، ثم لم ير بأساً من مصانعته والانضواء تحت لوائه وجاهر بطاعته ، ولكن ابن هود لم يلبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ كما قدمنا ، فانهارت دولته بسرعة ، وعندئذ بادر ابن الأحمر بالاستيلاء على ألمرية من يد حاكمها الرميمى نائب ابن هود وقاتله ، وقامت مدينة غرناطة فى الوقت نفسه بدعوته ، ودعاه زعماؤها إلى دخولها ، فدخلها مغرب يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٢٨ م) فى حفل بسيط مؤثر وجعل بها مقر حكمه وقاعدة سلطانه .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة من غمر الفوضى التى سادت الأندلس عند انهيار دولة الموحدين . ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد . وكان

ابن الأحمر يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة . وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولا سيما فى الجنوب ، ولكن أصاغر الزعماء والحكام كانوا يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم ، على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة يرى فى ابن الأحمر ، بعد وفاة ابن هود ، زعيم الأندلس الحقيق والخصم الذى يجب تحطيمه ؛ وكان ابن الأحمر ، وهو يعمل على توطيد مملكته الناشئة ، يشعر دائماً بخطر النصارى ويرقب حركات فرناندو الثالث فى توجس وحذر . والواقع أن سائر القواعد الوسطى ، ولاسيما جيان وأحوازها ، قد أضحت منذ سقوط قرطبة تحت رحمة القشتاليين ، وكان فرناندو الثالث قد سير بالفعل جيشاً ، عاث فى منطقة جيان ، واستولى على حصن أرجونة ، موطن ابن الأحمر وقومه (بنى نصر) ، وعدة حصون ومواضع أخرى من أملاك ابن الأحمر . ثم زحف القشتاليون جنوباً صوب غرناطة ذاتها ، وضربوا حولها الحصار ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسارة فادحة ، (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) . وفى العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها حتى كادت أن تسقط فى أيديهم ؛ فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره وقدم إليه طاعته ، واتفق على أن يحكم أراضيه باسمه وفى ظله ، وأن يؤدى له جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب . وتعهد بمعاونته فى حروبه ضد أعدائه ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وسلم إليه قلعة جيان رهينة بحسن طاعته . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وارتضى ابن الأحمر أن يضحى استقلاله موقتاً احتفاظاً بأراضيه وحتى تتوطد دعائم إمارته . وعاون النصارى فى محاصرة إشبيلية والاستيلاء عليها تنفيذاً لعهده (٦٤٦ هـ) . وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر فى تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم فى الدين احتفاظاً بالملك والسلطان .

ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم راغماً ، إنقاذاً لتراث لم يكتمل

الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس كلها تحت لوائه ، وإدماج ما تبقى من تراثها وأراضيها فى مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه ؛ ولم تكن تحدوه رغبة فى توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف ، بل كانت تحدوه قبل كل شىء رغبة فى الاستقرار والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة ، ومن ثم كانت مصانعته للنصارى ومهادنتهم فى البداية . وكان جرياً على السياسة الأندلسية المأثورة يستمد عون ملوك العدوة ويوثق معهم أواصر المودة .

وكان تطور الحوادث فى الأندلس ، شرقها وغربها ، وتفاقم محنتها ، وتوالى سقوط قواعدها فى أيدى العدو ، قد أخذ يحدث صداه قوياً فى الضفة الأخرى من البحر ، فى المغرب ، حيث أخذ نجم الدولة المرينية يتألق ، وتبدو ضخامة حشودها وقواتها ومواردها ، مشجعة على الالتجاء إليها ، وطلب إنجادها وغوثها ، وكانت النجدات الأولى من متطوعى بنى مرين قد أخذت تعبر إلى شبه الجزيرة . وقامت فى داخل المغرب حركة قوية للحث على إنجاد الأندلس وتداركها قبل أن يفوت الوقت ، ويتم العدو القوىّ الإجهاز عليها ، واشترك فى هذه الحركة شعراء نظموا القصائد المبكية ، وعلماء أدباء توجهوا برسائلهم البليغة . بيد أنه كان لا بد أن تمضى أعوام أخرى حتى تؤتى هذه الحركة ثمارها العملية ، ويعبر بنو مرين بقواتهم الجرارة إلى شبه الجزيرة .

وبالرغم من أن ابن الأحمر استطاع غير بعيد أن يصمد لمقاومة القشتاليين ومحاربتهم ، وقد استطاع بالفعل أن يهزمهم حينما غزو أراضيه فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، فإنه لبث يعانى من عدوانهم وغزواتهم المتوالية . فلما تفاقم أمر هذه الغزوات ، وزحف القشتاليون على غرناطة للمرة الثانية (٦٦٤ هـ) ، ورأى ابن الأحمر أنه عاجز عن رد هذا البلاء ، اضطر أن يتقدم خطوة أخرى ، فى سبيل طلب المهادنة والسلم ، وأن يبذل لتحقيق هذه الغاية مزيداً من التضحية ، فعقد مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) معاهدة صداقة وسلم جديدة ، نزل له بمقتضاها عن عدد كبير من البلاد والحصون ، وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر بمقتضى هذا الصلح لملك قشتالة من البلاد والحصون الإسلامية المسورة ، بلغ مائة وخمسين من بلاد غرب الأندلس .

وقد أذكى هذا الانهيار الفادح لصرح الوطن الأندلسى ، وما أصابه من

فقد معظم قواعده التالدة ، فى نحو ثلاثين عاماً فقط ، لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر ، أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة فى رثاء الأندلس ، وبكاء قواعدها الذاهبة ، وهى قصيدة ما تزال تحتفظ حتى اليوم برنينها المؤسى وهذا مطلعها :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يُغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته أزمان

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه فى توطيد مملكته ، وتنظيم شئونها ، وكان منذ سنة ٦٦٢ هـ قد أعلن البيعة بولاية العهد لمحمد أكبر أولاده ، وبذلك أسبغ على رياسة بنى نصر صفة الملوكية الوراثية . ثم توفى فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر سنة ١٢٧٢ م) عقب جرح أصابه فى معركة ضد جماعة من الخوارج عليه ، وقد قارب الثمانين من عمره .

وكان ابن الأحمر يتمتع بخلال باهرة ، من الشجاعة والإقدام وشغف الجهاد والمقدرة على التنظيم والبراعة السياسية ، وهذا إلى جم البساطة والتواضع ؛ وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . ويصفه ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية فى قوله : « كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة ، والسلامة ، والجمهورية ، جنديا ، شهما ، ثغريا أيداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتقشف ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد الحزم ، موهوب الإقدام ، عظيم التشمير ، مصطنعاً لأهل بيته ، فظاً فى طلب حظه ، حامياً لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه » ، وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير وجعله داراً للملك ، وجلب له الماء ؛ وسكنه بأهله وولده . ويقول البعض إن تلقيب محمد ابن يوسف بابن الأحمر وتلقيب أسرته ببنى الأحمر ، إنما يرجع إلى إنشائه لحصن الحمراء ذاته . ويقول البعض الآخر إن ذلك يرجع إلى نضارة وجهه واحمرار شعره . وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويدقق فى جمع الأموال والجبايات ، حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع ، يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود وينشده الشعراء ؛ وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى .

وإليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشئ مملكة غرناطة وظروف مملكته : « كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ، ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى خبث طبيعته ، بل إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . ففى العصور الوسطى كان قانون الأمم ، وعقد المعاهدات ومجاملات الفروسة ، وشروط السلم الشريف ، تفهم بطريقة ناقصة ، وكثيراً ما تنتهك بعمد ؛ وكانت معظم نقائص هذا الأمير ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء ، مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة وصفات هى أثمن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندفاع السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة فى حماية الجبال التى تظلل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون فى حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبلى ومحنتها الغامرة »(١) .

ولما توفى محمد بن الأحمر سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) كانت مملكة غرناطة الصغيرة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى الأحمر الفتى على أسس ثابتة ، وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم ، ولذا لم نشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية جديدة ، وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت غير بعيد أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى(٢) .

---

(١) راجع Scott : The Moorish Empire, in Europe V.II. p. 433

(٢) رجعنا فى هذا الفصل إلى تاريخ ابن خلدون ، وإلى كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ، وإلى نفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى . وراجع فى نهوض ابن الأحمر وقصة كفاحه كتابى « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » ج ٢ ص ٤١٤ — ٤١٦ وص ٤٣٠ — ٤٣٦ .

الكتاب الثالث

تراجم أندلسية

— ٢ —

من أعلام التفكير في الغرب الإسلامي

عبـــاس بن فرناس

عبقرية علمية أدبيـــة فذة

(نحو ١٩٠ – ٢٦٠ هـ) ، (٨٠٥ – ٨٧٣ م)

يحفل تاريخ العلوم الإسلامية بمختلف العبقريات ، التى استطاعت خلال ظلمات العصور الوسطى ، أن تحقق أروع الغزوات ، فى ميادين العلوم المحضة ، كالطب والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والحيوان وغيرها ، وأن تمهد باكتشافاتها العظيمة ، الطريق للأجيال اللاحقة من علماء العصر الحديث .

وربما كان ابن فرناس القرطبى أعجب هذه العبقريات العلمية الإسلامية ، ذلك أنه لم يقتصر على معالجة البحوث العلمية التى كانت سائدة فى عصره ، ولكنه جنح إلى أنواع فريدة لم يفكر فيها إنسان من قبله ، وامتاز بصفات عديدة ، قلما تجتمع فى شخصية علمية أخرى . فهو فيلسوف ، وعالم رياضى وطبيعى ، وكيميائى وفلكى من الطراز الأول ، وهو موسيقى بارع ، وهو أديب وشاعر فذ ، وهو فوق كل ذلك أول عالم حاول أن يغزو الجو وأن يخترع أداة للطيران .

وهو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس . وأصله من كورة تاكرُنّا (رُندة) بجنوب الأندلس فى شرق المثلث الإسبانى ، وينتمى إلى أسرة من البربر ، إلى ذلك الجنس الذكى النابه ، الذى اعتنق الإسلام والعروبة فى عصر مبكر ، واضطلع بأعظم قسط فى فتح الأندلس ، وفى الغزوات الإسلامية الكبرى فيما وراء البرنيه ، ثم بعد ذلك فى حماية الأندلس وامتداد حياتها عصوراً ، وساهم أخيراً بقسط بارز فى تراثها الحضارى العظيم .

ونشأ ابن فرناس بقرطبة فى أواخر القرن الثانى من الهجرة (أواخر القرن الثامن الميلادى) ودرس بها ، وبرع منذ شبابه فى الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك ، وبرع فى نفس الوقت فى الشعر والأدب والموسيقى ، وظهر منذ أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس المتوفى سنة ٢٠٦ هـ (٨٣٢ م) . وعاصر من بعد ولده عبد الرحمن بن الحكم ، ثم حفيده محمد بن عبد الرحمن ، وحظى لدى

هؤلاء الأمراء الثلاثة ، وأتحفهم بمدائحه وأدهشهم بمخترعاته ، وتوفى فى أواخر أيام الأمير محمد وقد أربى على الثمانين .

* * *

وعرف ابن فرناس أولا ببراعته فى الحكمة والشعر والأدب ، وانتظم بين أعلام العلماء والشعراء الذين يضمهم بلاط الحكم بن هشام . بيد أنه ما لبث أن ظهر فى ميدان آخر ، هو ميدان العلوم البحتة ، وهو الميدان الحقيقى الذى تفتحت فيه مواهبه المدهشة ، ذلك أنه انكب على معالجة البحوث الطبيعية والكيميائية والفلكية ، ولم يقتصر فى معالجتها مثل كثير من أسلافه على النواحى النظرية والتجريبية ، لكنه اندفع إلى ميدانها العملى ، وانتهت تجاربه فى ميدان الكيمياء الصناعية إلى اختراع صنع الزجاج من الرمال والحجارة ، فكان لظفره بهذا الاكتشاف دوى عظيم ، وكانت له فيما بعد نتائج عملية باهرة ، وطارت شهرته فى سائر أنحاء الأندلس . ثم عكف ابن فرناس فى نفس الوقت على الدراسات والبحوث الرياضية والفلكية ، وانتهى فيها إلى اختراع عدد من الآلات الفلكية الدقيقة ، وقد ذكر لنا منها مؤرخ العصر آلتين ، يصفهما لنا على النحو الآتى :

الأولى واسمها « ذات الحلَق »(١) ، وقد رفعها ابن فرناس إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) مرفقة بهذه الأبيات التى تعرب عن وظيفتها وفائدتها :

قد تم ما حملتنى من آلة	أعيا الفلاسفة الجهابذ دونى
لو كان بطليموس ألهم صنعة	لم ليثقل بجداول القانون
فإذا رأته الشمس فى آفاقها	بعثت إليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التى حجبت معاً	دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيها بالنهار كما بدت	بالليل فى ظلماتهن الجون

والثانية هى آلة لمقياس الزمن ، سماها ابن فرناس « بالميقاته » ، ورفعها إلى

---

(١) وهى عبارة عن عدة حلقات متداخلة ، فى وسطها كرة معلقة تمثل حركة الكواكب السماوية وهى التى تسمى فى اللغة الحديثة **Sphère Armillaire** .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) ، وقد نقش فيها الأبيات الآتية :

ألا إننى للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس النهار ولم تنسر كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن إمام المسلمين محمد تجلت عن الأوقات كل صلاة

وتجلت معارفه الرياضية والهندسية فى كثير من الاختراعات والتحسينات الفنية بالقصر وحدائقه ، على النحو الذى يصفه المؤرخ المعاصر فيما يلى : « كان عباس بن فرناس الحكيم الشاعر لايزال من تفوه قريحته الحكيمة ، يخترع الطرف الملوكية ونوادر الطرف العجيبة ذات الصور الجميلة والحركات البديعة ، ببلولها وإفراغها المياه منها فى البرك وغيرها ، و يستعنى فى إقامة أشخاصها ومعالجة هندمتها بالصبغ عريف النجارين بالقصر » .

* * *

وبرع ابن فرناس فى الموسيقى وصياغة الألحان ، وفى الغناء ، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن يستدعيه إلى مجالس أنسه ، فكان يقدم إليه أناشيد من رقيق نظمه ويغنيها بحضرته . وقد أورد لنا المؤرخ من ذلك مقطوعتين : الأولى مطلعها :

الجهل ليل ليس فيه نور والعلم فجر نوره مشهور

والثانية قطعة من أربعة أبيات كتبها ابن فرناس بالذهب على تفاحة محجولة رفع بها إلى الأمير وجاء فيها :

تفاحة مصفرة البعض نحو فيها من ألم العض
أمنتها ذاك وكسيتها حسناً بذا من ذنيب محض
وقلت فيها الحق من بعد ذا وما لقول الحق من نقض
محمد أكرم مستخلف من خلفاء الله فى الأرض

قال المؤرخ « فاستملح الأمير التفاحة واستحسن الأبيات ، فأمر أن يغنى بها ، وأمر لعباس بأربعماية دينار بعدد مفاصله ، وقال لو زادها لزدناه » .

على أن أشهر ما اقترن باسم ابن فرناس ، هى محاولته اختراع آلة يستطيع الإنسان أن يطير بها فى الجو ، وقد انتهى بالفعل إلى القيام بتجربته الخطيرة على

مشهد من أهل قرطبة ، « فكسى نفسه الريش على سرق الحرير ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره » ، ثم صعد إلى ربوة عالية بناحية الرُّصافة ، واندفع منها فى الهواء طائراً « فحلق فيه حتى وقع فى مكان مطاره على مسافة بعيدة » ؛ واشتهر ابن فرناس بهذه التجربة المدهشة التى ملأت مشاهديه من أهل قرطبة روعاً وإعجاباً ، وكان ذكره فى كل مكان ، حتى قال فيه مؤمن بن سعيد أكبر شعراء العصر :

يطم على العنقـــاء فى طيرانهـــا ... إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

ومن الغريب أن ابن فرناس على تفرده فى ميادين الاختراعات العلمية على هذا النحو المدهش ، كان يحتل بين شعراء العصر مكانة ممتازة ، وكان ، إلى جانب معاصريه ، الشاعرين الكبيرين مؤمن بن سعيد ، وأبى عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، من خواص شعراء الأمير محمد ، وله فى مديح الأمير ، وفى الإشادة بحوادث العصر قصائد رنانة ، ومنها قصيدته الشهيرة فى موقعة وادى سليط التى انتصر فيها الأمير محمد على ثوار طليطلة وحلفائهم النصارى الإسبان (٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م) وكان من شهودها إلى جانب الأمير وهذا مطلعها :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف ... لهوم الفلا عبل القبائل ملتف
إذا أومضت فيه الصوارم خلتهـــا ... بروقاً تراءى فى الغمام وتستخفى

* * *

على أن أعجب صفحة فى حياة ابن فرناس ، وأكثرها إيلاماً هى محاكمته الشهيرة بتهمة الزندقة والكفر ، فقد أثار هذا العلامة الفذ ببحوثه واختراعاته العلمية الفريدة ، حسد الفقهاء وشكوكهم ، كما أثارت بحوثه الكيميائية والفلكية بداره بالربض الغربى من قرطبة ثم محاولته للطيران ، ظنون الكافة ودهشتهم ، واعتقادهم أن الرجل مارق ، يتمتع بقوى شيطانية خارقة ، وقد أثمرت سعاية خصومه من الفقهاء وغيرهم فى النهاية إلى اتهامه بالكفر والزندقة ، وإتيان الخوارق الشيطانية ، فاعتقل وقدم للمحاكمة ، أمام قاضى قرطبة سليمان بن أسود الغافقى ، وعقدت المحاكمة بالمسجد الجامع ، وهرع الناس لشهودها ، واجتمع حشد من العامة للشهود عليه . وقد نقل إلينا المؤرخ المعاصر ، بعض أقوال أولئك الشهود ،

فمنهم من قال : سمعت ابن فرناس يقول : « مفاعيل مفاعيل » ، ومنهم من قال : « رأيت الدم تفور من قناة داره ليلة ينير » إلى غير ذلك مما يصفه المؤرخ « بأحموقات من غثراء شهود عليه ذوى جهل وقدامة » وكان القاضى سليمان ابن أسود بالرغم من صرامته ، ذهناً مستنيراً ، فلم ترقه تلك الترهات ، ولم يجد فيها طائلا ، فشاور جماعة الفقهاء ، فيما قيد منها ، ولم يجد سبيلا إلى مؤاخذة ابن فرناس ، وقضى ببراءته وإطلاق سراحه .

وهكذا نجا ابن فرناس من محنة كانت تهدد حريته وحياته ، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن هذا العصر الذى بدت فيه طوالع الحركة العلمية الكبرى فى الأندلس ، كانت تهب فيه ريح المطاردة الفكرية من آن لآخر ، وقد اتهم فيه إلى جانب ابن فرناس ، عدة آخرون من العلماء والفقهاء منهم صديقه وزميله يحيى الغزال الجيانى الشاعر والفيلسوف ، ومنهم بقى بن مخلد عميد فقهاء العصر ، وقد اتهمه زملاؤه بالزندقة ، وحاولوا الإيقاع به ، ولم يسعفه سوى الأمير محمد ذاته ، حيث عقد له مجلساً لمناظرة متهميه ، وانتهى بدحض أقوالهم وإلزامهم الحجة . وكانت هذه الإتهامات من خواص العصر ، ومن ورائها الأحقاد المنافسات الشخصية ، ومن ورائها أحياناً بواعث السياسة[1] .

---

(١) استقيت معظم ما ورد فى هذا الفصل من الوقائع والتفاصيل ، من قطعة مخطوطة من تاريخ ابن حيان حصلت على صورتها من مكتبة جامع القرويين بفاس .

ابن حيان مؤرخ الأندلس

وكتابه المقتبس

(٣٧٧ – ٤٦٩ هـ : ٩٨٧ – ١٠٧٦ م)

يعتبر أبو مروان ابن حيان ، بين مؤرخي الأندلس ، أصدقهم رواية ، وأبلغهم أسلوباً وأبرعهم نقداً . وقد كنا حتى ربع القرن الأخير ، ندرس شخصية ابن حيان ، وخواص منهجه التاريخي ، فى معظم الأحيان ، مما ينقله إلينا المؤرخون المعاصرون أو المتأخرون من تاريخه ، من شذور وفصول مختلفة ، ولكن ما أسفرت عنه البحوث الأخيرة من العثور على عدة قطع مخطوطة من تاريخه الكبير ، يضع أمامنا مادة غزيرة من تراث هذا المؤرخ البارع ، نستطيع على ضوئها أن نقدر أهمية هذا التراث بالنسبة لتاريخ الأندلس بصفة عامة ، وبالنسبة لتاريخ العصر الذى عاش فيه ابن حيان ، وهو عصر انهيار الخلافة ، وعصر الطوائف بصفة خاصة ، ونستطيع من جهة أخرى ، أن ندرس بصورة أفضل خواص منهجه التاريخي وأسلوبه النقدى .

وينتمى ابن حيان إلى أسرة نابهة من الموالى . وهو أبو مروان حيان بن خلف ابن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان . وكان جده الكبير حيان مولى للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، أو عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، ومؤسس دولة بنى أمية بها .

وولد ابن حيان فى قرطبة فى سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) ودرس بها . وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبى عامر . وكانت قرطبة قد غدت يومئذ أعظم مركز للدراسات الممتازة بالأندلس ، وأضحت جامعتها الشهيرة ، منذ أواخر عهد الحكم المستنصر ، وأوائل عهد المنصور ، أعظم الجامعات الأندلسية . ودرس ابن حيان الحديث والأدب واللغة ، وكان بين أساتذته أبو جعفر عمر بن نايل النحوى صاحب أبى على القالى ، وأبو العلاء صاعد البغدادى نزيل قرطبة ، وأخذ عنه كتاب الفصوص .

وبرع ابن حيان فى الأدب والرواية حتى غدا من أعلامها ، وخاصة محققيها ، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع ، والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان فى شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم انهيارها ، وقيام دول الطوائف فى بداية القرن الخامس الهجرى . أو الحادى عشر الميلادى ، ولا ريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التى مزقت وحدة الوطن الأندلسى ، قد أذكت مخيلة ابن حيان وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التى نراها ماثلة فى معظم ما كتبه عن حوادث عصره .

وقد سنحت لابن حيان ، وهو معاصر لدول الطوائف ، ومدون لأحداثها ، فرصة لكى يدرس أحوال هذه الدويلات عن كثب . فقد ولى الوزارة لبنى جهور سادة قرطبة ، وحكامها عن طريق نظام « الجماعة » أو الشورى . وكان بالأخص من معاونى أبى الوليد محمد بن جهور ، ولد أبى الحزم بن جهور مؤسس حكومة الشورى ، ثم وزر من بعده لولده عبد الملك بن جهور .

ولسنا نعرف إن كان ابن حيان قد استمر فى منصبه فى الوزارة حتى سقطت دولة بنى جهور ، على أثر افتتاح المعتمد بن عباد لقرطبة فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) ، واستأثر بنو عباد بهذا الفتح دون بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، وقد كانوا يبغون الاستيلاء على قرطبة ، فسبقهم بنو عباد إلى انتزاعها . ولكنا نعرف أن ابن حيان ، قد وجه على أثر هذا الفتح إلى المعتمد بن عباد رسالة تهنئة حارة ، نقلها إلينا ابن بسام فى الذخيرة ، وفيها يحمل ابن حيان على المأمون ابن ذى النون ، فى عبارات ملتهبة لاذعة .

وهنا نقف قليلا لنسجل على ابن حيان موقف تناقض مؤلم ، ذلك أنه حسب ما ينقل إلينا ابن بسام ، يهدى مؤلفه التاريخى العظيم ، وهو الذى لم تصل إلينا فصوله الأولى ، فى مقدمته ، إلى المأمون بن ذى النون ، ويصفه « بالأمير المؤثل الإمارة ، ذى المجدين ، الكريم الطرفين » . وبالرغم من أن ابن بسام يشيد بجهود ابن حيان التاريخى ، وينقل عنه فى كتابه « الذخيرة » شذوراً ضافية ، ويستشهد به فى كثير من المواطن ، فإنه ينتهز هذه الفرصة للحملة على ابن حيان

لمواقفه المتناقضة من أمراء الطوائف ، وتردده فى ذكرهم بين المديح والذم ، وفى رأيه أن هذا التاريخ ، بالرغم مما لقيه لدى بعض أولئك الأمراء من ترحاب وتقدير ، وما أجزلوه عنه من صلات ، فإن ابن حيان « قد أخطأ التوفيق وما أصاب » ، « إذ جاءت معظم أقواله كالسهام المرسلة ، من قدح فى الأحساب والأعراض ، وطمس للمعالم والأنوار » ، وسوف نرى إلى حد يمكننا الاعتداد بأقوال ابن بسام فى الحكم على مجهود ابن حيان .

ذلك أن مجهود ابن حيان التاريخى ، يحظى بالعكس بأعظم تقدير ، ويبدو هذا المجهود فى أروع مظاهره فى كتاب ابن حيان الجامع « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » ، وهو تاريخ الأندلس حتى عصره ، أى عصر الطوائف . وقد كنا إلى ما قبل ثلاثين عاماً لا نعرف من هذا المؤلف الضخم سوى أجزاء يسيرة . ولكنا اليوم ، وقد كشفت البحوث الحديثة عن عدة أجزاء كبيرة من هذا المؤلف الجامع ، وهو ما سنتحدث عنه بعد ، نستطيع أن نكوّن فكرة واضحة عن كتاب « المقتبس » ، وهو بلا ريب أقيم ما فى تراث ابن حيان التاريخى ، بل هو إلى جانب مؤلفات الرازى ، أقيم ما انتهى إلينا من تواريخ الأندلس فى عصر الإمارة والخلافة . وقد اشتهر ابن حيان فى عصره بصدق الرواية ، وبلاغة الأسلوب ، ونحن نشعر على ضوء معاييرنا المعاصرة ، أن ابن حيان يقدم إلينا أقيم الروايات وأنفسها ، وأحفلها بالتعليقات النقدية ، وأن أسلوبه التاريخى يتسم بروح علمى ونقدى بارز . وفى رأينا أن ابن حيان يضارع من مؤرخى المشارقة المسلمين ، المسعودى وابن الأثير ، وأنه يجمع فى أسلوبه القوى بين بلاغة العرض التى يمتاز بها المسعودى ، وبين روح التحقيق والنقد التى يمتاز بها ابن الأثير .

ويمكننا من جهة أخرى أن نشبه ابن حيان ، من حيث بلاغة أسلوبه ، وقوة تعبيره ، بماكولى أو جيبون من مؤرخى العصر الحديث .

ومن أهم ما يمتاز به ابن حيان ، بعد نظره الصادق ، فى تعليل الحوادث ونتائجها البعيدة المدى . ومن ألمع ما عرف عنه من ذلك ، تحليله لحادث سقوط بربشتر فى أيدى الفرنج (النصارى النورمان) فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) ، وما أصاب المسلمين خلال سقوطه من أنواع العدوان الشنيعة ، وما رتبه

ابن حيان على تفرق كلمة المسلمين فى الثغر الأعلى من النتائج البعيدة ، التى سوف تنتهى بذهاب الثغر وانهيار سلطان المسلمين . وقد أورد لنا ابن بسام فى الذخيرة هذه النبذة المليئة بالنذير :

ومما جاء فيها : « وقد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره ، ولا شك عند أولى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك ، والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك ما لحق الذى قبله ، فمثل دهرنا هذا — لا قدس — بهيم الشبه ، ما أن يباهى بعرجه فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء ، نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل ، على فرط جهلهم ، اعتزازهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم » .

ويرجع ابن حيان بالأخص إلى أسلافه من مؤرخى الأندلس ، ولا سيا أحمد ابن موسى الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) صاحب كتابى « أخبار ملوك الأندلس » و « الاستيعاب فى أنساب أهل الأندلس » وهما من المؤلفات التى لم تصل إلينا ، وإلى ولده عيسى بن أحمد الرازى ، وإلى ابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ، ومعاوية بن هشام الشبنسى من كتاب أو كتب لم يذكرها ، كما ينقل إلينا عن بعض أكابر معاصريه ، مثل ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) وابن عبد البر النميرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) .

ويعنى ابن حيان عناية خاصة بإيراد الوثائق الرسمية الهامة ، وهو يورد لنا منها عدة لا نجدها فى أى مصدر آخر من مصادر التاريخ الأندلسى ، مثل كتاب

الحكَم بن هشام عن ثورة الربض ، وكتاب الناصر فى الحملة على ابن مسرّة وتعاليمه الإلحادية ، وكتابه عن موقعة الخندق ، ووثائق كثيرة أخرى عن حوادث ومناسبات مختلفة ، تلقى كثيراً من الضياء على سير الحوادث وروح العصر ، وهى وثائق لم نقف عليها إلا فى تراث ابن حيان المخطوط .

وفضلا عن ذلك فإن لاهتمام ابن حيان بنقل الوثائق الأميرية والخلافية أهمية مزدوجة . وذلك أن هذه الوثائق فضلا عما تلقيه من الضياء على أحداث العصر ، وعلى سياسة الإمارة أو الخلافة ، فإنها فى نفس الوقت تقدم إلينا نماذج من النثر الفنى ، وأساليب الكتابة الرسمية والدبلوماسية ، فى تلك العصور ، وهو ما يعنى مؤرخ الآداب أن يقف عليه وأن يدرسه .

أما ما ينسبه ابن بسام إلى ما ورد فى روايات ابن حيان المعاصرة عن رجالات عهد الطوائف من المديح والذم ، ومن ميل مع الهوى ، ومجانبة للحق ، فمسألة ترجع إلى روح العصر ذاته .

ولقد عاش ابن بسام فى أعقاب عهد الطوائف وفى أوائل عهد المرابطين ، بعد أن غاضت قصور الطوائف ، وغاضت معها تلك الحلقات الأدبية الزاهرة التى امتازت بها تلك القصور ، ولم يمارس ابن بسام تلك الصلات الشخصية التى كان يمارسها كتاب عصر الطوائف مع أمراء عصرهم ، ولم ينضو تحت حماية أحد من الأكابر ، ولم يلتحق بخدمة أحد منهم . أما فى عصر الطوائف فقد كان كل بلاط يضم جمهرة من الكتاب والشعراء تسطع حوله ، وكان كل كاتب أو شاعر ينضوى تحت لواء أمير من الأمراء ، وكان تنقل الكتاب والشعراء بين مختلف القصور من الأمور الذائعة فى ذلك العصر . ولم يشذ ابن حيان عن هذه القاعدة ، فهو قد خدم الدولة الجهورية ، وهو قد اتصل بأكثر من أمير من أمراء عصره ، وفى مقدمتهم بنو عباد ، وبنو ذى النون ، وهو قد عاصر كثيراً من الأحداث التى كانت تقع بين مختلف القصور والأمراء ، وإذن فقد كان من الطبيعى أن يتأثر ابن حيان بمختلف المؤثرات الشخصية والعاطفية ، المترتبة على تلك الصلات وتلك الظروف . ولم يكن ذلك شأن ابن حيان وحده ، وإنما كان شأن معظم الكتاب والرواة الذين عاصروا الطوائف ، وخدموا قصورها ، واتصلوا بأمرائها . وفى رأينا أن هذه النزعة العاطفية التى تسربت

إلى بعض ما كتبه ابن حيان عن أمراء الطوائف ، لا تنتقص كثيراً من قيمة ذلك التراث التاريخى النفيس الذى خلفه لنا .

على أن ابن حيان ينوه بما كانت عليه دول الطوائف من الفساد والانحلال ، وبما كان يلتزمه الفقهاء إزاء ذلك من موقف سلبى يكشف عن ملقهم ونفاقهم . وهو يجمل ذلك الموقف فى تلك الفقرة البليغة القوية :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح ، فيهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية لهم ، ولا مخلص منه . فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن منهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية فى صدقهم » .

ونحن نعرف أن ابن حيان قد كتب غير « المقتبس » مؤلفين آخرين هما « المتين » وهو تاريخ للأندلس تبالغ بعض الروايات فى ضخامته ، وتصفه بأنه يقع فى ستين جزءاً ، وكتاب « المآثر العامرية » ، أو « أخبار الدولة العامرية » ، وهو أيضاً مؤلف ضخم ، يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور بن أبى عامر ، وتفاصيل غزواته ، ولو وصل إلينا هذا الكتاب أو بعض أجزائه لكان لدينا عن المنصور أعظم الروايات والوثائق ، لأن ابن حيان نشأ فى أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه ضمن وزراء المنصور ، ولكن لم يصلنا مع الأسف الشديد شىء منه . ولابن حيان فوق ذلك كتاب « البطشة الكبرى » ، وهو كتاب يتضمن تفاصيل سقوط دولة بنى جهور أمراء قرطبة الذين خدمهم ابن حيان . ولم يصلنا شىء من هذه المؤلفات الأخيرة غير بعض الشذور القليلة التى نقلها الكتاب المتأخرون ، وقد كتب ابن حيان رسائل أخرى منها كتاب معرفة التابعين ، وهو فيما يبدو فصل من المقتبس ، وأخبار القضاة ، والجامع لمآثر بنى خطاب . ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه الرسائل أكثر من عناوينها .

وعاش ابن حيان أكثر من تسعين عاماً ، وتوفى فى اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٤٦٩ هـ (٣١ أكتوبر سنة ١٠٧٦ م) . ودفن بمقبرة

الربض في جنوب شرقي قرطبة ، على مقربة من نهر الوادي الكبير ، وكانت مثوى العظماء والكبراء .

* * *

هذا عن المؤرخ ، وأما عن مؤلفه العظيم « المقتبس » ، وعما انتهى إلينا منه ، فإننا نستطيع أن نقدم عنه المعلومات الآتية ، وكلها عن دراسة شخصية لكل ما وصل إلينا من كتاب « المقتبس » .

لقد انتهت إلينا حتى اليوم من المقتبس ، عدة قطع مخطوطة نحاول التعريف بها على النحو الآتي :

(١) القطعة الأولى ، وقد وقف عليها المرحوم الأستاذ ليڤي بروڤنسال في خزانة القرويين بفاس ، وذلك قبيل الحرب العالمية الثانية ، وحملها معه بقصد السعي إلى نشرها . وهي تضم نحواً من ستين لوحة كبيرة وتحتوي على حوادث الأندلس من سنة ١٨٨ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ ، وبها معلومات هامة فريدة عن يحيى الغزال الجياني ، وابن فرناس ، وغيرهما من شخصيات العصر ، لا توجد في غيرها ، وقد تفضل الأستاذ بروڤنسال حين وجوده بالقاهرة في سنة ١٩٣٧ ، باطلاعي على هذه القطعة ، وانتفعت بها انتفاعاً كبيراً في كتابي دولة الإسلام في الأندلس ، بيد أنه من الأسف أن هذه القطعة قد ضاعت بعد ذلك ، ولم توجد بين أوراق الأستاذ بروڤنسال بعد وفاته .

(٢) القطعة الثانية ، وهي تلي القطعة الأولى من حيث الترتيب التاريخي ، وهي تحفظ حتى اليوم بخزانة جامع القرويين ، وهي قطعة كبيرة تحتوي على ٩٥ لوحة كبيرة أي ١٩٠ صفحة ، ولكنها بالية جداً ، ومتآكلة صعبة القراءة والتحقيق . وهي تتضمن السفر الثاني من « المقتبس » ، وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة ٢٣٣ هـ إلى سنة ٢٦٧ هـ ، وهي تتمة للجزء السابق ، وهي تتعلق بالأخص بحوادث عصر الحكم بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم ، والأمير محمد بن عبد الرحمن ، وتورد لنا تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وعن أحواله في هذا العصر ، وعن الصقالبة والوزراء والعمال ، ويقوم الآن على نشر هذه القطعة الدكتور محمود علي مكي ، وكيل معهد الدراسات الإسلامية السابق بمدريد ، وسوف تصدر عما قريب .

وقد انتفعت بهذه القطعة أعظم انتفاع فى كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » فى طبعتيه الثالثة (سنة ١٩٦١) والرابعة (سنة ١٩٦٩) .

(٣) القطعة الثالثة ، وهى توجد بالمكتبة البودلية بأكسفورد ، وتتكون من ١٠٧ لوحة ، وتتضمن فى معظمها حوادث عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وأخبار ثوار الأندلس خلال الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٦ هـ إلى نهاية عهد الأمير عبد الله فى سنة ٣٠٠ هـ . وقد قام بنشر هذه القطعة المرحوم الأب الأوغسطينى ملشيور أنتونيا ، وصدرت فى باريس فى سنة ١٩٣٧ .

(٤) القطعة الرابعة ، وهى قطعة صغيرة تتكون من نحو ستين ورقة من القطع الصغير ، وتحتوى على أحداث أربعة أعوام من حكم الخليفة المستنصر بالله هى أعوام ٣٦٢ — ٣٦٥ هـ ، وتحتوى على معلومات هامة عن الشئون الإدارية فى هذا العصر . وقد قام باستنساخ هذه القطعة المرحوم العلامة فرنسيسكو كوديرا فى بعثته فى المغرب والجزائر سنة ١٨٧٢ ، من إحدى المكتبات الخاصة بمدينة قسنطينة بالجزائر ، وأودعت بعد ذلك مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وقد قام أخيراً بتحقيقها ونشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجى ، وصدرت فى بيروت سنة ١٩٦٥ .

* * *

والآن نتحدث عن أعظم اكتشاف من نوعه لكتاب « المقتبس » ، وهو العثور على السفر الخامس منه ، المتعلق بعصر عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ نحو أربعة أعوام بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا الاطلاع عليها ، ودراسة محتوياتها عقب اكتشافها مباشرة . وهى تمثل اليوم بين نوادر ذخائر المكتبة الملكية .

وهى عبارة عن جزء ضخم من كتاب « المقتبس » يقع فى مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة فى كل صفحة منها ٢٣ سطراً ، وفى كل سطر نحو ١٤ كلمة . ولا يحمل المخطوط عنواناً ، لأنه ناقص من أوله ،

ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى ، وأسلوبه النقدى ، ومصادره التى يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة ، أنه أمام جزء كبير من المقتبس . على أننا عثرنا إلى جانب ذلك ، فيما قرأنا من حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، بنص يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، وهو قوله خلال حديثه عمن قتل من المسلمين فى الموقعة : « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان ، الأمثل طريقة ، أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

والمخطوط قديم ، وبه خروم كثيرة ، ولكنه رمم اليوم وأصبح فى حالة جيدة من الحفظ ، وهو مكتوب بخط أندلسى واضح ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته ، وربما ترجع كتابته إلى القرن التاسع أو العاشر الهجرى ، وقد كتب على جلدته اليمنى (سنة ١٠٦٩) ، ولكنا لا نعتقد أن ذلك هو تاريخ كتابته لأنه يبدو أقدم من ذلك .

ويضم هذا المجلد الضخم « السفر الخامس » من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد فى ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر ، ومن ثم كانت أهميته البالغة . بيد أنه مع ضخامته ، لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠ وينتهى فى سنة ٣٥٠ هـ . بل تنقص هذا « السفر الخامس » من المقتبس فى البداية نحو ستين صفحة ، ومن ثم فإن المخطوط بعد أن يحدثنا عن أبناء الناصر ، وكيفية تربيتهم ، وعن أثر الناصر فى حماية « السنة » والقضاء على فتنة ابن مسرّة ، ويورد لنا كتاب الناصر عن هذه الفتنة ، وأخبار بعض غزوات الناصر ضد الثوار — بعد ذلك كله يبدأ المخطوط بحوادث سنة سبع وثلاثمائة أى بعد جلوس الناصر بسبعة أعوام ، وإن كان يتناول بعد ذلك حوادث وقعت فى أعوام سابقة ، وينتهى بحوادث سنة ٣٣٠ هـ أعنى قبل وفاة الناصر بعشرين عاماً ، وإن كان مع ذلك يورد فى بعض المواضع حوادث وقعت بعد ذلك حتى سنة أربعين وثلاثمائه ، ومعنى ذلك أن هذا السفر الضخم من كتاب « المقتبس » لا يغطى من عهد الناصر سوى النصف .

وفيما يلى بعض محتويات المخطوط الهامة نثبتها بإيجاز مرتبة وفق ورودها ،

وذلك لكى نستطيع أن نكون فكرة واضحة عن أهمية هذه الذخيرة الجديدة من ذخائر التاريخ الأندلسى .

ذكر أثر الخليفة الناصر لدين الله فى حماية السنة وإنكار البدعة ، ويلحق بذلك بيان الناصر عن فتنة ابن مسرة — غزاة المتلون — الوزراء والعمال — مولد ولى العهد الحكم — الشعراء فى عهد الناصر — خبر سلم المارق عمر بن حفصون — خبر مهلك عمر بن حفصون — غزوة الناصر إلى كورة إلبيرة — وقيعة بقيرة — غزوة بنبلونة — غزوة إشتين — غزوة مدينة ببشتر — فتح مدينة ببشتر وكتاب الناصر عن ذلك — الشدة — مشاهير العمال — ذكر الأشراف الحسنيين المتآمرين بالعدوة — خبر فتح مدينة سبتة — خبر الأسطول — الحريق العظيم بسوق قرطبة — غزوة الخندق وكتاب الناصر عنها — خبر وشقة — المشروع فى سلم الطاغية روذمير — خير العدوة — الوزراء والعمال . وآخر المخطوط فى حوادث سنة ثلاثين وثلثمائة — القحط والاستسقاء — الوزراء والعمال .

هذا مجمل ما يحتويه « السفر الخامس » من المقتبس . وقد كتبت الموضوعات المتقدمة بإفاضة لا مزيد عليها ، وبأسلوب نقدى بارع ، هو الذى يتميز به ابن حيان فى كل ما يكتب ، وتخللها عشرات الوثائق والنصوص .

* * *

هذا ما انتهى إلينا حتى اليوم من أجزاء المقتبس ، وهو فى ذاته مقدار عظيم من محتويات هذا المؤلف . بيد أنه لم ينته إلينا حتى اليوم شىء منه من بقية عصر الناصر وإنشـائه للزهراء ، وعن عصر المنصور ، وانهيار الخلافة الأموية ، وعصر الطوائف ، وهى التى عاصرها ابن حيان أو عاش قريباً منها . ومن المحقق أن ابن حيان قد كتب ما كتبه من تاريخ هذه الفترة بإفاضة لا مزيد عليها . فإذا تذكرنا إلى جانب ذلك ما نقله المؤرخون المعاصرون عن ابن حيان مثل ابن بسام وغيره ، من الفصول والشذور الكثيرة عن مختلف العهود والأشخاص ، وما نقله المتأخرون مثل المقرى وغيره ، كذلك من شذور لا نهاية لها ، أدركنا ضخامة هذا المؤلف العظيم ، أعنى كتاب « المقتبس » ، واستطعنا أن نقدر أنه كان يتألف من خمسة أو ستة مجلدات كبيرة على الأقل ، فهو فى الحقيقة موسوعة ضخمة عن تاريخ الأندلس ورجالاتها حتى منتصف القرن الخامس الهجرى .

وأما عن منهج ابن حيان التاريخى فهو مزيج من طريقة الفصول وطريقة الحوليات ، ويتخلل ذلك فى أحيان كثيرة الحديث عن الشخصيات الهامة ، وطريقة الحوليات تتعلق بالأخص بالغزوات والحوادث العسكرية ، وابن حيان أبرع مؤرخ أندلسى فى تصوير الشخصيات ، وإبراز فضائلها أو نقائصها ، وهو فى ذلك قوى التعبير ، على نحو ما نعهده فى كتابات مؤرخ حديث مثل جيبون . وهو يلجأ إلى السجع فى أحيان كثيرة ، ولكنه سجع المعانى والفكر ، الذى لا يخل بالغرض التاريخى أو النقدى المقصود ، كما أنه يلجأ إلى المحسنات البديعية دون أن ينتقص ذلك من بلاغة التعبير ووضوحه .

ولم ينسج أحد من مؤرخى الأندلس اللاحقين على منوال ابن حيان ، ولم يضطلع أحد منهم بكتابة موسوعة مثل موسوعته ، ولكنا نستطيع أن نذكر من بين مؤرخى الأندلس المتأخرين مؤرخاً عظيماً ، يمكن أن يشبه بابن حيان فى أسلوبه القوى النقدى ، ذلك المؤرخ هو الوزير ابن الخطيب . وإذا كان ابن الخطيب لم يصل فى كتابة التاريخ من ناحية المنهج الفنى ، إلى المستوى الذى بلغه ابن حيان — فإنه يمكن أن يقال فى نفس الوقت إن أسلوبه التاريخى ، سواء من حيث قوة العرض ، أو بلاغة التعبير ، لا يقل عن أسلوب ابن حيان ، إن لم يفقه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما المواطن السلطانية التى برع ابن الخطيب فى عرضها وروعة صياغتها .

أبو بكر بن عمار

شاعر وسياسي ومغامر

(٤٢٢ – ٤٧٧ هـ) ، (١٠٣١ – ١٠٨٥ م)

قضيت يومين في مدينة شلب البرتغالية الصغيرة . ولم يكن ذلك لأن شلب من مدن السياحة أو النزهة ، أو لأنها في ذاتها تستحق الزيارة والإقامة ، ولكن لأنها فقط تمثل في تاريخ الأدب الأندلسي مثولا قوياً ، إذ كانت موطن الشاعر الكبير أبي بكر بن عمار ، وثانياً لأنها كانت منزلا لأمير الشعر المعتمد بن عباد ، حكمها في شبابه من قبل أبيه المعتضد ، وما زالت ثمة بها بقية من أطلال قصر الشراجيب الذي تغنى به المعتمد .

وشلب **Silves** مدينة صغيرة مشرقة ، تقع في أقصى جنوبي البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطي ، فوق ربوة متدرجة ، تشرف على نهر أراد الصغير الذي يصب في المحيط ، قرب ثغر بورتماو الصغير . ودروبها قصيرة ملتوية ، وأحياؤها غير منسقة ، ولكن جميلة مؤثرة ، ولها طابع خاص يغلب عليه القدم ، ومظاهر العصور الوسطى ، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة ، وتحيط التلال العالية بالمدينة ، إلا من ناحية مدخلها فوق النهر ، حيث تقوم القنطرة العربية القديمة ، وهي قنطرة حجرية ذات أربعة عقود ، تصل المدينة بالطريق الكبرى ، وهنا على جانبي المدينة تمتد البسائط الخضراء ، والحقول اليانعة .

وفي قرية من أرباض شلب تسمى « شنبوس » ولد شاعر الأندلس الكبير ، أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري ، وذلك في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، في أسرة متواضعة لم يكن لها في الظهور شأن . ووفد على مدينة شلب ، فنشأ بها ، وتلقى دراسته الأولى ، ثم رحل إلى قرطبة ، فأكمل بها دراسته على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع في الأدب ، ونظم الشعر فتى ، واتخذه وسيلة للتكسب ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه . ثم قصد إشبيلية ، ومدح أميرها المعتضد بن عباد ، وكان بلاط إشبيلية

يسطع يومئذ فى ظل بنى عباد حماة الشعر والأدب ، ويحتشد فيه جماعة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، أمثال أبى الوليد بن زيدون ، وأبى محمد بن عبد البر ، وأبى عبد الله البزلياني وغيرهم . فنظمه المعتضد فى سلك شعرائه وأمنائه . ولما ندب المعتضد ولده محمداً المعتمد لحكم شلب على أثر افتتاحها من يد بنى مُزين فى سنة ٤٥٥ هـ ، اتصل به ابن عمار ، وألفى المعتمد فى صفاته وأدبه ، ورقيق نظمه ، ما حببه إليه ، فعهد إليه بوزارته ، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء ، حتى غدا أثير المعتمد ، ينظمه فى مجالس أنسه ، ولا يصبر على فراقه ، وكانت براعة ابن عمار فى النظم ، هى أحب صفاته لأميره الشاعر . ولما توفى المعتضد فى سنة ٤٦١ هـ ، وخلفه ولده المعتمد فى الملك ، عين ابن عمار والياً لبلدة شلب . وقد تركت حياة المعتمد فى شلب ، وما تقلب فيه فى ربوعها الجميلة من مجالى اللهو والأنس ، فى نفسه ذكريات عميقة ، تصورها لنا تلك الأبيات التى نظمها المعتمد مخاطباً صديقه ورفيق صباه ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتولى رياستها :

ألا حى أوطانى بشـــاب أبا بكر ... وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب من فتى ... له أبداً شوق إلى ذلك القصـــر
منـــازل آســـاد وبيض نواعـــم ... فناهيـــك من غيل وناهيك من خدر
فـــكم ليـــلة قد بت أنعم جنحهـــا ... بمخصبة الأرداف مجـــدبة الخصر
وبيض وسمـــر فاعلات بمهجـــتى ... فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليـــل يســـد النهر لهواً قطعتـــه ... بذات سوار مثل منعطف البـــدر
نضت بردَها عن غصـــن بان منعم ... نضـــير كما انشقت الكمام عن الزهر

ولم تطل إقامة ابن عمار بشلب ، ذلك أن المعتمد لم يصبر على فراقه ، فاستدعاه إلى إشبيلية ، وولاه وزارته . وظهر ابن عمار يومئذ بمقدرته ودهائه ، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ، ويندبه إلى سفاراته ، وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه . وتجلت مقدرة ابن عمار بنوع خاص فى تنظيم علائق المعتمد مع ملك قشتالة ، ألفونسو السادس ، أقوى ملوك شبه الجزيرة يومئذ ، وتوثيق أواصر المودة بينهما . واستمر ابن عمار على حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة ، إلى أن فسد الجو بينهما ، بتدخل اعتماد الرُّميكية ، زوجة المعتمد ، فكان ذلك إيذاناً بنكبته ، على ما نذكره بعد .

وكان من أهم المشاريع التى اضطلع بها ابن عمار يومئذ لحساب المعتمد ، استيلاؤه على مدينة مرسية ، وهو مشروع تجلت فيه مقدرته السياسية ودهاؤه الواسع . وكانت مملكة إشبيلية ، تمتد يومئذ من ناحية الشرق حتى لورقة وشقورة على مقربة من مرسية ، وهى الحاضرة الجنوبية لشرقى الأندلس . وكانت مرسية يومئذ تحت حكم بنى طاهر ، وأميرها أبو عبد الرحمن بن طاهر ، أحد كتاب العصر وبلغائه ، يجد فى حكمها صعاباً جمة ، ويعارضه من أهلها حزب قوى ، وقد كتب عدد منهم إلى المعتمد يستدعونه لافتتاحها ، ويؤكدون له ضعف الدفاع عنها . وعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لافتتاح مرسية ، فسار ابن عمار إلى شرقى الأندلس ، وعقد مع الكونت رامون برنجار أمير برشلونه اتفاقاً ، يتعهد فيه بأن يعاونه بفرسانه على فنح مرسية مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تؤدى إليه ثمناً لعونه ، وقدم المعتمد ولده الرشيد رهينة لديه ، وبعث بقواته إلى ابن عمار ، وبعث إليه الكونت بفرسانه . وحاصرت القوات المتحالفة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد تأخر فى أداء المال ، وقبض الكونت على ابن عمار ، وكان ابن عباد على رأس قواته على مقربة من شقورة ، فبادر بأداء المال ، وأفرج الكونت عن ابن عمار ، وعن الرشيد . ولم تنجح هذه الحملة الأولى فى افتتاح مرسية . فجهز المعتمد حملة ثانية ، وقدم عليها ابن عمار ، واستعان ابن عمار فى طريقه بقائد حصن بلج ، وهو يومئذ عبد الرحمن بن رشيق ، فسار معه ، وندبه للقتال ، وحاصر ابن رشيق مرسية ، ولبث على إرهاقها ، وتحريض أهلها ضد حاكمها ابن طاهر ، حتى تم له الأمر ، وفتحت المدينة أبوابها بطريق الخيانة ، ودخلها جند ابن عباد ، وقُبض على ابن طاهر واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه ، فلحق ببلنسية ، وكان افتتاح مرسية على هذا النحو فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) .

وهنا يكشف ابن عمار عن دخيلة نفسه ، وينقلب الشاعر إلى مغامر مضطرم الأطماع . كان ابن عمار يبغى أن يستولى على مرسية لنفسه ، وأن يستقل بحكم هذه المدينة النائية ، بعيداً عن سلطان مليكه . وقد عمد بالفعل إلى حكمها حكم أمير مستقل ، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته ، وأخـذ يدس الدسائس بين أمراء هذه الناحية . ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدها . ذلك أن ابن رشيق ،

وهو فاتح المدينة الحقيقى ، كان يتربص بابن عمار ، ويتحين فرصته . وفى ذات يوم غادر ابن عمار مرسية لتفقد بعض الحصون القريبة ، فوثب ابن رشيق واستولى على المدينة ، وأغلق أبوابها فى وجه ابن عمار ، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانته .

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار ، فسار إلى قشتالة ، وقضى وقتاً قصيراً فى بلاط ألفونسو السادس ، ولكنه لم يلق منه عوناً . فقصد إلى سرقسطة ، ملتجئاً إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته واستخدمه فى شئونه ، ولكنه ما لبث أن توفى بعد قليل ، فبقى ابن عمار فى خدمة ولده المؤتمن حيناً . وهنا غلبت ابن عمار سجيته فى الإغراء والدس ، فحرض المؤتمن على غزو حصن شقورة ، وهو يومئذ من أعمال دانية . وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن فى جماعة قليلة من أصحابه ، وكان حاكمه رجلا وافر الدهاء يدعى ابن مبارك ، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول ، وهش لاستقباله ، فخدع ابن عمار بموقفه ، وما كاد يستقر فى الحصن ، حتى هوجم وقبض عليه ، ووضعت فى يده الأغلال ، وزج إلى ظلام السجن ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ . (١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر ، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار ، وبعث إليه مالا وخيلا ، فاستجاب لدعوته ، وسلم ابن عمار لرسله وعلى رأسهم ولده يزيد الراضى ، فأخذ أولا إلى قرطبة ، حيث كان المعتمد يومئذ ، وأدخل إليها مكبولا فى هيئة زرية ، وقد احتشد الألوف من أهلها لرؤيته ، وقد كانت تهتز لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه . ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية ، فاعتقله المعتمد فى مكان خامل فى قصره ، ولبث فيه ينتظر مصيره .

والواقع أن مصير ابن عمار كان يهتز فى يد القدر ، وكانت ثمة ظروف قاهرة تدفع به إلى نهايته المحزنة . وقد سبق أن أشرنا إلى موقف اعتماد الرُّميكية زوجة المعتمد من ابن عمار ، وقد كانت بينهما وحشة تزداد على ممر الأيام . وكانت الرميكية ، وهى ملكة إشبيلية الأثيرة ، تحتل مكانة بارزة فى حياة المعتمد وفى بلاط إشبيلية . وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه ، وكانت

تعيش فى هذا الأفق الأدبى الرفيع ، الذى يسيطر على بلاط إشبيلية ، ويجتمع فى ظله أعظم شعراء العصر ، وتشترك فى كثير من الأحيان فى مجالس الشعر والأدب. وكان ابن عمار ، وهو يومئذ يشغل منصب الوزارة ، من أساطين هذه المجالس الأدبية ، وكان يومئذ فى إبان مجده ونفوذه ، يستأثر لدى المعتمد بثقته ، ويملك عليه كل حبه وعطفه ، وكانت الرميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ، ويخشى بأسها وسعايتها . واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد والوزير ، لتسفر عن نتيجتها الطبيعية ، وهى هزيمة الوزير وتغير مليكه عليه . ثم جاءت حوادث غزو مرسية ، وتصرف ابن عمار الغادر فى شأنها ، لتحسم الموقف ، ولتدفع ابن عمار إلى مصيره المحتوم .

ولما وقع ابن عمار أخيراً بين يدى المعتمد ، وزجه المعتمد إلى سجن القصر ، كان المعتمد يستحضره من آن لآخر ، ويبالغ فى عتبه وتأنيبه ، وابن عمار يمعن فى استعطافه واسترحامه . ويقال إن المعتمد تأثر فى النهاية بمحنته ووعده بصفحه . ولكن خصوم ابن عمار فى البلاط ، الساعين فى هلاكه ، وفى مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون ، وهو ولد الشاعر ، ضاعفوا سعايتهم ، وأبرزوا للمعتمد أبياتاً من الشعر بخط ابن عمار ، نظمها أيام أن كان فى مرسية ، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبنى عباد ، ولاعتماد الرميكية زوجة المعتمد .

وقد أورد لنا ابن الأبار فى ترجمته لابن عمار ، تلك القصيدة التى قيل إنها كانت سبباً فى نكبة ابن عمار ومصرعه ، وهذا مطلعها :

ألا حىِّ بالغرب حياً حــلالا   أناخوا جِمالا وحازوا جَمالا
وعرِّج بيومــين أم القــرى   ونم فعسى أن تراهـا خيالا
لتسأل عن ساكنيهـا الرماد   ولم تر للنــار فيها اشــتعالا

ويومين هى قرية من قرى إشبيلية ، ومنها كانت أولية بنى عباد . ومنها فى هجو الرميكية :

تخيرتها منى بنــات الهجين   رميكيــة ما تســاوى عقالا
فجاءت بكل قصــير العذار   لئيم النجــادين عما وخــالا

قصـــار القـــدود ولـكنهـــم أقاموا عليهـــا قروناً طـــوالا

ثم يشير ابن عمار إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله :

سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً وأهتـــك سترك حالاً فحالا

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية لتؤكد محنة ابن عمار . وقد وجه ابن عمار فى سجنه إلى المعتمد قصائد فى الاستعطاف تذيب الجماد ، أوعلى قول ابن الخطيب « تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتعفى على هضاب الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب » . ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التى تهز أوتار القلوب ، والتى مطلعها :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مـــزية فأنت إلى الأدنى من الله تجنـــح

حنانيـــك فى أخذى برأيك لاتطع عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

ومنهـــا :

أقلنى بما بينى وبينك من رضى له نحو روح الله باب مفتـــح

وعف على آثار جـــرم سلكتهـــا بهبة رحمى منك تمحو وتصـــفح

ولا تلتفت قول الوشـــاة وزورهم كل إناء بالذى فيـــه يرشـــح

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر فى مليكه الصارم ، ولم تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه . ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد ، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على وزيره ، هو أن ابن عمار حينما وعده المعتمد بصفحه ، حدث بذلك ولده الرشيد ، وذاعت القصة بعد ذلك ، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى المعتمد ، فاضطرم سخطاً على ابن عمار ، ونهض من فوره وفى يده طبرزين[1] كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة ، وذهب إلى حيث كان ابن عمار يرسف فى أغلاله ، ففزع ابن عمار لرؤيته ، وارتمى على قدميه يقبلهما ، ويبللهما بدموعه ، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه ، ولم يتركه إلا جثة هامدة ، ثم أمر به فغسل وكفن ، ودفن فى ركن من « القصر المبارك » . وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) .

---

(١) هو آلة تشبه البلطة .

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده ، وزيره الشاعر الكبير رفيق صباه ، ويده اليمنى فى كثير من المشاريع الخطيرة ، فى بادرة من الحقد المضطرم ، والقسوة التى لا تخبو ، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه ، ويقال إن المعتمد ندم فيما بعد على تسرعه ، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته .

وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس فى عهد الطوائف ، فكان وزيراً نابهاً ، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسياً بارعاً ، ومفاوضاً لا نظير له ، يعقد الصلات البعيدة المنال ، ويذلل المشكلات الصعبة . بيد أنه كان فى نفس الوقت سياسياً مغامراً ، قليل الولاء والوفاء ، ميكيافيليا ، يسعى إلى تحقيق غايته بأى الوسائل ، ودون اعتبار لخلق أو مبدأ .

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية ألمع ما فى خلاله ، وقد كان ابن عمار بلا ريب من أعظم شعراء الأندلس فى عصره ، وكان هذا العصر الذى سطعت فيه قصور الطوائف ، عصراً اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء جمهرة لم تجتمع فى أى عصر آخر ، ويكفى أن نذكر من هؤلاء ، بنو عباد ، وفى مقدمتهم المعتمد ، وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفى ، وأبو بكر بن اللبانة ، والمعتصم بن صمادح ، وبنو القبطرنة ، وابن عبدون . وكان ابن عمار فى طليعة هذه الجمهرة الشاعرة ، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره ، كما ملأها بذكر أعماله ومغامراته . وقد جمع شعر ابن عمار ، ورتبه فى ديوان خاص ، أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى . وأورد لنا ابن بسام فى « الذخيرة » طائفة كبيرة من أخبار ابن عمار ، كما وضع تأليفاً خاصاً فى تاريخه . وخصه كل من الفتح ابن خاقان فى « القلائد » ، وابن الأبار فى « الحلة » بترجمة حافلة . وهذه العناية بسيرة ابن عمار وتراثه الشعرى من معاصريه ، ومن بعدهم ، تنبئ عن أهمية هذه الشخصية البارزة فى تاريخ الطوائف ، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية .

أبو بكر الطرطوشى

وكتابه سـراج الملوك

(٤٥١ – ٥٢٠ هـ) ، (١٠٥٩ – ١١٢٧ م)

كان عصر الطوائف بالأندلس ، عصراً غريبا ، يمتاز من الناحيتين السياسية والاجتماعية بعدة خصائص تجعله عصراً قائما بذاته . فمن الناحية السياسية نرى الأندلس فى عصر الطوائف تنتثر إلى دويلات عديدة ، متنابذة متنافسة ، يسودها الخلاف والتفرق ، وتشتبك فى حروب أهلية صغيرة لا نهاية لها . ونرى اسبانيا النصرانية ، تستطيل عليها ، وتتربص بها ، وتحاول أن تؤلب بعضها على بعض ، وأن تنتزع منها ما استطاعت من القواعد والأراضى . ومن الناحية الاجتماعية ، نرى فى دول الطوائف مجتمعات منحلة ، يغلب عليها الضعف والخور ، والانهماك فى الترف ، وحياة المجون والدعة والاستهتار .

على أن أغرب ظاهرة تبدو خلال هذا الانحلال الشامل ، الذى كان يسود مجتمع الطوائف ، هو أن هذا المجتمع ، كان من الناحية الأخرى ، يبدو فى أثواب لامعة زاهية ، ويسطع بنهضة أدبية شاملة . وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء ، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسى ، والفكر الإسلامى بصفة عامة ؛

فى هذا المجتمع المترف ، الذى يعشق متع الحياة المادية ، ومن بين هذه الجمهرة الحاشدة من أئمة العلوم والآداب ، ظهر مفكر أندلسى من نوع خاص ، يتخذ من بين أوضاع هذه الدول الصغيرة – دول الطوائف – ومن أحداثها وسياسة ملوكها مادة لتأملاته ، ويتأثر بها فى تفكيره ، ويصوغ لنا منها مبادئ ونظريات خاصة .

هذا المفكر هو العلامة أبو بكر الطرطوشى ، وقد أودع نظرياته السياسية والاجتماعية ، كتابه الشهير المسمى « سراج الملوك » .

وهو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى الطرطوشى ، ويعرف بابن أبى رندقة . ولد بثغر طرطوشة فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٤٥١ ﻫ (يوليه ١٠٥٩ م) ، وقد كانت طرطوشته يومئذ ، ثغر مملكة سرقسطة الأندلسية الأول ، وكانت مملكة سرقسطة تتمتع فى ظل أمرائها من بنى هود ، بفترة من الإزدهار والرخاء ، وكانت فوق ذلك مركزاً من مراكز العلوم الأندلسية ، وكان بلاط بنى هود منتدى للعلماء والأدباء . وكان أمير سرقسطة فى هذا الوقت الذى ظهر فيه الطرطوشى ، وتلقى دراسته الأولى هو المقتدر بن هود (٤٣٨ — ٤٧٤ ﻫ) ، وكان من أكابر علماء عصره يشغف بدراسة الفلسفة والفلك والرياضة ، وله فى ذلك كتب ضاعت ولم تصل إلينا ؛ وكان من أكابر العلماء المنتمين إلى بلاطه ، العلامة الكبير أبو الوليد الباجى ، إمام عصره فى الفقه وفى مسائل الخلاف . فقصد الطرطوشى إلى هذا المنهل الغزير ، وتلقى عن الباجى كثيراً من علمه ولا سيما مسائل الخلاف ، ولازمه أعواماً خلال إقامته بسرقسطة . وتأثر الطرطوشى فى تفكيره وفلسفته الكلامية بتفكير هذا المفكر العظيم ، كما تأثر كذلك بتفكير صنوه وقرينه فى غزارة الفقه ومسائل الخلاف والفرق ، العلامة ابن حزم القرطبى . وشهد فى شبابه أحداث دول الطوائف ، وشهد بالأخص أحداث مملكة سرقسطة ، — وطنه — عن كثب ، وهى التى أملت عليه فيما بعد ، بعض نظرياته السياسية والاجتماعية .

* * *

ورحل الطرطوشى إلى المشرق فى سنة ٤٧٦ ﻫ ، وهو فتى فى نحو السادسة والعشرين من عمره ، وحج ، ثم قصد إلى بغداد ، ودرس فيها على أبى بكر محمد بن أحمد الشاشى ، وأبى أحمد الجرجانى ، وأبى سعد بن المتولى ، وهم يومئذ أئمة الفقه الشافعى ، وتلقى فى البصرة على أبى على التسترى . ثم رحل إلى الشام واستوطنها مدة ، ودرس بها ، واشتهر يومئذ بغزير علمه وبعد صيته ، كما كما اشتهر بورعه وزهده ، وكان جم التواضع ، يعيش فى شظف وتقشف ، بعيداً عن متاع الدنيا ومباهجها . ثم غادر الشام ونزل حينا ببيت المقدس ، يقرىء بها ، ثم غادرها إلى مصر ، ونزل بالإسكندرية يسبقه صيته ، فهرع إليه الطلاب من كل صوب .

وكان نزوله بالإسكندرية حول سنة ٤٨٨ هـ ، فى بداية عهد الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى ، وهو فى نحو الثامنة والثلاثين من عمره . وكانت الإسكندرية دائما مهبط علماء المغرب والأندلس المفضل ، فكان بها فى نفس الوقت الذى نزل بها الطرطوشى ، مواطنه العلامة أمية بن أبى الصلت الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٩ ، ونزلها من بعده بنحو نصف قرن مواطنه العلامة المقرئ الشهير أبو القاسم الرعينى الشاطبى الضرير ، إمام القراءات المتوفى سنة ٥٩٠ هـ ، وهو الذى أورث مصر علم القراءات ، ونزلها فى منتصف القرن السابع الهجرى العلامة الأندلسى المتصوف أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ . وغيرهم ممن لا يتسع المقام لذكرهم من علماء المغرب والأندلس .

وفى الإسكندرية ، استقر الطرطوشى ، وأقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه فى الحديث والفقه ومسائل الخلاف . ولم يمض سوى قليل حتى تزوج الطرطوشى من سيدة مصرية وأنجب منها ، وذلك حسبما يحدثنا فى كتاب « سراج الملوك » ، وبدأ عندئذ يتذوق حياة الهدوء والدعة . ثم ذهب إلى القاهرة واستقبله وزيرها الحاكم بأمره الأفضل شاهنشاه . وهو يحدثنا فى كتابه المذكور عن هذه الزيارة ، ويقص علينا كيف قام بوعظ هذا الوزير القوى ، ونصحه بتقوى الله وطاعته ، وبإقامة العدل ، وقمع الظلم ، والرفق بالرعية . ولم يلبث عقب عوده إلى الإسكندرية أن نشبت بينه وبين قاضيها مكين الدولة ابن حديد ، خصومة شديدة بسبب ما كان يثيره الطرطوشى من نقد حاد ، حول تصرفات هذا القاضى فى شئون الأموال والمكوس والمغارم الظالمة ، وغيرها من التصرفات الإدارية والقضائية . هذا فضلا عما كان يصدره الطرطوشى من فتاوى تثير الرأى العام فى بعض الشئون ، مثل قوله بتحريم الجبن الذى يأتى به الروم إلى المدينة ، وهذا إلى حملاته المتكررة على كثير من العادات السائدة فى المجتمع السكندرى ، وهو ما كان ينعته الطرطوشى بالبدع المحرمة .

ولما ضاق القاضى ابن حديد وأعوانه ذرعا بمسلك الطرطوشى ، بعثوا فى حقه إلى الخليفة بالقاهرة ، شكاوى وتقارير مرة ، وصوروه فيها شخصاً خطراً على النظام ، مثيراً للشغب فى المدينة . وبادر الأفضل شاهنشاه فأرسل إلى والى الثغر أن يرسل الطرطوشى إلى القاهرة ، فأرسل إليها مع خادمه ، وأدخل إلى

الأفضل ، فلم يسئ مقابلته ، ولكنه أمره بالإقامة فى مسجد الرصد بالفسطاط ، حتى يبت فى شأنه ، وقدر له راتباً شهرياً ضئيلا .

وقد كان ذلك فيما يبدو فى بداية سنة ٥١٥ هـ ، فلبث الطرطوشى فى هذا المعتقل بضعة أشهر ، حتى سئمت نفسه وغلب عليه اليأس ، وأضرب عن تناول الطعام الذى يشترى بنفقة السلطان ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئاً من « المباح فى الأرض » ، فجمع له شيئاً من النباتات تقوت به مدى ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب فى اليوم الثالث قال لخادمه « رميته الساعة » ، يقصد بذلك الأفضل . وتضيف الرواية إلى ذلك أن الأفضل قتل بالفعل فى الغد ، وكان ذلك هو اليوم السابق لعيد الفطر فى سنة ٥١٥ هـ (أواخر سنة ١١٢١ م) .

وكان ذلك نذير الخلاص ، فعاد الطرطوشى إلى الإسكندرية ، واستأنف حياته السابقة ، حياة الدرس والإقراء . وبدأ فى نفس الوقت فى كتابة مؤلفه « سراج الملوك » ، مهتدياً فى كتابته ، بمختلف الأحداث والتطورات التى شهدها بالأندلس فى شبابه ، وشهدها فى العراق والشام ومصر ، فى كهولته ونضجه . وهو يخص بكتابه « الأجل المأمون تاج الخلافة ، عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الأموى » يقصد بذلك الوزير المأمون البطائحى ، الذى خلف الأفضل شاهنشاه فى الوزارة ، وقد قصد الطرطوشى بالفعل إلى القاهرة ، وقدم كتابه بنفسه إلى الوزير ، واستقبله الوزير بمنتهى المودة والإكرام ، وأغدق عليه عطفه ورعايته . وتحدث الطرطوشى بهذه المناسبة إلى الوزير فى بعض المسائل والشئون التى يراها مخالفة للشرع فى نظره ، وقد حاول الوزير أن يرضى الفقيه ما استطاع ، بتحقيق وجهات نظره فى بعض هذه الشئون . وعاد الطرطوشى بعد ذلك إلى الإسكندرية ليستأنف حياته العلمية الهادئة .

* * *

يتناول الطرطوشى فى كتابه من الموضوعات ما يعتقد أنه متفق مع العنوان الذى اختاره له ، وهو محاولة نصح الملوك وإرشادهم وتوجيههم .

وهو يلخص لنا محتويات كتابه فى مقدمته ، بأنه جمع فيه ما تنطوى عليه سير الأمم السابقة ، وبالأخص ملوك الطوائف وحكماء الدول ، وأنه وجد ذلك

فى ست من الأمم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند ، والسند هند ، وأنه عمد فى ذلك إلى استعراض ما ألفاه فى كتبهم من الحكم البالغة والسير المستحسنة ، هذا إلى ما رواه وجمعه فى سير الأنبياء وآثار الأولياء ، وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن العزيز .

ولنفصل بعض الشيء ، فنقول إن الطرطوشى يفتتح كتابه بالكلام عن الخصال التى يقوم عليها المُلك ، وتلك التى تؤدى إلى هدمه ، وعن الخصال المحمودة فى السلطان والتى تمكن له ملكه ، وتسبغ الكمال عليه ، ثم تلك التى توجب ذمه ، وما يجب على الرعية إذا جنح السلطان إلى الجور ، وعن صحبة السلطان وسيرته مع الجند ، وفى اقتضاء الجباية وإنفاق الأموال .

أما تلك الخصال المحمودة فى السلطان ، فهى العدل والتواضع والحزم والحذر والحلم ولين القول ، ويقترن بذلك الحديث عن خير السلطان وشره . ويحدثنا الطرطوشى خلال ذلك عن العقل والدهاء والمكر والصفات البشرية ، من الحلم والجود ، والشح والبخل ، والصبر وكتمان السر ، والشكر . ثم يحدثنا عن الظلم وسوء عواقبه ، وعن السعاية وقبحها ، وعن القصاص وحكمه ، ويقرن ذلك كله بأخبار ملوك العجم وبعض الحكم المأثورة ، وكلام منوع عن الملوك والأنبياء والناس ، وعن الزهد والحكم والوصايا والعظات .

ثم يحدثنا الطرطوشى عن الوزراء وصفاتهم وآدابهم ، وعن المشاورة والنصيحة وكونهما يعتبران من أسس الملك ، وعن قواعد السلطة ، ويقرن ذلك كله بإيراد الحكم والأخبار ، من أقوال الإسكندر ، وأزدشير ، وأنوشروان ، وبزرجمهر . ويستأنف الحديث بعد ذلك عن خصال السلطان وسيرته مع الجند ، وتصرفاته نحو الأموال والجباية والإقطاع ، وعن سياسته نحو العمال ؛ ثم يحدثنا عن سياسة الخلافة نحو الذميين وعن أحكام أهل الذمة ، وعن الحرية وأحكامها ، وعن القضاة والعمال ، وعن الحروب وتدبيرها ، ويختم بالتحدث عن أخبار ملوك العجم وحكاياتهم وحكم حكمائهم .

تلك هى محتويات كتاب « سراج الملوك » . وإنه ليبدو لأول وهلة أن الطرطوشى يعالج فى كتابه ما اصطلح المفكرون المسلمون على تسميته بسياسة الملك أو « السياسة الملكية » . ويقول لنا الطرطوشى فى مقدمته « إن كتابه لم يسبق

إلى مثله أقلام العلماء » ، ولكن الواقع أن هذا الموضوع قد عالجه قبل الطرطوشى أكثر من مفكر مسلم . ويكفى أن نذكر هنا أن ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ قد عالجه فى كتابه « عيون الاخبار » ، وعالجه « إخوان الصفا » فى أواسط القرن الرابع فى بحوثهم المتعلقة بالسياسة ، ثم عالجه أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ فى كتابه « الأحكام السلطانية » ، وفى رسالته عن « الوزارة وسياسة الملك » ، ولكن الطرطوشى يمتاز على أسلافه بالتوسع والإفاضة ، وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

والحقيقة أن كتاب « سراج الملوك » هو أكبر مؤلف من نوعه من حيث ضخامة مادته وتنوع موضوعاته ، ولكن الصفة الدينية تغلب على أسلوبه ، ولا نقول الصفة الفقهية ، وهى التى تغلب على بحوث الماوردى فى كتاب « الأحكام السلطانية . ثم هو يتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، ويتضمن كثيراً من الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة ، وهو يورد موضوعات مستقلة متباعدة ، ينقصها الربط والتنظيم .

ومع ذلك فإن الطرطوشى يذهب فى بحوثه إلى آفاق جديدة ، لم تخطر لأسلافه الذين عالجوا قبله موضوع السياسة الملكية . فهو يحاول فى بعض نظراته أن يستقرئ أحداث عصره وخواصه ، وأن يستخرج منها بعض المبادئ الاجتماعية على نحو ما فعل ابن خلدون فيما بعد ، حيث جعل من المجتمع كله ومن تاريخه مادة لتأملاته . ويصارحنا ابن خلدون نفسه فى مقدمته بأن الطرطوشى كاد أن يطرق نفس موضوعه ، وأنه « قد حوم فى كتاب سراج الملوك ، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله » ، ثم يضيف إلى ذلك قوله « لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار . . وكأنه حوم على الغرض ، ولم يصادفه ولا تحقق قصده » . والواقع أن ابن خلدون يعالج فى مقدمته بعض الموضوعات التى يعالجها الطرطوشى فى كتابه مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ، واستظهار صاحب الدولة بالموالى والمصطنعين ، وشئون الجباية والمكوس وغيرها ، ولكنه ينحو فى العرض والتدليل

منحى آخر ، ولا نلمس فى كتاب الطرطوشى أثر ذلك المذهب الاجتماعى المبتكر الذى يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه إلى منتهاه .

ولقد تأثر الطرطوشى فى عرض نظرياته الاجتماعية بالأخص ، بما شاهده فى وطنه — الأندلس — من أحداث وتطورات غير عادية ، فهو قد عاصر أيام الطوائف بالأندلس ، وقضى شطراً من شبابه فى مملكة سرقسطة — إحدى دول الطوائف فى ظل بنى هود — وشهد عن كثب أساليب ملوك الطوائف فى تدعيم سلطانهم وحشد جيوشهم ، وإنفاق أموالهم ، وكان من أبرز نظريات الطرطوشى فى ذلك ، أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية ، إنما تقوم على الجند ، قبل المال ، وأن الأموال يجب أن تنفق على الاستكثار من الجند ، وأن خير ما يدعم هذه العصبية « هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة » ، أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر . ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول « إنها لا تنطبق على الدولة فى أولها ، وإنما تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة ، وأن الطرطوشى قد أدرك الدولة الهودية (مملكة سرقسطة) عند هرمها ، ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة ، وأدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش فى ظل بنى هود بسرقسطة ، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شىء ، لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وملاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة » . والظاهر أن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شهده من اعتماد بنى هود فى حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى ، ولا سيما أيام السيد الكمبيادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين .

ويرى الطرطوشى أن من أسباب ضعف المسلمين بالأندلس ، هو اهتمام ملوكهم بجمع المال ، وعدم إنفاقه على إعداد الجند ، ويقول لنا إن الدفاع فى

الرجال لا فى المال ، وإنما يُدفع بالأموال بواسطة الرجال ، ويعبر عن ذلك بقوله ، إنه لاشك أن بيت رجال خير من بيت مال ، وقد تأثر الطرطوشى فى صوغ نظريته بما شهده لدى ملوك الطوائف من شدة اهتمامهم بجمع الأموال من رعاياهم وإنفاقها قبل كل شىء على حياتهم المترفة ، وعلى إنشاء القصور الفخمة ، واقتناء الغلمان والجوارى ، وإهمال قضية الدفاع القومى ، والاستعانة عند الضرورة بحشد المرتزقة النصارى ، وقد كانت تحشد فى معظم الأحيان لتحقيق المشاريع العدوانية ومباشرة الحروب الأهلية ، التى كان ينزلق إليها ملوك الطوائف باستمرار ، والتى كانت كذلك من أسباب ضعفهم ، وعدم التفاتهم إلى قضية الدفاع القومية الأصيلة ، وهى الوقوف فى وجه العدو الخالد ، إسبانيا النصرانية ، ومحاولة التعاون على كبح عدوانها وأطماعها فى انتزاع أراضيهم ، والقضاء عليهم ، وعلى سائر تراثهم القومى .

ويحبذ الطرطوشى كذلك ، إنفاق السلطان للمال فى سبيل العلم والعلماء ، ويعتبر ذلك أيضاً من دعائم الملك والدولة ، ويستشهد على ذلك بقصة الوزير الشهير نظام الملك مع مليكه أبى الفتح بن ألب أرسلان ملك الترك ، فقد احتج هذا الملك على وزيره بضخامة ما ينفقه من الأموال على دور العلم والعلماء ، وأهل الصلاح والفقراء ، فى سائر أنحاء المملكة ، أو بعبارة أخرى على من لا ينفع ولا يغنى من الناس ، وأنه كان من الأفضل لو أن هذه الأموال أنفقت على إقامة جيش يوجه لافتتاح قسطنطينية ، فأجابه نظام الملك بأنه ينفق هذه الأموال على ما يسميه « بجيش الليل » ، وأن هذا الجيش متى نامت جيوش الملك ، يقوم جنده صفوفاً بين يدى ربهم يرسلون دموعهم ، ويطلقون بالدعاء ألسنتهم للملك ولجيوشه ، وأن الجيوش السلطانية إنما تعيش فى خفارة هذا الجيش الروحى ، وتبيت بدعائه وترزق ببركاته ، وقد بكى الملك لشرح وزيره بكاء شديداً ، وغمره بعبارات الشكر والرضى ، وطلب إليه أن يكثر من هذا الجيش الميمون .

وتقف معظم نظرات الطرطوشى النقدية والاجتماعية ، عند أحداث وطنه — الأندلس — أو بعبارة أخرى عند أحداث ممالك الطوائف ، التى عاصرها فى أواخر عهدها ، والتى كانت مملكة سرقسطة وطنه الأصلى ، نموذجاً بارزاً

من نماذجها . ولا نكاد نجد بعد ذلك فى عرض الطرطوشى غير السير والحكم والمواعظ ، وهى التى تغلب حسبما أسلفنا على محتويات كتابه .

وقد بلغ الطرطوشى فى أواخر حياته ، كفقيه من أقطاب الفقه المالكى ، مرتبة الإمامة ، ومن ثم فإنا نرى عاهل المرابطين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يطلب رأيه وفتواه ، إلى جانب الإمام أبى حامد الغزالى ، فى أخطر شئونه السياسية والعسكرية ، ومن ذلك مشروعه فى خلع ملوك الطوائف وافتتاح ممالكهم ، باعتبارهم خارجين على أحكام الشريعة والدين — وهو ما أفتى به فقهاء المغرب والأندلس . وقد أيد الطرطوشى هذه الفتوى ، ونفذ أمير المسلمين مشروعه بافتتاح ممالك الطوائف والاستيلاء على الأندلس ، وضمها إلى إمبراطوريته الكبرى .

وكان الطرطوشى فوق تضلعه فى الشريعة ومسائل الخلاف ، أديباً بارعاً وشاعراً محسناً ، ومن شعره قوله فى الغزل الروحى وهو من أجمل شعره :

أقلّب طرفى فى السماء تردداً ... لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة ... لعلى بمن قد شم عرفك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها ... لعل نسيم الروح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب تذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة ... عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وقوله فى الرشوة :

إذا كنت فى حاجة مرسلا ... وأنت بإنجازها مغرم
فأرسل بأكمه خلابة ... به صمم أغطش أبكم
ودع عنك كل رسول سوى ... رسول يقال له الدرهم

وللطرطوشى غير سراج الملوك ، عدة مؤلفات ورسائل أخرى ، فى التفسير والفقه والوعظ ، تربى على العشرين ، وقد انتهى إلينا الكثير منها .

وتوفى الطرطوشى بثغر الإسكندرية فى السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٢٠ هـ (٢٠ يونيه سنة ١١٢٧ م) فى التاسعة والستين من عمره « ودفن بمقبرة وعلة قريباً من البرج الجديد ، قبلى الباب الأخضر » ، وقد عرف قبره فيما بعد ، وأقيم عليه مسجد يسمى بمسجد الطرطوشى ، وهو ما يزال قائماً حتى يومنا .

ابن بسام الشنتريني

وكتابه « الذخيرة »

توفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)

منذ بضعة أعوام كنت فى زيارة للبرتغال ، وكان من برنامجى أن أزور بها عدة مدن أندلسية ، منها باجة ، وشلب وشنترين ويابرة . وكانت تحفزنى إلى زيارة هذه المدن الأندلسية القديمة ، فضلا عما بها من الآثار الأندلسية ، أسماء لامعة فى تاريخ التفكير والآداب الأندلسية . ففى باجة ذكرت الفقيه العلامة الأصولى الكبير أبا الوليد الباجى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، وفى شلب كانت تساورنى ، وأنا أطوف بأطلال قصر الشراجيب ، ذكرى ابنها الشاعر الكبير أبى بكر بن عمار المتوفى سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥ م) وزير المعتمد ابن عباد وشاعره ، وفى يابرة ، ذكرت ابنها الكاتب والشاعر الكبير ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وزير بنى الأفطس ، وناظم مرثيتهم الشهيرة . وأما عن شنترين فقد كانت تساورنى ، وأنا أسير وئيداً فى الطريق الجبلى الصاعد إليها ، ذكرى ابنها الكاتب الأندلسى الأشهر ، ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب « الذخيرة » الذى وضع مصنفه التاريخى والأدبى الرائق ، قبل سقوط وطنه شنترين فى أيدى النصارى بأعوام قلائل .

وتقع شنترين فى شمال شرقى أشبونة ، على قيد خمسين كيلومتر منها . فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية للنهر ، وقد كانت فى الوقت الذى غادرها فيه ابن بسام من أعمال مملكة بطليوس ، آخر دول الطوائف فى غربى الأندلس ، وقد كانت لنأيها عن بطليوس هدفاً لغزوات النصارى ، وكادت تسقط فى أيديهم غير مرة ، لولا أن أنقذها بنو الأفطس أمراء بطليوس بدفع الجزية ، وكان ابن بسام فى الواقع صادق الحس ، بعيد النظر ، فإنه لم تمض على مغادرته لوطنه شنترين أعوام قلائل حتى سقطت فى أيدى النصارى ، واستولى عليها ألفونسو السادس فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، وذلك خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، وعجز المسلمين

عن المسير للدفاع عنها . وقد استردها المسلمون بعد ذلك ، ولكنها سقطت نهائياً في أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) واستولى عليها ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، بمعاونة حليفه الفارس الشهير جيرالدو سمبافور .

ومما هو جدير بالذكر أن مدينة شنترين ، تشتهر فى تاريخ الأندلس أيضاً بحادث محزن ، هو هزيمة الموحدين الفادحة تحت أسوارها فى محاولتهم لاستردادها ، ومصرع عاهلهم الخليفة أبى يعقوب يوسف من الجراح التى أصابته فى الموقعة . وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (يوليه ١١٨٤ م) .

ولد أبو الحسن على بن بسّام بمدينة شنترين ، فهو إذاً أندلسى برتغالى من أهل ولاية الغرب الأندلسية ، وهو الإسم الذى كان يطلق يومئذ على المنطقة الشاسعة التى تمتد من غربى نهر الوادى الكبير حتى المحيط الأطلنطى ، وتشمل النصف الجنوبى من البرتغال الحديثة . ولا نعرف بالتحقيق تاريخ مولد ابن بسام ، كما أننا لا نعرف ظروف نشأته وحياته الأولى . وكل ما نعرفه من ذلك ، أنه غادر موطنه شنترين فتى حدثاً . وهو يقص علينا قصة مغادرته لوطنه فى تلك الفقرة من مقدمة كتابه « الذخيرة » :

« وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب ، لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الاحناء ، وفكر خامد الذكاء ، بين دهر متلون تلون الحرباء ، لانتباذى كان من شنترين قاصية الغرب ، مفلول الضرب ، مروع السرب ، بعد أن استنفد الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، بتواتر طوائف الروم علينا فى عقر ذلك الإقليم » .

وغادر ابن بسام شنترين مع من غادرها من بنيها ، خوفاً من سقوطها فى أيدى البرتغاليين ، وقصد إلى مدينة إشبيلية . وهنالك قضى بضعة أعوام فى بؤس ومشقة ، يدرس على شيوخها ، ويتعيش بقلمه وأدبه . وفى سنة ٤٩٤ هـ قصد إلى مدينة قرطبة ، ودرس على شيوخها واستقر بها بقية حياته . وكانت قرطبة قد فقدت يومئذ كثيراً من أهميتها القديمة ، وبهائها السالف ، ولكنها احتفظت بكثير من سمعتها وتقاليدها العلمية القديمة ، ولبثت مركزاً من أهم مراكز الدراسة بالأندلس .

وقد نشأ ابن بسام وعاش فى عصر مؤلم من عصور التاريخ الأندلسى ، وهو أواخر عصر الطوائف ، وأوائل الفتح المرابطى . وكانت الأندلس قد، انتثرت فى ظل الطوائف إلى إمارات متعددة ، تناهض بعضها بعضاً ، وتضطرم بينها الحروب الأهلية بلا انقطاع . وكانت اسبانيا النصرانية ، انتهازاً لهذه الظروف المؤلمة ، تعمل للضرب والتفريق بين هذه الإمارات المتنافسة المتخاصمة ، وتقطع منها ما تستطيع اقتطاعه من الحصون والأراضى ، وانتهت هذه السياسة المدمرة باستيلاء اسبانيا النصرانية على أول قاعدة أندلسية كبيرة ، هى مدينة طليطلة عاصمة مملكة بنى ذى النون ، وكان سقوطها فى أيدى القشتاليين (الإسبان) فى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٥ م) . وعندئذ فقط استيقظ ملوك الطوائف من سباتهم وأدركوا فداحة الخطأ الذى تردوا فيه بتفرقهم وتنابذهم ، وأجمعوا على الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، بأولئك المرابطين الذين غلبوا على المغرب وقامت فيه دولتهم قوية شامخة . واستجاب المرابطون لصريخ إخوانهم فى الدين ، وعبروا فى حشودهم الحرارة إلى شبه الجزيرة ، واجتمعت الجيوش الأندلسية والمرابطية المتحدة بقيادة البطل المرابطى يوسف بن تاشفين ، والتقت بالجيوش النصرانية المتحدة فى موقعة الزلاّقة الشهيرة ، وهى التى كتب فيها النصر الباهر للمسلمين (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) ، وعندئذ ارتدعت اسبانيا النصرانية ، ولزمت السكينة حيناً . وأدرك يوسف بن تاشفين ، مما شهده من أحوال دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، أن سلامة الأندلس تقتضى أن تزول هذه الدول ، وأن يضطلع المرابطون بحكم الأندلس والدفاع عنها ، فقام بافتتاح دول الطوائف تباعاً ، وأصبحت الأندلس من ذلك اليوم ولاية مغربية تخضع لحكومة مراكش .

ولقد كان افتتاح المرابطين لدول الطوائف ، أو بعبارة أخرى للأندلس ، عمل عدوان عسكرى وسياسى ، ما فى ذلك من شك ، ولكنا نستطيع أن نصفه عمل إنقاذ فى نفس الوقت . ذلك أن الشعب الأندلسى ، قاسى فى ظل طغيان الطوائف كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التى كان يعيش فى غمارها ، وانقلاب الأوضاع فى سائر مناحى الحياة ، وتوالى الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى فى نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم

ضياعاً خاصة يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً ، يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم إرضاء لشهواتهم فى إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد ، والانهماك فى حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمنافقين . هذا فضلا عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل ، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأى الوسائل .

ذلك هو العصر الذى عاش فيه ابن بسام . ولقد كان عصر الطوائف ، على ما كان يتخلله من الفتن والحروب المتوالية ، وما كان يغشاه من ألوان الانحلال والفوضى ، عصراً زهت فيه العلوم والآداب بحق . وكان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطلق ، من حماة العلوم والآداب . وأنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء ، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب ، فكان أولئك الملوك والرؤساء ، بالرغم من صفاتهم المثيرة كحكام وطغاة ، يغدقون رعايتهم وصلاتهم على أقطاب العلم والأدب . وقد حفل عصر الطوائف بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسى ، والفكر الإسلامى بصفة عامة . ويكفى أن تعلم أن هذا العصر هو العصر الذى نبغ فيه ابن حزم ، وابن حيان ، وأبو الوليد الباجى ، وابن عبد البر ، والمعتمد بن عباد ، وابن عمار ، وابن زيدون ، وابن عبدون ، وغيرهم من أعلام التفكير والأدب .

وجاء ابن بسام فى أواخر هذا العصر الذى زهت فيه الآداب ، فبهرته هذه النهضة الأدبية التى عاصر جمهرة من أعلامها ، وتذوق الكثير من روائعها من المنثور والمنظوم ، وجالت بخاطره فى نفس الوقت فكرة لم تخطر لأحد من قبله . هى أن الأدب الأندلسى لم ينصف من مواطنيه ولم يقدر قدره ، واعتزم أن يقدم لمواطنيه أروع صورة من أدب الأندلس ، وأدب الطوائف بنوع خاص ، فكتب مؤلفه الضخم « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » بمدينة قرطبة ، وانتهى من كتابته فى سنة ٥٠٣ هـ . وللعنوان الذى اتخذه ابن بسام لكتابه مغزى واضح ،

ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى ، الذى دفعه إلى تصنيف كتابه « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره ، إلى أدب المشرق والتزود منه ، والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة وجميع ما تضمنه من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأنه من حقهم أن يزهوا بأدبهم ، وأن يتذوقوه ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق . ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه فى محاسن أهل الجزيرة ، أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبى صاحب « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان ، يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره . وفضلا عن هذه الظاهرة التى حرص ابن بسام على أن يؤكدها لكتابه ، فإن كتاب « الذخيرة » يعتبر بمحتوياته من التراجم القوية العديدة ، لعشرات من رجالات الأندلس ومفكريها وأدبائها ، والمختارات النثرية والشعرية المنوعة ، والنبذ التاريخية الكثيرة الموضوعة والمقتبسة ، من مصادر عديدة سابقة ومعاصرة — يعتبر من أنفس مصادرنا التاريخية والأدبية والاجتماعية ، ولاسيما عن عصر الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه .

ويشتمل كتاب « الذخيرة » وفقاً لتصنيف مؤلفه على أربعة أقسام : القسم الأول « لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس » . ويشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة » . والقسم الثانى « لأهل الجانب الغربى من الأندلس ، وذكر أهل حضرة إشبيلية ، وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى ، وفيه من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب جملة موفورة » . ويخصص القسم الثالث « لأهل الجانب الشرقى من الأندلس ، ومن نجم من كواكب العصر فى أفق ذلك الثغر الأعلى ، إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك ، وفيه من القصص وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء طوائف » . والقسم الرابع يختص « بمن طرأ على هذه الجزيرة فى المدة المؤرخة من أديب شاعر وأوى إلى ظلها من كاتب ماهر ، وذكر طائفة من مشهورى أهل تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصرنا بإفريقية والشام والعراق » .

تلك هى أقسام كتاب « الذخيرة » ومحتوياته . وإنه لمما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً ، أن يضع يده على النص الكامل لكتاب « الذخيرة » بأقسامه ومجلداته الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه .

ويتبع ابن بسام فى تأليف كتابه منهجاً خاصاً . فأما من الناحية التاريخية ، فهو يصارحنا فى مقدمة كتابه ، بأنه يعتمد فى التعريف بأخبار ملوك الجزيرة ، وسرد قصصهم المأثورة ، ووقائعهم المشهورة على ابن حيان ، وينقل عنه ما سطر ، وأنه عول على تاريخه الكبير فى أكثر ما يكتبه فى هذا الباب ، وذلك إعفاء لنفسه من المسئولية ، ومعارضة من أحرز فى وقته قصب السبق . وهذا الموقف فى الاعتماد على ابن حيان ، يشهد لابن بسام بالروية ، وسعة الأفق . ذلك لأنه لا يحجم فى الفصل الذى خصصه لابن حيان فى الذخيرة عن مهاجمته والحملة عليه ، وانتقاده لأنه فى حديثه عن ملوك الطوائف وأمرائهم ، يتقلب بين المديح والذم ، وفقاً لعواطفه وأهوائه ، ويورد لنا فى التدليل على ذلك ، ما يختتم به مقدمة كتابه « المقتبس » من إهدائه للمأمون بن ذى النون فى عبارات إجلال وتقدير ، ثم ما عمد إليه بعد ذلك من توجيه رسالة تهنئة حارة إلى ابن عباد فاتح قرطبة ، والمنتصر على ابن ذى النون ، وابن بسام ينكر هذه الخلة فى التقلب والتناقض على ابن حيان . ومع ذلك فإن ابن بسام ، يفرد فى الذخيرة فصلا كبيراً خاصاً بابن حيان ، ويعرب لنا فى أكثر من موضع عن عميق تقديره للمؤرخ الكبير ، ولكتابه الجامع ، وينقل منه عشرات الشذور التى تشهد بروعة عرضه لمختلف الحوادث ، كما تشهد بقوة ملاحظته وبراعة النقدية .

وفيما عدا المسائل التاريخية البحتة ، فإن ابن بسام يتولى بأن يقدم إلينا مختلف الشذور الأخرى ، ثم هو فى أحيان كثيرة يعرض لنا بعض الحوادث التاريخية بقلمه وبأسلوبه الخاص ، ويعرفنا صراحة بأنه هو كاتبها فى قوله « قال أبو الحسن » أو « قال ابن بسام » ، وأكثر ما يقدمه إلينا الشذور والصور الأدبية ، ويخصص ابن بسام لأكابر الشعراء والكتاب البارزين ، فى كتابه ، فصولا ضافية ، وقد يصل ما يكتبه أحياناً عن أحدهم قدر كتاب برمته ، وهذا ما فعله مثلا فى الكتابة عن أبى عامر بن شهيد ، وأبى الوليد بن زيدون .

ويقدم إلينا ابن بسام شخصياته ما بين خلفاء وأمراء ووزراء وكتاب

وشعراء بطريقة خاصة ، تقوم أولا على ذكر ما اتصفوا به من الصفات الأدبية ، وثانياً على تقديم ما أمكن من آثارهم من مختار المنثور والمنظوم ، ومن هؤلاء بالطبع كثير من رجالات الطوائف ، الذين عاصرهم ابن بسام أو عاش قريباً من عصرهم .

وللشذور التى ينقلها ابن بسام عن ابن حيان فى ذكر أمراء الطوائف ووزرائهم وأدبائهم أهمية بالغة ، لأنها كتبت بقلم معاصر قوى الملاحظة ، شديد الاتصال ، وهذه الشذور المعاصرة بالذات هى التى لم تصلنا من مؤلف ابن حيان ، ومن ثم فإن لابن بسام أكبر الفضل فى نقلها إلينا على هذا النحو .

ويتبع ابن بسام فى معظم ما يكتبه طريقة السجع ، ولكنه مع ذلك يكتب بأسلوب مشرق فى مجموعه ، وإن كان السجع يطغى على بعض المعانى ، ويذهب به إلى ضروب من المبالغة .

ويعتبر كتاب « الذخيرة » مثل كتاب « العقد الفريد » من الكتب الأندلسية المميزة لعصر بعينه ، بيد أنه على النقيض من « العقد الفريد » الذى يغلب على محتوياته أدب المشرق ، يعتبر أروع نموذج للأدب الأندلسى الرفيع . وإنك لتكاد تشعر من تلاوة محتوياته أنك تعيش مع شخصياته فى عصرهم ، وفى ظروف مجتمعهم ، وتتذوق مع مؤلفه تلك المختارات العديدة الرائقة التى يوردها من منثورهم ومنظومهم .

وكتب ابن بسام غير « الذخيرة » عدة مصنفات أخرى ، منها كتاب فى شعر المعتمد ابن عباد ، وكتاب فى شعر ابن وهبون ، ورسالة عنوانها « سلك الجواهر فى ترسيل ابن طاهر » ، ومجموعة مختارة من شعر أبى بكر ابن عمار . ويمتاز ابن بسام ، فى سائر كتاباته ، بأسلوبه المسجع المشرق ، كما يمتاز بملاحظاته النقدية القوية ، التاريخية والاجتماعية . وهو فى أحيان كثيرة لا يحجم عن مهاجمة معاصريه من الأمراء ، والكتاب والشعراء ، ذلك أن ابن بسام كاتب مستقل ، بعيد عن الملق ، وهو لم يعرف عنه أنه خدم أحداً من أمراء عصره أو تطفل على موائدهم ، أو تقلب فى صلاتهم ، أسوة بمعظم زملائه من كتاب عصره وشعرائه ، وقد كانوا يحتشدون جميعاً فى قصور الطوائف ، ويتقلبون فى نعمة أمرائهم .

وتوفى ابن بسام بمدينة قرطبة عن سن عالية فى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م).

الشريف الإدريسى

عمـــدة الجغرافيين المسلمين

(٤٩٣ – ٥٦٠ هـ) ، (١٠٩٩ – ١١٦٦ م)

مضى إلى اليوم زهاء ثمانية قرون على وفاة الجغرافى المسلم العظيم الشريف الإدريسى ، الذى يعتبر بحق عمدة الجغرافيين المسلمين ، والذى أنفق شبابه فى شبه الجزيرة الإسبانية ، طالباً دارساً ، وباحثاً متجولا ، ثم خص جغرافيتها ووصفها ، فى موسوعته الجغرافية العظيمة ، بأقيم فصولها .

وقد حدث منذ عهد قريب حادث علمى هام ، يثير ذكرى الإدريسى وذكر تراثه الجغرافى . ذلك أنه قد ألفت لجنة من العلماء المستشرقين ، لتقوم على نشر الموسوعة الجغرافية العظيمة التى خلفها الإدريسى ، ولم ير الضياء منها حتى يومنا سوى أجزاء يسيرة .

وهذا النبأ يعنى الكثير . ذلك أن مؤلف الإدريسى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ما يزال يعتبر حتى اليوم ، من حيث مادته وتنوعه ودقته ، وكذلك من حيث حجمه ، أعظم موسوعة جغرافية ، كتبت فى العصور الوسطى . وقد كتبه مؤلفه فى ظروف خاصة لم تتح لكثير من أقرانه الجغرافيين المسلمين . ذلك أنه وهو العلامة المسلم ، قد عاش وألف فى بلاط أمير مسيحى ، ووضع لنا فى ظل رعايته وتشجيعه ، ذلك الأثر الجامع الذى يعتبر من أعظم الآثار التى يضمها تراث العلوم العربية .

وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن على ابن محمود بن ميمون الحمودى سليل أسرة بنى حمود الملوكية البربرية ، التى حكمت جنوبى الأندلس وثغر سبتة ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وسمى بالشريف لأنه يتصل بنسبته إلى أسرة الأدارسة الحسنية ، التى ينتمى إليها بنو حمود ، والتى حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهذه ترجع نسبتها إلى آل البيت ، ومن ثم فإن نسبته تورد منذ جده الأعلى ميمون على النحو الآتى :

ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب . وإذاً فهو وفقاً لهذه النسبة كذلك سليل آل البيت[1] .

ولد الأدريسى بثغر سبتة فى سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) . وقد كانت مدينة سبتة المغربية . وهى التى لعبت دوراً عظيماً فى تاريخ المغرب والأندلس ، والتى تعتبر اليوم أرضاً إسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية ، وتحتلها اسبانيا منذ أربعة قرون — كانت مسقط الرأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس ، وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها ، يشغل كل منهما مكانة بارزة فى تاريخ العلوم العربية ، وقد عاش كلاهما فى نفس العصر تقريباً ، أى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، هما الشريف الإدريسى ، أعظم الجغرافيين المسلمين ، والقاضى عياض بن موسى السبتى أعظم حفاظ المغرب بلا مراء .

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الإدريسى وحياته الأولى ، بيد أننا نعرف من إشارات وردت فى مؤلفه ، أنه درس فى معاهد الأندلس ، ولا سيما فى قرطبة ، وقد كانت الأندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب . ونعرف كذلك أنه قام برحلات عديدة فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ووصل فى تجواله غرباً حتى ثغر أشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة ، وقد كانت يومئذ ثغر ولاية الغرب الأندلسية . ثم زار شمالى إسبانيا وتجول فى جليقية ، بل هنالك فى كتاباته ما يدل على أنه زار شواطىء فرنسا مما يلى خليج بسكونية ، ووصل فى رحلاته البحرية حتى شواطىء انجلترا الجنوبية . ولما أتم تجواله فى شبه الجزيرة الإسبانية وما إليها ، عبر البحر إلى المغرب ، وتجول فى شماله وجنوبه ، وهنالك ما يدل على أنه عاش حيناً فى مدينة مراكش ، وحيناً آخر فى شمالى المغرب بمدينة قسنطينة . وكذلك رحل الإدريسى إلى المشرق ، وتجول فى آسيا الصغرى وزار المغارة المنسوبة إلى أهل الكهف حسبما يحدثنا بذلك . ومن المحقق أن هذه

---

(١) تورد نسبة الإدريسى على هذا النحو فى ترجمة موجزة له مدونة فى الصفحة الثانية من المجلد الأول من مخطوط مصور لكتاب « بغية الطلب فى تاريخ حلب » لابن هبة الله ، وهو محفوظ برقم ١٥٦٦ تاريخ بدار الكتب المصرية .

الرحلات العديدة ، كان لها أكبر أثر فى تكوين معلوماته الجغرافية ، التى ظهر أثرها فيما بعد فى أبواب كثيرة من معجمه الجغرافى .

وهنا يلعب القدر دوره فى تطور حياة الإدريسى . ذلك أننا نراه بعد ذلك فى جزيرة صقلية ، يمثل فى بلاطها ، ويخوض حياة علمية باهرة . ونحن نعرف أن جزيرة صقلية ، افتتحها المسلمون تباعاً ما بين سنتى ٢١٣ و ٢٦٤ ﻫ (٨٢٨ — ٨٧٨ م) ، وغدت فى ظلهم حديقة يانعة ، تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، حتى إذا أدرك الوهن تلك الدولة الإسلامية الصغيرة ، توالت عليها حملات الفرنج ، حتى غزاها النورمان بزعامة روبر جويسكار والدوق روجر فى سنة ٤٦٤ ﻫ (١٠٧٢ م) ، وتم افتتاحها فى سنة ١٠٨٦ م ، وكان الدوق روجر أول حكامها من النورمان ، فشمل سكان الجزيرة من المسلمين واليونان بتسامحه ، وسمح للمسلمين بالاحتفاظ بمساجدهم ، وقضاتهم ، وأطلق لهم حرية التجارة . ولما توفى الدوق روجر فى سنة ١١٠١ م ، خلفه ولده الطفل روجر حدثاً ، وبدأ حكمه للجزيرة حينما بلغ الثامنة عشرة فى سنة ١١١٢ م . وكان الدوق روجر الثانى أو رُجَّار كما تسميه الرواية الإسلامية ، من أعظم ملوك عصره ، وفى ظله غدت صقلية دولة عظيمة ، وكان مثل أبيه من ذوى الأفق الواسع ، وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى ، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ، ومن ثم فقد استطاعت الجالية الإسلامية أن تعيش فى ظله مدى حين ، متمتعة بسائر شعائرها ونشاطها الاجتماعى والثقافى . وفى ظل هذا التسامح المحمود ، دعا الدوق روجر للعمل فى بلاطه رهطاً من العلماء المسلمين ، من الصقليين المحليين ، ومن إفريقية والمغرب ، وكان فى مقدمة هؤلاء الشريف الإدريسى .

متى وفد الإدريسى على بلاط الملك النورمانى ؟ وفى أى ظروف تلقى دعوته أو كان مقدمه ؟ هذا ما لا نعرفه بالتحقيق .

ولكن توجد فى ذلك ثمة روايتان ، تحظى كل منهما بشيء من التأييد . أما الأولى فيقدمها إلينا الصفدى ، فيما كتبه فى معجمه عن الإدريسى ، وهو أن الدوق روجر ، هو الذى استدعى الإدريسى إلى بلاطه فيمن استدعى من العلماء المسلمين ، ويسوق الصفدى إلينا روايته على النحو الآتى :

« وجّار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسماية . ويقال فيه أجار بهمزة بدل الراء ، وجيم مشددة ، وبعد الألف راء — كان فيه محبة لأهل العلوم الفلفسية ، وهو الذى استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من العدوة إليه ، ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم ، فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه »(١) .

وأما الرواية الثانية ، فنستطيع أن نفهمها على ضوء ما يقدمه إلينا الرحالة الأندلسى ابن جبير . ويحدثنا ابن جبير فى رحلته عن مسلمى صقلية ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه وبلارمه (بلرم) وإطرابنش (ترابانى) ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم . وهو يقول لنا بصفة عامة « إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وإن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استبقائهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين فى العام ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها . ثم يقول لنا إنه لم يكن فى مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن ، وأما بلرم وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين ، وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين فى بلرم رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض ، قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم فيها بسبب الخطة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بجميل صنعه » .

ويزيد ابن جبير على ذلك ، أن زعيم مسلمى صقلية وقت زيارته للجزيرة

---

(١) معجم تراجم الصفدى . وقد نقل النص إلينا صاحب الأدب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢٨٢ .

فى سنة ٥٨٠ هـ ، كان هو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، « وهو من ورثة أهل السيادة » ، ومعنى ذلك أن أسرة بنى حمود هذه ، وهم فرع من أسرة بنى حمود الملوكية التى ينتمى إليها الإدريسى ، كانت تحتل مركز الزعامة من مسلمى صقلية منذ مدة طويلة ، ومن الممكن أن يكون الإدريسى ، وهو قد وفد على الجزيرة قبل ابن جبير بنحو خمسين عاماً ، قد وفد عليها إما تلبية لدعوة مباشرة من الدوق رجّار حسبما تقدم ، وإما بتشجيع أقاربه بنى حمود . ولدينا من جهة أخرى قول ثالث بأن الأدريسى « نشأ فى أصحاب رجار الفرنجى صاحب صقلية » ، وهو ما قد يعنى أن الإدريسى ، وفد على الجزيرة من تلقاء نفسه ، وامتزج فيها بأصحاب رجار من العلماء المسلمين ، وانتهى إلى التمتع بعطف الدوق ورعايته[1] . وكان وفود الإدريسى على الجزيرة ، فيما يرجح بين سنتى ١١٣٠ و ١١٤٠ م . وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافى ، فاستقبل فى بلاط صقلية بترحاب ، وأغدق عليه الدوق رجار عطفه ورعايته ، وعهد إليه بالمهمة العلمية العظيمة ، التى حققها الإدريسى بكتابة معجمه الجغرافى الخالد .

* * *

عكف الإدريسى على تأدية مهمته العلمية فى جو يظلله التفكير الحر المستنير ، والتعاون العامى المثمر بين الشرق والغرب ، والارتفاع بالقيم العلمية والأدبية فوق الاعتبارات والمبادئ الرجعية ، التى كانت سائدة فى تلك العصور فى كثير من المجتمعات . ومن ثم فإنا نجد العلامة المسلم يحدثنا فى مقدمة كتابه عن الدوق روجر بمنتهى الإعجاب والإجلال على النحو الآتى : « وإن أفضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ، محاسن الملك العظيم رجار ، المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وأنطاكية وأنكبردة وقلورية ، إمام رومية ، الناصر للملة النصرانية ، إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً » ثم يشيد بقوته ، وعدله ، وعلمه ، وسعة معارفه .

ويشرح لنا الإدريسى بعد ذلك ، الظروف التى عهد فيها إليه الملك رجار

(١) وردت هذه العبارة فى ترجمة الإدريسى المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

(روجر) بمهمته الجغرافية الكبرى ، فيقول ، إن الملك لما اتسعت حدود مملكته « أحب أن يعرف كيفية بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ، وفى أى إقليم هى ، وما يخفها من البحار والخلجان الكائنة ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة ، التى اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها فى فى قسم بلاد تحتوى عليه ، وترجع إليه . وتقدمته بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى ، وكتاب أبى القاسم عبد الله بن خرداذبه ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب ابن خاقان الكيماكى ، وكتاب موسى بن قاسم القروى ، وكتاب أبى يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب إسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس الأقلودى ، وكتاب أرسيوس الأنطاكى ، فلم نجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلا ، بل وجده فيها مغفلا ، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة . فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعث إلى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه . وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ، وأقام فى ذلك نحوا من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه ، والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده » .

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك ، وحسبما يحدثنا الإدريسى « أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً » . وأن تنقش فيها صور الأقاليم السبعة ، بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها . والأقاليم السبعة هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى ، وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين . فقام العمال المهرة ، تحت إشراف الإدريسى وتوجيهه ، بإتمام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة الفضية ، خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ . وقد

اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية يومئذ ، وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين فى العصور الوسطى ، ولاسيما العلامة البندقى مارينوسانوتو (١٢٦٠ — ١٣٣٨ م) ، الذى استرشد بها فى معظم خرائطه . ويقال إن الخريطة المنشودة لم تستغرق من الفضة التى نقشت عليها سوى الثلث ، وان رجار وهب الجغرافى المسلم بقية الكمية الفضية ، وأعطاه فوق ذلك مبلغاً كبيراً من المال ، وشحنة سفينة من نفيس المتاع .

وهذا ما يرويه لنا الصفدى فى كلامه عن الإدريسى حيث يقول لنا إن رجّار أعجب بالكرة الفضية « ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركها له إجازة ، وأضاف لذلك مائة ألف درهم ، ومركباً مساقاً ، كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التى تجلب للملوك . وسأله المقام عنده ، وقال له أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين ، عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك ، فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك » .

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافى عام ، يرسم مطابقاً للكرة الفضية ، وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها ، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين ، وأماكنها ، وصورها ، وبحارها ، وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وعللها وخواصها ، وأجناس نباتها ،وما بها من الصناعات والتجارات ، وما يذكر عنها من العجائب ، وحيث هى من الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها ، وهيئاتهم ومذاهبهم ، وأزيائهم ، ولغاتهم . هكذا يلخص لنا الإدريسى فى مقدمته محتويات الموسوعة الجغرافية الكبرى ، التى عهد إليه الملك رجّار بوضعها . وقد اعتمد الإدريسى فى وضع هذه الموسوعة ، فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية ، التى جمعها من طوافه فى شبه الجزيرة الإسبانية وشواطئ فرنسا وغربى البحر المتوسط وجزائره والمغرب وآسيا الصغرى ، وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء ولا سيما بطليموس ، ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين العظام مثل اليعقوبى ، وابن خرداذبة والمسعودى وابن حوقل — اعتمد فضلا عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين ، الذين أوفدهم الملك رجار بإشارته وتوجيهه

إلى مختلف البلدان الأوربية[1] ، ومنها فرنسا ، وإيطاليا وألمانيا وبلاد اسكندناوه ، وجزائر بحر الأدرياتيك ، وجزر الأطلنطى ، وهى التى يتناولها الإدريسى جميعاً ، ولأول مرة فى الجغرافية العربية ، وجغرافية العصور الوسطى — بكثير من الدقة والبراعة ، فى التحديد والوصف . واستغرقت بحوث الإدريسى ، ثم وضع المؤلف كله خمسة عشر عاماً ، وانتهى من وضعه ، حسبما يحدثنا الإدريسى فى مقدمته فى العشر الأول من شهر يناير سنة ١١٥٤ ، الموافق لشهر شوال سنة ٥٤٨ هـ ، وذلك قبيل وفاة الملك النورمانى بأشهر قلائل . وسمى المؤلف « بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وهو اسم يقول لنا الإدريسى إنه من وحى الملك رجار وإشارته ، ولما كان المؤلف كله ، قد وضع بإشارة الملك رجار ورعايته ، وأهدى إليه فى مقدمته ، فقد سمى كذلك «كتاب رجّار » أو « الكتاب الرجّارى » تنويهاً من مؤلفه بفضل هذا الأمير العالم المستنير .

ويعتبر كتاب « نزهة المشتاق » ، أعظم مؤلف جغرافى فى العصور الوسطى . وبالرغم من أنه يجرى فى وصف البلدان على نظرية « الأقاليم السبعة » المتبعة فى سائر البحوث الجغرافية القديمة ، فإنه يمتاز بنزعة العلمية . ويكفى أن تعلم أن الإدريسى يبدأ كتابه بالتحدث عن « كروية الأرض » ، ويمتاز من جهة أخرى بخرائطه العديدة التى بلغت سبعين خريطة ، لكل إقليم من الأقاليم السبعة ، عشر خرائط بعدد أقسامه . وأبدع أقسام نزهة المشتاق هى الفصول التى تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الإسبانية والمغرب ، وبحر الأدرياتيك وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، وهى البلاد التى تجول فيها الإدريسى ودرسها عن كثب . فى هذه الفصول يكشف الإدريسى عن رسوخ معلوماته ودقة مشاهداته . هذا إلى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوربا الشمالية مثل ألمانيا وبلاد اسكندناوه ، وهى معلومات تمثل لأول مرة فى الجغرافية العربية . ويعنى الإدريسى عناية خاصة بذكر المسافات الزمنية ، بين مختلف الأقاليم والمدن ، كما يعنى بوصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للشعوب والأجناس التى يتحدث عنها . وفضلا عن ذلك فإن الإدريسى يبدى دقة واضحة فى تعريف

---

(١) وهذا ما يرويه لنا الصفدى فى حديثه عن الإدريسى — الأدب الجغرافى العربى ج ١ ص ٢٨٣ .

المصطلحات والأعلام الجغرافية الأوربية ، وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية ، وربما الإيطالية ، التى كانت يومئذ لغة البلاط النورمانى ، والقشتالية التى وقف عليها خلال تجواله فى شبه الجزيرة الإسبانية . وفى القسم المتعلق بشبه الجزيرة الإسبانية يقدم إلينا الإدريسى أغرب قصة استكشافية بحرية قام بها مسلمو الأندلس ، هى قصة « الإخوة المغررين » وهم ثمانية إخوة أو أبناء عم من أهل مدينة الحامة الأندلسية ، خرجوا من ثغر أشبونة فى مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر ، وساروا فى بحر الظلمات (أعنى المحيط الأطلنطى) فى اتجاه الغرب عدة أيام ، ثم ساروا جنوباً نحو ثلاثة أسابيع أخرى فى بحر كدر ، عالى الأمواج ، حتى لاحت لهم جزيرة رأوا بها رجالا عمالقة ، ونساء فائقات فى الحسن . فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياماً حتى جرت الريح الشرقية ، ثم وضعهم فى سفينتهم معصوبى الأعين ، وسارت بهم السفينة أياماً حتى رست على مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبى . ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة أن أولئك المغامرين الأندلسيين ، قد اكتشفوا بعض جزر الكنارى أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربى السنغال . وقد كانت قصة هذه المغامرة البحرية التى ينفرد الإدريسى بروايتها ، فيما بعد ضمن الحوافز التى شجعت البحارة البرتغاليين ، وفى مقدمتهم الأمير هنرى الملاح ، على القيام برحلاتهم البحرية العظيمة فى المحيط الأطلنطى ، منذ أوائل القرن الخامس عشر .

وتشغل موسوعة الإدريسى الجغرافية « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عدة مجلدات كبيرة . وتوجد منها نسخ مخطوطة عديدة ، فى باريس وأكسفورد واستانبول والقاهرة . بيد أنه لم ينشر حتى اليوم منها بالعربية ، سوى مختصر طبع فى رومة منذ سنة ١٥٩٢ م فى مطبعة آل مديتشى ، والقسم المتعلق بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، وقد نشر بعناية العلامة دوزى منذ نحو قرن ، ثم نشر القسم الخاص بالأندلس مرة أخرى بعناية المستشرق الإسبانى ساقدرا ، ونشرت كذلك الأقسام المتعلقة بإيطاليا وصقلية وسوريا وفلسطين والهند . وترجمت الأقسام المذكورة إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والإنجليزية . وترجمت الموسوعة كلها إلى اللاتينية منذ أوائل القرن السابع عشر ، ولكنها ترجمة مليئة بالأخطاء . وترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية فى القرن الماضى ، ومايزال

معظم أقسام هذه الموسوعة الجغرافية العربية العظيمة مخطوطاً لم ير الضياء . ونحن نرجو أن يكون الوقت قد حان لإخراجها كاملة بعد هذا الاحتجاب الطويل .

وقد كتب الإدريسى ، غير موسوعته الجغرافية ، كتاباً آخر عنوانه « روض الأنس ، ونزهة النفس » أو « كتاب المسالك والممالك » كتبه للملك وليم الأول (غليالم) ولد الدوق رجار ، وهو الذى خلف أباه فى الملك . بيد أنه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد بإحدى مكتبات استانبول .

وكان الإدريسى ، فوق براعته فى العلوم الجغرافية ، أديباً متمكناً وشاعراً محسناً ، ومن نظمه قوله :

ليت شعرى أين قبرى ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ما تشتاق فى بر وبحر
وخبرت الناس والأرض لدى خير وشر
لم أجد ناراً ولا داراً كأنى لحى صدرى
فكأنى لم أسر إلا بميت أو بقفر(١)

وتوفى الشريف الإدريسى فى سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٦ م) فى السابعة والستين من عمره . ولسنا نعرف أين توفى وأين دفن ، ويغلب على الظن أنه استقر فى البلاط النورمانى ، فى بلرم حتى توفى ودفن بالجزيرة(٢) .

---

(١) نقلنا هذه الأبيات المنسوبة للإدريسى من الصفحة الثانية من المجلد الأول من المخطوط المصور « بغية الطلب » الذى سبقت الإشارة إليه .

(٢) رجعنا فى كتابة هذا البحث إلى الأجزاء المخطوطة من نزهة المشتاق الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٣ جغرافيا . وإلى مخطوط « بغية الطلب » السابق ذكره ، وإلى كتاب الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ، وإلى دائرة المعارف الإسلامية ، مقال « الإدريسى » وإلى الأقسام المطبوعة من « نزهة المشتاق » التى أتينا على ذكرها . وكذلك إلى رحلة ابن جبير .

أبو بكر بن طفيل

الفيلسوف والطبيب والشـــاعر

(توفى ســـنة ٥٨١ هـ ـ ١١٨٥ م)

كان العلامة الطبيب الفيلسوف أبو بكر بن طُفيل ، ثالث ثلاثة من أئمة الحكمة الأندلسية ، وعباقرة التفكير الإسلامى ، الذين ظهروا خلال القرن السادس الهجرى ، وهم أبو بكر بن الصائغ (ابن باجّـة) وابن طفيل ، وتلميذه ابن رشد .

وابن طفيل ، هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ، وأصله من وادى آش ، تلك المدينة الأندلسية العريقة من مدن ولاية غرناطة ، التى ينتمى إليها كثير من العلماء والأدباء ، والتى استطاعت أن تحتفظ بعروبتها وإسلامها حتى أيام الأندلس الأخيرة ، فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق ، وربما ولد فى الأعوام الأولى من القرن السادس الهجرى . ودرس ابن طفيل الحديث والفقه واللغة على أبى محمد الرُّشاطى ، وعبد الحق بن عطية ، وغيرهما أقطاب العصر ، ولكنه مال إلى الحكمة « وعلوم الأوائل » ، ودرس الحكمة والطب بإشبيلية ، وكان فى مقدمة أساتذته ابن باجة أعظم فلاسفة الأندلس يومئذ ، وغيره من أعلام العصر ، وبرع منذ شبابه فى الفلسفة والطب ، كما برع فى الفقه والأدب . وبدأ ابن طفيل حياته العامة ، فى الوقت الذى اضطرمت فيه الأندلس بالثورة على المرابطين ، وقامت فى كل قاعدة أندلسية حكومة قومية جديدة على نمط الطوائف . وكانت بلدة وادى آش ، قد حذت فى ذلك حذو غيرها ، وقام بها أحمد بن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ، فانتظم ابن طفيل بين كتابه ، وخدمه مدى حين . ولما سقطت حكومته بعد ذلك بأعوام قلائل ، وتغلب الموحدون على قواعد الأندلس ، انتقل ابن طفيل إلى خدمتهم ، وكتب للسيد أبى سعيد ولد الخليفة عبد المؤمن بن على ، حين ولايته لمالقة وسبتة والجزيرة الخضراء فترة أخرى .

على أن القدر كان يدخر لابن طفيل مكانته الحقيقية على يد الأمير الموحدى السيد أبى يعقوب يوسف بن الخليفة عبد المؤمن بن على . فقد عين هذا الأمير والياً لإشبيلية فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، وكانت إشبيلية قد غدت يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، بعد أن عفا الزمن على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وغدت فى الوقت نفسه أعظم مراكز الحركة الفكرية والأدبية . وكان السيد أبو يعقوب ، عالماً ، فقيهاً ، أديباً يشغف بالدرس ، ويجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، حتى غدت إشبيلية خلال الأعوام الثمانية التى قضاها فى حكمها ، جامعة الأندلس الحقيقية ، وكان ابن طفيل فى مقدمة هذا الرهط العلمى الذى ينتظم حول الأمير العالم . ولما توفى الخليفة عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٥٨ هـ ، خلفه فى الخلافة ولده السيد أبو يعقوب يوسف . ولسنا نعرف بالتحقيق ما إذا كان ابن طفيل قد شغل منصب الطبيب الخاص للخليفة الجديد ، منذ البداية . بيد أنه لما مرض الخليفة فى سنة ٥٦٥ هـ واستطال مرضه أربعة عشر شهراً ، كان الذى يتولى علاجه ، وفقاً لرواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، « طبيباه أبو مروان بن قاسم ، وأبو بكر بن طفيل » . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها الفيلسوف والطبيب الكبير باعتباره طبيب الخليفة الموحدى . على أنه يلوح لنا مما تؤكده لنا الرواية من توثق أواصر المحبة والصداقة بين الخليفة وطبيبه ، أن ابن طفيل كان يشغل منصبه قبل ذلك بأعوام . ومن جهة أخرى ، فإن ابن طفيل لم يكن فقط طبيب الخليفة ، وإنما كان فى نفس الوقت مستشاره وموضع ثقته . وكان من أثر ذلك ما عهد به الخليفة إليه ، من نظم قصيدة بليغة حماسية فى دعوة طوائف العرب الذين بإفريقية ، وحثهم على الاشتراك فى الجهاد بالأندلس ، يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى فى نصرة الدين ، فنظم ابن طفيل تحقيقاً لتلك الغاية قصيدة طويلة فى أربعين بيتاً تفيض بلاغة وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف ، فى نفس الوقت من منزلة عالية فى النظم ، تضعه فى صف أكابر الشعراء . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة ، بأكملها ، وقد جاء فى مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب

فلا تقتنى الآمال إلا من القـنى ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصـمم على الهول ركاب ظهور المصائب

ومنها فى استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همـة عربيـــة تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمـادها بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

وهذه الناحية من نواحى عبقرية ابن طفيل ، أعنى شاعريته العالية ، وروعة نظمه ، لم تأخذ حقها من التعريف إذ كانت صفاته العلمية والفلسفية ، تطغى دائماً على ما عداها من صفاته الأخرى . بيد أننا سوف نرى فيما بعد أن لابن طفيل غير هذا النظم السياسى الحماسى نظماً رقيقاً آخر .

* * *

وفى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف فى جيوش الموحدين إلى الأندلس طلباً للجهاد ، وكان فى ركبه بالطبع طبيبه الخاص ابن طفيل ، وقضى الخليفة فى شبه الجزيرة خمسة أعوام . وكانت إشبيلية مقامه الأثير . وفى هذه الفترة التى قضاها الخليفة أبو يعقوب فى المدينة الأندلسية العظيمة ، تفتحت مواهبه العلمية والأدبية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم أئمة التفكير الإسلامى ، هم طبيبه الخاص ابن طفيل ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد ، والطبيب العبقرى عبد الملك بن زهر ، وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ولا يصبر على فراقه ، وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه لديه بفضل ابن رشد وبراعته . وكان هذا الخليفة العالم أبو يعقوب ، يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ . وإذا صدقنا رواية المراكشى التى ينقلها إلينا عن القرطبى ، فإن الفضل يرجع إلى هذا الخليفة فى وضع شروح فلسفة أرسطو العربية . ذلك أنه وفقاً لهذه الرواية ، هو الذى أوعز إلى طبيبه ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص

جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها ، وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل نظراً لكثرة مشاغله وشيخوخته ، هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة العلمية ، لما يعلمه من مقدرته ، وقوة نزوعه ، وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى .

ومما هو جدير بالذكر أن التفكير الفلسفى ، كان قبل ذلك بنحو نصف قرن يجوز فى الشرق الإسلامى أزمة خطيرة . ذلك أن فقيه المشرق العظيم الإمام أبا حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) ، كان فى أواخر حياته قد حمل على الفلسفة بشدة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وقال إنها لا قيمة لها لأنها تؤدى إلى نتائج غير موثوق بها ، وإن دراسات أرسطو تعارض الإسلام . وعرض فى كتابه سائر الأسباب التى تبرهن على أن الفلسفة ميدان يجب اجتنابه ، وكانت هذه ضربة شديدة للتفكير الفلسفى فى المشرق . ولكن آراء الغزالى لم تلق فى الأندلس قبولا حسناً ، وبالعكس ، فقد نهض أئمة التفكير الأندلسى لمقاومتها ، وإنقاذ الفلسفة من آثارها الهدامة . وكان فى طليعة هؤلاء أبو بكر بن الصائغ (ابن باجة) ، وتلميذه ابن طفيل ، وكان ابن رشد تلميذ ابن طفيل أعظمهم أثراً فى ذلك ، حيث جاءت شروحه الشهيرة لفلسفة أرسطو ، دفعة قوية جديدة للتفكير الفلسفى فى الغرب الإسلامى ، هذا فضلا عما اضطلع به من تفنيد أقوال الغزالى فى كتابه « تهافت التهافت » .

ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (أغسطس سنة ١١٨٤ م) عقب نكبته فى موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل فى منصبه طبيباً خاصاً لولده الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب المنصور . بيد أنه لم يعش طويلا بعد ذلك إذ توفى بمراكش فى أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٤ م) وحضر الخليفة جنازته بنفسه .

— ٢ —

وأشهر مؤلفات ابن طفيل رسالة « حى بن يقظان » أو « أسرار الحكمة

المشرقية » و « الأرجوزة الطبية المجهولة »[1] ورسالة « النفس » ، وغيرها من مؤلفات ورسائل أخرى لم تصل إلينا .

وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة « حى بن يقظان » وهى تلخيص فلسفى رائع لأسرار الطبيعة والخليقة ، عرضت خلال حياة وأعمال طفل خلق بجزيرة نائية منعزلة أو ألقى إليه بها ، فنشأ فى أحضان الطبيعة ، واستطاع بالملاحظة والتجربة والاستقصاء لظروف الحياة ومختلف أطوارها ومظاهرها ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يتقرب فى تأمله من الله . وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية ، وهو لا يزيد عن نحو سبعين صفحة ، فقد لفتت بروعة ابتكارها أنظار النقد الحديث ، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى عدة من اللغات الأوربية الأخرى[2] .

وقد رأينا أن نقدم إلى القارئ خلاصة وافية من تلك القصة الفلسفية الممتعة على النحو الآتى ، وقد يكون التلخيص أحياناً من أقوال ابن طفيل نفسه ، وقد يكون أحياناً من كلامنا :

إنه كان ثمة جزيرة من جزائر الهند ، التى تحت خط الاستواء ، وهى الجزيرة التى يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب ، وبها شجر يثمر نساء ، وهى التى ذكر المسعودى أنها جزيرة « الواقواق » ، وأنه نظراً لطبيعة تلك الجزيرة ، فإنه يجوز تولد الإنسان بها من غير أم ولا أب ، وأن بعضهم جزم

---

(١) هذا وقد اطلعنا فى خزانة جامع القرويين بفاس على نسخة خطية قديمة توصف بأنها « رجز ابن الطفيل » ، ذلك حسبما تدل عليه صيغة التحبيس المسجلة على الورقة الأولى . وتقع هذه الأرجوزة فى نحو سبعة آلاف بيت وأولها :

الحق لله العلى الظاهر فى الملك والمجد القاهر

وموضوع الأرجوزة حسبما يوصف فى البيت الآتى الوارد فى الصفحة الأولى هو دراسة علل الإنسان وطرق معالجتها :

أذكر فيه علل الإنسان بغاية الإيضاح والبيان

وهذا الأثر المخطوط هو نفس أرجوزة ابن طفيل الطبية المسماة «الأرجوزة الطبية المجهولة » .

(٢) ترجمها إلى اللاتينية **Pockocke** ونشرت بأكسفورد سنة ١٦٧١ بعنوان **Philosophus Autodidactus** « ومعناها « الفيلسوف المعلم نفسه » ؛ ونشرت ترجمتها الإنجليزية فى سنة ١٧٠٨ بقلم **Ockly** ، والفرنسية سنة ١٩٠٠ بقلم **Gautier** ، ونشرت ترجمتها الإسبانية سنة ١٩٠٠ بقلم المتشرق **Pons Boigues** .

القضية بأن «حى بن يقظان» من جملة من تكون فى تلك البقعة من غير أم ولا أب . بيد أنه يوجد ثمة من ينكر ذلك ، ومن يروى عن أمره الخبر الآتى :

إنه كان بإزاء تلك الجزيرة ، جزيرة عظيمة عامرة بالناس يمتلكها رجل شديد الأنفة والغيرة ، وله أخت رائعة الحسن ، فعضلها ومنعها عن الزواج ، أو لم يجد لها كفؤاً ، وكان له قريب يسمى يقظان ، فتزوجها سراً ، على وجه جائز من وجوههم ، ثم إنها حملت منه فوضعت طفلا ، فلما خافت أن يفتضح أمرها ، وضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه ، بعد أن أروته من الرضاع ، وخرجت به ليلا فى جملة من خدمها إلى ساحل البحر ، وقذفت بالتابوت إلى اليم داعية إلى ربها أن يشمل وليدها بلطفه ، وكان من لطف الله أن حمل المد التابوت إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة ، مستورة عن الرياح والمطر ، ثم أخذ الماء فى النقص والجزر عن التابوت الذى به الطفل ، فبقى فى ذلك الموضع ، وعلت الرمال وتراكمت حتى سدت باب الأجمة على التابوت وردمت مدخل الماء إلى الأجمة . ثم قلقت مسامير التابوت وتفككت ألواحه . فلما اشتد الجوع بالطفل بكى واستغاث ، فوقع صوته فى أذن ظبية خرجت من جحرها ، وكانت قد فقدت طلاها (أى ولدها) ، فلما سمعت صوت الطفل ظنته ولدها ، فتبعته حتى وصلت إلى التابوت ، فأخذت تعالجه بأظلافها حتى طار لوح من أعلاه ، فحنت الظبية على الطفل وألقمته حلمها وأرضعته لبناً سائغاً ، وما زالت كذلك تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى .

هذه رواية . وزعم آخرون أن الطفل ولد من الأرض فى بطن من الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين ، حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس ، امتزاج تكافل وتعادل فى القوى ، وتفاعلت تلك العناصر ، التى تعلق بها ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى ، وتكون الجنين ، وتمت أعضاؤه داخل غشاء انشق عنه بما يشبه المخاض .

ثم استغاث ذلك الطفل عند اشتداد جوعه ، فلبته ظبية فقدت طلاها وأرضعته ، ولم يكن بتلك الجزيرة شىء من الحيوانات الضارية ، فترعرع الطفل ونما ، وهو يغتذى بلبن تلك الظبية ، إلى أن تم له حولان ، ثم تدرج فى المشى ، وكان يتبع أمه الظبية ، وكانت تحميه وتظلله من الشمس وتدفئه من البرد .

وبدأ الطفل يقلد صوت الظبية وأصوات الحيوان والطير ويحاكيها ببراعة ، وكبر فى أثناء ذلك وأخذ يكسى نفسه فى الوسط بورق الأشجار ، واتخذ العصى للدفاع عن نفسه أمام هجمات الحيوانات الأخرى .

وماتت الظبية بعد أن شاخت ، فأخذ يبحث فى أعضائها عن سبب الوفاة ، وسبب هذا السكون الأبدى حتى عثر بالقلب بعد شق الجسم بالحجارة المسنونة وشقوف القصب ، وأدرك من وضعه وتركيبه أنه هو العضو الرئيسى . ثم أدرك بالحس والاستنتاج أن شيئاً ما كان يسكن هذا الجسم ويحركه ، وأن هذا الشيء قد ارتحل ، وترك الجسم بحالة الخراب والتمزيق ، وأضحى الجسد كله خسيساً لا قدرة له .

وأخذ يتساءل ما هو ذلك الشيء الخفى ؟ وما علاقته بالجسد ؟ وإلى أين صار ؟ وانتهى إلى تصور ماهية الروح ، والدور الرئيسى الذى تلعبه فى الحياة ، وأن سائر الأعضاء الأخرى إنما هى خادمة له .

وفى ذات يوم عرف سر النار ، إذ اضطرمت فى أجمة قش بسبب المحاكة ، وأدرك أنه أمام عنصر من عناصر الطبيعة ، وأخذ يضرم هو النار ، ويستمتع بضوئها ودفئها ، وعرف بعد ذلك مهمتها فى شواء اللحم ، إذ ألقى إليها بحيوان بحرى نافق ، واستطاب طعم لحمه المشوى ، وأخـــذ يتغذى به ؛ واهتدى خلال ذلك إلى الاكتساء بجلود الحيوانات ، وانتهى باتخاذ الدواجن وتربيتها لينتفع ببيضها وفراخها ، واتخذ من صياصى البقر ما يشبه الأسنة .

ثم أخذ بعد ذلك يدرس تباعاً سائر الأجسام ، التى فى عالم الكون والفساد من النبات والمعادن والحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والدخان والجليد واللهب ، وينعم النظر فى خواصها المختلفة .

ونظر إلى أعضاء جسمه فرأى أنها كلها متصـــلة ، وأنها كالآلات تتحد ، وأنها إذا اختلفت ، كان هذا الاختلاف بسبب ما يصل إليها من قوة الروح الحيوانى .

وأخذ يتنقل بدراسة أنواع الحيوان ، مثل الظباء والخيل والحمير ، وأصناف

الطير ، ويرى أنها جميعاً تتفق فى أنها تحس ، وتغتذى وتتحرك بالإرادة ، وأن هذه الأفعال هى أخص أفعال الروح الحيوانى .

وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات فيدرسه ، ويرى أنه كذلك يتحد فى اتفاق فعله وغذائه ونموه .

وعلى هذا النحو عنى بدرس الأجسام الجامدة ، التى لا تحس ولا تغتذى ، مثل التراب والحجارة والماء والهواء واللهب .

وهكذا انتهى إلى دراسة العناصر الرئيسية الأربعة ، وهى الأرض والماء والنار والهواء ، وهو فى كل دراساته يفرق بين الجسمية والنفسية .

ثم عنى بعد ذلك بدراسة الكواكب ، مثل الشمس والقمر وسائر الكواكب المرئية الأخرى ، وتحركاتها ، وطلوعها وغروبها .

وانتهى بعد ذلك كله إلى التفكير فى أمر العالم بجملته ، هل هو شىء حدث وخرج إلى الوجود بعد العدم ، أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم .

وكانت هذه المشكلة أعقد مشكلة عرضت له ، فلبث يفكر فيها عدة سنين ، وانتهى إلى أن هذه الموجودات كلها بما فيها من آثار الحكمة ، وبدائع الصنعة ، لا تصدر إلا عن فاعل ممتاز ، فى غاية الكمال وفوق الكمال ، وانتهى بالتأمل والدرس والحس إلى فكرة الألوهية ، وخالق الخلق ، وإلى « هذا الموجود الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده ، وهو سبب لوجود جميع الأشياء » .

وعاش حى بن يقظان على هذا النحو فى جزيرته ، وفى تأملاته الدراسية العميقة ، حتى أناف على سبعة أسابيع من منشئه وذلك خمسون عاماً .

* * *

كان يوجد ثمة جزيرة قريبة، من تلك التى ولد بها حى بن يقظان ، انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة وسادت فيها . وكان قد نشأ بها فتيان فاضلان يسمى أحدهما أبسال والآخر سلامان ، فتلقيا تلك الملة وقبلاها ، والتزما بجميع شرائعها ، وكانا يتدارسان أحياناً، فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعة فى صفة الله

وملائكته . وكان أبسال منهما أشد غوصاً على الباطن ، وأكثر عثوراً على المعانى الروحية . وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر ، وأشد بعداً عن التأويل .

فتعلق أبسال بطلب العزلة ، لما كان فى طباعه من دوام الفكرة ، والغوص على المعانى . وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ، وكانت ملازمته للجماعة ، مما يدرأ عنه الوسواس ، ويزيل الظنون المعترضة .

وكان اختلافهما فى الرأى على هذا النحو ، سبباً فى افتراقهما ، وكان أبسال قد سمع عن الجزيرة التى بها حى بن يقظان ، وعرف ما بها من الخصب والمرافق ، فجمع أمواله ، واشترى ببعضها مركباً ، وفرق باقيها على المساكين ، وودع صاحبه سلامان ، وركب البحر ، فحمله الملاحون إلى تلك الجزيرة ، ووضعوه على ساحلها ، وتركوه وشأنه .

فلبث أبسال بتلك الجزيرة يعبد الله ويعظمه ، ويفكر فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإذا احتاج إلى الغذاء ، تناول من ثمار تلك الجزيرة وصيدها ما يسد جوعه .

وفى أثناء ذلك كان حى بن يقظان مستغرقاً فى مقاماته ، ملازماً لمغارته ، لا يخرج منها إلا مرة فى الأسبوع ، لتناول ما تيسر من الغذاء ، فلذلك لم يعثر عليه أبسال لأول وهلة ، إلى أن اتفق ذات يوم أن خرج حى بن يقظان لالتماس طعامه ، فالتقى أحدهما بالآخر . واعتقد أبسال لأول وهلة أنه من المنقطعين جاء إلى الجزيرة فى طلب العزلة ، على نحو ما فعله هو فى القدوم إليها . أما حى فلم يدر ما هو ، لأنه لم ير إنساناً من قبل قط .

فولى أبسال عنه خيفة أن يشغله عن حاله ، فاقتفى حى بن يقظان أثره لما كان فى طبعه من البحث عن حقائق الأشياء . فلما رآه يشتد عنه فى الهرب ، توارى حى عنه حتى ظن أبسال أنه قد انصرف ، فشرع فى الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء ، وأخذ حى يقترب منه قليلا وأبسال لا يشعر به ، فسمع قراءته وتسبيحه ، وشهد خضوعه وبكاءه ، وسمع بذلك أصواتاً وأقوالا لا عهد له بها من أصناف الحيوان الذى يعيش معه ، وفطن إلى حقيقة شكله ، وأن المدرعة التى يرتديها ليست جلداً طبيعياً له ، وإنما هى لباس متخذ مثل لباسه .

وتأثر حى لما سمعه منه ، ولم يشك فى أنه من الذوات العارفة بالحق ، فزاد منه قرباً ،وحاول أبسال الهرب ، فجد حى بن يقظان فى أثره ، وقبض عليه ، وخشى أبسال مما رآه فيه من سرعة الركض وقوة البطش ، ولكن حياً أخذ يؤنسه بأصوات ، كان قد تعلمها من الحيوانات ، ويتعلق به ، ويظهر البشر والفرح ، حتى سكن جأش أبسال ، واطمأن له ، وجعل يكلم حى بن يقظان بما يعلمه من مختلف الألسن ، ويسأله ، ويحاول إفهامه ،وحى يتعجب ولا يدرى ما هو ، ولكنه يظهر البشر والقبول .

ثم آنس كل منهما إلى صاحبه ، ورأى حىّ أن يقيم مع أبسال فى عالم الحس حتى يقف على حقيقته ، فالتزم صحبته ، ورجاه أن يعلمه الكلام والعلم والدين ، فأخذ أبسال فى تعليمه ، وجعل أبسال يسأله عن شأنه ، ومن أين أتى إلى تلك الجزيرة ، فأفهمه حىّ بأنه لا يعرف لنفسه بداية ، ولا يعرف أبا ولا أما سوى الظبية التى ربته ، ووصف له شأنه كله ، وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول . وأخذ حى بن يقظان من جانبه يسأله عن أمره ، فجعل أبسال يصف له جزيرته ، وما فيها من العالم ، وشأنهم قبل وصول الملة إليهم ، وكيف هى الآن بعد وصول الملة ؛ ووصف له جميع ما ورد فى الشريعة من وصف العالم ، والجنة والنار ، والبعث والنشور ، وغيرها ، ففهم حىّ ذلك كله ، ولم ير فيه شيئاً على خلاف ما يعرفه ، وعلم أن الذى وصف ذلك محق فى وصفه ، صادق فى قوله ، رسول عند ربه ، فآمن به ، وشهد برسالته .

ووصف له أبسال ما جاء به من الفرائض ، ووضعه من العادات ، وسائر التفاصيل المتعلقة بذلك ؛ ورأى حىّ ما فى ذلك كله من تعقيد وتطويل ، وكان يقول إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته ، لأعرضوا عن الباطل من اقتناء المال ، والتوسع فى المآكل ، واستغنوا عن هذا كله ، وكان يفترض وهو يقول ذلك ، إن الناس كلهم من ذوى الفطرة الفايقة ، والأذهان الثاقبة ، والنفوس الحازمة ، ولم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأى .

فلما اشتد إشفاقه على الناس ، وطمع أن تكون نجاتهم على يديه ، فكر فى الوصول إليهم ، وإيضاح الحق لهم ، وسأل أبسال فى ذلك ، فأعلمه بما كان عليه الناس من نقص الفطرة . وعلى أى حال فقد تفاهم حى وأبسال على ذلك ،

وقيض الله لهما سفينة عبرا فيها إلى الجزيرة الأخرى . وكان على رأس تلك الجزيرة سلامان صاحب أبسال ، فشرع حي بن يقظان في تعليم الناس أسرار الحكمة وبثها بينهم . وما زال يستلطفهم ليلا ونهاراً ، ويبين لهم الحق ، فلا يزيدهم ذلك إلا نبواً ونفاراً . مع أنهم كانوا محبين للخير ، راغبين في الحق ، ولكنهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ، ولا يلتمسونه من بابه ، فيئس من إصلاحهم ، وانقطع رجاءه في صلاحهم .

فلما رأى ظلمات الحجب قد تغشتهم ، والكل منهم إلا اليسير ، لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا ، وقد نبذوا أعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم ، وألهاهم عن ذكر الله التجارة والبيع ، بان له وتحقق أن مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا يمكن ، وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق ، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة ،إنما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ،ولا يتعدى عليه سواه ، وأنه لا يفوز منه بالسعادة الأخروية إلا النادر الشاذ . وهكذا فهم أحوال الناس ، وعلم أن أكثرهم بمنزلة الحيوان ، وعلم أن الحكمة كلها ،والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ، ووردت به الشريعة ،لا يمكن غير ذلك ، ولا يحتمل المزيد عليه ، فلكل عمل رجال ، وكل ميسر لما خلق له .

وقصد إلى سلامان وأصحابه ، فاعتذر عما تكلم به معهم ، وتبرأ إليهم منه ، وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم ، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والإعراض عن البدع والأهواء ،وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام ، من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا ، وعلم هو وصاحبه أبسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة ،لا نجاة لها إلا بهذا الطريق ، وأنها إن رفعت عنه إلى بقاع الاستبصار ، اختل ما هي عليه ، ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء .

فودعهم حي وأبسال ، وانفصلا عنهم ، وتلطفا في العود إلى جزيرتهما حتى يسر الله لهما ذلك ، وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم ، بالنحو الذي طلبه أولا حتى عاد إليه ، واقتدى به أبسال ، وعبدا الله بتلك الجزيرة ، حتى أتاهما اليقين .

ذلك هو ملخص رسالة حي بن يقظان ،التي خلفها لنا ابن طفيل ،وهي كما

ترى قطعة من التفكير الرائع ، والعرض الفلسفي الرفيع . وقد أثارت هذه القصة ، اهتمام النقد الأوربي . وينوه النقدة الغربيون بما كان لها من أثر عميق فى الكاتب الإنجليزى دانيل دى فوبى ، حيث جاءت قصته الشهيرة « روبنصون كروزو » فى جوهرها ، عرضاً مطابقاً لقصة حى بن يقظان ، ودليلا جديداً على أن الحقائق الخالدة تتماثل فى كل مكان . وينوهون كذلك بما كان لها من أثر فى تفكير الفيلسوف الألمانى لايبنتز[١] ، وفى نظريته التى تقرر أن السعادة الإنسانية تطلب بنبذ الحياة الدنيوية بحثاً عن الضوء النفسانى[٢].

* * *

وتشيد الرواية الإسلامية المعاصرة بعبقرية ابن طفيل ، ويصفه المراكشى ، بأنه أحد حسنات الدهر ، ثم يقول لنا إنه « صرف عنايته فى أواخر عمره إلى العلم الإلهى ، ونبذ ما سواه . وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً ، هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية » . ويصفه ابن الخطيب بأنه « كان عالماً محققاً ، شغوفاً بالحكمة المشرقية ، متصوفاً ، طبيباً ماهراً فى أصول العلاج ، وفقيهاً بارع الإعراب ، وكاتباً بليغاً ، مشاركاً فى عدة فنون » .

وقد أورد لنا المراكشى فى « المعجب » لابن طفيل ، نقلا عن ولده يحيى ، هذا النظم الرقيق المشجى :

ولما التقينا بعـــد طول تهاجر   وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق   فلم أدر من شـــق الدجنة منهما

(١) دانيل ديفوبى Daniel Defoe كاتب إنجليزى كبير (١٦٥٩ — ١٧٣١) . ولايبنتز Leibnitz فيلسوف ألمانى (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

(٢) صدرت رسالة « حى بن يقظان » فى طبعات متعددة . وصدرت منها عدة طبعات بالقاهرة ، منها طبعة حديثة صدرت بتحقيق صديقى المرحوم الأستاذ أحمد أمين . ونلاحظ بهذه المناسبة أن ما كتبه فى مقدمته عن حياة ابن طفيل يتضمن عدة أخطاء تاريخية . منها أن ابن طفيل كان كاتباً للخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على ، وهو غير صحيح ، وإنما كان ابن طفيل كاتباً لولده السيد أبى سعيد والى مالقة وسبتة والجزيرة الخضراء . ومنها أن ابن رشد كان أكبر سناً من ابن طفيل ، وأنه لما طعن ابن رشد فى السن ، خلفه ابن طفيل فى منصب طبيب الخاص للخليفة أبى يعقوب يوسف الموحدى . وهذا خلط مؤسف . فإن ابن رشد كان تلميذاً لابن طفيل ، وهو الذى توسط فى تقديم تليميذه للخليفة ، وابن رشد هو الذى خلف ابن طفيل فى منصب الطبيب الخاص . وقد توفى ابن طفيل فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وتوفى ابن رشد فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) .

وساعدنى جفن الغمام على البكا ... فلم أدر دمعاً أينا كان أسجما
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت ... قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهباً ... يهون صعباً أو يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنياً عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ونقل إلينا من شعره فى الزهد :

ياباكياً فرقة الأحباب عن شحط ... هلاَّ بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد فى طين إلى أجل ... فانحاز علواً وخلى الطين للكفن
ياشد ما افترقا من بعد ما اعتلقا ... أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن فى رضى الله اجتماعهما ... فيالها صفقة تمت على غبن

ولابن طفيل غير ذلك من النظم الجيد . هذا فضلا عن بلاغته النثرية وجزالة اسلوبه الأدبى ، التى تتجلى فى رسالة « حى ابن يقظان » ، وهو ما يدل على ما كان يتمتع به هذا الفيلسوف والطبيب العبقرى ، من ذوق أدبى رفيع ، لم تطغ عليه العناصر العلمية الجافة .

الرحالة ابن جبير

(٥٤٠ – ٦١٤ هـ) ، (١١٤٥ – ١٢١٧ م)

كان الرحالة الأندلسى ابن جبير ، من بين الرحل الأندلسيين ، ألمعهم خلالا ، وأبقاهم ذكراً ، فهو فوق ما أسبغت عليه رحلته من الشهرة ، محدث راسخ ، وأديب بارع ، وشاعر محسن ، وكاتب بليغ ، وتعتبر رحلته ، بالرغم من نطاقها المحدود ، من أقيم كتب الرحلات الأندلسية وأمتعها .

وهو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير ، وينتهى نسبه إلى نزار ابن معدّ بن عدنان ، وقد وفد جده عبد السلام بن جبير الكنانى على الأندلس فى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، ونزل أولا بكورة شذونه ، ثم تحول بنوه إلى شرق الأندلس ، بقطاع بلنسية . وولد ابن جبير فى ثغر بلنسية أوشاطبة فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، ونزح فى شبابه إلى جيان ، واستوطنها مدة تزوج خلالها من أم المجد عاتكة بنت الوزير أبى جعفر الوقّشى ، ثم غادرها إلى غرناطة واستقر بها . ودرس ابن جبير القراءات والحديث ، وبرع فى الآداب ، وبرز فى الكتابة والنظم . وكتب فى شبابه بسبتة لواليها السيد أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ثم كتب لوالى غرناطة ، ونال جاهاً وثراء ، ثم تزهد ، واعتزم الرحلة إلى المشرق لقضاء فريضة الحج . وكان يومئذ فى نحو الأربعين من عمره .

وكانت الأندلس يومئذ تحت حكم الموحدين ، وكانت ما تزال من حيث اتساع رقعتها ، وضخامة مواردها ، قوة عظيمة فى شبه الجزيرة الإسبانية يحسب حسابها ، وكان الخليفة يومئذ هو ، يعقوب المنصور ، أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وهو الظافر فى معركة الأرك العظيمة التى وقعت بعد ذلك بين الموحدين والقشتاليين بأعوام قلائل ، فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) .

وغادر ابن جبير غرناطة فى رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٢ م) ، ومعه صديقه أحمد بن حسان ، واجتاز أولا على جيان لقضاء بعض الأسباب ، ثم سار جنوباً عن طريق القبذاق

فإستجة فأشونة فأركش ، حتى وصل إلى ثغر طريف ، وعبر منه المضيق إلى إلى قصر مصمودة أو القصر الصغير فى اليوم السابع والعشرين من شوال . ثم سار إلى سبتة ، وألفى بها مركباً كبيرة للچنويين مقلعة إلى الإسكندرية ، فاستقلها . وأقلعت من سبتة فى التاسع والعشرين ، وسارت بحذاء شاطىء الأندلس متجهة إلى ثغر دانية ، فوصلته بعد أسبوع ثم غادرته متجهة إلى جزيرة يابسة ، فجزيرة ميورقة ، فجزيرة سردانية ، ووصلت إلى شاطىء صقلية بعد رحلة شاقة ، اشتدت فيها العواصف ، وهاج البحر ، وتعالت الأمواج ، وشهد الركاب خلال ذلك جبل إطنة الذى يقع به البركان الشهير ، وهو مكلل بالثلوج .

وسارت السفينة بعد ذلك صوب جزيرة أقريطش ، ثم اتجهت منها جنوباً إلى الإسكندرية ، فوصلتها فى ظهر يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة ، بعد أن قطعت فى رحلتها من سبتة ثلاثين يوماً .

ويصف لنا ابن جبير تلك الرحلة البحرية الشاقة ، وما لقيه خلالها من أهوال البحر وأخطاره المروعة ، وما شاهده فى مختلف المراسى من المناظر والمشاهد ، ويصف لنا منار الإسكندرية العظيم ، كما يصف لنا مدارسها ، وما رتبه السلطان للواردين عليها من الإطعام والإيواء ، كل ذلك بإفاضة وبأسلوب جزل ممتع . بيد أنه يشكو مما لقيه هو وزملاؤه الحاج من المغاربة ، من رجال الضبط من التعسف والعنت ، وكيف أنهم أصروا على فحص سائر ما يحملون من مال وغيره ، ومن أداء الزكاة عنه ، دون التحقق مما إذا كان قد حال عليه الحول من علمه ، وعلى تفتيش الرجال والنساء على السواء ، وكيف أنهم « هتكوا حرمة الحرم ، ولم يكن منهم إبقاء على أحد » وأنه لما جاءته النوبة ، وكانت معه حرم ، ذكرهم بالله تعالى ووعظهم ، فلم يلتفتوا لقوله وفتشوه ، كما فتشوا غيره ، وأنه لذلك نظم قصيدته متوسلا إلى السلطان صلاح الدين بأن يرعى حقوق المسلمين وأحوالهم فى نفس الوقت ، ومما جاء فى هذه القصيدة :

أطلت على أفقــك الزاهــــر   ســعود من الفــلك الــداير
فأبشر فإن رقــاب العــــدى   تمــد إلى ســيفك البــاتر
وعمــا قليــل يحــل الردى   بكندهم الناكب الغــــادر

ومنهـــا :

فقمت بنصـــر إلاه الـــورى ... فســـماك بالملـــك النـــاصر

وجاهـــدت مجتهـــداً صـــابراً ... فـــلله درك من صـــابر

وبعد أن قام ابن جبير أياماً قلائل بالإسكندرية ، غادرها إلى القاهرة ، فوصل إليها فى يوم الأربعاء الحادى عشر من ذى الحجة (٦ أبريل) ، ونزل بمصر (الفسطاط) فى فندق أبى الثناء بزقاق القناديل ، قرب جامع عمرو . وهو يصف لنا القاهرة وصروحها وآثارها ، ومساجدها ، ومزاراتها ، وما بها من قبور آل البيت والصحابة والتابعين .

وغادر ابن جبير القاهرة إلى الصعيد بطريق النيل حتى وصل إلى قوص ، وهنالك التحق بالقافلة التى تسير إلى عيذاب عبر الصحراء الشرقية ، ووصل إلى عيذاب فى الثالث من ربيع الأول (٥ يونيه) ، ثم ركب منها البحر إلى جدة ، فوصلها فى الرابع من ربيع الآخر (٢٦ يوليه) . وكانت قوافل الحاج ، تسلك يومئذ هذا الطريق الوعر مرغمة ، إذ كانت حصون الصليبيين تسيطر على طريق العقبة وشمالى البحر الأحمر ، وتهدد سلام الحاج بعدوانها المتكرر .

ووصل الرحالة إلى مكة بعد ذلك ببضعة أيام فى الثالث عشر من ربيع الثانى سنة ٥٧٩ هـ (٤ أغسطس) . وهو هنا يحمل بشدة على ما كانت عليه الأحوال ببلاد الحجاز يومئذ ، ويندد بما كان يسودها من ظلم ومجانبة لأحكام السنة الحقيقية ، واستخلاص لأموال الحاج بشتى الوسائل ، وهو ينتهز الفرصة فى نفس الوقت ليندد بالمشارقة بصفة عامة ، وما جبلوا عليه من الضلال والميل إلى البدع ، ولينوه بما كان عليه المغاربة من الصلاح والتقوى ، وما كان عليه الموحدون من استمساك بعرى الدين ، وأحكام السنة ، وإقامة العدل . ومن الواضح أنه يصدر هنا عن نزعة عنصرية وقومية ويبالغ فى تصوير حقائق الأمور .

ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يشير إليه ابن جبير فى هذا الموطن من نية الموحدين فى غزو مصر . وهو يبالغ فى وصف ذيوع الدعوة الموحدية بمصر ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، ويزعم أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم ، « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدى بعضهم ،

وأنذرت بأشياء من الكوائن . . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة ، من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لا يمترون فى إنجاز وعدها . شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ، ومصر وسواهما مشافهة وسماعاً ، أمراً غريباً يدل على ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصدق . ونمى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة ، قد حبّر خطباً أعدها للقيام بين سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير »[1].

ولا ريب أن ابن جبير ، كان مبالغاً فى شعوره ، مبالغاً فى تصويره لقوة الدعوة وانتشارها بمصر ، كما أنه لم يدرك تمام الإدراك ما كانت عليه مصر يومئذ من القوة والمنعة ، فى عصر عاهلها الكبير الملك الناصر صلاح الدين .

وأقام ابن جبير بمكة نيفاً وثمانية أشهر وقضى مناسك الحج . وهو يفيض فى وصف مكة وخططها وعمرانها وأحوالها ، وفى وصف الكعبة الشريفة وأقسام مسجدها ، ومقام إبراهيم ، ومكان الطواف والحجر الأسود ، وبئر زمزم ، والصفا والمروة ، ثم يصف باب الكعبة وما بها من الداخل ، ويصف كسوتها الشريفة ، يصف ذلك كله بإفاضة ، ودقة ، وحرارة تذيب قلب المؤمن ، وأسلوب رفيع من البيان الساحر الأخاذ . ولقد كتب كثير من الرحل المسلمين فى وصف هذه الأماكن المقدسة ، وأفاضوا وأبدعوا ، ولكن يندر أن نجد بين كتاباتهم مثل هذا الوصف البليغ المؤثر الذى تركه لنا ابن جبير .

وسافر ابن جبير من مكة إلى المدينة فى الثانى والعشرين من ذى الحجة ، فوصل إليها فى الثالث من محرم عام ثمانين ، وأقام بها خمسة أيام ، قضى خلالها مناسك زيارة المسجد النبوى الكريم ، وزار قبور الصحابة خارج المدينة . وهو يقدم لنا وصفاً موجزاً عن زيارته للمدينة ومشاهداته بها .

وهنا تنتهى المرحلة الأولى من رحلة ابن جبير ، وهو بعد ذلك يغادر المدينة متجهاً إلى العراق خلال نجد ، فيصل إلى بغداد فى الثالث من صفر عام ثمانين ،

---

(١) رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص ٥٣ و ٥٤ .

ويقضى بها أسبوعين يزور خلالهما معالم مدينة الخلفاء ، وكانت قد فقدت يومئذ كثيراً من بهائها السالف ، وهو يصف لنا خطط بغداد ، ولا سيما المدينة الشرقية التى كانت يومئذ منزل الخلافة ، وبها القصور الخلافية ، ويصف لنا الخليفة ، وقد كان يومئذ أبا العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضئ بنور الله ، ثم يصف لنا مجالس بغداد العلمية ، ويقول لنا إنه قد سمع بها اثنين من أكابر العلماء هما الإمام رضى الدين القزوينى ، وأبو الفرج الجوزى .

وغادر ابن جبير بغداد فى منتصف صفر مع الركب المرافق لخاتون (الأميرة) أم عز الدين بن مسعود صاحب الموصل ، وشاهد فى طريقه مدينة « سر من رأى » (سامرا) مصيف الخلفاء السابق ، وكانت قد خربت وغلب عليها العفاء يومئذ . وهو يصف الموصل وقلعتها العظيمة وأسوارها وأبراجها الحصينة بحماسة ، ثم يصف حفلة استقبال الخاتون ولقائها لولدها الأمير .

وسار ابن جبير من الموصل إلى نصيبين فمدينة حرّان فمدينة منبج ، فمدينة حلب ، فحماة ، فحمص . وهو يخص حلب من بين هذه المدن بوصف حماسى موجز ، يصف فيه ضخامتها ، وسعة خططها ، وأسواقها ، ومسجدها الجامع الفخم ومدارسها .

ووصل ابن جبير إلى مدينة دمشق فى الرابع والعشرين من ربيع الأول عام ثمانين (٥ يوليه سنة ١١٨٤ م) . وقد بهرته دمشق ومعالمها المشرقة ، وهو يصف لنا جامعها الأعظم بإفاضة ، ويصف صحنه وأبوابه ، وقبابه ، ومشاهده ومزاراته . ويصف لنا دمشق وأبوابها ومعالمها وأحوالها وعوائد أهلها ومارستانها العظيم ومدارسها الزاهرة ، ثم يصف لنا الخوانق ومن بها من طوائف الصوفية ويقول إنهم ملوك بهذه البلاد يسكنون القصور ، وقد هدأت خواطرهم من هموم المعاش .

وهنا تنتهى رحلة ابن جبير فى البلاد الإسلامية . ذلك أنه بعد أن انتهت زيارته لدمشق لم يبق عليه إلا أن يدبر أمر عودته إلى وطنه . وهو من حين مغادرته لدمشق ، فى الخامس عشر من جمادى الآخرة ، يجوز خلال الإمارات والقواعد الصليبية ، من بانياس إلى صور ، وإلى عكا ، ويشهد أحوال الصليبيين

المسيطرين على تلك الأنحاء . وهو هنا يصف لنا طرق الصليبيين فى حكم البلاد ، وأوضاع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطانهم ، وكيف أن الصليبيين يفرضون الضرائب على السابلة من المسلمين ، وأن المسلمين يعيشون فى الضياع على وفاق مع النصارى ، ويؤدون لهم نصف الغلة ، ويؤدون ضرائب أخرى . وهو يشكو من أن المسلمين يذمون حكامهم من أبناء دينهم ، ويصافون حكامهم الفرنج ، ويمجدون سيرتهم ، ويأنسون بعدلهم . ثم يقول : « فإلى الله المشتكى من هذه الحال » .

وكانت عكا خاتمة المطاف فى رحلة ابن جبير المشرقية . ومن عكا يستقل ابن جبير مركباً جنوية كبيرة متجهة إلى صقلية فى اليوم العاشر من رجب (١٨ أكتوبر) . وقد كانت الملاحة الجنوية تسيطر يومئذ على مواصلات البحر المتوسط . ووصل ابن جبير إلى صقلية بعد رحلة بحرية شاقة ارتدت فيها المركب بفعل الرياح إلى الوراء غير مرة ، وما كادت تصل إلى مسينى حتى تحطمت قلاعها على مقربة من البر ، ولم ينقذ ركابها سوى مقدم زوارق النجاة من الميناء بإشراف ملك الجزيرة نفسه غليام وجملة من رجاله .

وهنا سنحت الفرصة لابن جبير لزيارة صقلية ، تلك الجزيرة الكبيرة ، التى كانت ما تزال بها للمسلمين والحضارة الإسلامية بقية بحسب حسابها ؛ وابن جبير شغوف بالدرس والملاحظة . وقد ألفى فرصته لدراسة أحوال المسلمين فى الجزيرة ، وهو يصف لنا صقلية وما وهبته من أسباب الخصب والنماء ، ويقول لنا : « وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة » . ثم يصف لنا مدينة مسينى (أو مسينه) ، وما بها من القصور والبساتين الملكية ، ويصف لنا ملك الجزيرة غليام ، ووزراءه وحجابه ، وفتيانه ، وما يرتدونه من فاخر الحلل . ثم يصف لنا من مدن الجزيرة شفلودى وثرمة وبلارمة (بلرم) واطرابنش (ترابانى) ، ويفيض بالأخص فى وصف بلرم وهى عاصمة الجزيرة ، وجمالها وفخامة قصورها وكنائسها وسحر معاهدها .

وفوق ذلك فقد أورد لنا ابن جبير ، وصفاً دقيقاً لأحوال المسلمين فى صقلية فى عهد الملك وليام (غليام) مما وقف عليه حين زيارته هذه للجزيرة ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ (يناير ١١٨٥ م) . واجتماعه بالمسلمين فى

ل

المدن التى زارها ، ووقوفه على أحوالهم . وهو يقول لنا بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وإن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استقبالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين فى العام ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها . ثم يقول لنا ، إنه لم يكن فى مسينة إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين ، وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم ، فى الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها ، وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين فى بلرم رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها . ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل » . وأخيراً يصف لنا ابن جبير زعيم المسلمين بالجزيرة وهو يومئذ أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وينقل إلينا ما أفضى به إليه مما تعانيه الأقلية الإسلامية بالجزيرة من صنوف الظلم والاضطهاد المؤلم .

وأنفق ابن جبير فى صقلية زهاء ثلاثة أشهر ، ثم ركب البحر من اطرابنش فى اليوم التاسع من ذى الحجة سنة ٥٨٠ هـ فى مركب جنوية سارت به صوب الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، ورست على يابسة فى العاشر من محرم ، ثم سارت بعد ذلك شرقاً نحو بر الأندلس مما يلى ثغر دانية ، وسارت بحذاء الشاطىء حتى وصلت إلى ثغر قرطاجنة فى الخامس عشر ، فنزل بها ابن جبير وسار براً إلى مرسية ، ثم لورقة فالمنصورة ، فقنالش ، فبسطة ثم وادى آش ، ووصل إلى منزله بغرناطة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من المحرم سنة ٥٨١ هـ الموافق ٢٥ أبريل سنة ١١٨٥م ، واستغرقت رحلته منذ خروجه من غرناطة إلى وقت إيابه إليها عامين وثلاثة أشهر ونصف .

تلك هى رحلة ابن جبير الأولى ، وهى رحلته الدراسية الكبرى التى دونها لنا فى كتابه ، وهو الذى استعرضنا محتوياته فيما تقدم ، وهو كتاب يصفه ابن عبد الملك المراكشى بأنه « كتاب ممتع مؤنس ، مثير سواكن النفوس إلى الرفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد المعظمة » .

وقام ابن جبير بعد ذلك برحلتين أخريين إلى المشرق ، فخرج من وطنه غرناطة لرحلته الثانية يوم الخميس التاسع من ربيع الأول سنة ٥٨٥ ﻫ وكان الحافز له للقيام بتلك الرحلة فتح بيت المقدس ، على يد الملك الناصر صلاح الدين فى رجب سنة ٥٨٣ ﻫ ، وما بثه ذلك الفتح العظيم فى أنحاء العالم الإسلامى من بواعث الغبطة والحماسة . وحجّ للمرة الثانية فى العام التالى ، وعاد إلى غرناطة يوم الخميس الثالث عشر من شعبان سنة ٥٨٧ ﻫ ، ثم سكن مالقة حينا ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، فسكن فاس ، ثم سكن سبتة ، وانقطع فى تلك الفترة إلى سماع الحديث والتصوف ، والإقراء . وكانت رحلته الثالثة عقب وفاة زوجه المحبوبة عاتكة أم المجد ، فقد توفيت فى العاشر من شعبان سنة ٦٠١ ﻫ ، ودفنت فى اليوم التالى ، فحزن لوفاتها أبلغ حزن ، وهو يقول لنا بهذه المناسبة « ومن عجايب اتفاقات الأقدار ، الباعثة على الاعتبار ، أن كان تجهيزها إلى بجيان فى الحادى عشر من شعبان سبعين وخمسمائة ، فوافق تجهيز الحياة ، تجهيز الممات ، وليلة القبر تنسى ليلة العرس ، فيا لها من لوعة وحرقة ، ولكل اجتماع من خليلين فرقة » .

وخرج ابن جبير إلى رحلته الثالثة عقب وفاة زوجته ، ووصل إلى مكة سنة ٦٠٢ ﻫ ، وحج للمرة الثالثة ، وجاور بالحرم الشريف طويلا ، ثم رحل إلى بيت المقدس ، ثم سافر إلى مصر ، ثم إلى الإسكندرية ، واستقر ابن جبير بقية حياته بالإسكندرية يقرئ الحديث ، يؤخذ ويروى عنه ، وطار صيته يومئذ فى دوائر الحديث بمصر والشام والأندلس .

* * *

وكان ابن جبير ، حسبما يصفه ابن عبد الملك فى ترجمته فى « التكملة » أديباً بارعاً ، كاتباً بليغا ، شاعراً مجيداً سنياً فاضلا ، نزيه المهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة فى الخط » . وله مدائح كثيرة فى السادة من

بنى عبد المؤمن الموحدين الذين كتب عنهم . وكذلك جرت بينه وبين طائفة كبيرة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته ، وروعة أسلوبه .

وله رسالة بليغة مؤثرة فى وصف الحرم النبوى الكريم ومراسم زيارته، عنوانها « اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » كتب بها إلى وليه وصديقه أبى الحسن بن مقصير من علماء فاس . ونظمه فائق ، وقد جمعه فى ديوان ، يقول لنا ابن عبد الملك إنه يقع فى مجلد متوسط ، ومنه جزء سماه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » أودعه قطعاً وقصائد فى رثاء زوجه أم المجد ، والتوجع لفقدها ، يشتمل على أكثر من ثلاثمائة بيت ، عدا موشحات خمس ، وجزء آخر سماه « نظم الجمان فى التشكى من إخوان الزمان » يشتمل على أكثر من مائتى بيت ، وله رسائل بديعة وطائفة من الحكم . ومن نظمه فى الحكم قوله :

عليك بكتمان المصايب واصطبر ... عليها فأبقى الزمـان شفيـقا
كفاك من الشكوى إلى النـاس ... أن تسر عدواً أو تسوء صديقا

ومن قوله من قصيدة طويلة يحرض فيها السلطان صلاح الدين على النظر فيما ظهر من البدع فى المدينة :

صـلاح الدين أنت له نظام ... فمـا يخشى لعروته انقطـاع
فأظهر سـنة الله احتسـاباً ... فقـد ظهرت بها البدع العظام
جـدير أن يقام لهـا ارتماضاً ... ثم للـورى فيهـا التـداع
وكيف يـلذ للأجفـان نوم ... وللإسـلام حصن لا ينـام

ومن أشهر ما نظم ، قصيدته التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة ، وفيها يعرب عن خشوعه وشوقه لزيارة الجناب النبوى الكريم . وهذا مطلعها :

أقول وآنسـت بالليـل ناراً ... لعل سراج الهـدى قـد أنارا
وإلا فمـا بال أفـق الـدجى ... كأن سنا الـبرق منـه استنارا
ونحن من الليل فى حنـدس ... فمـا بـاله قد تجـلى نهـارا
وهذا النسـيم شـذا المسك قد ... أعـير أم المسـك منه استعارا

ومنها :

ولمـا حللنا فنـاء الرسـول ... نزلنا بأكـرم مجـد جـوارا
وحين دنونا لفرض السـلام ... قصّـرنا الخطى ولزمنا الوقارا

فما نرســل اللحظ إلا اختلاسا ... ولا نرفع الطرف إلاّ انكسارا
ولا نظهر الوجــد إلا اكتتاما ... ولا نلفظ القــول إلاّ سرارا

* * *

إليــك إليــك نــبى الهــدى ... ركبت البحــارا وجبت القفارا
دعائى إليــك هــوًى كامن ... أثار من الشــوق ما قــد أثارا
فناديتك لبيك داعى الهــوى ... وما كنت عنك أطيق اصطبارا
ولو كنت لا أستطيع السبيــل ... لطرت ولو لم أصــادف مطارا
عسى لحظة منك لى فى غــدٍ ... تمهــد لى فى الجنان القــرارا

ومن قوله يتشوق إلى الأندلس عند قفوله من حجته الثانية حينما لاحت جبال دانية :

فى نحو أرض المنا من شرق أندلس ... شــوق يؤلف بين المــاء والقبس
لاحت لنا من ذراها الشم شــاهقة ... تدنى لزهــر الدار كف تلتمس

وتوفى ابن جبير بالإسكندرية فى نحو الرابعة والسبعين من عمره فى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ هـ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٢١٧ م[١].

---

(١) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على ترجمة ابن جبير الواردة فى « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى — مخطوط المتحف البريطانى — السفر الرابع — لوحة ١٣٠ وما بعدها ، وعلى ترجمة الواردة فى كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ ص ١٦٨ — ١٧٤ ، وعلى رحلة ابن جبير المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) .

أبو العباس بن الرومية

أعظم النباتيين المسلمين

(٥٦١ – ٦٣٧ هـ) ، (١١٦٥ – ١٢٣٩ م)

كانت دراسة النباتات والحشائش الطبية ، تحتل فى العصور الوسطى مكانة هامة فى البحوث الطبية ، وإليها ترتكز معظم الجهود فى تركيب الأدوية والعقاقير الطبية . وقد بدأت هذه الدراسات فى عصر مبكر ، وكان أستاذها الأول ديسقوريدس اليونانى ، الذى عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابته عن الحشائش الطبية ، ومركبات الأدوية ، وكان يعتبر طوال العصور الوسطى أنفس مرجع من نوعه ، حتى أن قيصر قسطنطينية قسطنطين السابع ، حينما أرسل سفارته الشهيرة إلى عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) ، لم يجد أنفس من نسخة مصورة من كتاب ديسقوريدس المذكور ، هدية يهديها إلى الخليفة .

وقد عنى العلماء المسلمون عناية خاصة بدراسة الحشائش الطبية وتصنيفها ، ودراسة خواصها العلاجية ، وظهر منهم فى هذا الميدان عدة من أكابر العلماء والباحثين ، واشتهر منهم بالأخص عالمان أندلسيان بلغا فى هذا الميدان ذروة التفوق والنبوغ ، هما أبو العباس بن الرومية الإشبيلى ، وتلميذه ابن البيطار المالقى .

ويعتبر أبو العباس بن الرومية أعظم النباتيين المسلمين ، ويعتبر بعد ديسقوريدس اليونانى ، أعظم العشابين سواء فى الشرق أو الغرب ، ومن ثم فقد اشتهر بالنباتى وبالعشاب . وهو أحمد بن محمد بن أبى الخليل مفرج الأموى ويعرف بالأخص بابن الرومية ، وينتمى إلى أسرة قرطبية من موالى بنى أمية نبغ فيها أطباء ونباتيون ، ونزحت فيما بعد إلى إشبيلية . وفى إشبيلية ولد أبو العباس فى المحرم سنة ٥٦١ هـ (نوفمبر سنة ١١٦٥ م) ، وكانت إشبيلية يومئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وقد غدت فى ظل الموحدين مركز العلوم والآداب ، بعد أن تضاءلت هيبة قرطبة السياسية والأدبية ، ودرس أبو العباس على جمهرة من أكابر العلماء فى عصره ، وبرز بالأخص فى الحديث ، حتى غدا

فيه إماماً حافظاً لايبارى ، فى ذكر تواريخ المحدثين وأنسابهم وتجريحهم وتعديلهم .
وشغف فى الوقت نفسه بدراسة النبات وخصائص الأعشاب الطبية ، وتجول من أجل ذلك فى ربوع الأندلس والمغرب وشمال إفريقية ومصر والشام والعراق والحجاز ، ووصل فى هذا الميدان ، من تحقيق أصول الأعشاب المختلفة وخواصها وتمييزها إلى ما لم يصل إليه أحد من قبل . وهنا تبرز تلك الجامعة الغريبة المشتركة بين علم الحديث وبين علم النبات ، وإليك كيف يوضح الوزير ابن الخطيب كنه هذه الجامعة بين الصناعتين خلال حديثه عن ابن الرومية ، فهو يقول مشيراً إليه « عجيبة نوع الإنسان فى عصره وما قبله وما بعده ، فى معرفة علم النبات وتمييز العشب وتحليلها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشرق أو بمغرب ، حساً ، ومشاهدة ، وتحقيقاً ، لا مدافع له فى ذلك ، ولا منازع ، حجة لا ترد ولا تدفع ، قام على الصنعتين ، لوجود القدر المشترك بينهما ، وهما الحديث والنبات ، إذ مواردهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الأصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك » .

وهذه الظاهرة فى الجمع بين الحديث وبين العلوم البحتة ، تبدو فى حياة كثير من أكابر العلماء المسلمين ، فإنا نجد مثلا عميد بنى زهر ، عبد الملك ابن محمد بن مروان بن زهر ، أبرع أطباء الأندلس فى عصره ، وولده أبا العلاء ابن زهر ، المتوفى سنة ٥٢٥ ﻫ ، ثم حفيده أبا مروان عبد الملك بن زهر ، أعظم طبيب فى العصور الوسطى ، أو على قول تلميذه ابن رشد ، أعظم طبيب بعد جالينوس ، نجد هؤلاء جميعاً من أئمة الحديث وأكابر الحفاظ ، وهم فى نفس الوقت من أعظم عباقرة الطب والكيمياء .

وقضى ابن الرومية فى رحلاته الدراسية فى شمال إفريقية وبلاد المشرق ، مذ بدأها بعد سنة ٥٨٠ ﻫ بقليل ، زهاء ثلاثين عاماً ، وأدى فريضة الحج فى سنة ٦١٣ ﻫ ، ولقى خلال تجواله جمهرة كبيرة من العلماء المشارقة بمصر والشام والعراق ومكة ، وأخذ وروى عنهم . ثم عاد إلى الأندلس بعد طول التجوال ، واستقر ببلده إشبيلية ، وافتتح بها متجراً للنباتات الطبية ، فكان مقصد الأطباء والنباتيين وطلاب العلاج من سائر الأنحاء ، وهنالك وفد عليه معاصره الفقيه المؤرخ والشاعر ابن الأبار القضاعى غير مرة حسبما يذكر لنا ذلك فى ترجمته

فى « التكملة » : قال ابن عبد الملك المراكشى فى « الذيل والتكملة » يصف ابن الرومية ورحلاته وبحوثه : « إمام المغرب قاطبة فيما كان سبيله ، جال بالأندلس ومغرب العدوة ، ورحل إلى المشرق فاستوعب المشهور من إفريقيه ومصره وشامه وعراقه وحجازه ، وعاين الكثير مما ليس بالمغرب ، وعارض كثيراً فيه كل ما أمكنه ، ولم يزل باحثاً على حقائقه ، كاشفاً عن غوامضه ، حتى وقف منه ما لم يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع أهل ذلك الشأن » .

وكان ابن الرومية فقيهاً ظاهرى المذهب شديد التعصب للعلامة ابن حزم القرطبى ، إمام الظاهرية وقطبهم الأكبر ، وعلى يديه انتشرت تصانيف ابن حزم بما أبداه من غيرة وعناية فائقة فى إظهارها ، والإنفاق على استنساخها ، وقد أنفق فى هذا السبيل أموالا جمة ، وكان إلى جانب ذلك ورعاً صالحاً زاهداً ، وكان شديد العطف على طلبة العلم ، يجود عليهم بالمال والكتب التى يعز وجودها ، مستعيناً على ذلك بيساره وجدته ، وله فى ذلك اخبار كثيرة ، وكان كثير الشغف بالدرس ، يواصل سهر الليل فى تقييد بحوثه ومصنفاته ، ويقضى أوقاتاً كثيرة فى فحص المرضى ، وإمدادهم بالأدوية النباتية التى مهر فى تميزها وإعدادها .

ولابن الرومية تصانيف عديدة فى الحديث والنبات ، منها فى الحديث : « رجالة المعلم بزوائد البخارى على مسلم » و « اختصار حديث مالك ، للدارقطنى » و « نظم الدرارى فيما تفرد به مسلم عن البخارى » و « الحافل فى تذليل الكامل » وغيرها . ومن مصنفاته فى النبات « شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها » و « التنبيه على أغلاط الغافقى » و « الرحلة النباتية » و « المستدركة » . وغيرها ، وله كتاب فى « الأدوية المفردة » على نمط كتب بنى زهر فى ذلك ، وله غير ذلك مصنفات ورسائل عديدة . بيد أننا لم نتلق مع الأسف من هذا التراث الحافل سوى القليل ، ومعظمه فصول وشذور نقلت إلينا على يد المتأخرين .

وتوفى ابن الرومية بعد حياة علمية حافلة بإشبيلية فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ (نوفمبر سنة ١٢٣٩ م) قبل سقوطها فى أيدى القشتاليين بنحو تسعة أعوام فقط ، وجاء من بعده تلميذه ابن البيطار المالقى ، فحمل علمه ، وبرع

مثله فى النبات ودراسة الحشائش الطبية ، وتجول مثله فى المغرب والمشرق ، وطاف بمصر والشام وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ، ووضع عدة تصانيف فى الأدوية النباتية . وتوفى بدمشق فى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) . ومما يلفت النظر أن يظهر فى هذا الوقت الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الغروب ، وسقطت معظم قواعدها الكبرى ، عباقرة فى ميدان العلوم البحتة أمثال ابن الرومية وابن البيطار ، ولكن القوى الحضارية والفكرية الأندلسية الكامنة ، كانت تتفتح خلال المحنة فى سائر الميادين ، وتنساب من القواعد الشمالية ، التى سقطت تباعاً فى أيدى القشتاليين إلى ما وراء نهر الوادى الكبير ، حيث كانت تجتمع أشلاء الأندلس الباقية فى مملكة غرناطة الصغيرة التى شاء القدر أن تحمل علم الإسلام ، ومشعل الحضارة الأندلسية مائتى عام أخرى[1].

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ترجمة حسنة لابن الرومية (راجع الإحاطة ، القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢١٥ — ٢٢١ .

ابن الأبار القضاعى

دبلوماسي وكاتب وشاعر بلنسى

(٥٩٥ – ٦٥٨ هـ) ، (١١٩٩ – ١٢٦٠ م)

كانت بلنسية عاصمة شرقى الأندلس ، واستمرت تحتفظ حتى اللحظة الأخيرة بتفوقها ورياستها . وقد عرفت بلنسية ، فى أواخر عهدها الإسلامى ، أيام الاضطراب والمحنة ، رهطاً من القادة والمفكرين الذين برزوا من غمار الفتنة ، وشهدوا سقوط الوطن القديم ، ثم غادروه إلى الضفة الأخرى من البحر ، مؤثرين أن يعيشوا فى آفاق كريمة حرة ، على أن يبقوا تحت نير الحكم الجديد .

وكان من بين هؤلاء سياسى ومفكر بلنسى ، عاصر أحداث المحنة ، واشترك فى معظم أطوارها ، وساهم فى غير محاولة بذلت لإنقاذ الوطن المنكوب ، ثم شهد فى النهاية تسليم هذا الوطن إلى قاهره وسيده الجديد ، عاهل أراجون . خايمى الأول أو خايمى الفاتح .

هذا السياسى المفكر هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار ، وهوشخصية من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ، فى تلك المرحلة القاتمة من مراحله ، وهى مرحلة السقوط والانهيار ، التى تشغل بالأخص ، النصف الأول ، من القرن الثالث عشر الميلادى .

وابن الأبار شخصية متعددة النواحى ، فهو فقيه راسخ ، وكاتب بلغ ذروة البيان ، وشاعر مبدع مبكى . ثم هو بعد ذلك مؤرخ محقق . ولتراث ابن الأبار التاريخى قيمة خاصة ،ولا سيا فيما يتعلق بفترة انهيار سلطان الموحدين ، وبعصره الخاص ، وربما كان تراث ابن الأبار عن حوادث عصره ، أقيم ما خلفه لنا هذا المفكر الممتاز . فهو قد شهد بنفسه معظم هذه الحوادث ، ودونها لنا عن خبرة ودراسة ، وصور لنا ألوانها المشجية ، فى شعره ونثره ، بأسلوب ينفذ إلى سويداء القلوب .

وكان مولد ابن الأبار بثغر بلنسية العظيم ، فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م)

فى بيت علم ونبل ، وأصلهم من أندة الواقعة على مقربة من غربى بلنسية ، والتى ينتسب إليها كثير من العلماء . ودرس ابن الأبار الحديث والفقه على أقطاب عصره ، وفى مقدمتهم أبوه عبد الله . وكان بين أساتذته أعظم علماء الأندلس يومئذ ، وهو المحدث الكبير أبو الربيع بن سالم ، وقد انقطع إليه ابن الأبار ، ولازمه أكثر من عشرين سنة . ولما توفى قتيلا فى موقعة أنيشة فى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) رثاه ابن الأبار بقصيدته ، التى تعتبر من أعظم المراثى الأندلسية .

وإلى جانب الحديث والفقه ، برع ابن الأبار فى اللغة والأدب ، وشغف بالأخبار والسير ، ورحل فى مطالع شبابه إلى غربى الأندلس ، فزار قرطبة ، ثم إشبيلية ، وهو يأخذ أينما حل عن أساتذة العصر . ولما توفى أبوه فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) كان هو ما يزال بغربى الأندلس فى مدينة بطليوس ، عاكفاً على دراساته ، فعاد عندئذ إلى بلنسية موطنه ومثوى أسرته .

وتولى ابن الأبار فى شبابه قضاء دانية . ولكن القدر كان يدخره لمهام أخطر وأجل . ذلك أن الحوادث فى شرقى الأندلس ، كانت يومئذ تؤذن بتطورات خطيرة . ونحن نعرف أن الأندلس كانت ما تزال حتى ذلك الوقت ولاية مغربية ، تحت حكم الخلافة الموحدية ، ولكن الدولة الموحدية كانت قد بدأت قبل ذلك بقليل منذ موقعة العقاب المشئومة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م) التى سحقت فيها الجيوش الموحدية على يد الجيوش الإسبانية المتحدة ، تدخل فى دور انحلالها ، وبدأ سلطانها فى الأندلس يهتز تحت ضربات الحركات القومية المحلية . وكان شرقى الأندلس بالأخص مسرحاً لموجة جديدة ، من الصراع بين القوى الوطنية والسيادة الموحدية ، وكان والى بلنسية الموحدى يومئذ هو السيد أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولدينا ما يدل على أن ابن الأبار ، عقب عودته من منطقة الغرب ، قد تولى منصب الكتابة لهذا السيد ، ولكن السيد أبا عبد الله توفى بعد ذلك بقليل فى سنة ٦٢٠ هـ ، وقام فى ولاية بلنسية مكانه ولده السيد أبو زيد عبد الرحمن ، فاستمر ابن الأبار فى منصبه كاتباً للوالى الجديد ، وزادت حظوته ومكانته . ولم يلبث أن غدا موضع ثقة

السيد وتقديره ، وكان ذلك بالنسبة لابن الأبار بداية حياته السياسية ، التى أخذت من بعد ذلك تتقلب فى مراحلها المتعاقبة المؤسية .

وكان سلطان الموحدين فى هذه المنطقة من الأندلس ، منطقة الشرق ، أضعف منه فى أية منطقة أخرى ، أولا لنأيها وبعدها عن مركز الحكومة العامة فى إشبيلية ، وثانياً لأن منطقة الشرق كانت منذ أيام زعيم الشرق محمد بن سعد ابن مردنيش ، قبل ذلك بنحو سبعين عاماً ، مركزاً لأعنف ثورة وطنية أندلسية اضطرمت ضد الموحدين ، ومن ثم فإنه لما انهارت قوى الموحدين العسكرية بالأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، عادت بوادر الثورة والاضطراب من جديد لتعمل فى منطقة الشرق ، وكانت مرسية وهى حاضرة الشرق الجنوبية ، أول مسرح لانفجار الثورة الوطنية فقام بها محمد بن يوسف بن هود ، واستطاع أن ينتزع السلطة من حاكمها الموحدى السيد أبى العباس وولده فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) .

وشعر السيد أبو زيد والى بلنسية بخطورة هذه الحركة ، فسار فى قواته لمقاتلة ابن هود ، ولكن ابن هود هزمه ، فارتد مغلولا إلى بلنسية ، وهو يستشعر سوء المصير .

ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل أخرى ، حتى ظهر صدى هذه الحوادث فى بلنسية ذاتها ، واضطرم أهل بلنسية بالثورة ضد الموحدين ، واتجهوا إلى الانضواء تحت زعامة الرئيس أبى جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، وزير السيد وكبير بطانته . وكان الرئيس زيّان وهو سليل آل مردنيش حملة لواء الثورة الوطنية ، من قديم ضد الموحدين ، هو الزعيم الطبيعى ، لمثل تلك الحركة وكان من أثر ذلك أن وقعت الوحشة بين الوالى السيد أبى زيد ، وبين وزيره الرئيس زيان . وخشى زيان من نقمة السيد فارتد فى أهله إلى حصن أندة القريب ، وامتنع به وهو يرقب سير الحوادث .

وعندئذ اشتد الهياج فى بلنسية ، وهتف الشعب برياسة زيان ، وخشى السيد أبو زيد البادرة على نفسه ، ولم يجد سبيلا لمدافعة هذه الثورة الجارفة ، فغادر بلنسية فى أهله وأمواله ، ومعه كاتبه ابن الأبار ، والتجأ إلى بعض الحصون القريبة . وكان خروج السيد أبى زيد من بلنسية فى شهر صفر

سـنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) . وعلى أثر خروجه دخل الرئيس أبو جميل زيان بلنسية ، ونزل بالقصر ، ودعا للخليفة العباسى ، واستقبله الشعب بأعظم مظاهر الحماسة والترحيب .

ولبث السيد أبو زيد مدى حين بمقره على مقربة من بلنسية . فلما رأى تطور الأمور على هذا النحو ، ولما لم يجد سبيلا إلى استرداد سلطانه ، عول على أن يلتجئ إلى خايمى الأول ملك أراجون ، وكان يعقد بلاطه يومئذ بقلعة أيوب ، فسار إليه ومعه كاتبه ابن الأبار .

وهنا تبدأ تلك الصفحات المشجية من حياة ابن الأبار الدبلوماسية . وقد وقفنا فى أحد مخطوطات الإسكوريال على هذين البيتين اللذين أنشدهما ابن الأبار حين مغادرته لبلنسية مع مخدومه السيد أبى زيد وهما :

الحمد لله لا أهـل ولا ولـد ولا قرار ولا صـبر ولا جلد
كان الزمان لنـا سـلماً إلى أمد فعـاد حرباً لمـا انقضى الأمد

ومنهما يبدو أن ابن الأبار حين مغادرته لبلنسية ، كان وحيداً لا أهل له ولا ولد ، ومن ثم كان إقدامه على مشاركة السيد فى مغامرته ، التى لم يكن يقدر يومئذ مدى خطورتها ، وكان ابن الأبار يومئذ شاباً فى عنفوانه فى الحادية والثلاثين من عمره .

والحقيقة أن هذا الأمير الموحدى السيد أبا زيد ، كان ينوى أن يذهب فى الاستنصار بالنصارى إلى أبعد مدى . وكان خايمى الأول ملك أراجون يحاول من جانبه أن يجتنى لقاء معاونة الأمير المسلم ، أقصى ما يمكن اجتناؤه ، من أشلاء الأندلس ، وكانت بلنسية بالذات هى أعز أمانيه وتاج أطماعه ، ومن ثم فقد عقدت بين الأمير الموحدى وملك أراجون ، معاهدة صداقة وتحالف تقضى بأن يسلم الأمير الموحدى إليه ، جزءاً مما يفتتحه من الأراضى والحصون الإسلامية ، وأن يحتفظ الملك خايمى كذلك بكل ما يقوم بافتتاحه هو من الأراضى والحصون لنفسه ، وأن يسلم إليه السيد أبو زيد عدة حصون وبلاد هامة ، فى منطقة بلنسية ، رهينة بولائه ، وأن يقوم ملك أراجون لقاء ذلك ، بحماية السيد والدفاع عنه ضد أعدائه .

وليست لدينا تفاصيل عن الدور الذى أداه ابن الأبار فى عقد هذه المعاهدة . ولكن يبدو لنا من تصرفه اللاحق أنه لم يكن راضياً ، عن هذا التسليم المشين ، الذى عمد إليه السيد أبوزيد ، فى أراضى الوطن الأندلسى وحصونه ، تحقيقاً لأطماعه الشخصية ، بل يلوح لنا أنه كان فوق ذلك على علم بما ينتويه السيد من خطوات لاحقة أبعد مدى ، وأشد إيلاماً للنفس . ذلك أن ابن الأبار ما لبث أن غادر مخدومه السيد أبا زيد وعاد مسرعاً إلى بلنسية ، وهناك التحق بخدمة أمير بلنسية الجديد ، أبى جميل زيان ، وتولى منصب كتابته ، وكان ابن الأبار قد ظهر فى هذا الميدان ببلاغته الأخاذة وبيانه الرائع .

أما السيد أبو زيد فقد ذهب فى مغامرته إلى الدرك الأسفل ، فاعتنق دين النصرانية ، واتخذ اسماً نصرانياً هو : بثنتى (Vicente) أو بجنت بالعربية ، وأصبح يسمى فى الوثائق النصرانية ، بثنتى ملك بلنسية ، وحفيد أمير المؤمنين . وتجمع الرواية الإسلامية على صحة واقعة تنصر هذا السيد الموحدى ، وتنحى عليه بأشد ضروب الإنكار واللوم .

ولقد كان ابن الأبار صادق الحس ، بعيد النظر ، حينما ترك مخدومه الضال لمصيره المحزن . ومن المحقق أنه نبذ فى ذلك كل إغراء ، وكل وعود براقة ، ولم يقبل أن يتورط لحظة ، فيما يعتبره ، خيانه لوطنه وأمته ودينه .

* * *

كانت هذه التجربة الأليمة أول عهد ابن الأبار بالمغامرات الدبلوماسية . بيد أن القدر كان يدخره لمهام دبلوماسية أخرى ، أشد إيلاماً للنفس ، وأبعث إلى الحسرة والأسى .

ذلك أن صرح الأندلس القديم الشامخ ، قد أخذ فى تلك الآونة العصيبة يهتز ويتداعى . أجل إن قوى الأندلس المفككة ، كانت عندئذ ، تحاول أن تجتمع فى الشرق تحت زعامة المتوكل بن هود ، وفى الوسط والجنوب تحت زعامة محمد بن الأحمر . ولكن هذه الزعامات المحلية الجديدة ، لم تكن لتستطيع والفتنة تمزق أوصال الأندلس ، أن تصمد بمواردها المحدودة ، فى وجه اسبانيا النصرانية . وكان خايمى الأول ملك أراجون وفرناندو الثالث ملك قشتالة ،

يرقب كل منهما فرصته ، لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أشلاء الأندلس الممزقة .

وشاء القدر أن يكون ملك قشتالة ، هو السابق بانتزاع كبرى قواعد الأندلس التالدة ، فاستولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة فى شوال سنة ٦٣٣ هـ (يونيه سنة ١٢٣٦ م) .

وأخذ ملك أراجون من جانبه يمهد للاستيلاء على بلنسية ، وذلك بانتزاع حصونها الأمامية ، شيئاً فشيئاً . كل ذلك وزيان أمير بلنسية يقاوم الأرجونيين ما استطاع . وأخيراً مزقت قوى البلنسيين فى معركة أنيشة الحاسمة على مقربة من بلنسية ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ (أغسطس سنة ١٢٣٧ م)

وامتنع زيان بفلوله داخل الثغر العظيم . وعول ملك أراجون على أن يأخذ بلنسية بالحصار والمطاولة ، فجمع جيشاً مختاراً من فرسان الداوية والأسبتارية والأرجونيين والقطلان والمتطوعة الفرنسيين ، وسار إلى بلنسية ، وطوقها بقواته من البر ، وضرب محلته بينها وبين البحر ، لكى يقطع سائر علائقها مع الخارج ، وبدأ هذا الحصار الشهير فى رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل ١٢٣٨ م) .

فى تلك الآونة العصيبة اتجهت أنظار الأمير زيان ، إلى توجيه وزيره وكاتبه ابن الأبار إلى إخوانه المسلمين ، فى الضفة الأخرى من البحر ، إلى مملكة إفريقية (تونس) الفتية القوية ، أو مملكة بنى حفص . وكان عاهلها الأمير أبو زكريا بن السيد أبى محمد عبد الواحد الموحدى ، قد استطاع أن يجعل منها فى فترة قصيرة ، قوة زاخرة بحسب حسابها . وبعث زيان إلى أمير إفريقية سفارة على رأسها وزيره وكاتبه ابن الأبار يحمل إليه بيعته ، وبيعة أهل بلنسية ، وصريخه بسرعة الغوث والإنجاد ، قبل أن يفوت الوقت ، ويسقط الثغر العظيم فى أيدى النصارى .

وكان انضواء زيان تحت لواء الدولة الحفصية ، واتجاهه إلى طلب الغوث منها ، عملا فطناً ، من أعمال السياسة المستنيرة . ذلك أن قيام الدولة الحفصية فى إفريقية واستقلالها ، تحت رياسة أبناء حاكمها السابق السيد أبى محمد عبد الواحد الموحدى ، كان ضربة للدولة الموحدية المفككة . وكان قيام الإمارات الأندلسية الجديدة فى مرسية ، وفى بلنسية ، خروجاً على الخلافة الموحدية ، اتباعاً لنفس

السياسة التحريرية ، فكان ثمة نوع من التحالف الطبيعى بين الخوارج على النير الموحدى فى إفريقية والأندلس .

ووصلت سفارة الأمير زيان إلى تونس ، وعلى رأسها وزيره ابن الأبار ، فاستقبلها الأمير أبو زكريا بترحاب ومودة ، ومثل ابن الأبار بين يديه فى حفل مشهود ، أبلغه فيه مضمون سفارته ، وألقى قصيدته السينية الرائعة ، التى اشتهرت فى التاريخ ، كما اشتهرت فى الشعر ، يستصرخه فيها لنصرة الأندلس ونصرة الدين وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل عز النصر منك ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطال ما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للنائبات وأمسى جدها تعسا

وهى طويلة فى سبعة وستين بيتاً ، وكلها تحسر وأنين على ضياع الأندلس ، وتمزق أوصالها ، وسقوط قواعدها .

فكان لإنشاد هذه القصيدة المبكية ، التى ما زالت تحتفظ حتى يومنا ، برنينها المحزن ، والتى كانت كأنها نفثة الأندلس الجريح ، أبلغ الأثر فى نفس الأمير أبى زكريا ، ورجالات بلاطه . وإنه لمن حوادث التاريخ الفذة أن يحقق الشعر غاية السياسة ، وأن تكون القصيدة العصماء أمضى سلاح يغنى عن المفاوضة والإقناع . وهكذا كانت قصيدة ابن الأبار البليغة المؤثرة ، بل المبكية ، هى سلاح الإقناع فى هذه المهمة السياسية الكبرى . فبادر الأمير أبو زكريا بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح ، والأقوات والكسى والأموال ، لإنجاد الثغر الأندلسى المحصور ، وأقلعت هذه السفن المنجدة على جناح السرعة ، من ثغر تونس قاصدة إلى ثغر بلنسية ، ومعها ابن الأبار ورفاقه .

ولو أتيح لهذه السفن ، أن تتصل بالمحصورين ، وأن تمدهم بما كانت تحمل من سلاح وأقوات ، لكان من الممكن أن تطول مقاومة الشعب البلنسى ، وأن ينهار حصار الأرجونيين ، وأن تنقذ بلنسية ، ويتأخر سقوطها إلى حين .

ولكن كان من سوء الطالع أن هذه السفن المنشودة ، لم توفق إلى تأدية

مهمتها ، وتحقيق هدفها . ذلك لأنها لم تستطع أن تصل إلى مياه الثغر المحصور ، بأية وسيلة ، وطاردتها السفن الأرجونية ، فاضطرت أن تفرغ شحنتها فى ثغر دانيه ، وأن تعود أدراجها إلى تونس ، واستطاع ابن الأبار ورفاقه أن يجوزوا إلى مدينتهم بطريقة لا نعلمها ، وتركت بلنسية لقضائها المحتوم .

وهنا شدد الأرجونيون الحصار على المدينة . وبالرغم مما بذله الأمير زيان وقواته ، من ضروب الإقدام والبسالة ، فى مدافعة الجيش المحاصر ، فقد كان من الواضح ، ولا سيما من نضوب الموارد والأقوات ، ومما يعانيه أهل المدينة من الكرب والضيق ، أنه لا مفر من التسليم ، إذا أريد أن تنجو المدينة من العيث والتخريب ، ومن ثم فقد بدأت المفاوضة بين زيان وملك أراجون ، فى شروط التسليم ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تسلم المدينة صلحاً .

وإليك كيف يصف لنا ابن الآبار ، وقدكان شاهد عيان ، فى رفقة أميره ، ماتلا ذلك من لقاء بين الأمير زيان والملك خايمى ، ومن إبرام شروط التسليم بينهما . وقد كان ابن الأبار هو الذى تولى صياغة تلك الوثيقة المحزنة ، وذلك فى يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ ، الموافق ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م ، قال :

« فى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى من المدينة ، وهو يومئذ أميرها فى أهل بيته ، ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية وقد تزيا بأحسن زى ، فى عظماء قومه ، من حيث نزل بالرُّصافة ، أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالولجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلماً ، لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناءها ، بأموالهم وأسبابهم ، وحضرت ذلك كله ، وتوليت العقد عن أبى جميل ، وابتدئ بضعفة الناس ، فسيروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم ، براً وبحراً . وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور ، كان خروج أبو جميل بأهله من القصر ، فى طائفة يسيرة ، أقلعت معه ، وعندئذ استولى عليها الروم أحانهم الله » .

ودخل خايمى الفاتح وجنده ، ثغر بلنسية ، فى يوم الجمعة ٢٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ ، الموافق لليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٢٣٨ م ، فكانت بلنسية بعد قرطبة ، ثانية القواعد الأندلسية العظيمة ، التى سقطت فى تلك الفترة ، فى أيدى

الإسبان . وقد كان انهيار هذه القواعد الأولى من الصرح الأندلسى الشامخ ، مقدمة لانهيار معظم القواعد الباقية تباعاً ، فى فترة قصيرة لا تتجاوز العشرة أعوام .

هكذا كان الدور المؤلم الذى لعبه ابن الأبار فى حوادث سقوط بلنسية . ولقد هزت هذه المحنة مشاعره إلى الأعماق ، فلم يطق أن يبقى فى الوطن المنكوب. فغادر أميره وغادر الأندلس كلها ، وعبر البحر إلى تونس ، فوصلها فى أواخر سنة ٦٣٦ هـ ، بعد سقوط بلنسية ، ببضعة أشهر ، وعاش حيناً فى كنف الأمير أبى زكريا صاحب إفريقية ، يتولى له كتابة العلامة . ثم أخذ يتردد حيناً بين تونس وبجاية ، يدرس هنا وهنالك . ولما توفى الأمير أبو زكريا فى سنة ٦٤٧ هـ ، وخلفه ولده المستنصر بالله ، التحق ابن الأبار ببطانته العلمية ، ولكنه لم يكن قريراً مطمئناً ، إلى هذه الحياة ، لما كان يتخللها من غضب السلطان ، بسبب دسائس خصومه أحياناً ، وبسبب تصرفاته الشخصية النزقة أحياناً أخرى .

واستطاع خصوم ابن الأبار فى النهاية ، أن يوقعوا به ، ورفعت إلى السلطان بعض أقوال وأبيات نسبت إلى ابن الأبار ، طعناً فى السلطان ، وتعريضاً به . فأمر السلطان بجلده ثم بقتله ، فضرب بالسياط ، ثم قتل طعناً بالرماح ، وأخذت كتبه وأحرقت فى موضع قتله ، ووقع مصرع ابن الأبار ، على هـذا النحو المؤسى ، فى الحادى والعشرين من شهر المحرم سـنة ٦٥٨ هـ الموافق الثامن من يناير سنة ١٢٦٠ م ، واختتمت بذلك حياة أعظم شخصية فى الأدب الأندلسى فى القرن السابع الهجرى .

يقول العلامة المستشرق بونس بويجس فى ترجمته لابن الأبار ما يأتى :

« ليس من شك فى أن شخصية هذا الكاتب ، كانت ذات تأثير عظيم فى حوادث عصره السياسية ، وأن حياته المليئة بالأحداث السعيدة أحياناً ، والنكدة أحياناً أخرى ، وموته المؤسى ، إن هى إلا نتيجة طبيعية ، أفضت إليها أطماعه المغرقة ، وخلقه العنيف الثائر على كل سلطة » .

ثم يقول فى نهاية هذه الترجمة : « وفى الخامس عشر أو فى العشرين من المحرم سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) اختتمت بصورة مفجعة تلك الحياة المليئة بالحوادث

والأعمال ، والتي خصصت في معظمها للمفاوضات السياسية ، وألفت مع ذلك فراغاً كافياً ، لإتحافنا بثمار نفيسة في عالم الأدب » .

* * *

هذا هو ابن الأبار السياسي . ولقد اختلطت حياة هذا السياسي البلنسي الكبير السياسية ، بحياته الأدبية ، وكانت مواهبه الأدبية ، كما رأينا ، سبيل مشاركته في الحياة العامة ، وسبيل نجاحه في مساعيه الدبلوماسية ، فلنلق الآن نظرة سريعة على تراثه الأدبي العظيم .

لقد ترك لنا ابن الأبار تراثاً حافلا من المنثور والمنظوم ، والمصنفات التاريخية الجليلة . وأقوى وأروع ما صدر عن ابن الأبار ، من نثر ونظم ، هو ما كتبه أيام المحنة ، وأيام انهيار الأندلس ، وأيام سقوط وطنه بلنسية من القصائد والرسائل ، التي ما زالت تحتفظ حتى اليوم برنينها المبكي . وقد انتهت إلينا قطعة مخطوطة من ديوانه تحفظ اليوم بخزانة الرباط الملكية . وأما تراثه التاريخي ، فهو من أنفس ما انتهى إلينا عن تاريخ الأندلس وتاريخ رجالاتها ، ولا سيما في القرن السادس الهجري ، وأوائل القرن السابع . وقد كان ابن الأبار وزيراً وكاتباً ، ومعاصراً لكثير من الحوادث التي يرويها . وأهم مصنفاته التاريخية هو بلا ريب كتاب « التكملة لكتاب الصلة » ، وهو موسوعة حافلة في التراجم ، يتخللها كثير من النبذ التاريخية الهامة . وقد وضعه ابن الأبار تنفيذاً لإشارة أستاذه أبي الربيع بن سالم كبير علماء شرقي الأندلس يومئذ ، وأريد به أن يكون « تكملة » لكتاب الصلة لابن بشكوال القرطبي .

ويقول لنا ابن الأبار إنه كان قد انتهى من وضع كتاب التكملة في سنة ٦٣٦ هـ ، ولكن هناك ما يدل على أنه لبث ينقحها ويزيد فيها حتى أواخر سنة ٦٥٥ هـ ، أعني إلى ما قبل وفاته بنحو عامين وظاهر من محتويات التكملة أن ابن الأبار يعنى عناية خاصة بعلماء شرقي الأندلس ، وأحداثه التاريخية ، وهي المنطقة التي ولد فيها ، وسلخ فيها شبابه ، واكتمل نضجه ، واتصل بالعدد الجم من علمائها .

ويلي كتاب الصلة في الأهمية كتاب « الحلة السيراء » ، وهو أيضاً مجموعة

نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب وغيرهم ، تبدأ من المائة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة . ولكتاب الحلة أهمية خاصة ، ذلك لأنه يقدم إلينا خلال التراجم التى وردت به ، نصوصاً تاريخية فى منتهى الأهمية ، ولا توجد فى مصادر أخرى ، ولا سيما عن بعض رجالات عصر الطوائف ، وعصر الثورة ضد المرابطين ، هذا فضلا عما تتسم به معظم التراجم من روح الإنصاف والحيدة . وقد قام العلامة المستشرق دوزى بنشر هذا الكتاب فى سنة ١٨٥١ م ، ولكنه نشره بطريقة ناقصة ، إذ حذف منه كثيراً من التراجم ، ثم قام بنشرها فى مجموعة النصوص التى نشرها عن بنى عباد بعنوان **Historia Abadidarum** وهو بعد ذلك كله لم ينشر ما ورد فيه من التراجم المغربية ، وهذه قام بنشرها المستشرق الألمانى ميللر فى كتابه **Beiträge** ، فكان تمزيق كتاب الحلة بهذه الطريقة ، مما يتنافى مع الأصول العلمية السليمة ، وقد قام أخيراً الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية السابق بمدريد ، بنشر طبعة كاملة محققة من الحلة السيراء فى مجلدين (القاهرة سنة ١٩٦٤) .

ومن معاجم التراجم التى وضعها ابن الأبار أيضاً كتاب « المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى السرقسطى » . وهذه هى معاجم التراجم الكبيرة التى انتهت إلينا من تراث ابن الأبار . وهنالك ما يدل خلال بعض تراجم التكملة أن ابن الأبار قد وضع معجماً لشيوخه ، ومعجماً آخر فى أصحاب القاضى ابن العربى . وانتهت إلينا من قلمه مجموعة صغيرة أخرى من التراجم عنوانها « إعتاب الكتاب » تشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة ، وتوجد منه نسخة قديمة بمكتبة الإسكوريال .

ولابن الأبار مؤلفات أخرى لم تصل إلينا ، منها كتاب « درر السمط فى أخبار السبط » وهو مؤلف يشير إليه المقرى فى نفح الطيب ويقتبس منه ، وكتاب « معدن اللجين فى مراثى الحسين » ، وهو كتاب يشير ابن الأبار نفسه إلى أنه قام بتأليفه . ويوجد بمكتبة الإسكوريال كذلك مخطوط عنوانه « تحفة القادم » من تأليف ابن الأبار يوصف بأنه « مقتضب من كتاب تحفة القادم » ، وهو حسبما يصفه ابن الأبار فى الديباجة « اقتضاب من بارع الأشعار » وفيه يورد ابن الأبار تراجم بعض الشعراء الأندلسيين والغرباء

ومختارات من أشعارهم ، وذكر ابن الأبار فى الحلة أن له مؤلفاً آخر عنوانه « إيماض البرق فى أدباء الشرق » .

وبعد فهذه لمحة فى التعريف بتراث ابن الأبار الفكرى . وقد خلدت لنا آثار ابن الأبار صوراً حية من محنة الأندلس وعوامل انهيارها ، لم يستطع كاتب آخر ، من معاصريه ، أن يقــدم إلينا شيئاً يدانيها . وقدمت إلينا مرثياته عنها صوراً مفجعة تذيب القلب أسى ، ومن ذلك قصيدته السينية الرائعة التى سبقت الإشارة إليها ، ورسالته المبكية فى رثاء بلنسية ، إلى صديقه وزميله الكاتب البلنسى الكبير أبى المطرف بن عميرة وغيرها . هذا وما زالت آثار ابن الأبار حتى يومنا ، أهم وأوثق مصادرنا عن تلك الفترة المشجية من التاريخ الأندلسى .

الحسن بن الوزان الفاسى الغرناطى

أو ليـــون الإفريقى

(٩٠٠ – ٩٤٤ هـ) ، (١٤٩٦ – ١٥٣٧ م)

كانت رحلة ابن بطوطة الطنجى ، وثيقة من أنفس الوثائق التى اعتمد عليها البحث الغربى فى دراسة الأقطار والأمم الإفريقية والأسيوية ، وأحوالها الاجتماعية ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وكانت أوصاف ابن بطوطة ، بالأخص لصحراء إفريقية الكبرى ، وبلاد السودان ، وممالك حوض النيجر السوداء ، هى عمدة الدراسات والبحوث الكشفية الأوربية الحديثة لتلك المناطق .

وجاء من بعد ابن بطوطة بنحو قرن ونصف رحالة آخر ، هو المعروف باسم « ليون الإفريقى » ، طاف أرجاء المغرب وأواسط إفريقية ومصر وقسطنطينية وبلاد العرب ، وكتب لنا « وصفاً لإفريقية » عنى فيه بالأخص بوصف أنحاء المغرب وبلاد السودان ، وممالك إفريقية السوداء فى منطقة النيجر ، وغدا مصنفه المشهور « وصف إفريقية » إلى جانب رحلة ابن بطوطة ، وثيقة نفيسة أخرى ، تلقى أضواء جديدة على جغرافية هذه المناطق وتاريخها وأحوالها الاجتماعية .

إن هذا الرحالة العالم الذى اشتهر فى دوائر البحث الغربى باسم « ليون الإفريقى » ليس إلا رحالة وعالماً مسلماً ، وإن هذا الإسم الغربى النصرانى الذى خلع عليه ، والذى ما زال يحجب اسمه المسلم الأصيل ، ينطوى على مأساة مؤلمة هى التى غيرت وجهة حياته كلها .

إنه الحسن بن محمد الوزان الفاسى الغرناطى ، وذلك حسبما يخبرنا فى الخاتمة التى ذيل بها قاموسه العربى اللاتينى ، فهو إذاً أندلسى الأصل ، وقد ولد بمدينة غرناطة حسبما يذكر لنا ذلك فى خاتمة كتابه « وصف إفريقية » ، ونشأ بالمغرب ، أو بعبارة أخرى بمدينة فاس . أما عن تاريخ مولده ، فإنه ليست لدينا معلومات قاطعة ، بيد أنه يستنتج من بعض الإشارات والمقارنات التى يوردها خلال حديثه ، أنه ولد بين سنتى ١٤٩٤ و ١٤٩٦ م . فهو أولا يقول لنا إنه حينما رافق حماة ، مولاى محمد سلطان مراكش، ضد البرتغاليين فى أصيلا ، كان

ذلك سنة ١٥٠٨ ، وكان عمره عندئذ أربعة عشر سنة ، وثانياً أنه حينما سار مع خاله فى سنة ١٥١٣ م فى رحلة إلى تنبكتو ، كان فى السادسة عشرة أو فى السابعة عشرة من عمره . وإذن فهو قد ولد فى غرناطة ، آخر حواضر الإسلام بالأندلس ، بعد سقوطها فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا فى فاتحة سنة ١٤٩٢ ، بنحو ثلاثة أعوام أو أربعة ، وقد كان الحسن وفقاً لما يذكره لنا الغزيرى فى معجمه ، ينتمى بمولده إلى الأسرة الزيادية الشريفية . وكذلك لسنا نعرف بالتحقيق تاريخ انتقال أسرته من الأندلس إلى المغرب ، بيد أنه يستدل من إشارات كثيرة فى حديث الحسن عن مملكة فاس ، أنه نشأ بها طفلا ، وتلقى بها تربيته الأولى ، وإذن فنستطيع أن نقول إن الأسرة غادرت غرناطة حوالى سنة ١٤٩٨ ، بعد مولد الحسن بنحو عامين أو ثلاثة ، وذلك حينما ظهرت نيات السياسة الإسبانية واضحة فى نقض العهود المقطوعة للمسلمين ، وبدأت مساعى الكنيسة فى تنصير المسلمين . ونحن نعرف أنه منذ سقطت غرناطة وانتهت بذلك دولة الإسلام فى الأندلس ، أخذ كثير من الأسر المسلمة فى مغادرة الوطن القديم ، واستمرت هذه الحركة أعواماً ، وغادرت أسرة الحسن غرناطة ، فيمن غادرها من آلاف المسلمين الذين لم يطمئنوا إلى الحكم الجديد ، وعبرت البحر إلى المغرب ، واستقرت بمدينة فاس . وكانت فاس حاضرة المغرب يومئذ ، وكانت ما تزال تحتفظ بقبس من سمعتها العلمية القديمة أيام بنى مرين . وأنفق الحسن سنى حداثته فى فاس ، ودرس بجامعتها العريقة ، جامع القرويين ، وهو يصف لنا هذا الجامع الشهير وضخامته وروعته ، وأروقته ، وأبوابه وقناديله ، وما يلقى فيه من دروس ، تبدأ فى الشتاء من الصباح الباكر ، وفى الصيف عقب غروب الشمس ، وفى حلقاته تدرس الشريعة والفلسفة ، ويمنح الأساتذة أجوراً سخية . ودرس الحسن ، النحو والعروض والأدب والتاريخ والفلسفة والمنطق والشريعة ، وقد ذكر لنا فى بعض المناسبات أنه كان من بين كتبه الدراسية كتاب « عقائد النسفى » . ويبدو من إشارات كثيرة ، أنه قرأ مقدمة ابن خلدون ، وبعض كتب الغزالى وكتاب ابن عبد الملك المراكشى « الذيل والتكملة » ، كما يبدو أنه قرأ عن التصوف ، ويشير فى ذلك بالأخص إلى السهروردى وابن الفارض باعتبارهما من أقطاب هذا الميدان .

والظاهر أيضاً مما يذكره لنا الحسن عن حياته فى تلك الفترة أنه كان يعيش مع أسرته فى سعة ورغد ، وقد كانت أسرته تقضى مواسم الصيف فى قصر سابق مهجور يقع على قيد نحو ستة أميال من فاس ، وكان أبوه يمتلك أو يستأجر بعض الأراضى المجاورة لهذا القصر . وكان الحسن يعيش سعيداً فى تلك العزلة المشجعة على الدرس .

ويقص علينا الحسن كثيراً من مراحل حياته ، خلال أحاديثه عن رحلاته ، وأوصافه لمختلف البلاد التى شهدها . فهو قد اشتغل فى حداثته ، كمعظم طلاب هذا العصر ، بالتوثيق فى إحدى مارستانات فاس ، مدى عامين ، بأجر قدره ثلاثة دنانير فى الشهر . وبدأ الحسن رحلاته وتجواله بأنحاء المغرب وثغوره فى وقت مبكر ، ولم تكن جولاته رحلات عابرة ، ولكنها كانت فى معظمها تنطوى على القيام بمهام تعتبر خطيرة بالنسبة لحداثة سنه . وشهد فى نفس الوقت كثيراً من الأحداث الهامة التى وقعت يومئذ بالمغرب ، والتى يذكرها لنا تباعاً خلال أحاديثه . وكانت هذه الفترة بالذات من أهم الفترات فى تاريخ المغرب ، وهى الفترة التى اشتد فيها اعتداء البرتغاليين على الشواطىء والثغور المغربية ، ونهض المغرب فيها ليدفع عدوان المغيرين بكل ما وسع ، ويشهر عليهم حرب جهاد شعواء .

يقول الحسن ، إنه لما سقطت آسفى فى أيدى البرتغاليين فى سنة ١٥٠٨ ، كان فى الثانية عشرة من عمره ، وأن سلطان فاس ، أوفده يومئذ بالرغم من حداثة سنه مع الشريف محمد للاتصال بقائد آسفى عند هجوم البرتغاليين عليها ، وإقناعه بالوقوف إلى جانب مليكه ، وليتصل كذلك بحاكم السوس لنفس الغرض . وفى أواخر هذا العام ، كان الحسن فى ركب مولاى محمد الوطّاسى سلطان فاس ، وفى خدمته ، عند ما سار بحملته لإنقاذ ثغر أصيلا ، الذى استولى عليه البرتغاليون ، وقد كاد يسقط فى أيدى المغاربة ، لولا أن تداركته نجدة قوية بعث بها ملك قشتالة إلى البرتغاليين . وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٥٠٩ (٩١٥ هـ) ، زار الحسن مدينة الشلّة الأثرية ، وتجول بين أطلالها ، وقرأ شواهد قبور ثلاثين من الأمراء والأشراف الذين دفنوا بها ومعظمهم من أمراء بنى مرين ، ونقل ما عليها من النقوش ، وجمعها فيما بعد فى كتاب خاص .

وفى نفس هذا العام ، سنة ١٥٠٩ ، عهد إليه السلطان بالسير مع أحد قواده لمحاولة تحصيل الجزية من يهود نفزة بمنطقة تادلا . وفى سنة ١٥١٢ ، سار الحسن فى ركب مولاى محمد مرة أخرى ، وكان مولاى محمد يقود حملة نحو منطقة تادلا من أراضى دُكالة ، وكان يرمى بحملته إلى تحرير أهل دكالة ، من نير العرب الذين كانوا يعيثون فساداً فى هذه المنطقة . ويعتدون على السابلة والسكان الآمنين . وبعد بضعة أيام سار السلطان فى جيشه إلى بلدة المعدن من أرض دكالة ، وأمر بعودة العلماء المرافقين له إلى فاس ، وبعث الحسن إلى مراكش فى مهمة سياسية لم يفصح لنا الحسن عن حقيقتها .

رحـــلات الحسن بن الوزان

ومن ذلك الحين يغدو الحسن شخصية بارزة فى مجتمع فاس ، ونراه يتنقل بين أرجاء المغرب وإفريقية ، أحياناً فى بعض المهام السلطانية ، وأحياناً فى رحلات لا يحدثنا عن أغراضها . فنراه مثلا ، حسبما يحدثنا فى الكتاب الرابع من « وصف إفريقية » فى مدينة بجاية فى ١٥١٤ فى طريقه إلى قسطنطينية ، وتونس . ثم هو يقول لنا إنه عاد فى سنة ١٥١٣ من تونس إلى فاس ، ليرى أصدقاءه . وفى هذه السنة بالذات ، فى أواخرها حسبما يبدو ، قام الحسن بأعظم رحلاته الإفريقية . وذلك أنه صحب خاله ، الذى ندبه سلطان فاس سفيراً عنه إلى سلطان تنبكتو (تمبوتو) فى رحلته ، وكان يومئذ فى نحو السابعة عشر من عمره . وقصدا إلى تنبكتو عن طريق درعة ، وبعثه خاله نيابة عنه ومعه هدية إلى حاكم درعة . وقدم إليه الحسن شعراً من نظمه . ذلك لأن الحسن كان ينظم الشعر ، وهى صفة نتحدث عنها فيما بعد . ويحدثنا الحسن عن خاله باحترام وإعجاب ، ويقول إنه كان شاعراً جزلا ، وخطيباً مفوهاً . وكانت رحلة الحسن هذه من أعظم رحلاته ، وأوسعها آفاقاً وأغزرها مادة . وكانت طويلة مشعبة ، وقد تمت فى صحبة القوافل ، وقدر للحسن أن يشهد خلالها سائر ممالك إفريقية الوسطى ، وحوض نهر النيجر ، وأن يدرس جغرافيتها وأحوالها دراسة حسنة ، وهو يصفها لنا وصفاً قيماً دقيقاً فى الكتاب السابع من مؤلفه . وكانت تنبكتو يومئذ فى أزهر عصـــورها ، وكانت قاعدة لمملكة كبيرة قوية ، تتزعم مصايرها أسرة « سونجاهى » . وقد أتيح للحسن أن يخترق فى تلك الرحلة ، سائر ممالك

السودان الواقعة فى تلك المنطقة ، وعددها خمسة عشرة مملكة متجهاً إلى تنبكتو نحو الشرق ، ثم بعد ذلك نحو الجنوب ، وهذه الممالك هى حسبما يذكرها لنا : ولاتة ، وغنيا ، ومالى ، وتنبكتو ، وجوجو ، وجوبر ، وأجادز ، وكانو ، وزجيزج ، وكافسينا ، وزمفرا ، ووتجرا ، وبرنو ، وجاوجو ، ونوبى .

وكان الحسن حينما قام بهذه الرحلة الكبرى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإنه يبدى فى وصفه الموجز لمواقع هذه الممالك ومعالمها الجغرافية ، وأحوالها الاجتماعية دقة واضحة ، وهو يلخص لنا أحوال حكامها وشعوبها فى تلك العبارة : « إن حكام هذه الممالك وسكانها على قدر كبير من الثراء والنشاط ، وهم يشغفون بإقامة العدالة ، ولو أن منهم طوائف تحيا نوعاً من الحياة الهمجية » .

ولسنا نعرف بالضبط مدى الزمن الذى استغرقته هذه الرحلة الكبيرة . ولكنا نعرف أن الحسن ، أنفق بعد ذلك أعواماً أخرى فى التجوال فى سائر أنحاء المغرب ، شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، وهو يشهد أحداثه ويدرس معالمه ، ويمتزج بسائر قبائله وطوائفه ، ويخترق سائر مدنه ومحلاته ، وقد شهد الحسن خلال ذلك كثيراً من الأحداث الهامة ، واشترك فى بعض الحملات التى جهزت يومئذ لرد البرتغاليين عن الثغور المغربية . وهو يقص علينا بعض هذه الأحداث ، فيقول إنه فى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) ، كان فى أرض حاحة ، الواقعة غربى مراكش ، على مقربة من المحيط ، ورأى بها مدينة تدنست ، وقد غدت قفراً خراباً لفرار أهلها منها خوفاً من سقوطها فى أيدى البرتغاليين ، وأنه فى العالم التالى ، فى سنة ١٥١٥ م . كان يصحب مولاى محمد سلطان فاس ، فى حملته التى قادها ضد العرب فى أرض رجراجة الواقعة شمال أرض حاحة ، لردعهم من عيثهم ، وأن السلطان طاردهم بشدة حتى التجأوا إلى الجبال ، وفى هذا العام أيضاً ، كان الحسن ، حسبما يقص علينا ، فى ثغر المعمورة ، وكان البرتغاليون يومئذ يهاجمونه يحاولون افتتاحه ، ولكنهم هزموا شر هزيمة على يد مولاى ناصر الوطاسى . وقد شهد الحسن هذا النصر الباهر للمغاربة ، وهذه الهزيمة الساحقة للمعتدين .

وتعتبر هذه الرحلات والجولات المغربية المتوالية ، إلى جانب رحلة الممالك

السوداء أهم وأخصب رحلات الحسن ، وأحفلها بالدرس والوصف .

وليست لدينا تفاصيل واضحة عن حياة الحسن فى الأعوام التالية ، سوى حقيقة واحدة هى أن الحسن قام خلالها بطائفة من الرحلات الهامة ، فى شمالى إفريقية ، وفى المشرق . وهنالك ما يدل على أن الحسن بدأ هذه الرحلات عقب موقعة المعمورة مباشرة ، فهو يقول لنا إنه كان بالمعمورة قبل أن يقوم برحلته إلى قسطنطينية ، وقد وقعت حوادث المعمورة ، حسبما تقدم فى سنة ١٥١٥ ، وإذن فلا بد أن يكون الحسن قد رحل إلى قسطنطينية فى أواخر هذا هذا العام أو فى أوائل العام التالى ، أعنى فى أوائل سنة ١٥١٦ . ويلخص لنا الحسن برنامج رحلاته المشرقية فى خاتمة الكتاب الثامن من مؤلفه ، وهو الذى خصصه لوصف مصر ، وملخص ذلك ، أنه حينما زار مصر ، وبعد أن مكث وقتاً فى القاهرة ، سار بطريق النيل من القاهرة إلى أسوان ، ثم عاد بطريق النيل أيضاً من أسوان إلى قنا ، ومن هنالك اخترق الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر ، ثم عبر هذا البحر إلى ينبع ثغر المدينة ، ثم إلى جدة ثغر مكة ، واخترق بلاد الحجاز ، بيد أنه ليس لدينا ما يدل على أنه أدى فريضة الحج . وهنا يذكر لنا الحسن رحلاته الأسيوية فيما يأتى :

« بيد أنه إذا شاء الله أن يمد فى أجلى ، فإنى أعتزم أن أصف كل مناطق آسيا التى تجولت فيها ، وهى بلاد العرب ، واليمن ، وسيناء ، والجزء الأسيوى من مصر (يريد فلسطين) . وأرمينية ، وجزء من بلاد التتر (يريد بها شمالى فارس) ، وهى بلاد رأيتها وتجولت فيها أيام شبابى . وكذلك سوف أصف رحلتى الأخيرة من فاس إلى قسطنطينية ، ومن قسطنطينية إلى مصر ثم من مصر إلى إيطاليا ، وهى رحلة رأيت فيها جزائر عديدة ومختلفة » .

ويبدو مما تقدم أن الحسن قد زار قسطنطينية مرتين ، وفى أقواله أيضاً فى موطن آخر ما يدل على أنه زار مصر مرتين أخريين ، وذلك عقب الفتح التركى لمصر فى ١٥١٧ م ، وقد كانت زيارته الأولى لها ، فيما يرجح فى سنة ١٥١٦ ، وذلك عقب عودته من رحلته الأولى إلى قسطنطينية . وقد استغرقت هذه الرحلات كلها زهاء خمسة أعوام من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٥٢٠ .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن حقيقة الدوافع التى حملت الحسن على القيام

بهذه الرحلات المختلفة . إنه يبدو من بعض إشارات الحسن ، أنه كان فى البداية ، وفى رحلاته المغربية ، يرافق التجار ، ويقوم لهم بأعمال التوثيق والمحاسبة ، وذلك حسبما يحدثنا عن بعض رحلاته فى جبال الأطلس . ثم إنه يبدو كذلك أنه كان يشتغل أحياناً بالتجارة لحسابه الخاص ، وذلك حسبما يحدثنا خلال رحلته الأولى إلى مصر ، حيث قام فى ساحل ليبيا بشراء بعض الأغنام والزبد . ولما أراد شحنها بطريق البحر إلى مصر ، اضطر إلى الفرار خشية من مفاجأة القراصنة الفرنج .

ويجب أن لا ننسى إلى جانب ذلك تلك المهام السلطانية ، التى كان الحسن يكلف بها من آن لآخر من قبل عاهل فاس ، وذلك سواء فى السفارة عنه أو بمرافقته فى بعض حملاته ، وهذا ما يقترن بالأخص برحلات الحسن فى مختلف أنحاء المغرب . بيد أنه يصعب علينا أن نعتقد أنه ، فى رحلاته الثانية إلى مصر ، وقسطنطينية ، كان يكلف بمثل تلك المهام السلطانية ، وإن كان بعض الباحثين ، يميل إلى الاعتقاد بأنه كان فى رحلاته إلى قسطنطينية يحاول بالنيابة عن سلطانه ، أن يحمل سلطان الترك على بذل الجهود لمعاونة المغرب ، فى صراعه ضد اسبانيا والبرتغال .

غير أن هنالك ما يدل أيضاً ، وهو أرجح الفروض ، على أن الحسن قد قام بمعظم رحلاته ، إشباعاً لشغفه بالكشف والدراسة . وأسطع دليل على ذلك ما تركه لنا عنها من أوصاف مستفيضة دقيقة ، لا يمكن إلا أن تكون مستمدة من مذكرات وتقييدات مدونة ، لا يمليها إلا مثل هذا الشغف بالدرس والتدوين .

الحـــدث الحســـم

كانت رحلة الحسن الأخيرة ، حسبما يبدو من أقواله المتقدمة هى الرحلة الثانية من فاس إلى قسطنطينية ، ومن قسطنطينية إلى مصر ، ثم من مصر إلى إيطاليا ، ورحلة الحسن إلى إيطاليا لم تكن رحلة اختيارية . ذلك أنه حينما عاد من قسطنطينية إلى مصر ، وأراد العودة إلى وطنه ، ركب البحر من الإسكندرية إلى مياه تونس ، ورست السفينة فى مياه خليج قابس عند شاطىء جزيرة جربة أو على مقربة منها . وهنا وقع الحدث الحسم فى حياة الحسن ، فإن بعض القراصنة النصارى ، وهم على الأغلب من البنادقة ، هاجموا السفينة التى يركبها الحسن

فى مياه جزيرة جربة ، وأخذ الحسن أسيراً ضمن من أخذوا . ويلخص لنا الحسن هذا الحدث الحسم فى حياته ، فى الكتاب السادس من مؤلفه ، عند ذكر عنوان وصف جزيرة جربة فى قوله : « وصف جزيرة جربة حيث أسر يوحنا ليون (الحسن) مؤلف هذا التاريخ على يد القراصنة الإيطاليين ، وحمل من هناك إلى رومة » . ولا يقدم إلينا الحسن — أو يوحنا ليون فيما بعد — أى إيضاح آخر عن أسره أو تاريخ هذا الأسر ، أو الظروف التى حمل فيها إلى رومة ، وكان الحسن يوم أسره فى نحو الرابعة والعشرين من عمره .

وكانت مياه هذا القسم من البحر المتوسط يومئذ ، مسرحاً لمغامرات أمير البحر التركى خير الدين وأخيه أوروج ، ومغامرات خصومهم من القراصنة النصارى ، وكان وقوع الركاب الآمنين ، سواء من المسلمين أو النصارى ، أسرى فى أيدى القراصنة من الجانبين ، من الحوادث العادية التى يكثر وقوعها ، وكذا كانت عمليات الفداء تجرى يومئذ بكثرة لافتداء المنكوبين ، ولكن الظاهر أن الحسن لم يجد من يفتديه . وأدرك القراصنة من جهة أخرى مما رأوه من حالة الحسن ، ومما يحمله معه من الكتب والأوراق ، أنهم يحرزون أسيراً غير عادى يمتاز بصفته العلمية ، فحملوه إلى رومة وقدموه هدية إلى البابا ، وهو يومئذ ليون العاشر ، أو الكاردينال السابق چيوڤانى دى مديتشى .

أما متى وقع هذا الحادث الخطير فى حياة الحسن ، فإنه من المرجح أن يكون وقوعه فى سنة ١٥١٩ م أو ١٥٢٠ م ، لأنه قام برحلته الأخيرة إلى مصر عقب الفتح التركى مباشرة ، أى بعد سنة ١٥١٧ م ، فإذا كانت الرحلة الثانية قد تمت فى سنة ١٥١٨ ، والرحلة الثالثة التى قام بها عقب عودته من قسطنطينية قد تمت فى ١٥١٩ ، ففى وسعنا أن نضع تاريخ ركوبه البحر فى طريق عودته إلى المغرب فى أواخر سنة ١٥١٩ أو أوائل ١٥٢٠ م .

أخذ الحسن أسيراً إلى رومة وقدم إلى البابا ، وكان الأسرى يومئذ يعتبرون من العبيد ، وكانت جمهرة كبيرة من أولئك المنكوبين المسلمين ، تعمل فى قصور الملوك النصارى ، وبيوت الكبراء والميسورين ، وكان بعضهم ينتظم فى سلك الحرس الملكى هنا وهناك ، وكان مثل هذا المصير ينتظر الحسن ، لولا أن آنس البابا فى عبده الجديد طرازاً آخر ، وأدرك قيمته العلمية الخاصة ، فبادر بعتقه ، وشمله بعطفه ورعايته ، وقرر له معاشاً سنياً حتى لا يفكر فى الهرب ،

وانتهى هذا العطف إلى النتيجة الطبيعية وهى إقناع البابا لخادمه بأن يعتنق النصرانية ، ومن ثم فقد نصر الحسن ، وحضر البابا حفلة تنصره شبيناً له ، وأطلق عليه اسم « چوڤانى ليونى » **Giovanni Leone** أو يوحنا الأسد ، حسبما يترجمه لنا الحسن .

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، هل كان اعتناق الحسن للنصرانية أمراً تمليه بواعث المصلحة قبل كل شىء ، أم أنه قد أضحى بهـــذه الردة نصرانياً مخلصاً ؟ إن لدينا ما يعزز الرأى الأول فى تصرف الحسن وعوده إلى الإسلام فيما بعد . صحيح أن الحسن يبدى فى كثير مما يكتبه فى مؤلفه عن الإسلام والنبى ، تحاملا واضحاً ، فهو يصف العقيدة الإسلامية « بالتخريف المحمدى » ، وهو يصف المسلمين « بالكفرة » ، وذلك حينما يذكر تحالف الكونت يوليان القوطى حاكم سبتة مع المسلمين على فتح الأندلس ، وهو يذكر اسم « محمد » مجرداً من كل توقير ، ويصف المسجد بالكنيسة ، والمحراب بالهيكل ، ثم هو يغضى عن كثير من تصرفات الإسبان والبرتغاليين العدوانية فى المغرب . بيد أنه يجب أن نذكر أن الحسن أو ليون كتب مؤلفه فى رومة ، وتحت كنف المجتمع النصرانى المتعصب الذى كان يعيش فيه ، والذى يتمتع بحمايته ورعايته ، وقد كان من المعقول أن يملق ليون هذا المجتمع وأن يســترضيه ، بطائفة من الإشارات والتعابير التى تبعد عنه كل شبهة فى إخلاصه لدينه الجديد .

ليـــون الإفريقى **Leo Africanus**

وهكذا غدا الحسن بن الوزان ، چوڤانى ليونى ، أو ليون الإفريقى ، وهو الإسم الذى عرف به فيما بعد ، مذ ظهر مؤلفه الشهير فى « وصف إفريقية ».

وخاض ليون فى رومة حياة علمية ، وتعلم الإيطالية واللاتينية والإسبانية ، وقام بتدريس اللغة العربية لعدة من العلماء ورجال الدين ، وكان من بين تلاميذه الكردينال جيدو أنتونيني . ويجب أن نشير هنا إلى بعض صفات ليون ومواهبه العلمية والأدبية ، وقد سبق أن أشرنا إلى دراساته فى فاس ، وما قرأه خلالها من الكتب . ونزيد هنا أن الحسن (ليون) فوق شغفه بالتاريخ والجغرافيا كان أديباً وشاعراً محسناً ، وهو ينوه فى غير موطن بموهبته الشعرية ، ويقول لنا إنه كان ينظم الشعر فى مديح بعض سادة الأنحاء التى يتجول فيها ، وأن سيداً من أعيان الأطلس وصله ذات مرة عن شعره ، بجواد مطهم وخمسين ديناراً . وكان ليون فوق ذلك يجيد إلى جانب العربية عدة لغات منها العبرية واللاتينية ، وقد ظهرت

براعته اللغوية فى قاموسه الذى نتحدث عنه بعد . وكان البابا ليون العاشر من جهة أخرى من حماة العلوم والآداب، وكان عصر الإحياء يومئذ يبعث أضواءه إلى سائر جنبات إيطاليا ويسطع فى ظل البابوات والأمراء ، وكان هذا الجو العلمى الذى يغمر البلاط البابوى فى تلك الفترة ، يشجع ليون على الاضطلاع بعدة من المشاريع العلمية ، التى تتجلى فيها معارفه المشرقية والكشفية الواسعة . ولكن صديقه وحاميه البابا ما لبث أن توفى فى أول ديسمبر سنة ١٥٢١ ، أى لنحو عامين فقط من وفود ليون إلى رومة .

وكانت هذه بلا ريب ضربة شعر ليون بوطأتها . بيد أنه استمر مقيماً فى رومة ، مثابراً على دراسته ، وكان يزور من آن لآخر بعض المدن الإيطالية الشمالية ، ولا سيما بولونيا التى زارها مراراً ، وكان يقوم فى فترات بتدريس اللغة العربية فى جامعتها الشهيرة ، وكان ليون يعيش وحيداً وفى عزلة ، منقطعاً إلى أعماله العلمية ودروسه العربية ، ولم يعرف عنه أنه تزوج أو كانت له صلة معروفة بالنساء فى ذلك العصر الذى كانت فيه الحياة المرحة، شعار الحياة فى رومة .

وأسفر نشاط ليون العلمى عن وضعه لعدة مصنفات قيمة ، كان أهمها وأشهرها مؤلفه الضخم فى وصف إفريقية .

وقد كتب ليون كتاب « وصف إفريقية » أولا بالعربية ، وإن لم يصل إلينا نصه العربى ، وقد كان هذا النص معروفاً وموجوداً حتى أواخر القرن السادس عشر فى مكتبة پنيللى الإيطالية ، ولم يصل إلينا سوى الترجمة الإيطالية التى قام بها ليون بنفسه لكتابه تحت عنوان **Descrizioni dell' Africa e delle cose notabili que quivi sono** « وصف إفريقية والأمور الهامة التى بها » ، وفى نهايتها أن المؤلف أتم كتابه فى رومة فى العشرين من مارس سنة ١٥٢٦ ، وقد نشر هذا النص الإيطالى لأول مرة على يد الجغرافى والناشر الإيطالى چوڤانى راموزيو فى سنة ١٥٥٠ ، ثم نشر بعد ذلك مررا . ثم ترجم إلى الفرنسية (سنة ١٥٥٦) ، وإلى اللاتينية (سنة ١٥٥٦) و ١٥٥٩ ، وإلى الإنجليزية (سنة ١٦٠٠) وإلى الهولندية (سنة ١٦٦٥) ، وإلى الألمانية (سنة ١٨٠٥)[١] .

(١) صدرت الترجمة الألمانية بعنوان **Beschreibung von Africa (1805)** بقلم **Losr baeh** وصدرت ترجمة فرنسية حديثة بقلم **Ch. Schaefer** بعنوان **Description de l'Afrique, 3. V.** **(Paris 1896)** .

وكتاب « وصف إفريقية » مؤلف ضخم يقع فى عدة مجلدات ، تشغل نحو ألف صفحة كبيرة. وينقسم إلى تسعة كتب ، يخصص ليون أولها لوصف إفريقية ، ويعنى فيه بالتحدث عن أقسام إفريقية وممالكها وسكانها وأصولهم ، وعن قبائلها ولغاتها وعن حياة أهلها ، والأمراض المتوطنة بينهم . ثم يبدأ منذ الكتاب الثانى بوصف أقاليم المغرب ومدنه ، ويحدثنا بإفاضة عن مدينة مراكش ، وكيف أنها لبثت عاصمة المغرب حتى نقل بنو مرين العاصمة إلى فاس ، ويصف لنا جامع مراكش الذى شيده الخليفة يعقوب المنصور ، ويذكر أنه كان فى الماضى تحت شرفاته نحو مائة حانوت لبيع الكتب ، وينتظم مثلها فى الجانب الآخر ، ولكنه حين زارها لم يكن بها حانوت واحد لبيع الكتب . ونحن نعرف أن هذا الجامع وهو جامع الكتبية وصومعتـه ، وهى صومعة الكتبية الشهيرة ؛ قد اتخذ كلاهما اسمه من هذا الجوار لحوانيت الكتب . ثم يصف لنا مدينة أغمات ، ويقول لنا إنه حينما شاهدها ، كانت خراباً بلقعاً ، وليس بها سوى الذئاب والثعالب والغزلان والحيوانات الأخرى ، وليس بها إلا زاوية عابد وأتباعه الذين يبلغون المائة ، وقد أقام هناك بينهم عشرة أيام . ثم يصف تينملل بلد المهدى ابن تومرت ، ويشيد بجمال جامعها (جامع المهدى) ، ويقول إن أهلها يعتبرون كفاراً فى نظر المسلمين الآخرين ، ولكنهم علماء ، ويقرأون جميعاً كتب المهدى . ويذكر لنا ليون بهذه المناسبة طرفاً من تاريخ الموحدين ، وكيف امتد حكمهم فى اسبانيا من طريف إلى حدود أراجون ، حتى جاءت هزيمة موقعة العقاب ، فصدعت من سلطانهم ، ولم يمض ثلاثون عاماً بعدها حتى استولى النصارى على قواعد الأندلس العظيمة . ثم انهارت دولتهم بالمغرب وعفت مراكش من بعدهم ، وأصابها الخراب من جراء غارات الأعراب ، ويقول لنا ليون إنه شهد هذه الحالة بنفسه ، وقرأ عنها فى كتاب « ابن عبد الملك » وهو مؤرخ وثيق لأحوال مراكش .

ويخص ليون كتابه الثالث بالحديث عن مملكة فاس ، ويتحدث عن ولاياتها ومدنها ، ولا سيما حاضرتها مدينة فاس التاريخية العظيمة . وهنا يبلغ ليون فى وصفه ذروة الدقة والإفاضة . ولا غرو فقد قضى ليون حداثته فى فاس وترعرع فيها ، وتجول فى سائر ربوعها وأنحائها . وهو يحدثنا عن فاس وأهلها وتاريخها

ويصف لنا ملابس أهل فاس ، وطعامهم وشرابهم ، وعوائدهم فى الزواج والحفلات والمآدب والجنائز . ثم يحدثنا عن مساجدها ، ويقول لنا إنها تحتوى على نحو سبعمائة مسجد ، منها خمسون من طراز فخم ، وقد بنت برخام وحجارة لا يعرفها الإيطاليون أنفسهم ، ويفيض فى وصف جامعها الشهير — جامع القرويين — ووصف حلقاته الدراسية ، ثم يحدثنا عن مارستانها ، وحماماتها ، وفنادقها ، وأسواقها ، وصنائعها ، وجوانيتها ، وحدائقها ، ويذكر لنا بهذه المناسبة ، أنه اشتغل مدى عامين موثقاً فى المارستان ، وبأجر قدره ثلاثة دنانير فى الشهر ، كما يشير إلى أنه قد ألف كتاباً فى « النحو » . ويحدثنا بعد ذلك عن السحرة والمنجمين فى فاس ، وعمن كان بها من الكيماويين والباحثين عن الكنوز ، ويقول لنا إن بعضهم عرض عليه أن يعلمه فن السحر ، ولكنه رفض لأن ذلك يعتبر كفراً ، والشريعة الإسلامية تحرم كل أنواع الكهانة وتعتبرها عبثاً ، والله وحده هو العليم بأسرار المستقبل . ويذكر لنا بهذه المناسبة أنه قرأ ما كتبه ابن خلدون عن السحر . ويصف لنا القسم الشرقى من فاس ، وهو القسم الأرستقراطى الذى يضم القصور والمساجد والمدارس الفخمة ، وتقل فيه الحوانيت والصنائع . ثم يعطف على ذكر أحوال البلاط أيام بنى مرين ، وأحوال رجاله وأزيائهم ، كما يصف جيوش بنى مرين وطرائقهم فى الحروب ، ويصف البلد الجديد — عاصمتهم — الذى أنشأوه بجوار فاس .

ويحدثنا ليون عن شعراء فاس ، ويقول إن بها شعراء مجيدين ، ومعظمهم ينظم الشعر الغنائى والغزل . وفى المولد النبوى من كل عام . ينظم الشعراء القصائد فى مديح النبى . وفى أيام بنى مرين ، كان يدعى العلماء بهذه المناسبة إلى القصر ، ويكرمونهم ؛ ثم يطلب إلى الشعراء إنشاد قصائدهم فى مديح النبى ، ويمنح أجودهم نظماً ، صلة قدرها مائتى دينار ، وجواداً فخماً ، وجارية ، وخلعة ملوكية .

ويحدثنا ليون عن المزارات والأولياء ، ويذكر لنا إنه يوجد ببلدة تاغيا من أعمال منطقة تامسنا مزار ولى ، يقال إنه من معاصرى الخليفة عبد المؤمن ، وكانت له كرامات كثيرة فى تهدئة السباع وترويضها ، وأن شهرة هذا الولى تجذب إلى تاغيا كثيراً من الناس ، وتجعلها تغص بالسكان ، وأن أهل فاس

يزورون هذه البلدة كل عام للتبرك بقبر هذا الولى ، وأنه زارها مع والده طفلا ، ثم زارها لما بلغ أشده ، لكى يبتهل إلى الولى لينقذه من خطر السباع .

ويحدثنا ليون كذلك عن الصوفية ، وزهدهم ، وتقشفهم ، ويذكر لنا من أقطابهم السهروردى ، وابن الفارض وشعره الصوفى . كما يحدثنا عن المنحرفين والمشعوذين الذين ينتسبون إلى الطائفة ، ويقول لنا إنهم جمهرة كبيرة ، يجوبون بلاد إفريقية شبه عراة فى أسمالهم البالية ، ويكثرون بنوع خاص فى تونس ومصر . ويحمل ليون على هؤلاء القوم ، ويسرد لنا بعض مثالبهم وأعمالهم المروعة التى يرتكبونها تحت ستار شعار الورع والتقشف .

ويشغل هذا الكتاب الذى يخصصه ليون لوصف فاس ، أكبر فراغ بين كتبه التسعة ، وفيه يبسط القول فضلا عن فاس فى وصف سائر مدن هذه المنطقة ، مثل المنصورة والرباط وتفلاليت ومكناسة ، ويقرنها بوصف تازة والعرائش وأصيلا والقصر الكبير وطنجة وتطوان ، وسائر ما فى هذه المنطقة من جبال ووديان .

وفى الكتاب الرابع ، يصف لنا ليون مملكة تلمسان . وفى الخامس ممالك بجاية وتونس وطرابلس . ونحن نعرف أن ليون قد مر غير مرة بطرابلس ، وبلاد برقة ، فى ذهابه إلى مصر ، وفى إيابه منها ؛ وهو يصف لنا طرابلس ، وشيئاً من تاريخها ، فيقول لنا ، إن مدينة طرابلس القديمة ، قد بناها الرومان ، ثم استولى عليها القوط ، ثم المسلمون أيام الخليفة عمر ، وقد حاصر المسلمون حاكم طرابلس مدة ستة أشهر ، واضطر أن يفر إلى قرطاجنة . وبعد خراب طرابلس القديمة ، أقيمت مدينة جديدة بهذا الإسم ، وأحيطت بأسوار عالية جميلة ؛ وهى تقع على سهل رملى ، ينتج محاصيل وفيرة من التمر . ومنازل هذه المدينة وجيهة جداً بالنسبة لمنازل تونس ، وتروج بها كل تجارة وحرفة ، ويكثر بها عمال النسيج . وليست لدى أهلها آبار ، أو نوافير ، ولكن ماءهم يحفظ فى خزانات . والقمح فى هذه المدينة مرتفع الثمن جداً . وذلك لأن سائر حقول طرابلس ، هى رملية وقاحلة ، مثل حقول نوميديا ، ولأن أخصب البقاع فى هذه المنطقة ، يغمرها ماء البحر . ويؤكد سكان هذه المنطقة ، أن معظم حقولهم

فى الشمال ، يغمرها ماء البحر المتوسط . وهذا هو نفس ما يقع فى موناستر ، والمهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة ، وغيرها من الأماكن الواقعة فى الشرق ، حيث يكون البحر على مسافة نحو ميل ، منخفض جداً ، حتى أنه يندر أن يصل إلى مستوى قامة الإنسان . ويقول البعض إن مدينـــة طرابلس نفسها كانت تقع فى الأوقات الماضية أكثر إلى الشمال ، وأنه بسبب الفيضانات المستمرة من ناحية البحر ، قد بُنيت ونقلت قليلا إلى الجنوب . ويدل على ذلك أنه توجد حتى اليوم خرائب دور غارقة فى بعض أماكن من البحر . وفى هذه المدينة توجد مساجد كثيرة حسنة ، ومدارس مبنية ، ومستشفى يُعالج فيه الفقراء من أهلها ، وكذلك لإيواء الغرباء ؛ وهذه المنطقة لا تنتج إلا كميات قليلة من الشعير ، ويعتبر من الأغنياء من يملك كيلا أو اثنين من القمح فى مخزنه . ومعظم السكان من التجار ، لأن طرابلس تقع قريباً من نوميديا وتونس . وليس بينها وبين الإسكندرية ، مدينة أو بلدة ذات شأن ، وهى ليست كذلك بعيدة عن جزيرتى صقليـــة ومالطة ، وتأتى إلى ميناء طرابلس وترسو بها سفن البنادقة ، وعليها كميات وافرة من البضائع .

وقد كانت طرابلس دائماً تحت حكم ملك تونس . بيد أنه لما قام السلطان أبو الحسن (المرينى) ملك فاس بحصار تونس (وكان ذلك فى سنة ٧٤٨هـ وسلطان تونس يومئذ ، عمر بن أبى يحيى الحفصى ، اضطر ملك تونس أن يفر مع أتباعه إلى الصحراء . ولكن لما تمت الهزيمة بعد ذلك على أبى الحسن ، عاد ملك تونس إلى مملكته . ولكن رعاياه بدأوا يثورون ضده ، ومن ثم فإن الثروات القومية أصابتها أضرار كثيرة ، بسبب الثورات والحروب الأهلية . ولما علم بذلك ملك فاس ، سار فى جيشه ثانية إلى تونس ، وهزم ملكها ، فاضطر أن يفر إلى قسنطينة ، فتبعه إليها ، وحاصره بشـــدة ، واضطرت قسنطينة أن تفتح أبوابها لملك فاس وجيشه ، وأسر ملك تونس وأخذ إلى فاس . ثم اعتقل بعد ذلك فى قلعة سبتة . وفى نفس الوقت هاجم ثغر طرابلس أسطول جنوى مكون من عشرين سفينة ، وقام بنهب المدينة ، وحمل كثيراً من سكانها أسرى . ولما علم بذلك ملك فاس ، قدم إلى الجنويين خمسين ألف دوقية ، بشرط أن يسمح له أن

يحتل المدينة فى سلام . ولكن الجنويين بعد أن سلموا المدينة وغادروها ، اكتشفوا أن هذه الدوقيات هى دوقيات زائفة . ولما أفرج أبو الحسن بعد ذلك عن ملك تونس عاد إلى مملكته ، وآل الحكم إليه ، ثم إلى أعقابه .

ويحدثنا ليون عن بعض قرى طرابلس ، مثل قرية سارمان ، التى تكثر بها التمور ، وقرية بنى بربوع ، القريبة من البحر ، والتى تنتج كميات كبيرة من التمور ، ويسكنها بعض أرباب الطرق الدينية ، وقرية رانزور التى تنتج كثيراً من التمر والرمان والخوخ ، وقرية همروزو التى تكثر فيها غابات النخيل ، وحدائق الفاكهة .

ثم يحدثنا عن مقاطعة مسلاتة ، فيقول إنها تقع على البحر على قيد نحو خمسة وثلاثين ميلا من طرابلس ، وبها قرى غنية ، وقلاع ، وسكان ، وتنتج كثيراً من الزيتون والتمر ، وسكانها متحررون من كل سلطة أجنبية ، ولهم حاكم من بينهم ، وجيش يضم خمسة آلاف .

ثم عن مقاطعة مسراتة ، وهى تقع على البحر على بعد مائة ميل من طرابلس ، وبها تسع قرى فى الوادى وعلى الجبل . وسكانها أغنياء ولا يدفعون ضريبة ، ويتاجرون مع البنادقة الذين يأتون إلى هذه المقاطعة ، حاملين فوق سفنهم البضائع البندقية ، وهناك يستبدلونها بالعبيد والمسك .

وكذلك يحدثنا ليون عن صحراء برقة ، فيقول لنا إنها تمتد شرقاً حتى مشارف الإسكندرية ، بطول نحو الألف وثلاثمائة ميل ، وبعرض نحو مائتى ميل ، وهى بسيط مقفر خشن ، لا قمح فيه ولا ماء تقريباً . وقبل أن يغزو العرب إفريقية ، لم يكن بهذه المنطقة سكان ، ولكن يوجد بها الآن ، أعنى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، بعض طوائف الأعراب يعيشون بها حياة بؤس ومسغبة ، وذلك لبعدها عن المناطق المأهولة ، ويأتى إليهم القمح وغيره من المؤن من صقلية ، وقد يشتريه بعضهم برهن أولادهم ، ثم يسرقون السياح ليستردونهم . وبرقة هو الإسم الذى أعطاه لها العرب نقلا عن اسمها الرومانى .

وفى الكتاب السادس يصف لنا ليون منطقة سجلماسة ودرعة والزاب ، ويصف لنا فى الكتاب السابع الممالك السوداء الخمسة عشر الواقعة فى منطقة

النيجر ، وهى التى تجول فيها برفقة عمه وفى مقدمتها تنبكتو ، وغانة ، ومالى ، وقد سبقت الإشارة إليها .

أما الكتاب الثامن ، فإن ليون يخصصه لوصف مصر ، وفيه يحدثنا بإفاضة عن إقليم مصر ومدنها ونيلها ، ويفيض فى وصف القاهرة ، وشوارعها ، وأبوابها ومتاجرها ، وعوائد أهلها وأطعمتهم ومذاهبهم الدينية ، وهو يصف أهل القاهرة بقوله « إنهم شعب ذو ميول مرحة باسمة تبشر بالكثير ، ولكن تؤدى إلى القليل . وهم يزاولون التجارة والحرف الآلية ، ولكنهم لا يغادرون أوطانهم،ومنهم كثير من طلاب الفقه ، ولكن قليل جداً من أهل الفنون الحرة والعلوم ، وبالرغم من أن معاهدهم تغص دائماً بالطلبة ، فإن القليل منهم يصل إلى الكمال »

أما عن نساء القاهرة فيقول لنا ليون : « أما النساء فيخرجن فى ثياب فاخرة ويزين جباههن بالقلائد ، وأعناقهن بعقود اللؤلؤ ، ويضعن على رؤوسهن « قلنسوة » (بونيه) وافرة الجمال والإناقة ، ويبلغ ارتفاعها نحو شبر ، ويرتدين أردية من الصوف بأكمام مزركشة مطرزة ، وعليها أغطية من أفخر القماش الهندى ، ويسبلن على وجوههن خماراً أسود،ويلبسن نعالا جميلة وأخفافاً تركية .

وهؤلاء النسوة وافرات الطموح والكبرياء ، حتى أنهن جميعاً يحتقرن أن يغزلن أو يقمن بأعمال المطبخ ، ومن ثم فإن أزواجهن يرغمون على شراء الأطعمة الجاهزة من المطابخ ، وقليل من الأسر الكبيرة تعنى بإعداد الطعام فى منازلها .

ويتمتع نساء القاهرة بحريات واسعة ، وبينما يخرج الزوج إلى المقهى أو لشراء الطعام ، إذا بالزوجة ترتدى أفخر ثيابها ، وتتعطر بأذكى العطور،ثم تتجول فى المدينة،لتروح عن نفسها وتتحدث مع صاحباتها ، وهن يمتطين الحمير أكثر من الخيل ، تسير بهن فى راحة وهوادة ، وتغطى هذه الحمير بالبراذع الفخمة ، ويجرها صبى ، ويتقدمها سائس » .

وبالرغم من أن ليون زار مصر فى رحلتيه الأخيرتين ، بعد الفتح العثمانى ، فإنه يحدثنا عن نظام الحكم المملوكى بمصر ، وعن أصل هؤلاء المماليك ، وطرائق تربيتهم . ويفيض فى تفاصيل الوظائف السلطانية والعسكرية والإدارية التى كانت سائدة فى العصر المملوكى .

ويختم ليون مؤلفه الضخم بكتاب ، هو الكتاب التاسع ، يحدثنا فيه عن الحيوانات والمعادن التي توجد بإفريقية .

ويبدى ليون فى كل ما يكتبه دقة فى تحرى الحقائق ، وقوة فى الملاحظة ، ويبدى بالأخص فى كل ما يكتبه عن المغرب ، وعن مدنه وقبائله ، وعاداته ، معرفة شاملة ، لا تستند فقط إلى المشاهدة الشخصية ، ولكن تستند كذلك إلى القراءة والدرس . ذلك أن ليون يرجع فى كثير مما كتب إلى طائفة من أكابر المؤلفين الأقدمين فى التاريخ والجغرافيا ، يذكر لنا منهم بطليموس وأورسيوس وسالوست وليڤى ، وابن رشيق ، وأبو عبيد البكرى ، والإدريسى ، وابن عبد الملك المراكشى ، وهو يمزج فى أحيان كثيرة معلوماته الجغرافية الكشفية بالمعلومات التاريخية ، ويبدى فى ذلك كله مجهوداً ملحوظاً فى تحرى الحقائق . والواقع أن ليون يكشف لنا سر هذه الدقة فى مؤلفه الضخم ، فهو لم يرتجل ، ولم يكتب عفو الخاطر ، ولكنه درس وقيد ونظم مذكراته ، وإليك ما يقوله لنا عن ذلك فى خاتمة كتابه :

« تلك هى الأشياء الهامة الجديرة بالمعرفة التى شهدتها ولاحظتها أنا يوحنى الأسد فى إفريقية ، وهى القطر الذى طفت بسائر أنحائه ، وكلما رأيت شيئاً جديراً بالملاحظة قيدته على الأثر . وأما الأشياء التى لم أرها بنفسى ، فقد تلقيت معلوماتها من أشخاص ثقاة جداً ، كانوا شهود عيان لها ، ومن ثم فإنه لما تيسرت الفرصة الملائمة ، رأيت أن أدون رحلاتى ودراساتى فى هذا المؤلف » .

وهذه العناية التى التزمها ليون فى وضع مؤلفه وتنسيقه على ضوء مذكراته المدونة ، ومشاهداته الشخصية وتحرياته الوثيقة ، هى التى جعلت من مصنفه وثيقة نفيسة ، ومرجعاً من أهم المراجع عن وصف إفريقية وأحوالها فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، بل إن « وصف إفريقية » ما يزال إلى يومنا ، أوثق مصدر لكثير من المظاهر والتقاليد والعادات الخاصة ببعض الأجناس والقبائل الإفريقية ، والتى لم يغيرها الزمن حتى عصرنا .

وكتب ليون كتابه ، أو بالحرى نقله من العربية إلى الإيطالية بأسلوب

إيطالى بسيط ، ولكن قوى واضح تبدو فيه شخصيته ، وتبدو فيه طريقة التفكير العربية ، فى مواطن كثيرة .

ووضع ليون ، فضلا عن مصنفه الجغرافى والتاريخى العظيم . قاموساً يحتوى على مجموعة من الكلمات العربية والعبرية واللاتينية ، ولكنه لم ير الضياء حتى يومنا ، وتوجد نسخته الأصلية بخط ليون نفسه ، فى مكتبة الإسكوريال الشهيرة تحمل رقم ٥٩٨ من فهرس الغزيرى ، وفى نهايتها فقرة بالعربية كتبها ليون بخطه يذكر لنا ، إلى جانب اسمه النصرانى ، اسمه العربى الأصيل ، وذلك على النحو الآتى : « فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنى الأسد الغرناطى ، المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسى فى أواخر ينير عام أربعة وعشرين لتاريخ المسيحيين ، الموافق لعام ثلثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين ، وذلك بمدينة بلونيا من بلاد إطاليا برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب ابن شمعون الوفى الإسرائيلى .حفظ الله نعمته آمين » .

وقد كان حريا — لولا هذه الفقرة العربية — أن تبقى شخصية « ليون الإفريقى » مجهولة إلى الأبد ، وأن يسدل ستار كثيف على أصله العربى المسلم .

ويذكر لنا ليون فى معجمه الجغرافى أنه ألف كتاباً فى « تاريخ إفريقية » وأنه جمع ما قرأه ، على شواهد قبور منطقةالشلة ، من المنثور والمنظوم ، فى سفر خاص ، وأنه ألف كتاباً فى « الفقه » أو « شريعة محمد » ، وألف كذلك كتاباً فى « النحو » بيد أن هذه الكتب لم تصل إلينا .

ووضع ليون كذلك رسالة باللاتينية فى تراجم الأطباء والفلاسفة العرب ، وأتمها فى سنة ١٥٢٧ ، وقد نشرت هذه الرسالة لأول مرة فى سنة ١٦٦٤ ، ثم أعيد نشرها فى سنة ١٧٤٦ م بمدينة همبرج .

خـــاتمة ليـــون

عاش ليون أعواماً طويلة فى رومة ، أنجز فيها أعماله العلمية المتقدمة ، ولكن حياته بعد ذلك يكتنفها الغموض . وهنالك روايتان عن خاتمته ، الأولى أنه عاش بقية حياته فى رومة ولم يتركها ، والثانية وهى رواية كاتب معاصر عاش فى

رومة فى ذلك الوقت وهو : « ڤيدمانشتات » ، وهى أن ليون غادر رومة بين سنتى ١٥٢٨و١٥٣٠ م لما لقى من الإنكار وعدم التقدير بعد موت البابا ، ونزل بتونس وهنالك عاد إلى الإسلام ، مسلماً ورعاً ، وكأنه لم يعتنق النصرانية قط ، واستمر بها حتى توفى فى سنة ١٥٥٢ م[١] .

وهنالك قول بأنه عاد بعد ذلك إلى فاس ، حيث نشأ وترعرع وتوفى بها سنة ٩٤٤ هـ (١٥٣٧ م) ، ويؤيد هذه الرواية الأخيرة ، عن مغادرة ليون لرومة ، وعوده إلى وطنه ، ما يذكره هو فى خاتمة الكتاب الثامن من مؤلفه عن نيته فى هذا العود ، حينما يتحدث عن عزمه فى الكتابة عن البلاد التى زارها خارج إفريقية ، وذلك فى قوله « وإنى لأعتزم بعون الله ، حينما أعود من أوربا إلى وطنى ، أن أصف هذه الرحلات كلها ، وأصف فى البداية أقطار أوربا وآسيا التى رأيتها ، وأضمها لوصفى لإفريقية » .

ولكن ليون لم يعش طويلا بعد عوده إلى الوطن ، ولم يفسح له القدر مجالا لتحقيق أمنيته فى استكمال وصف رحلاته الأخرى ، واقتصر مجهوده فى ذلك على وضع مؤلفه العظيم « وصف إفريقية » .

ويضع البحث الحديث ، الحسن بن الوزان أو « ليون الإفريقى » ، بين أعاظم الجغرافيين والرواد الكشفيين ، سواء فى الشرق أو الغرب ، ويعتبر مصنفه فى « وصف إفريقية » من أقيم المراجع والوثائق فى هذا الميدان[٢] .

---

(١) وردت هذه المعلومات فى مقدمة « الإنجيل » الذى نشره فيدمانشتات فى سنة ١٥٥٥ ، ونقلت فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب وصف إفريقية ، وهى التى نشير إليها بعد .

(٢) رجعنا فى كتابة هذا الفصل إلى الترجمة الإنجليزية لكتاب وصف إفريقية : **Robert Brown : The History and Description of Africa (3. V. Hakluyt Society 1896)** وإلى مقدمة الترجمة الإسبانية : **Descrpciòn de Africa** المنشورة بعناية معهد فرانكو بتيطوان فى سنة ١٩٥٢ ، وإلى بحث عنوانه « حياة الوزان الفاسى وآثاره » بقلم القاضى المغربى محمد المهدى الحجوى (الرباط ١٩٣٥) وإلى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٩٨ الغزيرى (قاموس الوزان) .

المقّـــرى

مـــؤرخ الأندلس

(٩٨٦ ـ ١٠٤١ هـ) ؛ (١٥٧٨ ـ ١٦٣٢ م)

لبثت القاهرة مدى عصور ، كعبة العلماء والمفكرين من المشرق والمغرب ، ولبث جامعها الأزهر ، موئل أولئك العلماء الوافدين ، يسطعون بين حلقاته ، وينثرون على طلابه علمهم وأدبهم ، ويعملون على إحكام الصلات العلمية بين مصر ، وبين مختلف البلاد العربية والإسلامية .

وكان للأزهر أوفر حظ من معاونة علماء المغرب . ويكفى أن نذكر أن المفكر العظيم ، والمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، ومن بعده حافظ المغرب الكبير شهاب الدين المقّرى ، كانا من بين أساتذته ، وقد لبث كلاهما أعواماً طويلة يتصدر حلقاته ، ثم ثوى كلاهما إلى أرض مصر ثواءه الأخير .

وإذا كان ابن خلدون بشخصيته الفذة ، وتفكيره الرفيع المبدع ، قد حظى من المعاصرين ، ومن المتأخرين ، بأوفر قسط من التعريف والتنويه والإكبار ، فإن المقرى بالرغم من كونه ، قد ترك لنا تراثاً أدبياً وتاريخياً ، ليس له رنين تراث ســـلفه العظيم ، يستحق منا أيضاً كثيراً من التعريف والتنويه والتقدير .

وفد المقرى على مصر ، بعد أن رسخت سمعته العلمية بالمغرب ، فقضى بها بقية حياته ، وكتب بها معظم كتبه ، وفى مقدمتها موسوعته العظيمة « نفح الطيب » وهى الأثر الذى خلد اسمه فى المشرق والمغرب ، وأمد المكتبة الأندلسية بتراث جامع فياض ، ما زالت تنهل منه حتى يومنا .

أجل ، يستطيع كل من يعنى بتاريخ الأندلس أن يقدر أهمية ذلك التراث الحافل ، الذى تركه لنا المقّرى عن تاريخ الأندلس وآدابها ، وأهمية الشذور الضافية والوثائق الجمة التى ينقلها إلينا فى كتابيه « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » ،

ولولاه لغاضت مع مصادرها الأصلية إلى الأبد ، وحيل بيننا وبين الوقوف عليها والانتفاع بها .

* * *

هو : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقّرى نسبة إلى مقّرة ، موطن أسرته القديم ، وهى بلدة من أعمال قسنطينة ، وإليها ينتسب عدة من أكابر علماء المغرب . ولد كما يحدثنا فى مقدمة كتابه نفح الطيب بمدينة تلمسان ونشأ بها[١] . ولم يذكر لنا المقرى تاريخ مولده ، وهو تاريخ يضعه بعض الباحثين المحدثين فى نحو سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ — ١٥٩٢)[٢] ، وهو تاريخ لا يتفق ، كما سنرى ، مع ما يقدمه إلينا المقرى ، عن نشأته وحوادث حياته الأولى . وقد كان من حسن الطالع ، أن عثرنا على تاريخ مولد المقرى الحقيقى من نص ورد فى كتاب « مرآة المحاسن » لمؤلفه سيدى العربى الفاسى ، وهو معاصر للمقرى ، وفيه أن المقرى أخبره أن تاريخ مولده هو سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م)[٣] . وهذا التاريخ يتفق تمام الاتفاق مع ما يقصه علينا المقرى من مراحل حياته . فهو أولا يذكر لنا أنه نشأ بتلمسان ، إلى أن رحل عنها فى زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف[٤] ، فلو كان مولده فى سنة ١٠٠٠ هـ ، كما يفترض الباحث الحديث ، لما تحدث هنا عن الشبيبة ، إذ يكون عندئذ غلاماً حدثاً لا يجاوز التاسعة من عمره ، وهو ما لا ينصرف إلى الشباب . ثم يشير حين التحدث عن اعتزامه كتابة موسوعة الأندلس ، إلى « شبابه

(١) لقد زرنا تلمسان وزرنا بها الدار التى ولد بها المقرى ونشأ . وهى ما تزال تسمى حتى اليوم دار المقرى . وهى تقع فى حى قديم من أحياء تلمسان يقع فى ناحيتها الشمالية ، وفى درب مغلق من دروبها العتيقة ، وقد غيرت معالم الدار وجددت ، ولكن ما يزال مدخلها القديم على حاله القديمة ، وما يزال كذلك اصطبل الدار القديم قائماً كما كان . وفى فناء الدار من الداخل عقد وباب قديم ، ووراء الدار فناء متسع به حديقة صغيرة . والدار متسعة من الداخل وبها الحمام القديم على حاله ، وفى الإيوان القديم الواقع فى جانب من الفناء توجد بقية من الزليج القديم . ويبدو على العموم من ضخامة الدار ، وسعة فنائها ومحتوياتها ، أنها كانت من دور العائلات الكبيرة .

(٢) الأستاذ ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) كتاب « مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبى المحاسن » لسيدى العربى الفاسى مخطوط بخزانة القرويين بفاس (طبع الحجر بفاس سنة ١٣٢٤ هـ) .

(٤) نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٦٧٥ ، وسلافة العصر ص ٥٩٠ .

الذاهب » الذى قضاه بالمغرب قبل وفوده على مصر فى سنة ١٠٢٧ هـ ، وفى هذه الإشارة أيضاً ما يدل على أن المقرى حين مقدمه إلى مصر ، كان قد طوى مرحلة الشباب ، وأشرف على نحو الأربعين من عمره ، وفى ذلك كله ما يؤيد رواية صاحب كتاب « مرآة المحاسن » من أن التاريخ الحقيقى لمولد المقرى هو سنة ٩٨٦ هـ .

ونشأ المقرى فى تلمسان التى نشأ بها أبوه وأجداده من قبل ، وتلقى بها دراسته الأولى ، ودرس الأدب والحديث والفقه المالكى دراسة حسنة ، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقرى مفتى تلمسان ، وكانت تلمسان ما زالت حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب الأوسط . وزار فاس لأول مرة سنة ١٠٠٩هـ ، وقضى بها حيناً فى الدرس ، ثم عاد إلى تلمسان فى أواخر سنة ١٠١٠ هـ وأقام بها حتى سنة ١٠١٣ هـ . وفى هذه السنة ارتحل إلى فاس مرة أخرى واستقر بها ، وكان ذلك فى فاتحة عصر السلطان أبى المعالى زيدان السعدى ، وسنحت له فى فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض ، ولا سيما فى المكتبة السلطانية ، واتصل بمولاى زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش ، وولى الإمامة والخطابة لجامع القرويين الشهير بفاس ، ثم ولى الإفتاء ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٠٢٧ هـ (١).

وفى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ اعتزم المقرى الرحلة إلى المشرق . والظاهر أنه لم يعقد هذا العزم مختاراً ، وأنه أرغم عليه لأسباب وظروف يشير إليها ولا يوضحها ، فهو يقول لنا : « إنه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد . . . برحلتى من بلادى ونقلتى عن محل طارفى وتلادى بقطر المغرب الأقصى الذى تمت محاسنه ، لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً وطما به بحر الأهوال . . . وذلك فى أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف »(٢) . أما هذه الظروف التى يشير إليها المقرى ، والتى قضت عليه بالرحيل عن الوطن ، فنستطيع

(١) نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٦٧٥ و ٨٤١ ، وخلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ ، وسلافة العصر ص ٥٩٠ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٨ ، وراجع أيضاً أزهار الرياض (طبع مصر) ج ١ ص ٣

فهمها على ضوء الحوادث التى كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ ، فقد تولى مولاى زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبى فارس (سنة ١٠١٢ هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية ، وهزم مولاى زيدان أولا وفر إلى تلمسان ، ثم استعاد ملكه بعد عدة محاولات دموية ، وبعد أن أجلى عنه غير مرة ، فى سنة ١٠١٨ هـ . بيد أن عهده كان مضطرباً فياضاً بالحروب والفتن . ولا ريب أن المقرى لم ترقه هذه الحياة المضطربة ، وأنه اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة ، التى كانت تكدر صفو الحياة فى فاس ، خصوصاً وقد نسب إليه أنه كان ينتمى إلى بعض الأطراف المتنازعة ، وكان يخشى بذلك أن يقع فى يد الخصوم الظافرين فتسوء العاقبة . وعلى أى حال ، فقد غادر المقرى وطنه فى أواخر شهر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ وركب البحر إلى مصر ، وعانى من اضطرابه وروعته أهوالا يصفها لنا فى عبارات قوية مروعة[١] . والظاهر أيضاً أن سفينته كانت تخشى مطاردة القراصنة النصارى فكان الخوف مضاعفاً ، وقد كانت مياه البحر الأبيض المتوسط يومئذ مسرحاً لمعارك هائلة مستمرة بين سفن المسلمين والنصارى . ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة فى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ ، ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها ، برغم ما أصابها فى ظل الحكم التركى من عفاء وتدهور ، وأقام بها أشهراً ، ثم اعتزم الرحلة إلى الحج فى أواخر سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٨ م) ، فركب البحر إلى الحجاز ، وطاف بالأماكن المقدسة ، وعاد إلى القاهرة فى المحرم من العام التالى ، ثم زار بيت المقدس فى شهر ربيع الأول ، وعاد إلى القاهرة واستقر بها ، وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفائية[٢] ، ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً ، وقد فصمت عراه كما سنرى بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة . وكرر المقرى الرحلة إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج مراراً ، فلم تأت سنة ١٠٣٧ هـ ، حتى كان قد أداها خمس مرات ، وجاور أثناء الحج فى مكة وفقاً لتقاليد العصر ، وألقى بها كثيراً من دروسه ، وأملى الحديث فى المدينة ، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة فى فاتحة سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧) .

واستقر المقرى فى القاهرة طوال هذه الأعوام ، ولازم الدرس والتدريس

---

(١) راجع وصف المقرى لأهوال البحر فهو بديع شائق فى نفح الطيب ج ١ ص ١٩ و ٢٠

(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٤ .

بالجامع الأزهر ، وتبوأ مكانته فى مجتمع مصر العلمى والأدبى ، وكان يمضى كثيراً من الوقت برواق المغاربة ، منقباً فى مكتبة هذا الرواق الغنية . وقد عثرنا فى هذه المكتبة التى ما تزال تضم إلى اليوم بعض المخطوطات النفيسة ، على بعض أوراق متناثرة من مخطوط كتاب « الإحاطة أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، وعلى هوامشها تأشيرات وملاحظات عديدة بخط المقرى وتوقيعه .

وفى رجب زار المقرى بيت المقدس مرة أخرى ، وألقى بعض دروسه بالمسجد الأقصى ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق ، فبهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل ، ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين ، واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها ، وبالأخص بالمولى أحمد أفندى شاهين وهو من أعيانها الأدباء ، وألقى بعض دروسه فى الحديث فى الجامع الأموى ، فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب ، وحفل به المجتمع الدمشقى ، وكان يُبكى السامعين بخطبه ومواعظه ، ويتسابق العلماء والطلاب إلى لثم يده ، وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث فى حلقاتها الأدبية ، عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها ، وبالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب ، فاقترح عليه صديقه المولى أحمد شاهين أن يضع كتاباً فى التعريف بابن الخطيب ومناقبه وتراثه من نظم ونثر ، فاعتذر بكثرة مشاغله ، وقلة مادته ومراجعه ، وخصوصاً لأنه ترك معظمها فى المغرب ، ولكنه اضطر أزاء الإلحاح أن ينزل عند هذه الرغبة ووعد بالوفاء عند عودته إلى القاهرة (١) .

وعاد المقرى إلى القاهرة بعد أن أنفق فى دمشق بضعة أسابيع ، وعكف حيناً على إنجاز المهمة التى أخذها على نفسه ، أعنى كتابة ترجمة ابن الخطيب ، والتعريف بمآثره وتراثه ، وبدأ بوضع مؤلفه حسبما يخبرنا فى شهر ذى القعدة سنة ١٠٣٧ هـ(٢) ، ويقول لنا إنه استطاع غير بعيد أن ينجز منه قسماً لا بأس به ، ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم . والظاهر أن المقرى لم يكن فى مقامه النائى عن وطنه ، هانئاً قرير البال ، فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها ، ومما يقول فى ذلك « وليت شعرى علام يحسد من أبدل الاغتراب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤ — ٣٨ .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٧٥ .

شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه وقلل أضواءه ، وكثر علله وأدواءه ، وغير عنده التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عناءه ، وأرهف بالخمول سنانه ، حتى قدح الذكر حنانه ، وملأ الفكر جأشه وجنانه . . . وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب ، والسكون فى الركون ، والنبو عنها والاضطراب ، فذاك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعثر فيه المقاصد ، وتتكدر المشارب .

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ... ولكن أرى تحصيلها بالدنيـــة
وإن طاوعتنى رقـــة الحال مرة ... أبت فعلها أخلاق نفس أبيـــة

وقولـــه :

تركت رسوم عزى فى بلادى ... وصرت بمصر منسى الرســـوم
ورضت النفس بالتجريد زاهـداً ... وقلت لها عن العليـــاء صومى
مخافة أن أرمى بالحرص ممـــن ... يكون زمانه أحد الخصـــوم(١)

ويقول فى موضع آخر مشيراً إلى قصيدة فى مديح النبى يزمع ذكرها « ولأن شجون الحديث الذى جر إليها ، شوقتنى إلى معاهدى المغربية التى أكثر البكاء عليها بحضرة المنصور بالله الإمام ، سقى الله تعالى عهادها صوب الغمام ، حيث الشباب غض يانع ، والمؤمل لم يحجبه مانع ، والسلطان عارف بالحقوق ، والزمان ، وهو أبو الورى ، لم يشب بره بالعقوق »(٢) .

ثم يقول لنا فى خاتمة كتابه « نفح الطيب » إنه وضعه « والقلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة » .

كان المقرى إذن فى منفاه متعباً معنّى ، والظاهر أنها كانت متاعب العيش فوق شجون الاغتراب ، فقد كانت سوق العلم والأدب يومئذ كاسدة ، وكان المجتمع القاهرى قد فقد فى ظل النير التركى بهاءه وسعته ورخاءه ، وعفت روعة الأزهر ، الذى كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب .

ولكن المقرى عاد فاستأنف الكتابة نزولا على إلحاح صديقه أحمد شاهين واستنجازه ، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب بصورته الأولى فى بضعة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩ و ٤٠ .
(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ و ١١ .

أشهر فقط ، لعودته من دمشق ، وذلك فى أواخر شهر رمضان سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ م) وفيه يتناول حياة ابن الخطيب ويستعرض صفاته وخلاله ومآثره ، وكثيراً من نثره ونظمه ، ويقول لنا إنه سمى مؤلفه لأول مرة « عرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب »(١) .

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو « نفح الطيب » كما انتهى إلينا . ذلك أن المقرى خطرت له بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى ، هى أن يمهد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها ، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلى ، فاستمر فى الكتابة عاماً وبضعة أشهر أخرى . وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد ، كما يحدثنا فى خاتمة كتابه فى آخر ذى الحجة سنة ١٠٣٩ هـ (١٦٢٩ — ١٦٣٠ م)(٢) واختار عندئذ لكتابه إسماً جديداً ، هو الذى انتهى به إلينا وهو :

« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » .

والواقع أنه من التواضع أن يُسمى « نفح الطيب » كتاباً ، فهو كما سنرى موسوعة ضخمة عن الأندلس وتاريخها وجغرافيتها وآدابها ، ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقرى أن يضع مثل هذا الأثر الضخم فى مثل هذه المدة القصيرة ، ولكن سنرى أن فضل المقرى فى وضعه ، يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف ، وسنرى مع ذلك أن للمقرى فى هذا الاقتباس فضلا لا يقدر ، وأن نفح الطيب هو من أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها .

وكان المقرى منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية ، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة . وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه ، وليطلعهم على مؤلفه الذى وضعه نزولا على إشارتهم . ولكن الموت عاجله فتوفى فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ (يناير ١٦٣٢ م) ، ودفن بقرافة المجاورين بالقاهرة(٣) .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣٩ و ٤٠ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٦١ ، وج ٤ (بولاق) ص ٨٨٦ .

(٣) يقول صاحب سلافة العصر : إن وفاة المقرى كانت فى سنة ١٠٤٦ هـ (ص ٥٩١) ولكن الرواية الأولى أرجح وهى المتفق عليها .

— ٢ —

يقسم المقرى كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين : يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها . والثانى للتعريف بابن الخطيب . ويشتمل كل قسم على ثمانية أبواب . ويشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها ، وفتحها على يد موسى وطارق ، وتاريخها فى عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف ، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومنتزهاتها ، ثم التعريف بالراحلين من الأندلس إلى المشرق والوافدين من المشرق على الأندلس ، واستعراض آداب الأندلس ومنثورها ومنظومها ، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، وسقوطها الأخير فى يد النصارى . ويشتمل القسم الثانى على نشأة ابن الخطيب وتدرجه فى طريق المجد ، وما لقى من الأحداث والمحن ، حتى وفاته ، وذكر أساتذته وشيوخه ، وما وجه إليه من الرسائل الملوكية ومن أكابر عصره ، ومقتطفات كثيرة من كتبه ورسائله ونثره ونظمه ، وذكر مؤلفاته ، وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، ثم ذكر أولاده ووصيته .

ويشغل الكتاب كله أربعة مجلدات ضخمة كل قسم مجلدين ، فهو كما قدمنا موسوعة حقة ، سواء من ناحية حجمه أو محتوياته . ذلك أن المقرى يحشد فى كل باب من هذه الأبواب العامة ،كثيراً من المعلومات والشذور والوثائق والرسائل ، والمختارات ، ويكاد كل منها يضارع كتاباً بأسره . ويجرى المقرى على قاعدة الاستطراد،وينتقل بقارئه من موقف إلى موقف.ومن شذرة أو رسالة أوقصيدة إلى أخرى حسبما تسوقه شجون الكلام والرواية،وقد ترد خلال حديثه أهم المعلومات والوثائق حيث لا ينتظر ورودها . وفى كثير من الأحيان ينقل المقرى إلينا رسالة بأسرها أو كتاباً بأسره ، ولا يعنى المقرى بالتنظيم والتناسق ، وإنما يعرض مادة كتابه مبعثرة حسب التقسيم البسيط الشامل الذى ذكرناه .

وذلك أن المقرى لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقى بل كان أديباً فقط ، وهو لا يزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد ، وإنما يقول لنا أنه ناقل فقط ، يورد من المعلومات والشذور ما اتفق ، ولا يعنى بتمحيصها أو تحقيقها(١) .

---

(١) راجع إشارة المقرى إلى ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ .

ولكنا نشعر مع ذلك أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية ، ونشعر بالأخص أن حرارة تنبعث من هذه الصحف الأندلسية . ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس بروح يضطرم إعجاباً وأسى . ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ما تزال فى عصره حية مضطرمة فى المغرب ، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد اسبانيا النصرانية ، بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكى هذه الذكريات المشجية ، هو نفى « الموريسكيين » أو العرب المتنصرين من اسبانيا (فى سنة ١٠١٨ هـ — ١٦٠٩ م) . والعرب المتنصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد ، أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس ، وقد وفدت منهم عند النفى عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده ، وعاد معظمهم إلى الإسلام . وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسية ، وهو يومئذ بفاس ، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المتنصرين ؛ وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلمة فى نفسه أعمق الآثار[1] ، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها ، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل من المراجع ، ومنها أوراق سودها وأشياء علقت بذاكرته ، ويقول لنا أيضاً « إنه لو أحضر ما خلفه مما جمع فى ذلك الغرض وألف ، لقرت به عيون وسرت به ألباب . . . »[2] ، وإذا كان المقرى يعنى بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه ، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً ، ذلك لأن هذا القليل الذى ضمنه « نفح الطيب » هو فى ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة ، التى تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها .

وقد قلنا إن المقرى ناقل ومصنف ، ولكن له فى هذا النقل والتصنيف فضلا لا يقدر ، فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة ، لا وجود لها اليوم ، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها ، بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم ، ولولا عناية المقرى بنقلها وتصنيفها ، لحرمنا إلى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة . ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبى ، وكانت مكاتب المغرب ولا سيما مكتبة الأشراف السعديين عامرة إلى ذلك العهد ، بكثير من الآثار الأندلسية النادرة ،

(١) راجع حديث المقرى عن هذا الحادث . نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٥٧ .

وكان لمولاى زيدان سلطان فاس لعهد المقرى ، شغف خاص بجمع الكتب النادرة ، وقد انتفع المقرى بهذا التراث الحافل ، واغترف منه وقيد ما شاء . ولكن الظاهر أيضاً أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل . ذلك أنه حدث فى عهد مولاى زيدان حادث كانت له فيما بعد علاقة مباشرة بضياع قسم كبير من الآثار الأندلسية . وذلك أن السفن الإسبانية التى كانت تجوس عندئذ مياه المغرب الغربية ، أسرت فيما بين آسفى وأغادير مركباً كبيرة لمولاى زيدان ، كانت مشحونة بالتحف ، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة ، المغربية والأندلسية . وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر فى سفنه ملتجئاً إلى الجنوب . وحمل معه تحفه ومكتبته الثمينة ، فغنمها الإسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وأودعت مكتبة الإسكوريال الملكية . وقد وقع هذا الحادث فى سنة ١٦١٢ م (١٠٢١ هـ) ، حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة المغربية الشريفية(١) . ولبثت كتب مولاى زيدان فى قصر الإسكوريال إلى جانب بقية التراث الأندلسى ، التى كانت مودعة فيه منذ سقوط غرناطة ، فاجتمع بذلك فى الإسكوريال نحو عشرة آلاف مخطوط عربى معظمها من تراث الأندلس ، ولكن محنة نزلت بهذا التراث النفيس ، فقد شبت النار فى الإسكوريال سنة ١٦٧١ م ، والتهمت معظم الكتب العربية ، ولم يبق منها سوى ألفين ، وبقيت ضمن هذه المجموعات ، عدة من كتب مولاى زيدان لا تزال إلى يومنا فى الإسكوريال .

وهذا فيما نعتقد هو السر فى اختفاء كثير من الآثار الأندلسية التى كانت تحفل بها قواعد المغرب ومكاتبه فى عصر المقرى ، وقد جمع المقرى مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتى ١٠١٣ — ١٠١٧ هـ ، (١٦٠٣ — ١٦٠٦ م) وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله ، أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به .

ومما يدل على أن المقرى انتفع بنوع خاص بالمراجعة فى مكتبة مولاى زيدان

---

(١) الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ١٢٨ ، وراجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الطبعة الثالثة ص ٣٩١ و ٣٩٢ .

التى فقدت ، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مسند الخطيب ابن مرزوق التلمسانى ، كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال فى الإسكوريال[1] . وكذلك يستقى معظم روايته عن سقوط غرناطة وعن العرب المتنصرين من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ، وقد كانت منه نسخة وحيدة أيضاً فى الإسكوريال[2]. وقد ضاعت فيما بعد .

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر العديدة التى نقل عنها المقرى ، ما ضاع منها وما يزال قائماً ، ويكفى أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها ، وقد نقل المقرى عن تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس ، وهو الذى انتهت إلينا من مؤلفه الكبير « المقتبس » فى العصر الأخير قطع كثيرة ، وكذا عن تواريخ الحميدى والحجارى وابن بشكوال والرازى وابن سعيد الأندلسى وغيرهم ، وكتب عديدة لابن الخطيب ما تزال مخطوطة ، وكان من أخصب مصادره أيضاً نسخة كاملة من كتاب الذخيرة لابن بسام ، وما زال معظمه مخطوطاً حتى اليوم ، وآثار كثيرة أخرى لم يظفر البحث الحديث بشىء من أصولها القديمة ، وقد نقل المقرى إلينا الكثير منها ، وهذا مما يزيد اليوم فى فضله وفى أهمية كتابه .

ويتصل بمجهود المقرى عن الأندلس كتابه « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتى ، واستعراض آثاره على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب . بيد أنه يستطرد كعادته ويذهب فى الحديث شجوناً شتى ، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة ، وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة ، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية الإسلامية فى هذا الموطن ، وهى أقوال معاصرين للمأساة شهدوا بعض حوادثها بأعينهم ،

(١) ليڤى پروفنسال فى دائرة المعارف الإسلامية « مقال المقرى » . ومسند ابن مرزوق المذكور هو كتاب « المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن » وهو تاريخ السلطان أبى الحسن المرينى .

(٢) نشر هذا الكتاب — وهو لمؤلف مجهول — فى أواخر القرن الماضى بعناية أحد المستشرقين الألمان مقروناً بترجمة ألمانية .

أو سمعوا أخبارها فى الضفة الأخرى من الأندلسيين الواردين على المغرب ، منها رسالة لمجهول يظهر أنه من معاصرى سقوط غرناطة يصف فيها نقض ملك قشتالة لعهوده أزاء المسلمين ، وما اتخذه النصارى من وسائل الإرغام والقهر لإكراه المسلمين على التنصر ، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة ، ومنها قصيدة طويلة لأبى العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب فى القرن التاسع وعنوانها « الموعظة الغراء بأخذ الحمراء » يرثى فيها الأندلس ، ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة ، وهى رسالة كتبها أندلسى متنصر عقب سقوط غرناطة إلى بايزيد الثانى سلطان الترك يستغيث به ، ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر قوى التعبير على الرغم من ركاكته ، ما يصيب العرب المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق وروائع مطاردته وعقوباته ، وهذه وغيرها من الوثائق والشذور التى ينقلها إلينا المقرى ، فى « أزهار الرياض » قد ضاعت أصولها ، ولولا عناية المقرى بنقلها لما ظفرنا بها .

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما فى تراث المقرى . بيد أن للمقرى ثبتاً آخر من الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه ، ومن ذلك « إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة » و « فتح المتعال فى مدح النعال المستشرفة بخير الأنام » و « حسن الثنى فى العفو عمن جنى » « وقطف المهتصر فى أخبار المختصر » و « عرف النشق فى أخبار دمشق و « روض الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقبته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس » (١) و « الدر الثمين فى أسماء الهادى الأمين » وغيرها(٢) .

ويقول لنا المقرى إنه حينما كان بالمغرب ، اعتزم أن يضع كتاباً ممتعاً عن بلدة تلمسان بعنوان « أنواء نيسان فى أنباء تلمسان » ، وأنه كتب بعضه بالفعل ،

---

(١) قامت المطبعة الملكية بمدينة الرباط بنشر هذا الكتاب (سنة ١٩٦٤) وصدر محققاً بعناية العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ الدولة المغربية .

(٢) راجع خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ، وسلافة العصر ص ٥٩١ . ونفح الطيب (بولاق) .

ثم حالت الأقدار دون إتمامه[١] . ويقول لنا أيضاً إنه كان ينوى ، متيمناً بأمداح النبي ، أن يؤلف كتاباً عنوانه « روضة التعليم فى ذكر الصلاة والتسليم ، على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم » . ولكنه لم يوفق إلى كتابته .

هذا وتحتفظ المكتبة الملكية فى كوبنهاجن بنسخة مخطوطة من مؤلف للمقرى عنوانه « كتاب تاريخ الجمان فى أخبار الزمان »[٢] .

وقد كتب المقرى معظم كتبه فى القاهرة ، وكتب بعضها فى مكة ، والمرجح أنها كتبت جميعها أو كتب معظمها قبل « نفح الطيب » لأن المقرى لم يعش بعد كتابته طويلا كما رأينا .

وكان المقرى يحتل فى المجتمع القاهرى الأدبى مكانة رفيعة ، ويكفى أن نذكر هنا ما وصفه به المحبى ، الذى ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن : « حافظ المغرب لم ير نظيره فى جودة القريحة ، وصفاء الذهن وقوة البديهة ، وكان غاية باهرة فى علم الكلام والتفسير والحديث ، ومعجزاً باهراً فى الآداب والمحاضرات »[٣] ، والواقع أن المقرى يكتب بأسلوب قوى وبيان ساحر ، يشهدان له بغزارة البلاغة فى عصر كان الأدب العربى يجوز فيه مرحلة انحطاط قوى .

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب « نفح الطيب » كاملا فى سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) فى أربعة أجزاء كبيرة ، وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزى قد عملت قبل ذلك لإخراج القسم الأول من كتاب « نفح الطيب » وهو الخاص بالأندلس بين سنتى ١٨٥٥—١٨٦١ م تحت عنوان **Analectes sur l'Histoire et Littérature des Arabes d'Espagne** ومهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقرى . وطبع نفح الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة فى أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق . ونشر فى تونس

(١) نفح الطيب ج (بولاق) ج ٤ ص ٦٧٤ .

(٢) اطلعنا على هذا المخطوط أثناء بحوثنا فى مكتبة كوبنهاجن الملكية ، وهو يقع فى ٢٢٢ ورقة من الحجم الصغير ، ومكتوب بخط مشرق . وفى آخره أنه نسخ فى شهر محرم الحرام سنة ١٠٥٤ هـ أعنى بعد وفاة المقرى بنحو خمسة عشر عاماً فقط .

(٣) المحبى فى خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٥ .

الجزء الأول من أزهار الرياض فى سنة ١٩٢٢[1] ، ونشرت بعض آثار المقرى الأدبية مثل كتاب « حسن الثنا فى العفو عمن جنى » (القاهرة) . وظهرت فى سنة ١٨٤٠ فى لندن ترجمة إنجليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب ، بقلم المستشرق الإسبانى الدون جاينجوس تحت عنوان « تاريخ الدول الإسلامية فى اسـبانيا » The History of the Mohamedan Dynaties in Spain مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة ، وترجم للمقرى غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق ، مثل ڤستنفلد فى كتابه « مؤرخو العرب » بالألمانية ، وبروكلمان فى « تاريخ الأدب العربى » (بالألمانية أيضاً) . والأستاذ ليڤى بروڤنسال فى كتابه « مؤرخو الأشراف » بالفرنسية ، وآخرون غير هؤلاء .

(١) وقد بدئ بإخراجه بعناية بيت المغرب بالقاهرة ، وصدر منه بالفعل ثلاثة أجزاء عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٣٩ – ١٩٤٢) .

ثبت المراجع

تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الأمم والملوك .

الكامل لابن الأثير (طبع مصر).

تاريخ أبى الفدا.

تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) .

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠) .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

كتاب الأغانى .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (المطبوع بعناية المستشرق آلفارت ، جوتا ١٨٦٠) .

الملل والنحل لأبى الفتح الشهرستانى (على هامش كتاب الفصل لابن حزم) .

الروضتين فى تاريخ الدولتين لشهاب الدين المقدسى (طبع مصر) .

فضائح الباطنية للغزالى (المطبوع بعناية المستشرق جولدسيهر) .

الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى (طبع مصر سنة ١٢٨٦ ﻫ) .

النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) .

المنهل الصافى لأبى المحاسن بن تغرى بردى (مخطوط) .

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل (مخطوط) . ونشر أخيراً محققاً بعناية المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال فى ثلاثة أجزاء (سنة ١٩٥٧ — ١٩٦٠) .

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى .

حسن المحاضرة للسيوطى .

عجائب المقدور فى أخبار تيمور لابن عربشاه (طبع مصر سنة ١٣٠٠ ﻫ) .

وفيات الأعيان لابن خلكان (طبع بولاق) .

أخبار مصر وفتوحها لابن عبد الحكم .
أخبار مجموعة فى فتح الأندلس (مدريد سنة ١٨٦٧) .
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لابن حيان (القسم المخطوط المحفوظ بخزانة القرويين بفاس ، والقسم المخطوط الكبير المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط) .
البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (طبع مصر)
أزهار الرياض للمقرى (الأجزاء الثلاثة طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام (المخطوط والمطبوع) .
الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (مخطوط المتحف البريطانى) .
دولة الإسلام فى الأندلس ، لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الرابعة ١٩٦٩) .
دول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٧٠) .
معجم البلدان لياقوت الحموى .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (طبع مصر) .
الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (المطبوعة بعناية العلامة دوزى) .
رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) .
المسالك والممالك لابن حوقل .
مختصر نزهة المشتاق للإدريسى (طبع رومة سنة ١٥٩٢) .
روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى .
أخبار المهدى ابن تومرت ، لأبى بكر الصنهاجى المنشور بعناية الأستاذ ليفى پروفنسال (باريس ١٩٢٨) .
كتاب محمد بن تومرت ، أوكتاب « أعز ما يطلب » (الجزائر ١٩٠٣) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر)
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ)
عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٦٤ — ١٩٦٥)

الحلل الموشية (طبع تونس) .
خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى (القاهرة ١٢٨٥ هـ) .
المطرب من أشعار أهل المغرب (المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤) .

* * *

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (1932)
Condé : Histoire de la Domination des Arabes en Espagne
Scott : History of the Moorish Empire
Michaud : Histoire des Croisades
Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages
W. Besant & E. H. Palmer : Jerusalem the city of Herod and Saladin.
Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire
Von Hammer : Geschichte der Assassinen
The History and Description of Afirca (by Leo Africanus)
Encyclopédie de l'Islam

فهرست الموضوعات

الكتاب الثالث

تراجم أندلسية

٢ — من أعلام التفكير فى الغرب الإسلامى

الخرائط

فهرست الشعر والشعراء

فهرست الكتب والرسائل

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ب — ث

ج — ز

س — ط

ع — ف

ق — ك

ل — م

ن — ى

فهرست الأعلام

ب — ث

س — ظ

ن — ى

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

كمل طبع الطبعة الثانية من كتاب « تراجم إسلامية ، شرقية وأندلسية بمطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وذلك في اليوم العشرين من شهر رمضان سنة ١٣٩٠ هـ ، الموافق ليوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٠ م

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥٣٧٦

ISLAMIC BIOGRAPHIES

ORIENTAL and MOORISH

By

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. The Petty Kingdoms. The Almoravides and Almohads. Monumentos Moros en Espana y Portugal. Decisive Moments in the History of Islam. etc.

Second revised and enlarged Edition

Publisher : Al - Khangi Bookshop, Cairo

Lajnat - ul - Taalif Press
Cairo — 1970